من روائع الأدب الهندى

قصة الملك و الدراويش الاربعة

إعداد و ترجمة

د. زينب أحمد جاويش



الهيئة المصرية العامة للكتاب




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



من روائع الأدب الهندى

قصة الملك والدراويش الأربعة

ترجمة ودراسة

د. دينا أحمد جاويش



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبد الواحد

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

القسم الأول : الدراسة

القسم الثانى : الترجمة



المقدمة



المقدمة

عنوان هذه الدراسة هو «كتاب باغ وبهار» لمير أمّن الدهلوى ترجمة ودراسة وأول مايقال فى هذا الصدد، أن النثر الفنى فى اللغة الأردية لم ينل من عناية الدارسين المصريين ما ناله الشعر، وهذا ما يدعونا إلى أن نجعل النثر هو موضوع دراستنا هذه، أضف إلى ذلك أننى درست فى رسالتى لنيل درجة الماجستير كتاب «عجائب القصص لشاه عالم الثانى» وهو كتاب نثرى، لذا آثرت أن تكون رسالتى هذه مكملة لمسيرة الكتاب السابق فى مضمار التعرف على النثر الفنى فى اللغة الأردية، وبدراسة الكتابين – إن شاء الله – تكون صورة الأدب الأردى، أكثر وضوحاً لدى القارئ العربى.

وهذا الكتاب ـ موضوع الدراسة ـ يجمع بين دفتيه قصصاً حيكت على ألسنة الدراويش، وتتضمن قيماً إسلامية وأخلاقية وإنسانية، توضح لنا جانبًا من الموضوعات الأكثر رواجًا فى الأدب الأردى.

وهذا البحث ينقسم إلى قسمين: قسم خاص بالدراسة وهو القسم الأول، أما القسم الثانى فهو خاص بترجمة المتن إلى اللغة العربية.

وجاء القسم الأول فى ثلاثة أبواب على النحو التالى :

الباب الأول «يقع تحت عنوان «ميرأمّن الدهلوى بيئته وسيرته» وفى الفصل الأول من هذا الباب تناولت بالوصف فى إيجاز ما أحاط بالمؤلف من ملابسات وأوضاع سياسية

واجتماعية وثقافية، وما كان لهذه الأوضاع من أثر فى أعماق كتابه وأبعاده، وربما كانت السبب فى توفره على كتابة هذا الكتاب.

أما الفصل الثانى فقد تعرضت فيه لحياة المؤلف «ميرأمّن الدهلوى» على قدر ما تيسر لى من معلومات، حيث إن المراجع التى تضمنت وصفاً لحياته شحيحة للغاية، وإن كانت تكفى لعرض صورة لحياته نفسها قدر المستطاع.

وفى الفصل الثالث عرفت بإنتاج «ميرأمّن» الأدبى، حيث أسند إليه كتاب آخر بعنوان «كَنج خوبى» ولكنه أقل شهرة من كتابه «باغ وبهار» لأنه مجرد ترجمة عن الفارسية لكتاب «أخلاق محسنى» لملا واعظ كاشفى سبزوارى، فلا فضل «لميرأمّن» إلا الترجمة، ورأيت أن الترجمة متكلفة مما جعل الأسلوب ثقيلاً، وذلك بخلاف الأسلوب فى كتابه «باغ وبهار».

والباب الثانى بعنوان «كتاب باغ وبهار» ويندرج تحته أربعة فصول، أما الفصل الأول فعنوانه «التعريف العام بالكتاب» فعرفت فيه بالكتاب من حيث تاريخ تأليفه وكيفية إخراجه وطبعاته إلى غير ذلك من الأمور الشكلية.

والفصل الثانى تحت عنوان «باغ وبهار» دراسة موضوعية، قمت فيه بعرض ملخص لمضمون الكتاب وموضوعاته.

والفصل الثالث تحت عنوان «البناء القصصى فى باغ وبهار» بينت فى هذا الفصل الطريقة الفنية التى اتبعها «ميرأمّن» فى البناء القصصى «لباغ وبهار».

أما الفصل الرابع فبعنوان «المغزى فى باغ وبهار» وهذا الفصل يتعرض لأهم الموضوعات التى يدور حولها فكر الكاتب، وأهم الآراء التى يريد تقديمها للقارئ.

والباب الثالث بعنوان «دراسة نقدية لكتاب باغ وبهار» جاء الفصل الأول بعنوان «مصادر الكتاب» وقد حاولت فيه أن أرد هذا الكتاب إلى المصادر التى أخذ عنها أو أفاد منها المؤلف.

والفصل الثانى بعنوان «أسلوب الكتاب» وقد درست أسلوبه على ضوء الخصائص الأسلوبية للنثر الأردى فى تلك الفترة.

والفصل الثالث بعنوان «مكانة باغ وبهار في النثر الأردي» ، وفي هذا الفصل وضحت مكانة هذا الكتاب بين كتب النثر الأردي ، وأشرت إلى خصائصه التي يمتاز بها بين كتب النثر في تلك الفترة .

ثم أنهيت هذا البحث بخاتمة استعرضت فيها ما استطعت التوصل إليه من نتائج بعد البحث والدراسة .

ثم يأتي القسم الثاني من الرسالة لترجمة «كتاب باغ وبهار» إلى العربية ، حتى يكون في متناول القارئ العربي ، وليستطيع من خلاله التعرف على الكاتب من ناحية ، وعلى الأدب الأردي في هذه الفترة من ناحية أخرى .

وبالله التوفيق..



القسم الأول : الدراسة



الباب الأول

ميرأمن الدهلوى : بيئته وسيرته



الفصل الأول

الظـروف البيئـيـة

(سياسية - اجتماعية - ثقافية)



أولا : الحالة السياسية :

لقد سجل «مير أمّن» بنفسه في مقدمة كتابه «باغ وبهار» أن أجداده وآباءه قد عملوا فى بلاط المغول، وذكر صراحة اسم الملك «همايون»[1] كما ذكر «مير أمّن» أيضا أنه عندما أغار «أحمد شاه الإبدالى»[2] على كابل ودمر المدينة، وهرب الملك «شاه عالم» صوب الشرق ولم يعد هناك ثمة ملك أو حاكم، مما أتاح الفرصة للإبدالى بأن ينهب ويسلب ويخرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولذا فر منها «مير أمّن»[3].

ويستخلص مما ذكر «مير أمّن» أن أسرته كانت وثيقة الصلة ببلاط المغول منذ عهد «همايون» وعليه نرى أنه من الأهمية بمكان أن نلقى الضوء على الحالة السياسية إبان حكم المغول للهند منذ حكم ملوكها العظام إلى عصر تدهورها على يد ملوكها الضعاف مما أفضى إلى زوالها، ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى عصرين هما :

أ- عصر القوة :

يعد «بابر» هو المؤسس الحقيقى للدولة المغولية فى الهند، ولد فى ١٦ من محرم ٨٨٨هـ/ ١٤ من فبراير ١٤٨٣م[4] وقد تأتى لـ«ظهير الدين بابر» فى عام ٩٣٣هـ/١٥٢٦م أن يسيطر على السند والبنجاب بقلة من جنوده، وذلك بعد تمكنه من هزيمة «اللودهيين» عند «بانى بت» شمالى دهلى وتربع على عرش الهند فى «آجرا» فى شهر رجب من نفس العام، وقبيل وفاة «بابر» عام ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م استطاع أن يسيطر على معظم أرجاء الهند فى خلال خمس سنوات فقام بتأسيس دولة المغول وانتصر على «الراجبوت» وواجه ثورات الأفغان وقام بمطاردتهم حتى حدود «البنغال وبيهار»[5].

وعلاوة على مقدرة «بابر» العسكرية والسياسية فقد كان شغوفًا بالآداب، وقد كتب خواطره بقلمه وبدت شخصيته واضحة من خلال كتابه «بابرنامه» الذى طبقت شهرته الآفاق وترجم إلى لغات عدة(6).

ثم خلف «بابر» على العرش ابنه «همايون» فواجه الكثير من المصاعب حتى استطاع الأمير الأفغانى «شيرشاه السورى» أن يرغمه على الفرار من الهند فى العاشر من المحرم سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م وقد توجه فى البداية إلى «السند» ومنها إلى «إيران»(7).

ولم يستطع «همايون» العودة إلى بلاده ثانية وتنظيم صفوفه إلا بعد خمسة عشر عاماً بمعاونة الشاه «طهماسب الصفوى»(8) فهزم خليفة «شيرشاه» وبانتهاء حكم الأفغان السوريين، انتهى حكم السلاطين فى الهند بعد أن دام من عام ٦٠٢هـ/١٢٠٦م إلى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م ودخلت الهند كلها تحت راية ملوك المغول، وقد توفى «همايون» فى العام التالى، وتم دفنه فى المقبرة التى سبق أن أعدها بنفسه والتى تعد واحدة من عجائب الدنيا(9).

وبعد وفاة «همايون» اعتلى العرش ابنه «جلال الدين أكبر» وكان ذلك فى عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م، وقد انتصر على أعداء الدولة واستطاع أن يفتح معظم بلاد الهند، فقام بفتح قلعة «جنور» وضم «راجبوتانا» واتجه إلى «كجرات» وطهرها من أعدائه وذلك عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م، واستطاع أن يضم إلى ملكه بلاد السند وقندهار، وبذلك أصبحت مملكته من الاتساع بحيث شملت الهند كلها، عدا الطرف الجنوبى من شبه القارة(10).

وكما استطاع «أكبر» أن يقر شئون الملك السياسية ويوسع رقعة الدولة، فقد نجح فى تدبير شئون البلاد، فأعاد تنظيم جباية الخراج؛ بحيث يحسب الخراج على أساس خصوبة الأراضى، كما يبدو ذلك من كتاب «آئين اكبرى»(11) وقام بالدعوة إلى دين جديد أسماه الدين الإلهى وذلك بعد أن قام بدراسة مستفيضة لمختلف المذاهب والأديان، وكان هدفه من وراء ذلك التوحيد بين أهل الهند(12) كما اشتهر بتشجيعه للعلوم والفنون والآداب، وقد استحدثت اللغة الأردية فى ذلك العهد.

كل هذا دليل على أن هؤلاء الملوك لم يكونوا سلبيين فى حكمهم بل واجهوا ما واجهوا من شدائد واضطروا إلى مجابهة العنف بالعنف، فلم يرثوا العرش كابراً عن كابر فقط، بل ورثوا عرشا تزلزله الشدائد وتحيط به المخاطر من كل جانب، فخاضوا غمار هذه المخاطر

وكان لهم الفضل فى التغلب عليها إضافة إلى أنهم أصحاب شغف بالأدب، والملك الشغوف بالأدب ورعاية أهله لاشك ملك يفضل سواه، لأن الأدب الرفيع فى أى عصر أمارة على التحضر والرقى.

ثم أسند الملك بعد ذلك إلى «جهانجير» فى جمادى الآخرة ١٠١٤هـ/ أكتوبر ١٦٠٥م وقد نهج منهج والده فى حسن معاملة الهنادكة وحرصه على العدل إلا أنه تخلى عن الدين الذى روج له والده، وعاد إلى التمسك بأهداب السنة[١٣] وكان لتدخل زوجته «نورجهان» أثر كبير فى توجيه سياسة الدولة وما وقع فيها من فتن وحروب، وتوفى «جهانجير» فى ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م ودفن فى لاهور، ومن بعده آثرت الملكة «نورجهان» الزهد فى الحياة العامة وانصرفت عن الحياة إلى عيشة خاصة هادئة، إلى أن وافاها أجلها ودفنت إلى جوار زوجها فى لاهور[١٤].

وهنا نلحظ أن المرأة فى الهند كانت مشاركة فى توجيه سياسة الدولة، أما انصراف «نورجهان» عن الدنيا بعد وفاة زوجها، فهذا ما يجرى مجرى المعتاد فى الهند فالزوجة بعد وفاة زوجها تتوارى بعيداً عن الحياة الاجتماعية حداداً عليه.

وخلف «جهانجير» ابنه «شاهجهان» الذى كان منفياً فى الدكن لجفوة وقعت بينه وبين أبيه، وعندما بلغه نعى والده بادر بالعودة إلى «آجرا» حيث اعتلى العرش هناك بعد أن خلا له الجو[١٥]، وقد تزوج «شاهجهان» من «ممتاز محل» التى أنجبت له أربعة من البنين هم: «اورنجزيب» «دارا شكواه» «مراد» و«شجاع»[١٦] وقد عمل «شاهجهان» على توطيد نفوذ الدولة فى «الدكن» فتمكن من السيطرة على «أحمد نجر» و«بيجابور» و«جولجنده»[١٧] وقد كان حاكماً قديراً بلغت الدولة فى عهده أوج رقيها، وقد ترسم خطى جده وأبيه فى تدبير أمور الملك، واتسم بالحزم والعزم وكان لا يتردد فى إنزال العقاب الرادع بمن يراه يتراجى فى تحقيق العدالة[١٨].

ويعد «شاه جهان» عملاقاً بآثاره الفنية الرائعة ذات الذوق الفنى الرفيع فقد ازدانت الهند فى عهده بالمنشآت المعمارية الفخمة التى مازالت حتى اليوم، ومن هذه الآثار المسجد الجامع فى دهلى ومقبرة «تاج محل» فى «آجرا»، كما بنى القلعة الحمراء لسكناه، وقد سميت بهذا الاسم لأنه بنى سورها من الحجارة الحمراء[١٩].

وقد توفى «شاهجهان» عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م، لكنه فقد عرشه قبلها بسبب رغبته فى إسناد ولاية عهده إلى ابنه الأكبر «دارا شكوه» ونشوب صراع كبير بين أبنائه الأربعة تمكن خلاله ثالثهم «اورنجزيب» من الانتصار على إخوته وتولى عرش الدولة المغولية، وكأنما ساقته العناية الإلهية ليكون حاكماً فذاً ويصبح على امتداد التاريخ مثالاً طيباً، للملك المسلم الذى يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة. وقد حكم «اورنجزيب عالم عالمجير» الهند من ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م وحتى ١٠٨٦هـ/١٧٠٧م، واستطاع خلال هذه الفترة أن يقمع ثورات وتمرد «المراهتا» وترتب على ذلك إنزال الخراب والدمار بأراضيهم وتوقف التجارة بها، وتعاقبت حروبه معهم لمدة ستة وعشرين عاماً وفى الجنوب استطاع كذلك أن يضم مملكتى «بيجابور وجولجنده» فى الدكن[٢٠] وبلغ الإسلام فى عهده إلى أرجاء لم يصل إليها من قبل، وبذلك بسط المسلمون سيادتهم على شبه القارة الهندية برمتها، وقد عرف «اورنجزيب» بتمسكه الشديد بالإسلام والسنة وحبه الشديد للبر، وتعمير المساجد كما كان مولعًا بالعلم، فألفت بإشرافه موسوعة هامة فى الفقه الحنفى تعرف بـ «فتاوى عالمجيرى»[٢١].

وبوفاة «اورنجزيب» فى عام ١٠٨٦هـ/١٧٠٧م إنتهى عصر المغول العظام، واتجهت الدولة نحو الضعف والانهيار، وبذلك بدأ عهد جديد من تاريخها، استمر رغم ذلك الضعف حتى عام ١٢٣٦هـ/١٨٥٧م.

ويؤخذ مما سبق ذكره أن دولة المغول قامت بفضل ملوك عظام لهم بصر بالسياسة، وقدرة على النظر فى عواقب الأمور، وقوة يقهرون بها من يعاديهم وينازعهم فى ملكهم، كما أنهم كانوا مصلحين يلقون بالاً إلى رخاء الرعية، ويقفون عند حدود الدين الحنيف فى حكمهم، وكانوا كذلك يرعون جانب العلماء والأدباء، ومنهم من كان أديبًا مرموق المنزلة وأقاموا العمائر التى مازالت آثارها ماثلة وبذلك يكون العصر الأول عهد خصب ورخاء وعهد بناء لدولة استطاعت أن تمكن لنفسها فى أراضى الهند الشاسعة ولهذا أطلق على هذا العصر الأول عصر القوة، ولكن دوام الحال من المحال فقد تلت هذه الحقبة من المجد والقوة، حقبة أخرى من الضعف والتدهور.

ب - عصر الاضمحلال :

اعتلى عرش الهند خلال الاثنى عشر عاماً التى أعقبت وفاة «اورنجزيب» خمسة ملوك، وقد احتدم الصراع على العرش، وانفصلت عن «دهلى» أهم أجزاء الدولة[٢٢].

فما أن توفى «اورنجزيب» حتى أعلن ابنه «بهادر شاه» نبأ توليه العرش فحاربه أخواه مما اضطره إلى القضاء عليهما(٢٣).

وقد شهدت فترة حكم «بهادر شاه الأول» العديد من الحروب والثورات الداخلية التى قامت بها طوائف الهند المختلفة.

وبعد وفاة «بهادر شاه» فى لاهور سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م نشب الصراع مرة أخرى بين أبنائه على تولى الحكم، والذى انتهى باعتلاء ابنه الأكبر «جهاندار» العرش فى مارس من نفس العام(٢٤).

وكان «جهندار» أول ملوك الأسرة المغولية الذى غلب عليه الميل إلى حياة اللهو والمجون، وأبعد ذوى الخبرة عن البلاط إلى أن حضر ابن أخيه «فرخ سير» من «بتنه» وقام بقتله.

وهنا نلحظ كيف تفككت الأواصر بين ذوى القربى فى الدولة المغولية. وهذا نذير ضعف وتدهور لاشك فيه قياساً بما كان من اتحاد بين أفراد هذه الأسرة فى العصر الذى سميناه عصر القوة.

ودخل «فرخ سير» دهلى ملكا فى ١١٢٥هـ/١٧١٣م، وقد أدى الانقسام بين رجال بلاطه إلى استعانة كل شخص بإحدى طوائف الهند، وحينما شعر «فرخ سير» بأن الزمام بدأ يفلت من يده حاول القضاء على نفوذ رجال البلاط، إلا أن أحدهم ويدعى «الشريف حسين» استطاع أسره فى ربيع الأول ١٠٩٨هـ/١٧١٩م ثم كانت وفاته فى أبريل من نفس العام(٢٥).

واعتلى ابنه «شمس الدين رفيع الدرجات» العرش بعد «فرخ سير» إلا أنه كان معتل الصحة، فقضى مدة حكمه القصيرة وهى ستة أشهر على فراش المرض.

وخلفه «رفيع الدولة شاهجهان الثانى» تسلك طريق الاستسلام والخنوع، إلا أن الموت لم يمهله إلا ثلاثة أشهر فقط، ولا نعرف له إنجازاً يذكر، ومعلوم أن ملكاً هذا شأنه لا يرجى منه نفع ولا يتوقع منه سلوك يقوم الاعوجاج ويصلح الفساد لأنه كان سلبياً بمعنى الكلمة.

وخلفه ابنه «محمد شاه» وتولى الحكم مدة تسعة وعشرين عاماً(٢٦)، فى عهده تعرضت الهند لغزو «نادر شاه الأفشارى» و«أحمد شاه الأبدالى»(٢٧).

وبعد وفاة «محمد شاه» ١١٦٠هـ/١٧٤٨م خلفه على العرش ابنه «أحمد شاه» الذى حيكت حوله الدسائس والمؤامرات والخلافات، فعاش حياة مضطربة عاصفة، كما كانت عاقبته أليمة مفجعة، فقد قبض عليه أحد القواد وسمّل عينيه وأجلس مكانه على العرش «عالمجير الثانى» عام ١١٦٧هـ/١٧٥٤م وقد وقع «عالمجير الثانى» فى قبضة «المراهتا» وفر ولى عهده «شاه عالم الثانى» إلى الشرّق.

وبعد وفاة «عالمجير الثانى» وانتصار «الأبدالى» فى حروبه ضد «المراهتا» أقام ابن «شاه عالم الثانى» وهو «جوان بخت» مكانه، وكان «شاه عالم» فى البنغال حين ذلك.

وقد عاد «أحمد شاه» إلى أفغانستان بعد أن أبقى له قواداً ونواباً فى دهلى، وتوفى فى عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م، وظل «شاه عالم الثانى» بعيداً عن دهلى عدة سنوات، فكان ملكه نهباً للثورات والإغارة من كل الأنحاء، وعادت قوة «المراهتا» إلى الظهور على يد قائدهم «مادهوجى» الذى زحف على دهلى واستولى عليها، وأعاد «شاه عالم» وولاه السلطة وقد عينه «شاه عالم» أميراً للجيوش كلها وأصبحت امبراطورية المغول فى كفالته(٢٨).

وكان «شاه عالم» يرغب فى استرداد البنغال من الإنجليز(٢٩) بمساعدة الأمراء المسلمين، فدارت بينهم عدة حروب، انتهت بانتصار الإنجليز فى «بكسر» سنة ١١٤٣هـ/١٧٦٤م، مما اضطره إلى أن يتنازل لهم عن البنغال وبيهار واوريسه على أن يأخذ الخراج وقيمته مليونان وستمائة ألف روبية، ثم قام أحد القواد وهو «غلام قادر روهيلا» بالانتقام منه لأنه أسره وهو طفل وخصاه وقتل أسرته، فسمل عينيه مما أفقده كل كيانه كسلطان للهند.

وحين قضى «شاه عالم» نحبه عام ١٨٠٦م، خلفه ثانى أبنائه «أكبر شاه الثانى» ليقضى حياته فى الدعة والخمول، مما شجع مدير الشركة الهندية «اللورد هستنجز» على أن تصدر أوامر شركته ونشراتها بدون أمر السلطان، ولم يكتف بذلك بل حرض «نواب أودهـ» على أن ينادى بنفسه سلطاناً للهند(٣٠).

وخلف «أكبر الثانى» ابنه «بهادر شاه الثانى» عام ١٨٣٣م ليعيش على الراتب الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه.

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى التى يعرفها البريطانيون بثورة الجنود أو «العصيان» عام ١٨٥٧م، انتهت أيام «بهادر شاه» على عرش الهند، وطويت صفحة الامبراطورية المغولية امبراطورية أبناء وأحفاد «تيمورلنك» بالهند كلها.

ومن هنا نلحظ بما لا يحتمل شكاً كيف دب الضعف فى الدولة المغولية، وكان مبعث هذا الضعف، هو ضعف ملوكها الذين لم يكن لهم حول ولا طول، وشتان بينهم وبين أسلافهم الذين أقاموا دولتهم على أساس مكين ووطدوا دعائمها بحزمهم وعزمهم.

أسباب انهيار دولة المغول فى الهند :

كان عهد «اورنجزيب» هو العصر الذهبى لدولة المغول بالهند، فقد كانت الهند فى عهده مزدهرة قوية ذات سيادة ترهب جانبها الدول المجاورة، لكن ذلك العهد لم يدم طويلا فبمجرد وفاة «اورنجزيب» جنحت إمبراطورية المغول صوب الانهيار، وفقدت كثيراً من أملاكها وحيث استولى بعض قادة الجيش على الإمارات وأقاموا فيها دويلات واستغلت طوائف الهند المختلفة الفرصة أحسن استغلال وانقضت على كيان الدولة تنهشه من أجل مصالحها الخاصة، وبدأت الدولة فى الانهيار، وقد ساعدت عدة عوامل على هذا الأمر، مما عجل بسقوطها وأهم هذه العوامل هى:

أ. عوامل داخلية :

وقد تمثلت أهمها فى الصراعات بين طوائف الهند المختلفة والتى خرجت على حكومة المغول، رغبة فى النفوذ والسلطة، وهذه الطوائف هى:

١ - السيك (السيخ) :

كانت أول مرة تظهر فيها هذه الطائفة على مسرح الأحداث السياسية فى عهد «شاه عالم بهادر شاه الأول» ١٠٨٦هـ/١٧٠٧م إلى ١٠٩٠هـ/١٧١١م. وكانوا فى البداية جماعة صوفية؛ ولكن ما لبثت أن تحولت دعوتهم تحولا تدريجياً من مجرد دعوة دينية صوفية إلى دعوة مسلحة، ومنذ عهد «بهادر شاه» دبت العداوة بينهم وبين المسلمين. وقد ظل العداء مستحكما بين المسلمين والسيك على مر الأيام، وقد عانى منهم ملوك المغول طوال فترات حكمهم، فتارة تقضى عليهم الدولة وتكسر شوكتهم وتارة أخرى ينهضون ويتمردون عليها(٣١).

٢ - المراهتا :

لقد ارتفعت راية المراهتا وزاد قدرهم فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى، وقاموا بأداء أهم الأدوار فى الهند فى تلك الفترة تحت قيادة قائدهم العظيم «شيواجى»(٣٢) الذى انتهز

فرصة انشغال «اورنجزيب» بأمر إخوته وصراعهم على الملك، وأخذ يهجم على أماكن متعددة، وقد ظلت الدولة مشغولة بأمر «شيواجى» عدة سنوات حتى تم الصلح بينه وبينها.

وقد كانت شوكة المراهتا تقوى حيناً وتتكسر حيناً آخر فقد كانوا قوماً محبين للقتل والتخريب ولا تكاد تسنح لهم الفرصة فى الانقضاض على ملك المغول حتى ينتهزوها ويستغلوها أسوأ استغلال. وظلت دولة المغول تعانى منهم حتى سقوطها وانهيارها.

٣ - الراجبوت :

بدأ ذكر هذه الطائفة منذ عهد الملك أكبر ٩٣٥هـ - ١٥٥٦م حتى ١١١٤هـ - ١٦٠٥م حيث ناوأت هذه الطائفة الدولة المغولية وأصبحت مصدر إزعاج لأكبر، وكانت سبباً أيضاً فى القلق والاضطرابات فى عهد «جهانجير» ٩٨٤هـ-١٦٠٥م حتى ١٠٠٦هـ-١٦٢٧م، وفى عهد اورنجزيب ١٠٨٦هـ - ١٧٠٧م تم فرض الجزية على الهنود من غير المسلمين من جديد بعد أن ظلوا يعفون من دفعها قرابة قرن ونصف القرن وقد أدى هذا إلى شدة غضبهم فسير الملك «اورنجزيب» حملة بقيادة ابنه الأكبر لغزو إمارتهم وضمها إلى أملاك الدولة(٣٣).

واستطاع «اورنجزيب» فى النهاية أن يقضى على قوة الراجبوت وبذلك قضى على مورد قوى من موارد القوى التى طالما ساندت الدولة فى حروبها. وبدأ بناء الدولة يتصدع من جراء ذلك.

٤ - الجات والستناميون :

أدت السياسة التى انتهجها «اورنجزيب عالمجير» فى تدميره لمعابد الهنادكة وأماكنهم المقدسة وإقامته مساجد للمسلمين على أنقاضهم إلى تذمرهم. فثار الجات (الزط) ثورة عارمة عند «ماتهوا» واستطاع زعيمهم «جكال» أن يقتل نائب السلطان فى تلك المنطقة ويستولى على أراضى «سعد آباد» ورغم سقوط هذا الزعيم ومقتله إلا أن قومه راحوا يجنحون إلى التمرد والعصيان من آن إلى آخر حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة بعد عهد «اورنجزيب» وجاءت ثورة «الستناميين» على إثر ثورة «الجات». وكان السبب فى ثورتهم هو اعتداء بعض الجند على طائفة منهم دون أى سبب، فزحفت جموعهم من «نارنول» عند «موات» تخرب ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب فى المدن والقرى حتى بلغت مشارف دهلى، ولم يتأت للسلطان القضاء عليهم إلا بصعوبة(٣٤).

وقد كان تمرد هذه الطوائف وعصيانها سبباً لإشاعة الفتن والثورات فى البلاد مما أدى إلى تفككها وضعفها ثم انهيارها فى النهاية.

ب - عوامل خارجية :

١ - الغزو الفارسى :

قام «نادر شاه الأفشارى» بغزو الهند فى عهد الملك «محمد شاه» الذى تولى الحكم فى ١٠٩٨هـ/١٧١٩وقد كان أسيراً لملذاته وشهواته، وكان جنوده على شاكلته.

وبعد أن تم «للنادر شاه» فتح «أصفهان» أرسل عدداً من السفراء إلى «دهلى» طالبًا من «محمد شاه» أن يجدد علاقاته الطيبة معه ويحول دون غزوات الأفغان على الأراضى الهندية، إلا أن «محمد شاه» لم يستجب له، وفى آخر مرة قام باعتقال سفير «نادر شاه» فى «دهلى» لمدة عام دون وجه حق(٣٥).

ومع بدايات عام ١٠٢٠هـ/١٦٤١م علم «نادر شاه» بعدم عودة سفيره فغضب غضباً شديداً، وأرسل أوامره إلى دهلى لإعادة السفير إلى إيران على وجه السرعة إلا أن «محمد شاه» رد على رسائله دون اكتراث وتحرك صوب «جلال آباد» وبعد أن استولى على معابر شمال غرب الهند، دخل مقاطعة «البنجاب» فى رمضان ثم تحرك صوب «دهلى»، وفى ١٥ من ذى القعدة ١٠٢٠هـ/١٦٤١م تمكن «نادر شاه» بسهولة من هزيمة جيش «محمد شاه» وكان عدد القتلى من الهنود عشرين ألفًا، بينما كان عدد القتلى من جيش «نادر» اثنين واربعين، والجرحى مائتين فقط، ويرجع ذلك إلى أن مقاتلى الهند كانوا يحاربون بالسهام والأقواس، وكان الإيرانيون يقاتلون بالبنادق(٣٦).

وبعد فترة قامت بعض الاضطرابات والفتن بين الأهالى قتلوا فيها بعض جنود «نادر شاه» الذى ما أن علم بمقتل سبعمائة شخص من أتباعه، حتى أصدر أوامره لأحد الأمراء

بإباحةالقتل العام فى دهلى، وفى النهاية ونزولاً على رغبة «محمد شاه» أمر «نادر شاه» بوقف المذابح والعفو عن بقية الأهالى(٣٧).

ثم عاد «نادر شاه» إلى إيران، بعد أن ترك جسد الدولة المغولية مثخناً بالجراح وأسباب الضعف والانهيار تسيطر عليها.

٢ـ الغزو الأفغانى:

وقد قام به «أحمد شاه الأبدالى أو الدارنى»، وقد غزا «أحمد شاه» الهند مرتين، وقام بتخريب دهلى أول مرة فى يناير سنة ١٧٥٧م، حيث توجه من «كابل» إلى «البنجاب» فى خريف سنة ١٧٥٦م، ووصل جزء من قواته إلى «لاهور» فى ١٤ أكتوبر، واستولى عليها بعد إخراج الحاكم المغولى «آدينه بك»، ووصل «أحمد شاه» بنفسه إلى لاهور فى ٢ من ديسمبر ١٧٥٦م وقد عسكرت القوات الإبدالية بالقرب من «سرهند» فى (١٠ من يناير ١٧٥٧م، وبعد يومين توجهت مقدمة الجيش الإبدالى بقيادة «جهان خان» إلى «بانى بت»(٣٨).

فى هذا الوقت كانت دهلى تحت حكم «عالم جير الثانى» من سنة ١٧٥٤م إلى ١٧٥٩م، لكن السلطة الحقيقية المطلقة كانت للوزير «عماد الملك» وعلاوة على ذلك كان «شجاع الدولة» يحكم فى «أودهـ»، ونجيب الدولة فى «الدوآب» و «وسورج مل جات» يحكم من «على كرهـ» إلى «بهرت بور» حكمًا مستقلاً. وبالرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا تابعين لدولة المغول، لكنهم يحكمون حكماً مطلقاً فى مناطقهم بالإضافة إلى أن القوة المراهتية كانت فى أوجها فى الدكن. وفى دهلى كان الملك المغولى العوبة فى يد المراهتا، وعندما سمع عماد الملك أن قوات «أحمد شاه الإبدالى» قد وصلت إلى «بانى بت» خاف وطلب العون من «نجيب الدولة» الذى طلب مقابلا لإرسال قواته لمساعدة «عماد الملك» إلا أنه لم يستطع أن يؤديه(٣٩) له فطلب عماد الملك المدد والعون من «سورج مل جات»، لكن «سورج مل جات» أيضاً لم يعده بالمساعدة، لأنه قبل أربع سنوات فى ١٧٥٣م عندما تحارب «صغدر جنك» ضد الملك المغولى أحمد شاه فى دهلى ساعد «سورج مل» «صغدر جنك». ومنذ ذلك الحين وعماد الملك يتعقب «سورج مل»، إلا أن الأحوال قد تغيرت بحيث إن عماد الملك الذى كان يتعقب «سورج مل» بدأ يطلب منه المدد والعون، وعندما يئس عماد الملك من «سورج مل» طلب المساعدة من «شجاع الدولة»، لكنه يئس منه أيضاً. وكلما بدأ خبر تقدم القوات الإبدالية

إلى دهلى ينتشر أخذ صاحبو الاعتبار والحيثية فى التقهقر من العاصمة، وخاف «عماد الملك» فطلب من القائد المراهتى «أنتاجى منكيشور» أن يأتى من «جواليار» إلى «دهلى» بقواته ليمنع الفارين. فبدأ المراهتيون فى الاستيلاء على أمتعة الفارين وإعادتهم إلى دهلى، وبالرغم من ذلك وصل عدد كبير من الناس إلى «متهرا» والمناطق المحيطة بها(٤٠). وفى أثناء ذلك كان عماد الملك يتفاوض مع أحمد شاه إبدالى من أجل الصلح، وقدم أيضا هدية قدرها مائتى ألف روبية. لكن سفير أحمد شاه إبدالى ذهب برسالة إلى عماد الملك مضمونها أنه لا يقبل أقل من مليونى روبية، وطلب الإبدالى أيضًا أن يتزوج بنت الملك المغولى «عالمجير الثانى»، وقبل قبول هذه الشروط لن يرجع عن «بانى بت».

وعندما سمع سكان دهلى هذه الشروط زاد عدد الفارين من هناك، وأخيراً وفى ١٩ من يناير ١٧٥٧م وصل «عماد الملك» بنفسه إلى الإبدالى ليتفاوض معه، لكن الملك الأفغانى قبض عليه وعين حليفه السابق «انتظام الدولة» وزيراً لسلطنة المغول، ودخلت مقدمة الجيش الأفغانى فى ٢١ من يناير إلى دهلى عابرة نهر «جمنا». وبعد يومين وصل أحمد شاه إبدالى بنفسه بالقرب من دهلى «وزير آباد» وأمسكت قواته بزمام الأمور بالقلعة بعد دخولها «شاه جهان آباد». ونقل «عالمجير الثانى» وأفراد أسرته الملكية من قصورهم إلى القلعة، ودخل «عالمجير الثانى» مع بقية أمرائه فى ٢٦ من يناير على أحمد شاه إبدالى(٤١).

وبعد يومين وفى ٢٨ من يناير ١٧٥٧م توجه أحمد شاه إبدالى راكبًا كفاتح إلى القلعة الحمراء وذهب «عالمجير الثانى» إلى مسجد فتح بورى «لاستقبال الإبدالى وذهب به إلى القلعة الحمراء وطلب أحمد شاه إبدالى بعد دخوله القلعة من الوزير الجديد انتظام الدولة مليونى روبية وعندما عجز انتظام الدولة عن الوفاء بهذا المبلغ بدأت القوات الإبدالية فى نهب أموال دهلى بطريقة منتظمة حيث قسمت المدينة إلى العديد من الأجزاء، وفرضت الغرامات على كل بيت فى المنطقة؛ وعينت القوات لجمع هذه الغرامات، وقد استمرت أعمال السلب والنهب طوال شهر فبراير(٤٢).

وتوجه «تيمور شاه» ابن أحمد شاه الإبدالى الذى تزوج بنت عالمجير الثانى إلى أفغانستان مع هذه الأموال. وقبل مغادرة دهلى عزل الإبدالى «انتظام الدولة» من الوزارة وعين مكانه «عماد الملك» مرة ثانية، لكن السلطة الفعلية لدولة المغول كانت لنجيب الدولة الذى عين قائداً أعظم.

وعندما غادر الإبدالى دهلى فى ٢١ من فبراير١٧٥٧م اتجه بعض سكان العاصمة إلى منطقة «سورج مل جات» فراراً من دهلى، ومن ناحية أخرى كان صيت الأموال الهائلة لسورج مل قد وصل إلى اقصى الأماكن. ولعل هذا هو السبب الذى جعل أحمد شاه الإبدالى بعد ذلك ينهب مناطق أملاك «سورج مل» فتعرضت «متهرا بلب كرهـ» و «رندابن» و «كوكل» لعدة حملات إبدالية الواحدة تلو الأخرى.

ورجع أحمد شاه إبدالى إلى الهند بعد النهب والسلب فى مناطق الجات ومعه غنائم كثيرة قدرت ما بين ثلاثة إلى اثنى عشر مليون روبية(٤٣).

وفى ٢٤ من ديسمبر ١٧٥٩م وقعت الحرب الأولى بين الإبداليين والمراهتيين بالقرب من «تهانسير»، وقد هزم فيها المراهتيون هزيمة نكراء، وتقدم أحمد شاه إبدالى إلى دهلى. ووقعت المعركة الثانية بين الإبداليين والمراهتيين بالقرب من دهلى فى ٩ من يناير ١٧٦٠م وقتل فيها القائد المراهتى، وتشتت القوات المراهتية.

ورغم هزيمة المراهتيين المرة تلو الأخرى على يد الإبدالى فقد أبوا أن يستسلموا ببساطة وتقدم القائد المراهتى «سراشيو بهاؤ» مع قوات ضخمة إلى الشمال فهاجمت هذه القوات فى ٢٢ من يوليو ١٧٦٠م دهلى فتواجهت القوات الإبدالية والقوات المراهتية فى ميدان «بانى بت» فى ٢٥من أكتوبر ١٧٦٠م وحتى ١٤ يناير ١٧٦١م(٤٤).

وأثناء ذلك سارعت القوات المراهتية بطلب الصلح إلا أن أحمد شاه الإبدالى رفض عرضهم، وأخيراً وقع االقتال بين الإبداليين والمراهتيين فى ١٤ من يناير ١٧٦١م هزم فيها المراهتيون هزيمة ساحقة وقتل أهم قوادهم وفر باقى القواد من أرض المعركة خوفًا على حياتهم وقام أهل قرية (بانى بت) بنهب المراهتيين. وقد دخل أحمد شاه الإبدالى إلى القلعة الحمراء فى دهلى كفاتح مرة أخرى. وأقام هناك حتى العشرين من مارس ١٧٦١م، وفى تلك الفترة أعملت قواته السلب والنهب فى المدينة وقتل الكثير من أهالى دهلى، وعين أحمد شاه الإبدالى قبيل مغادرته عماد الملك مرة أخرى وزيراً لسلطنة المغول كذلك قام بتعيين نجيب الدولة فى وظيفة القائد العام للجيش ووظيفة «مير بخش» وفى ذلك الوقت كان عماد الملك عند «سورج مل جات» وقبل عودته إلى دهلى أمسك نجيب الدوله بزمام الأمور كلها فى يده وظل فى الحكم بمفرده منذ ذلك الحين تقريبًا وحتى وفاته فى ٣١ من أكتوبر

١٧٧٠م واضطر «عماد الملك» أن يمد يد الحاجة والعون إلى «سورج مل جات» لكن الثانى لم يقدم له من العون ما يذكر[٤٥].

وهكذا نجد أن أحمد شاه الإبدالى دخل أول مرة دهلى فى يناير ١٧٥٧م كفاتح وبعد أربع سنوات بالضبط وفى يناير ١٧٦١م فتح دهلى مرة ثانية ودخل القلعة الحمراء وقد تعرض أهل دهلى فى هذا العهد لشتى أنواع المصائب على يد ذويهم من الطوائف الأخرى وكذلك على يد الغرباء فهاجروا فارين بحياتهم وقد أجهز «سورج مل جات» على ما تبقى من جراء هجمة الإبداليين بعد عودتهم إلى بلادهم، واستمرت هذه المصائب والمشاق غير المتناهية حتى وفاة سورج مل ١٧٦٣م[٤٦].

أما عن الغزو الأفغانى الثانى الذى قام به أحمد شاه الإبدالى فسوف أتناوله بالتفصيل فى الفصل الخاص بحياة المؤلف ميرأمّن الدهلوى، حيث كان لهذا الحدث تأثير مباشر على أحداث حياته.

ثانيا: الحالة الاجتماعية إبان حكم المغول:

إن ما كتبه «بابر» فى كتابه «توزك بابرى» عما شعر به تجاه أهل شبه القارة الهندية يدل على أن الناس كانوا لا يعرفون الطريقة المُثلى لإدارة الحديث، وليس لديهم بروتوكول خاص فى إدارة حياتهم الاجتماعية.

ولا يمكن أن نذكر إلى أى حد صدق «بابر» فيما كتب، لكن الحقيقة أنه بعد مجيىء المغول إلى شبه القارة الهندية حدث اهتمام شديد بمثل هذه الأمور فتعارف الأمراء والناس كذلك على الألقاب الملكية وكذا آدابها.

ولقد كان كل سلاطين المغول وأمرائهم وأميراتهم يرعون العلم والأدب والفن والموسيقى، وكان بلاطهم فى أبهى جماله وهيبته ووقاره وأعمالهم العمرانية والعلمية العظيمة فى ذلك الوقت دليلاً على رقى المجتمع ورفاهيته فى عهدهم[٤٧].

فلقد كان المجتمع من الناحية العلمية مقسمًا على عدة طبقات، فالطبقة العليا خاصة بالسلطان والأمراء والأميرات وحرم السلطان وما إلى ذلك، أما الطبقة الثانية ففيها «الراجوات» والوزراء، وكان السلاطين يختارون الوزراء بأنفسهم طبقاً لشجاعتهم ومواهبهم.

أما الطبقة الثالثة فهى التى كانت تشمل التجار والصناع والأساتذة والأطباء والفنانين والمعماريين وغيرهم، أما الطبقة الرابعة فتشمل الفلاحين وفيها العمال والعبيد أيضاً.

وكان على رأس المجتمع الملك الغولى، وكان الأمراء والعوام على السواء ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير. وكان الواجب على السلطان أن يرعاهم ويعمل على رفاهيتهم، وقد عملت الغالبية العظمى من السلاطين المغول على تنفيذ ذلك وقاموا بأعمال عظيمة كثيرة كانت فى غاية الضرورة فى ذلك الوقت(٤٨).

ولقد كان السلطان وباقى أفراد الطبقة العليا من المهتمين بالعلوم والفنون والموسيقى؛ فكان بلاط االسلطان يزخر بهؤلاء جميعًا، كما كان السياح الأجانب والسفراء يحضرون إلى البلاط كذلك، وكان البلاط المغولى يتميز بقمة الهيبة والوقار كما كان مزيناً ومزخرفاً بشكل جميل. وقد جعل «شاهجهان» عرش الطاووس زينة للبلاط، كما كانت الأصول والآداب الملكية تراعى بصرامة، كما كان يوجد ميل كبير للتمدن والنظام، وقد أثرت حياة القصور على المجتمع بشكل طيب(٤٩).

وقد ذكر السائح الأسبانى «منريف» المجتمع المغولى قائلاً لقد أذهلنى أن أرى هذا التمدن وهذا النظام».

وقد مدح السائح الألمانى «مينت سلو» الذى كان قد حضر إلى الهند فى عهد شاهجهان العادات والتقاليد والآداب والرسوم المهذبة الموجودة فى شبه القارة(٥٠).

أما حياة الطبقة المتوسطة فكانت تقوم على الاعتدال وكان أسعد الناس حالا فى هذه الطبقة هم التجار وذلك نتيجة رواج التجارة المحلية والعالمية إلا أنهم لم يظهروا تلك الرفاهية حتى لا يبتزهم بعض الموظفين المرتشين(٥١).

وكان العوام مطمئنين ويعيشون حياة هادئة، وكان أكثر الفلاحين من الهنادكة ونتيجة لكثرة الأراضى عاش الفلاحون عيشة ميسورة وكانت الضرائب ترفع عن كاهلهم فى حالة خراب المحاصيل، وفى أيام المجاعات كان السلطان يساعدهم بأقصى ما يستطيع. وقد حدث فى عهد السلطان «شاهجهان» قحط فى عام ١٦٣٢م فساعد «شاهجهان» العوام كثيراً وعمل على تأمينهم من الضياع وأمد الفلاحين بكل ما يحتاجون(٥٢).

العلاقات بين الهنادكة والمسلمين:

لقد كان أكثر سلاطين المغول يتميزون بسعة الصدر وقد عمل «أكبر» على محو التعصب الدينى بين الهنادكة والمسلمين وعلى إقامة علاقات طيبة بين الطائفتين وبالفعل نجح فى هذا فقد كان الهنادكة يقدسون مشايخ المسلمين وأضرحتهم، كما اطلع المسلمون على الكتب السنسكريتية وكان «داراشكواه» من بين هؤلاء العلماء. وكتب الشعراء المسلمون شعراً جميلاً فى الهندية، وقد ارتدى الهنادكة ملابس المسلمين واستفادوا من حضارتهم وأجادوا اللغة الفارسية وتبوأوا أعلى المناصب(٥٣).

أسلوب حياة المسلمين:

لقد تمسك المسلمون فى الهند بالحضارة الإسلامية وعملوا على ازدهارها وتقدمها، وقد أثرت أساليب الحياة فى وسط آسيا وإيران على شبه القارة بشكل واضح، وقد تمثل ذلك فى الأدب والعمارة، وقد كان للأساتذة الإيرانيين وعلمائهم وأطبائهم مكانة كبيرة فى المجتمع الهندى، وكان لباس الرجال بوجه عام هو السروال والقميص والعمامة، أما النساء فكان السروال والقميص وغطاء الرأس كما كان المجتمع يهتم بالحلى اهتماما كبيراً، كما كانوا يحتفلون بالأعياد بشكل كبير ويشاركون فى الأعياد الهندية الأخرى وفى التنزه والرحلات كان الصيد أهم ما يشغلهم(٥٤).

مكانة النساء:

كان للمرأة أهمية كبيرة فى المجتمع المسلم، وقد شاركت نساء الطبقة العليا فى الأدب والسياسة فكتبت كلبدن بيكم «همايون نامه» وكانت «جهان دار» مؤلفة من الدرجة الأولى كما كانت تقرض الشعر، وكان لـ «نورجهان» أثر وسيطرة كبيرة على «جهانجير» وظلت تسيطر على زمام الأمور فترة كبيرة. كما كانت «ممتاز محل» زوجة «شاهجهان» الأثيرة متعلمة ومحبة للعلم وقد بنى «تاج محل» تذكاراً لها (٥٥).

ومع هذا لم يكن للمرأة الهندوسية مكانة تذكر فى المجتمع وكانت فى حالة يرثى لها، فقد انتشرت عندهم عادة «الساتى» التى تحرق فيها المرأة حية بعد وفاة زوجها، ولم يكن يسمح للأرامل بالزواج مرة أخرى(٥٦).

وكان الحجاب سائداً بين المسلمات في المجتمع الهندي، بل كانت الهندوسيات يتحجبن أيضاً عن الأجانب من الرجال، وكان نظام الحريم يسود البلاط في ذلك الوقت، وكان في حرملك «أكبر» أكثر من خمسة آلاف امرأة، وكان الحرملك يضم الكثير من القيان والراقصات(٥٧).

وقد ظهر لدى ملوك المغول في عهدهم الأخير بعض المظاهر التي صارت فيما بعد أساساً من أسس الحياة الاجتماعية، مثال ذلك إعطاء أهمية كبيرة للاحتفالات والطقوس بمختلف أنواعها وخاصة طقوس الزواج التي اهتم بها «بهادر شاه» اهتماماً كبيراً فكان يحضر كثيراً من حفلات العرس بنفسه (٥٨) ، وكانت القصور الملكية تنتقل من احتفال إلى آخر ، فهناك الاحتفالات الخاصة بالأعياد والمناسبات الدينية عامة إلى جانب الاحتفالات الخاصة بكل من الشيعة والهنادكة، ثم الاحتفالات بقدوم الربيع والمناسبات الخاصة بالقصر حيث كان الناس يجتمعون خارج القلعة في زحام شديد للمشاركة في هذه البهجة حتى صارت هذه الاحتفالات جزءاً من تقاليد الشعب وعاداته(٥٩).

ثالثا : الحالة الثقافية إبان حكم المغول:

لم يكن سلاطين الدولة المغولية في الهند رعاة للحركة الفكرية وحماة للعلوم والآداب فحسب؛ بل كان منهم من شارك بقلمه فيها فقد ترك لنا «بابر» وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر ضمنت له الشهرة إلى جانب مهارته العسكرية وتتمثل في كتاب «بابرنامة» وهو عبارة عن سيرته الذاتية وما خاضه من حروب ومعارك. كما وصف الهند وأراضيها وحدائقها وثرواتها؛ هذا بالإضافة إلى ما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركي كثير كان ينشده في مناسباته المختلفة فقد ترك ديواناً بالتركية(٦٠) وأشعاراً أخرى كثيرة بالفارسية، وسيرته تلك المعروفة باسم «بابرنامه» ، أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق . وهو كتاب نثري تقليدي بالتركية، وقد كتبه بنفسه في لغة تركية جغتائية سهلة، وأسلوبه يدل على ذوق أدبي رفيع كما يدل على تمكنه من أصول الثقافة الإسلامية والآداب العربية والفارسية تمكناً تاماً، وقد تم نقل هذه السيرة إلى اللغة الفارسية في عهد حفيده «أكبر» في أواخر القرن العاشر الهجري، كما تم نقلها إلى بعض اللغات الأوربية في العصر الحديث(٦١) .

وقد راجت اللغة الفارسية وآدابها في عصر «بابر» الذي اجتهد في تشجيع الشعراء والأدباء الفرس، كما استضافهم في بلاطه، وقد سلك أتباعه نفس السلوك، ونتيجة لهذا التشجيع فقد هاجر كثير من شعراء الفرس إلى الهند وعملوا في بلاط ملوك المغول (٦٢) .

وقد حفل بلاط «بابر» بالشعراء الذين رافقوه من «كابل» وعملوا ببلاطه في الهند ومنهم «مولانا شهاب الدين» و«زين الدين خافى» ، «أبو المجد فارغى» ، «محمد ساريان مريد»(٦٣) .

وإلى جانب ازدهار الحرف والصنائع والزراعة والتجارة والعلوم والفنون فى عهد بابر فقد ازدهر أيضاً فن تزيين الكتب وفن الخط ، كما كان «بابر» نفسه خطاطا وقد تتلمذ على يد «مير على تبريزى» كما تم ابتكار خط جديد عرف بالخط البابرى ، وقد اشتهر هذا الخط فى عهد «همايون» وكان كاتبه هو «مير عبدالحى المشهدى الأكبر آبادى»(٦٤)

وكان نسل بابر كلهم بارعين في فن الخط ومنهم بعض الأميرات مثل «جلبدن بيجم» ابنة «بابر» و«جهان دار» و«نورجهان زيب النسا» وغيرهن من الأميرات .

ومن العلماء الأفذاذ أيضًا والأدباء الممتازين «غياث الدين محمد خواندمير» المؤرخ الفارسى المشهور صاحب كتاب «حبيب السير» وكتاب «خلاصة الأخبار» وغيرها من الكتب المشهورة ، و«مير إبراهيم» أحد أبناء مدينة «هراة» وعازف القانون الماهر .

ومن بين العلماء المقربين إلى «بابر» رائده الخاص الشيخ «مازى» والشيخ «زين خافى» مترجم كتاب «واقعات بابرى» ومولانا «باقى» وهو أحد كبار علماء عصره (٦٥) .

وإذا كان «بابر» قد وضع حجر الأساس للرقي والحضارة فقد أكمل «همايون» المسيرة من بعده ، فقد كان مشجعًا للأدباء والفنانين مهتمًا بإنشاء المكتبات بالإضافة لكونه عالما فى الجغرافية والفلك ، وعندما فر من الهند إلى إيران ونزل فى ضيافة الشاه «طهماسب الأول» وبمعاونته عاد إلى حكم الهند ، وقد اصطحب معه العديد من الأدباء والشعراء الفرس الذين لاقوا كل العناية والرعاية مثل مولانا «قاسم كاهى سمرقندى» (اكرا ٩٨٨هـ) وخواندمير الذى جاء إلى الهند ٩٣٤ هـ وكتب فى عهد همايون كتاب «قانون همايونى» ولاقى الحماية والرعاية من «همايون» مثلما وجدها من بابر ، وكان همايون نفسه شاعراً ، وقد طبع ديوانه فى ١٩٥٦م فى «حيدر آباد الدكن» .

وكان «ميرزا كامران» من إخوة «همايون» ينظم الشعر بالفارسية وقد طبع ديوانه فى كلكتا ، ومن الأمراء الذين اهتموا بالآداب فى عصر «همايون» بيرم خان خانان (٩٦٨هـ) الذى رافق «همايون» أثناء سفره إلى إيران وكان متمكناً من الفارسية وله ديوان فيها (٦٦) .

ومن علماء الخط المشهورين في عهد همايون «خواجه سلطان على» الذى تلقب بـ «أفضل خان» في عهد «أكبر» (٦٧).

وهكذا فإن همايون لم يكن أقل من أبيه شغفًا بالمعرفة وقد حوت مكتبته في دهلى الكثير من المؤلفات القيمة، وكان شغوفاً بالفلك والرياضيات والنجوم إلى جانب كونه أديباً متمكناً.

وعلى الرغم من أن «أكبر» كان أمياً لايقرأ ولايكتب إلا أنه كان مهتماً بالعلم والعلماء ففى عهده بدأت اللغة الأردية تخرج إلى النور، وشهد مجلسه المناظرات والمحاورات الدينية والفلسفية والتاريخية، كما ازدهرت في عهده حركة التأليف والترجمة ولقيت الفنون ولاسيما فن التصوير أكبر رعاية، على العكس من أسلافه الذين شغلوا بالحروب.

وفى الحقيقة فإن الهند لم تعرف قبل «أكبر» ملكا مثله اجتمع حوله هذا الكم من رجال العلم والأدب(٦٨).

ومن الممكن اعتبار عهد الملك «أكبر» هو العهد الذهبى للأدب الفارسى في الهند فقد كان بلاطه ملجأ الفضلاء ومأمن الشعراء والأدباء، فقد توجه إلى بلاطه آلاف الشعراء من أقاصى الأرض فكانوا يحظون برعايته وعنايته (٦٩).

وقد جمع «أكبر» مكتبة ضخمة ضمت أربعاً وعشرين ألف مخطوطة نسخها له العديد من الخطاطين وزينها له الفنانون، وكان «أكبر» ينصت لساعات طويلة لمن يقرأ له هذه الكتب والمخطوطات.

وهكذا بلغ درجة رفيعة من الثقافة والعلم رغم كونه أمياً لايقرأ ولايكتب. ولم يكن من الغريب وهذه هى روح «أكبر» العلمية أن تنشط في عهده حركة التأليف والترجمة والتأريخ، وقد عنى المؤرخون الذين أرخوا له بذكر العلماء والأدباء الذين زخر بهم بلاط «أكبر» وقد ذكر صاحب «طبقات أكبرى» (٧٠) بعض هؤلاء العلماء ومنهم على سبيل المثال:

«ملا عبدالقادر بديوانى» «ملا غزالى مشهدى» «ملا قاسم كاهى» «خواجه حسين مروى» «الشيخ أبو الفيض فيضى» «مير فتح الله الشيرازى» الشيخ أبو الفضل» «الشيخ بهاء الدين»، «مير عبداللطيف القزوينى»، هذا بالإضافة إلى أن العلوم الإسلاميةبدأت تنتشر في عهد «أكبر» على نطاق واسع في كل أنحاء الهند، فقد أصبحت مدن «جونبور» «دهلى» «لاهور»

«سيالكوت»و «أحمد آباد» وغيرها من المدن مراكز وقواعد لانتشار العلوم الإسلامية لذلك العهد.

كما تغيرت طرق التدريس فى عهد «أكبر» ففى عهد الدولة الخلجية وآل طغلق كانت المؤلفات قليلة فى العلوم والفنون، حيث كانت الأهمية فى المقام الأول للتأليف فى الفقه وأصوله، ونجد فى عهد اللودهيين بعض الكتب فى العلوم العقلية وهذا يرجع إلى قدوم بعض العلماء والأدباء من إيران وسمرقند حيث كانت الفلسفة والمنطق يلقيان فيها رواجا، ومن بين هؤلاء العلماء «شاه فتح الله الشيرازى» (م٢٤ - ١م) والذى كون حلقة علمية أفاد منها كثير من الناس (٧١).

وقد تميز عهد «أكبر» بكثرة المؤرخين والمؤلفات التاريخية التى أرخت لحياته، وللأحداث التى مرت بالهند فى عصره، ومن هؤلاء المؤرخين «ملا عبدالقادر بديوانى» مصنف «منتخب التواريخ» والعلامة «أبو الفضل» مصنف «آئين اكبرى»، و«أكبرنامه». وترجع أهمية «أكبرنامه» إلى أنها عمل رائد فى تسجيل وقائع ذلك العصر، وقد ألف على غرارها «جهانجيرنامه»، و«شاهجهان نامه»، و«عالمجيرنامه»، وغيره(٧٢).

وإذا كان عصر «أكبر» هو العصر الذهبى للأدب والثقافة فقد تميز عصر الملك «جهانجير» بكثرة العلماء ورجال الدين الذين انتشروا فى كل أنحاء الهند.

وكان فى الهند فى ذلك الوقت ستة مراكز للعلوم الإسلامية أحدها فى «دهلى» والآخر فى «البنجاب» والثالث فى المشرق (جونبور، إله آباد، لكهنو)، والرابع فى «الكجرات» والخامس فى «السند» والسادس فى «برهانبور».

ومن العلماء المعروفين فى ذلك العصر «ملا عبدالحكيم سيالكوتى» وقد ذاعت شهرته العلمية خاصة فى عهد «شاهجهان» وفى عهد «أكبر». عندما أسس مدرسة جعله مشرفاً عليها فقام هو والشاعر المشهور «قدسى» بالتدريس فيها. ومن مؤلفاته «رسالة الدرة الثمينة»، وباقى مؤلفاته شرح وحواشى لهذه الرسالة (٧٣).

ومن علماء ذلك العصر أيضًا (ملا محمود جونبورى) الذى حقق شهرته فى العلوم العقلية وله فى علم الحكمة، كتاب «الشمس البازغة» و«فرائض فى شرح الفوائد» وهو فى علم

البلاغة(٧٤)، والعالم الشيخ «وجيه الدين أحمد آبادى» وغيره من العلماء والمشايخ الذين كانوا فى بلاط جهانجير.

وكان جهانجير مبجلاً للدين وتعاليمه وعلمائه وشيوخه، كما كان مولعاً بكتابة يومياته التى سميت «توزك جهانجيرى» ويتمثل فيها أدبه وبراعته فى الكتابة حيث كان أديبًا وشاعراً. وقد ألف كتابًا بالفارسية ضمنه نصائحه لأبنائه ويسمى «بندنامه» كما أنه أمر بترجمة القرآن إلى الفارسية (٧٥).

أما عهد «شاهجهان» فقد كان عهد رواج للغة الأردية حيث اتخذها لغة رسمية وعمل على نشرها بوسائل مختلفة حتى أنه أنشأ سوقًا للرجال وآخر للنساء فرض فيه التحدث والتخاطب بالأردية حتى تنمو وتزدهر.

وعهد «شاهجهان» من الفترات المزدهرة علمياً وثقافيا فى تاريخ الامبراطورية المغولية. وقد خصص محمد صالح كنبوه الجزء الثالث من كتاب «شاهجهان نامه» لذكر مشايخ عصر شاهجهان والعلماء والأطباء والشعراء المعروفين فى عهده.

ومن مشايخ ذلك العصر الذين حققوا شهرة واسعة الشيخ «سيد محمد بخارى رضوى» والشيخ «كامل حضرت ميانمير». ومن أشهر الخطاطين «عبدالحق الشيرازى»، «مير محمد صالح تبريزى»، «محمد عارف ياقوت»، «رقم خان مولانا عصمت الله»، «كلوخان»(٧٦).

وكان عهد «اورنجزيب» من العهود المزدهرة علميًا كذلك وهذا يرجع إلى أنه كان أديبًا ومحبًا للعلم والعلماء، وكثرت فى عهده المدارس والمساجد.

ولقد اعتنى بالثقافة والآداب الإسلامية وعمل على تدوين الأحكام الشرعية والعمل بموجبها، وقد وضع بنفسه كتاباً فى علم الحديث جمع فيه أربعين حديثًا وقام بشرحه بالفارسية (٧٧).

ومن العلماء المعروفين فى عصره «شمس الدين على خان جواهر رقم»، «هدايت الله خان زرين رقم»، «مير محمد باقر»، «مير زا جعفر»، «ميان لعل خان»، «محمد زاهر مير»، «محمد كاظم»(٧٨).

وكان عهد «أورنجزيب» هو آخر العهود المزدهرة فى دولة المغول، وتلاه ملوك ضعاف لم يتركوا أثراً يذكر، وذلك نتيجة لتفكك الدولة وانهيارها وعدم توفر الأمان والاستقرار بها.

هوامش الفصل الأول

(١) ميرأمّن دهلوى : باغ وبهار مقدمة رشيد حسن خان، ط٤، نيودلهى ١٩٩٤م، ص ١٦.

(٢) ذكر «ميرأمّن» اسم هذا الملك فى البداية على أنه «أحمد شاه درانى» وهو يلقب باللقبين درانى وإبدالى.

(٣) رشيد حسن خان : مقدمة باغ وبهار، ص٩ .

(٤) كلبدن بيكم : همايون نامة، ترجمة رشيد اخترندوى، ط٢، لاهور ١٩٧٩، ص١٤٩.

(٥) Sri Ram Sharma "The Religious Policy of the Mughal Emperors. Asia Publishing House. Second Edition 1962, p.9.

(٦) Han, Mountsuart Elphinston, History of India, The Hindu and Mahmetan Periods, Third Edition, London 1849, p.381.

(٧) عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة ١٩٥٨م، ص١٨٢.

(٨) الشاه طهماسب هو ثانى ملوك الدولة الصفوية فى إيران ولد عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م وحكم من سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م وحتى وفاته سنة ٩٨٢هـ/١٥٧٦م (زندكانى شاه عباس أول. مجلد أول. تأليف نصر الله فلسفى. جاب أول. تهران ١١٣٣٤ هـ.ش.ص٦ .

(٩) لا توجد معلومات كافية عن تلك المقبرة سوى أن همايون بناها بنفسه، لكن فى عهد ابنه لأكبر بنى بناء عظيما فوق قبر والده يعد اليوم من أقدم الآثار الفنية التى تركها المغول والتى تعتز بها الهند الآن وقد بنى (أكبر) هذا البناء سنة ٩٧٣هـ - ١٥٦٥م.

(مجلة ثقافة الهند، عدد يونيو ١٩٥٥).

(١٠) Howorth H. History of the Monguls, 3 VVols. London, 1846, pp. 180-186.

(١١) عادل زعيتر (مترجم) : حضارات الهند، تأليف جوستاف لوبون ، ط١ ، القاهرة ١٩٤٨، ص٤٢٤ .

(١٢) W.H. Morland, C.S.I., C.I.E., and Atul Chandra Chtterjee A short of India. Second Edition, 1944. pp. 223-227.

(١٣) Elphinstone, Op. Cit, p.467-469.

(١٤) عجاج نويهض (مترجم) : حاضر العالم، لوثورب ستودارد ، مجلد ٣، القاهرة ١٣٥٢هـ، ص٣٠٩ .

(١٥) محمد عبد المجيد العبد : الإسلام والدول الإسلامية فى الهند ، القاهرة ١٩٦٨م، ص٩٨، ٩٩.

Burn, R. Cambridge History of India. 1992-29 Cambridge, p.330.(١٦)

(١٧) د. بير نير : شاهجهان أيام اسيرى اور عهد اورنجزيب تك : ت خليفة سيد محمد حسين . كراچى. ط٢، ١٩٦٧م، ص٤٢ و٤٥ .

(١٧) العبد : الإسلام والدول الإسلامية فى الهند ، ص٢١٣ .

Prasad Ishwari, A short history of Muslem Rule in India Allahabad 1933, p. 541, 543 . (١٨)

Mediaval India under Mohammedan Rule (A.D. 712-1764 By: Stanley Lane Poole, (١٩) M.A., Litt. D London : Adelphi Terrace Fourteenth Edition, 1925, p. 333-334 .

Duff, Grant. History of the Mahrattas, Vol. 1, 1952, p. 175. (٢٠)

(٢١) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، جـ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢م، ص ٦٤٣ .

Georg Dunbar, Bt, A history of India from earliest times to the present day. London, (٢٢) 1936, p. 289.

Ibid, p.259. (٢٣)

Elpinston, Op. Cit, p. 201. (٢٤)

Duff, Op., Cit., p. 339. (٢٥)

(٢٦) العبد : الدول الإسلامية فى الهند ، ص١٩١ .

(٢٧) سيرد ذكر هذا الغزو عند الحديث عن عوامل إنهيار الدولة .

(٢٨) حاضر العالم الإسلامى : جـ٤ ، ص٣١٢ .

(٢٩) بدأ المتنافسون الغربيون مرحلة التسابق على السيطرة على الهند ، والصراع فيما بينهم على احتلال أراضيها بعد وفاة «اورنجزيب» ، كما بدأت الجيوش الأوربية تستخدم أهل الهند أنفسهم فى قواتها مما ترتب عليه أن تفتح أراضى الهند للمستعمرين الأجانب بقوات هندية . وقد بدأت السيطرة العسكرية للإنجليز فى الهند فى إقليم كرناتكى عام ١١٦٨هـ/١٧٥٤م، ثم بدأ الانجليز فى التدخل فى شئون إقليم البنغال ودخلوا فى صراع مع حكامه ومناوشات عسكرية انتهت بنشوب معركة عسكرية فى «بكسر» كان من نتائجها السيطرة على الإقليم ، ودخول شاه عالم تحت سيطرتهم وعقد معاهدة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م .

انظر : كمبنى كى حكومت : مجموعة مؤلفين ط٤ ، لاهور ١٩٦٩م. ص١١٣ - ١١٤، وأيضاً (Dunbor., Op. Cit., P. 352

(٣٠) الساداتى : ص٢٩٠ ، ٢٩٢ .

(٣١) عبدالمنعم النمر ، ص٣٠١ .

(٣٢) أنوار هاشمى : تاريخ پاك وهند . ط٥ ، أكتوبر ١٩٩٠م، كراچى ص٣٣٦ .

(٣٣) عادل زعيتر (مترجم) غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ص٧١ .

(٣٤) الساداتى : ص٢٢٣ .

Moreland, Op. Cit., P. 297. (٣٥)

(٣٦) انظر محمد دبير سياقى: دوره تاريخ إيران از آغازتا انقراض قاجاريه، تأليف حسن پرنيا عباس اقبال آشتيانى، تهران، بدون ت، ص٧٠٩ إلى ٧٢٩.

(٣٧) عباس اقبال آشتيانى: تاريخ مفصل إيران از صدر اسلام تا انقراض قاجاريه، ص٧٣٠.

Mediaeval Indue Undr Mohammedan Rule (A. D. 712 - 1764) By: Stanley Laneboole. (٣٨)

Fourteenth 1925, p.417, 418, 419.

(٣٩) A Short History of Hind - Pakistan Prepared by: Pakistan History Board Karachi First Edition 1955, P. 342 - 344 - 345.

(٤٠) A New History of Indo Pakistan Since 1526, By: K. Ali Edition 1985, Lahore, P.162 - 163

(٤١) H. M. Elliot, K.C. B. the History of india as told by its own historians. Vol. VIII, London, 1977, p. 170

(٤٢) د. نفيس جهان بيكم: مير أمن دهلوى حيات وتأليفات، دهلى، ١٩٨٦م، ص٤١

(٤٣) مير أمن دهلوى: حيات وتأليفات، ص١١٩

(٤٤) صاحب زاده عبدالرسول: پاك وهندى اسلامى تاريخ تا عهد حاضرة، لاهور. ب. د ص١٥٣ حتى ١٥٩.

(٤٥) Elphinstone, Op. Cit, P. 66.

(٤٦) Fall of the Mughal Empire. By: Firtaluynath Sarkar, Vol. I, Elutte 1971, Chapters 15, 16 - 17 - 19 - 23

(٤٧) أنوار هاشمى: تاريخ پاك وهند، ص٣٦٦

(٤٨) غلام حسين ذو الفقار: اردو شاعرى برسياسى اورسما جى پس منظر: البنجاب؛ ص٣٠١ إلى ٣٠٣

(٤٩) K.M. Panikkar. A Survey of Indian hisotry. Bombaby, 1963, p. 169 - 182

(٥٠) پاك وهند، ص٣٦٧

(٥١) المصدر السابق، ص٣٦٨

(٥٢) K.M. Panikkar. Op. Cit., P. 173.

(٥٣) عبدالسلام خورشيد (د): تاريخ تحريك پاكستان. جـ١، ط١، اسلام آباد ١٩٩٣م، ص ١٥ إلى ١٨.

(٥٤) نفسه: ص١٧.

(٥٥) شيخ محمد رفيق وآخرون: تاريخ پاكستان وهند، ط لاهور ١٩٨٧م، ص٤٦٣.

(٥٦) Eshori Breshad. History of India. Ellah Abad. 1925, p. 294

(٥٧) پاك وهند، ص٣٦٨، ٣٦٩.

(٥٨) أشرف صبوحى دهلوى (د): بزم آخر شهر دهلى كى دو أخير بادشاهون كاطريق معاشرت ط١، لاهور، مجلس ترقى ادب ١٩٦٥م، ص١٣، ١٥.

(٥٩) نفس المرجع، ص٣٨، ٤٣.

(٦٠) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة ١٩٣٣م، ص١١٢، ١١٣.

(٦١) الساداتى: ص٦٤ ومابعدها.

(٦٢) على أكبر شهابى خراسانى: روابط إيران وهند يا تأثير روابط إيران وهند در ادبيات دوره صفويه. تهران، ١٣١٦هـ. ش، ص٣٦، ٣٧.

(٦٣) محمد إكرام: رودكوثر، ط١٠ لاهور ١٩٨٤م، ص٢٢، ٢٣

(٦٤) محمد على خان ماهر: علم الحروف يا تحقيقات ماهر. حصه سوم. دهلى ١٩٣٤م، ص١٣٥.

(٦٥) كلبدن بيكم: همايون نامه، ص١٤٩.

(٦٦) محمد رياضي: أدبيات فارسي در شبه قاره هند وپاكستان: مقالة في مجله وزارة الثقافة والنشر، ص٦٧ .

(٦٧) محمود على خان ماهر: علم الحروف ص١٣٥ .

(٦٨) أنور سديد ـ اردو أدب كى تحريكين، ط١، كراچى ١٩٨٣، ص٢٧٩

(٦٩) على اكبر شهابي خراساني: روابط ادبى ايران وهند، ص٣٩ ـ ٤٠ .

(٧٠) طبقات اكبرى: أحمد عبدالقادر الشاذلي، رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة ٩٨٥

(٧١) محمد اكرام: رود كوثر، ص١٤٢ .

(٧٢) محمد مصطفى خان شيفته: كلشن خار. ترتيب كلب على خان فائق، ص١٦٤

(٧٣) محمد عبدالمجيد العبد: الإسلام والدول الإسلامية في الهند، القاهرة ١٩٦٨م، .

(٧٤) رود كوثر: ص٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٧٥) صاحب زاده عبدالرسول: پاك وهندكى اسلامى تاريخ تا عهد حاضره. لاهور

(٧٦) د. برنير شاهجهان ايام اسيرى اور عهد اورنكزيب تك. ت. خليفة سيد محمد. ٤

(٧٧) لوثورب ستودوارد: حاضر العالم الإسلامي. ت عجاج نويهض، ج٤، ص٣١١

(٧٨) رود كوثر، ص٩١.

الفصل الثانى

حياة ميرأمّن الدهلوى وآثاره



حياته:

يقول أحد المؤلفين أن شخصية «ميرأمّن الدهلوى» من أكثر الشخصيات قبولاً بين المؤلفين الذين التحقوا بكلية «فورت وليم»(*) وسيظل عمله العظيم «باغ وبهار» «زهرة يانعة فى روضة الأدب الأردى على مر الزمان(١).

إلا أننا للأسف الشديد لا نعلم الكثير عن حياته سوى ما جاء ذكره فى ثلاثة مواضع هى:

١ـ مقدمة «باغ وبهار» حيث كتب بعض العبارات عن نفسه.

٢ـ ما كتبه فى مقدمة كتابه الثانى «گنج خوبى» حيث كتب عدة عبارات عن شاعريته.

٣ـ ما كتب عنه أثناء عمله فى كلية «فورت وليم» والتى ذكرها السيد عتيق صديقى فى كتابه «جلجرست أوراسكا عهد».

فيما عدا ذلك فلا توجد معلومات أخرى عنه، فلم يعرف حتى اليوم تاريخ ميلاده أو تاريخ وفاته على وجه التحديد.

وسنحاول فى البداية أن نعرض ما كتبه «ميرأمّن» عن نفسه ثم نحاول بعد ذلك الوصول إلى بعض الاستنتاجات من خلال حديثه.

كتب ميرأمّن ما يلى فى كتابه باغ وبهار:

«أولا سأبين حال العاصى المذنب «ميرأمّن الدهلوى» فمنذ عهد «همايون شاه» وعائلتى تقدم خدماتها وتضحياتها لكل ملك، وكان كل ملك يرعانا ويرفع من شأننا ويكرمنا ويقطعنا المناصب والإقطاعيات، فأصبحنا أثرياء، فأنعم علينا الملك فى الدفتر الملكى بتلك الألقاب «خانه زاد موروثى» «منصب دار قديمى» وعندما وصل حال البيت الذى كان سببًا فى

عمران البيوت إلى حال لا يحتاج إلى بيان، استولى «سورج مل الجاتى» على الأملاك، وخرب «أحمد شاه الدرانى» البلاد بعد هجومه عليها، فذقت طعم الخراب ورحلنا عن الوطن الذى هو وطنى ومسقط رأسى وكل آبائنا مدفونون فيه، وغرقت السفينة التى يقودها الملك وتلاطمت أمواج بحر الضياع لعدة سنوات وللقشة بالنسبة للغريق أهمية كبيرة، فمكثت فى «عظيم آباد» لعدة سنوات كسبت فيها وخسرت، أخيراً لم يطب لى المقام ولم تلائمنى الوظيفة، فتركت العيال والأطفال وركبت السفينة بمفردى إلى أشرف البلاد «كلكتا» سعياً للرزق ، وقضيت فترة بدون عمل، وحدث أن استدعانى «نواب دلاورجنك» وعيننى مدرساً لأخيه الصغير مير محمد كاظم خان، ومكثت هناك حوالى سنتين لكننى شعرت بأن ملاذى ليس هناك، ثم وصلت بواسطة «منشى بهادر على جى» إلى «جان جلجرست صاحب بهادر» دام إقباله، وليمن الطالع احتضننى ذلك الشاب، وأرجو أن تكون الأيام القادمة جيدة وإلا فلن أحصل على كسرة خبز، ويتربى فى بيتى عشرة من الصغار والكبار، ويدعون لى «تقبل الله»(٢)

ومما سبق نجد كثيراً من الإجمال وقليلاً من التفصيل، وسنحاول أن نلقى الضوء على تلك الأحداث الواحد تلو الآخر.

١- الوطن والمنطقة والحى:

كتب «ميرأمّن» فى مواضع متعددة من «باغ وبهار» و «كنج خوبى» أنه من دهلى، فقد قال: «وبالنسبة لميرأمّن فإنه دهلوى...»، كما كتب أيضاً: «إن دهلى هى وطنى ومولدى»(٣).

يتضح من قوله إنه كان «دهلوياً» أى ولد ونشأ هناك. والجدير بالذكر أن «ميرأمّن» أراد بدهلى الأماكن القديمة خارج سور «شاهجهان» وليس «شاهجهان آباد» نفسها، فقد قال فى شأن تعمير دهلى من ناحية شاهجهان: «ثم جعل الملك المدينة دار الخلافة واشتهرت بشاهجهان آباد وإن كانت دهلى منفصلة عنها فتلك مدينة قديمة وهذه مدينة جديدة(٤) أى أن المدينة التى عمرت داخل السور هى مدينة جديدة، وأما دهلى فكانت منفصلة. وهكذا اعترف «ميرأمّن» بأن المدينة هى «دهلى»، ويتضح أيضاً أنه كان من المدينة القديمة.

ولم يصرح «ميرأمّن» فى أى حى من أحياء هذه المدينة كان يسكن وقد كانت حدودها واسعة جدا ولذلك فمن الصعب تحديد الحى، ولكن كان هناك حى فى المدينة القديمة يدعى حى «سيد والحمرة». وقد ذكر بعض الشيء عن هذا الحى فى ملفوظات

وأحوال «شاه فخر الدين» وهو[«سيدواره» وهو حي في دهلي القديمة، كان يسكن فيه مير بديع، وسادات هذا الحي ذو أنساب معتبرة][(٥)].

وكان «ميرأمّن» من هؤلاء السادة كما يتضح من اسمه، لذا من الجائز أنه كان يسكن في هذا الحي. وعلى أية حال فإن هذا مجرد افتراض لا يصل إلى درجة اليقين.

٢- أسرته:

لم يذكر «ميرأمّن» اسماء أسلافه ولا أجداده، ولا حتى اسم والده، ولم يشر إلى متى جاء آباؤه إلى الهند ومن أين جاءوا؟

ولكن من هذه الجملة: «إن أجدادي كانوا يقدمون خدماتهم للملوك منذ عهد همايون شاه وما تلاه» يتضح أن أسرته كانت تعمل في ركاب الملوك منذ عهد همايون[(٦)].

لكن من المعروف أن عهد همايون ينقسم إلى حقبتين، الأولى من ديسمير ١٥٣٠م إلى يونيه ١٥٣٩م، حيث جلس همايون على العرش بعد وفاة والده «بابر» مؤسس دولة المغول في الهند وذلك عام ١٥٣٠م، ولكن في نهاية هذه الفترة أي عام ١٥٣٩م حدثت معركة «جوسا» التي انهزم فيها همايون على يد «شيرشاه السوري» واضطر لترك الهند والتوجه إلى إيران، وقد قضى همايون في إيران ما يقرب من أربع عشرة سنة في حالة النفي. وفي تلك الفترة كانت أسرة «شيرشاه السوري» تحكم بلاد الهند[(٧)]، وفي نهاية الأمر وفي سنة ٩٦٢هـ الموافق ١٥٥٤ م توجه همايون بجيشه من «كابل» إلى «البنجاب» وبسرعة شديدة استولى على كل أنحاء الهند، وهكذا فقد بدأ عهد همايون الثاني الذي بقي حوالي سنة حيث توفي «همايون» في العام التالي ٩٦٣هـ الموافق يناير ١٥٥٦م[(٨)].

وعندما رجع همايون من إيران اصطحب معه عدداً كبيراً من القوات، والقواد والحرفيين والمثقفين، وهؤلاء هم الذين أمسكوا بزمام الحكم ومقاليد الأمور في عهد المغول، ومن المؤكد أن أسلاف «ميرأمّن» قد دخلوا في خدمة الملك في فترة حكمه الثانية لأن قول «ميرأمّن» أن أسلافي كانوا يخدمون ملكا بعد ملك منذ عهد همايون يشير إلى أن دخولهم في الخدمة الملكية كان في الفترة الثانية وما أعقبها من فترات حكم فيها المغول[(٩)].

ونركز أيضا على هذه الجملة «لميرأمّن»: «عندما ضاق همايون شاه ذرعًا بعائلة خان ذهب إلى ولاية السند، وأخيراً عاد وأدب الباقين من أسرة خان، ولم يبق هناك أحد يثير الفتنة والفساد»[(١٠)].

نستخلص من هذه العبارة أن التحاق أسرة «ميرأمّن» بخدمة المغول واستمرارها فى خدمتهم بدأ بعد عودة الملك همايون من إيران، واستعادته لعرش المغول مرة ثانية.

٣ـ الاسم والتخلص:

كتب «ميرأمّن» فى مقدمة «باغ وبهار» و «كَنج خوبى» أن اسمه هو «ميرأمّن» كما يوجد أيضا اسم «ميرأمّن» على غلاف «باغ وبهار»، وفى نهاية الطبعة الأولى، ولا يوجد اسم آخر فى أى كتاب من كتب عصره أو فى أى مكان يوهم بأن اسمه غير هذا والنسخة الخطية لـ «كَنج خوبى» التى كتبها «ميرأمّن» بنفسه يوجد فى آخر صفحاتها «ميرأمّن لطف» بقلم «ميرأمّن».

وبعد كل هذا لا يوجد شك فى أن اسمه كان «ميرأمّن» وتخلصه كان «لطف». وقد كتب «كريم الدين» فى تذكرته بعنوان «أمان ولطف» [تخلص ميرآمان الدهلوى ب «أمّن» وقد اختار هذا التخلص فى أشعاره المختلفة](١١).

أى جاء فى هذه التذكرة أن اسمه كان «ميرآمان» وتخلصه (أمّن)، وفى الواقع أنه لا توجد أى صحة لهذا الكلام، ولم يذكر كريم الدين مصادره فى ذلك.

وأما قوله أن «ميرأمّن» قد استخدم تخلصه هذا فى أشعاره المختلفة فهذا خطأ تام لأن «ميرأمّن» لم يستخدم هذا التخلص فى أى شعر له، كما لم يكتب هذا فى أى مكان، بيد أنه قد استخدم تخلصه «لطف» فى أشعاره، ويتضح من ذلك أن ما كتبه «كريم الدين» بالنسبة لاسمه وتخلصه هو ظن وقياس فقط، وهو أمر لا يمكن قبوله، وتابعه فى ذلك بعض من جاءوا بعده، فقد كتب «محمد يحيى تنها»:

كان اسمه الحقيقى «ميرآمان» وتخلصه (أمّن) إلا أنه استخدم تخلص «لطف» فى بعض أشعاره أحيانا»(١٢).

وهنا لم يذكر «تنها» مصدره، ولكن من الممكن أن يكون قد اعتمد على تذكرة كريم الدين لأنه لا يوجد أحد قبله قال إن اسمه «ميرآمان» وتخلصه «أمّن»، إلا أن الإضافة الأخيرة والخاصة باستخدامه «لطف» تخلصا هى إضافة الأستاذ «محمد يحيى تنها».

ويقول الأستاذ «سيد محمد» فى كتابه «أرباب نثراردو»(١٣):

[يذكر أن اسمه الحقيقى كان «ميرآمان» وتخلصه «أمَن» لكنه اشتهر باسم «ميرأمَن»] . وقد كتب «ميرأمَن» أبياتا فى آخر كتابه جاء فى آخرها بيت هذه ترجمته:

تو كونين مين لطف پر لطف ركهـ

خدايا بحق رسول كبار(**)

فيبدو من هذا أنه كان يتخلص بـ«لطف» .

خلاصة القول إن سلسلة الافتراض بأن اسمه كان «ميرآمان» وتخلصه كان «أمَن» تصل إلى «كريم الدين» هذا بالإضافة إلى أنه كان له تخلصان «أمَن» و «لطف» ومن العجيب أن كاتبا شهيراً وهو الدكتور : سهيل بخارى قد كرر هذا فى بحثه المحقق فقال : «إن اسم ميرأمَن» كان ميرآمان أما «أمَن» و «لطف» فكانا تخلصين له»(١٤) .

ولم يذكر صاحب المقال أى مصدر أو مرجع لكن يبدو أنه قد استفاد من «سير المصنفين» و «أرباب نثراردو» أو من أحدهما .

ويفهم مما تقدم ومن غيره أن «ميرأمَن» قد نظم الشعر وتخلص بـ «لطف» فقد قال فى مقدمة كتابه الثانى «گنج خوبى» :

[قد نظمت آلافا من الأبيات للشعراء الأساتذة التى انتخبها المؤلف (يعنى ملا واعظ سبزوارى مؤلف أخلاق محسنى) من الكتب ووضعها فى مكان مناسب، فقد نظمت هذه الأبيات فى اللغة الهندية حسب ما فهمت وما حاولت قرض الشعر طوال عمرى، ولكن عندما يرد أى مضمون فى ذهنى أقوم بنظمه، وأنا لست بأستاذ لأحد ولا بتلميذ لأحد] .

نه شاعر سون مين اورنه شاعر كابهائى

فقط مين نى كى اپنى طبع أزمائى(١٥)

وقد تمت مقارنة عبارة هذه النسخة المطبوعة بالنسخة الخطية حيث كتب «ميرأمَن» فى آخر سطر له فى الصفحة الأخيرة لتلك النسخة الخطية لـ «گنج خوبى» بقلم «ميرأمَن» «لطف» ، وقد جاء هذا التخلص أيضا فى آخر بيت لـ «باغ وبهار» :

الطف فى العالم بلطف يا ربى بحق رسول كبار

والأبيات الأردية الأربعة الموجودة فى «باغ وبهار» نظمها كلها «ميرأمّن» طبقا لقوله، ومنها الأبيات الأخيرة التى توضح التاريخ.

وعلاوة على ذلك هناك كتاب لـ «جلجرست» يوجد فيه غزل من ترجمة «ميرأمّن» وقد ذكر أولا فى هذا الكتاب غزل حافظ ومطلعه كما يلى:

حجاب جهره جان من شود غبارتنم خوش اندميكه از ين جهرة برده برفكَنمـ(١٦)

فقد وردت أولا ترجمة حرة لهذا الغزل الفارسى فى اللغة الانجليزية وبعد ذلك ذكرت ترجمة «ميرأمّن لطف» والتى جاءت كذلك فى فن الغزل.

يقول «جلجرست» فى شأن ترجمة «ميرأمّن» لا يوجد فى هذه الترجمة حسن البيت الفارسى لكنها مقبولة أيضا(١٧).

ومن المثير للدهشة أن د. وحيد قريش يذكر أنه جاء فى الكتب المتأخرة أن «لميرأمّن» تخلصين «أمّن» و «لطف» ويستدلون على تخلصه بلطف ببيت الشعر الذى سبق ذكره، وقد ذكر أنه لا يوجد فى هذا البيت أى قرينة تدل على أن تخلص «ميرأمّن» كان «لطف» لأنه كان فى كلكتا «ميرزا على لطف» مؤلف تذكرة «كَلشن هند» وقد كان شاعراً يتخلص بـ «لطف» وقد ذكر «ميرأمّن» فى مقدمة «كَنج خوبى» بيتين له. ويقاس على ذلك أن «ميرأمّن» قد ذكر فى «باغ وبهار» أبياتاً للطف هذا، ولم يكن «ميرأمّن» يتخلص بـ «لطف»(١٨).

نستنتج مما ذكره «وحيد قريش» أنه يريد أن يقول إن تخلص «ميرأمّن» كان «أمّن» ولم يكن «لطف» وإذا سلمنا جدلا بذلك فلابد أيضا أن نسلم بأن الأبيات التى ورد فيها تخلص «لطف» ليست له، والواقع هو أن اسم «ميرزا على لطف» كان أمام صاحب المقال، ولهذا افترض أن هذه الأبيات كانت له، وكل هذه الافتراضات لا أساس لها من الصحة، ففى الحقيقة كان لـ «ميرأمّن» تخلص واحد هو «لطف» والأبيات التى نسبت إلى «ميرزا على لطف» كانت كلها لـ «ميرأمّن لطف».

تعليمه:

لم يذكر «ميرأمن عن أحوال تعليمه شيئا؛ ولكن من المؤكد أنه كان على دراية تامة بالفارسية، وخير دليل على ذلك كتابه «كَنج خوبى» وهو ترجمة أردية «لأخلاق محسنى»(١٩) أحد الكتب الشهيرة فى الفارسية، وكان يدرس فى المدارس، وعلى الرغم من

أن لغته ليست صعبة إلا أنها ليست سهلة كذلك، فلا يمكن أن يقوم بترجمة مثل هذا الكتاب ترجمة مقبولة إلا من كانت له دراية تامة بالفارسية، ولا يمكن لنا أن نذكر شيئًا مؤكدا عن تعلمه اللغة العربية أو غيرها من اللغات.

مذهبه:

لم يكتب «ميرأمّن» شيئا عن مذهبه بصراحة، نعم كتب فى بداية «باغ وبهار» و «الصلاة والسلام على آله الذين هم إثنا عشر إماما»[٢٠].

كما يدعو فى نهاية «باغ وبهار»بما يلى:

«يا إلهى بفضلك حقق بغيتى ، كما حقق هؤلاء الدراويش الأربعة بغيتهم، بحق الخمسة الأطهار، والاثنى عشر إمامًا، والأربعة عشر معصوما عليهم السلام، آمين يا إله العالمين»[٢١].

ويتضح من هذه العبارات «أنه ربما كان شيعيا».

أولاده وأهل بيته:

يقول «ميرأمّن» فى مقدمة «باغ وبهار» وهو يمدح «جان جلجرست» مدير كلية فورت وليم»:

[... وعلى الأقل آكل لقمة العيش وأنام بكل راحة وسكون، وينشأ فى بيتى عشرة أفراد من الصغار والكبار ويدعون لهذا الفقير][٢٢].

ويتحدث عن مغادرته «عظيم آباد» إلى «كلكتا» فيقول:

[... ركبت السفينة بمفردى تاركا العيال والأطفال][٢٣].

ويفهم من هذه العبارة فقط أنه كان صاحب عيال وأولاد.

«وكان فى البيت عشرة أشخاص صغارا وكبارا» ولكن لا يعرف على من كانت تشتمل هذه العشرة؟ وقد ترك «ميرأمّن» عياله وأطفاله فى «عظيم آباد» عند توجهه إلى «كلكتا» لكن يبدو أن زوجته وأولاده لحقوا به بعد ذلك، لأنه قد ذكر فى «باغ وبهار» و «كنج خوبى» أن غاية تأليف هذين الكتابين هى تربية الأولاد[٢٤].

وأثبت «ميرزا حامد بيك» في مقاله أن «جانصاحب» كان ابناً «لميرأمّن» يقول: «من الأغلب أن «جانصاحب» كان ابنا لميرأمّن، ويقوى هذا الافتراض أن الاسم الحقيقى لميرأمّن كان «مير آمان على» وكان اسم «جانصاحب» «ميربهار على». وقد اعتمد صاحب المقال على تذكرة «سخن شعرا» لـ «عبد الغفور نساخ» حيث يقول: «نساخ» عن «جانصاحب»: إن «جانصاحب ميربهار على» خلف «ميرأمّن لكنوى» وتلميذ «عاشور على خان بهادر» كان يكتب بأسلوبه الخاص[٢٥].

ثم نقل اقتباس «سيد محمد معين تقوى» مرتب «تاريخ ريختى» مع ديوان «جان صاحب» وهو كما يلى:

لعل «جانصاحب» قد ولد فى «فرخ آباد» عام ١٢٣٤ هـ = ١٩ ـ ١٨١٨م، وكان اسمه «ميريار على» لكن والديه كانا يناديانه باسم «جانصاحب» على سبيل التدليل وكان والده ميرأمّن من سكان فرخ آباد لكنه جاء إلى لكهنو فى صباه.

ويأتى اسم ابن آخر «لميرأمّن» تخلصه «أحسن» فقد كتب «مفتى انتظام الله شهابى» من عام وفاة «ميرأمّن» ويبدأ كلامه هكذا: [«أحسن» اسمه «ميرأحسن» ابن «ميرأمّن»..].

فى الواقع أن كلمة «ابن ميرأمّن» هى إضافة من السيد مفتى ولا توجد فى الأصل لأن «كلشن هميشه بهار» الذى جعله السيد مفتى مصدرا له لا يوجد فيه إلا ذكر «مرزا أحسن على أحسن» الذى لا علاقة له بـ «ميرأمّن» فيجعل السيد مفتى أولا «مرزا أحسن على» «ميرأمّن» ثم جعله ابن «ميرأمّن»[٢٦].

وهكذا لم يرد فى الأخبار أى ذكر للعشرة الذين يعولهم إلا ابن واحد فقط هو جانصاحب.

مغادرته دهلى:

تشير كتابات «ميرأمّن» إلى واقعتين:

أولاهما: أن «سورج مل جات» قد استولى على أملاك آبائه، الثانية: أن «أحمد شاه الدرانى» قد خرب بيتهم ووطنهم[٢٧].

وبناء على هذين السببين، هاجر «ميرأمّن» من دهلى إلى «عظيم آباد» «بتنة» وقد استنتج البروفيسير «ممتاز حسين» فى ضوء هاتين الواقعتين أنهما تشيران إلى أنه نفى من دهلى

سنة ١٧٦١م، عندما خرب «أحمد شاه الإبدالى» الهند لدرجة أن الناس نسوا عملية التخريب التى قام بها «نادر شاه الإفشارى».

ثم يواصل «ممتاز حسين» قائلا: «إن استيلاء «سورج مل جات» على أملاكه قد حدث أيضا قبل عام ١٧٦١م[٢٨]، واستولى «سورج مل» على «أكبر آباد» فى ١٢ من يونيو ١٧٦١م، لكنه استولى قبل هذا التاريخ على أغلب القصور فى «أكبر آباد» وكل هذا يدل على أن «ميرأمَن» قد نفى من دهلى عام ١٧٦١م.

وقد أشار «ميرأمَن» فى كتابه «باغ وبهار» إجمالاً إلى هذه الوقائع التاريخية وكأن الفترة من شهر يناير ١٧٥٧ م وهى السنة التى هاجم فيها «أحمد شاه إبدالى» دهلى وحتى يناير ١٧٦١ م هى فترة المصائب الشديدة على أهل دهلى فكما ذكرنا فقد دخل «أحمد شاه الإبدالى» أول مرة دهلى فى يناير ١٧٥٧م فاتحًا، وبعد أربع سنوات بالضبط، أى فى يناير ١٧٦١م فتح دهلى مرة ثانية ودخل القلعة الحمراء، وقد تعرض أهل دهلى فى هذا العهد لشتى أنواع المصائب على يد مواطنيهم من الطوائف المختلفة ومن الغرباء، وقد هاجروا فارين بحياتهم، وقد أجهز «سورج مل جات» على ما تبقى من جراء هجمة الإبداليين بعد عودتهم إلى بلادهم، واستمرت هذه المصائب والمشاق غير المتناهية حتى وفاة «سورج مل» ١٧٦٣م[٢٩].

يتضح مما سبق أن أهل دهلى قد غادروها مرتين فى أعداد كبيرة، وقد حدث هذا مع هجمتى الإبدالى فى عامى ١٧٥٧م، ١٧٦١م، والسؤال هنا متى غادر «ميرأمَن» دهلى؟

فى هذا الصدد ننظر إلى العبارة التالية: «... حينما وصلت حالة البيت الذى كان سببا لعمران البيوت إلى حد لا يحتاج إلى بيان استولى «سورج مل جات» على الأملاك وترك أحمد شاه درانى البيت»[٣٠].

وعندما جاء أحمد شاه إبدالى من كابل فى غزوته الأولى ونهب المدينة كان «شاه عالم» فى الشرق، ولم يكن هناك وريث للعرش، وصارت المدينة جسدا بلا رأس.

فمن الحقيقى أن وجود الملوك كان نعمة على المدينة إذ خربت من بعدهم وذهب رؤساؤها إلى حيث وجدوا الأمان. واضطر شاه عالم إلى مغادرة دهلى بسبب عما د الملك فى مايو ١٧٥٨م، ولم يزل باقيا حتى نهاية عام ١٧٧١م فى الشرق[٣١].

بعد مغادرة «شاه عالم» إلى الشرق بحوالى عامين ونصف وكذلك رحيل الإبدالى عن دهلى بعد غزوته الأولى إنتهز «سورج مل جات» الفرصة واستولى على أملاك الناس وأشاع فيهم الفساد مما دفع الكثيرين إلى الهجرة بعيدا عن ظلمه وجبروته ومنهم «ميرأمّن».

ولهذا فإن التاريخ الذى حدده بروفيسور ممتاز حسين لهجرة «ميرأمن» من دهلى وهو عام ١٧٦٠ م يبدو صحيحاً. وقد قال بعض الكتاب الآخرين بهذا الرأى أيضاً، وإن لم يكن هذا العام مؤكدا إلا أنه لا يوجد مانع من القول به(٣٢).

على كل حال لقد ترك «ميرأمن» دهلى إلى «كلكتا»، ولعله قد حاول البقاء فى تلك المدن، ولا نعرف أين سكن «ميرأمن» فى «عظيم آباد» وكيف عاش؟ وقد قضى هناك عدة سنوات كانت حياته فيها جميلة أحيانا ومُرة أحيانا أخرى، وأخيرا غادر هذه المدينة(٣٣).

وقد كتب الدكتور داختر اربنوى، فى كتابه «تطور اللغة والأدب الأردى فى بهار»(٣٤):

[إن ميرشير على افسوس وميرأمن دهلوى أيضا قد وصلا إلى «عظيم آباد» وتمتعا بكرم وجود ابن الملك الكبير «شتاب رائى»].

الخلاصة أننا لا نعرف أحواله فى تلك المدة التى أقام فيها بعظيم آباد بالقطع، كل ما عرف هو أنه لم يعجبه الحال هناك ولم يطب له المقام فغادرها.

وصوله إلى كلكتا:

لقد ذكر «ميرأمن» أنه فى النهاية ترك عياله وأطفاله وركب السفينة ووصل إلى «كلكتا» وسعى للحصول على الرزق.(٣٥) وقد قضى فيها مدة بدون وظيفة - ومن الممكن أن تعنى كلمة «مدة» هنا شهرا أو سنة - ثم جعله «نواب دلاورجنكك» معلما لشقيقه الأصغر، ومكث هناك حوالى سنتين، ثم رأى أنه لا يستطيع البقاء هناك أكثر من ذلك بعد أن كاد له الخبثاء، ثم توصل إلى السيد «جان جلجرست» مدير كلية «فورت وليم» عن طريق «ميربهادر على حسينى».

يقول عتيق صديقى فى كتابه «جلجرست اوراسكاعهد»:

[يبدو من أعمال مجلس الكلية بتاريخ ٢٩ من أبريل عام ١٨٠١ م أنه قد تم تعيين هؤلاء فى القسم الهندى للكلية ككتاب](٣٦).

وقد ذكر عتيق فى هذا الفهرس اسم «ميرأمّن» أيضا، ولو عنينا بلفظ «مدة» الذى ورد فى قول «ميرأمّن» أنه مدة عام، ووضعنا مدة سنتين فى ملازمة «نواب دلاورجنك» لا تضح لنا أن «ميرأمن» قد وصل إلى كلكتا قبل أبريل عام ١٨٠١م بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات على الأقل، ولو سلمنا جدلا بهذا لاستطعنا أن نقوله إنه قد مكث فى «عظيم آباد» حوالى ستة وثلاثين أو سبعة وثلاثين عاما بعد خروجه من دهلى عام ١٧٦١م.

وعلينا أن نضع فى الاعتبار قولا آخر «لميرأمّن» حيث يقول فى نهاية مقدمة «باغ وبهار»: [..إن هذا العاجز وصل إلى هنا متنزهاً فى كل مدينة ومشاهداً مناظرها](٣٧).

والمؤلف يعنى بلفظ «هنا» مدينة «كلكتا» ولا يمكن القول أى بلدان تنزه فيها؟ وهل مكث فى أى بلد ليختبر حظه؟ وكم من الوقت مكث؟ فلا يمكننا الرد على هذه الأسئلة، كما لا نعلم هل يعنى بقوله هذا مدة السفر من «عظيم آباد» إلى «كلكتا» أم مدة السفر كلها من دهلى إلى كلكتا؟.

ولابد لنا أن نضع فى الحسبان قوله فى شأن تنزهه فى كل بلد مع المدة المفترضة لمكوثه فى «عظيم آباد» لأننا لا ندرى كم كانت مدة السفر؟ وهكذا فإنه من الممكن أن يحدث فرق قليل أو كبير فى تعيين المدة التى مكثها فى «عظيم آباد».

عمله:

عمل «ميرأمن» فى البداية معلماً ومربياً فى «كلكتا» لدى «ميردلاور جنك» وأخيه الأصغر «مير محمد كاظم خان» ثم أدرك أنه لن يستطيع الاستمرار فى هذه الوظيفة وقد استطاع الاتصال بالسيد «جان جلجرست» مدير كلية فورت وليم(٣٨). فى بداية ١٨٠٠م، ولكن يبدو من وثائق الكلية أن مجلسها الذى عقد فى ٢٩ أبريل ١٨٠١م قرر تعيين الأشخاص الواردة أسماءهم فى تلك القائمة، وكان الاسم الأول فى هذه القائمة لـ «ميربهادر على حسينى» الذى كان كاتباً عامّا، وكان مرتبه مائتى روبية شهرياً، والاسم الثانى فى هذه القائمة كان «نزانى جرت منركا» الذى عين كاتباً ثانيا بمرتب قدره مائة روبية، ثم أسماء هؤلاء الذ ين كان مرتبهم أربعين روبية، وهم:

١- مرتضى خان

٢- غلام أكبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ـ نصر الله

٤ـ ميرأمن

٥ـ غلام أشرف

٦ـ هلال الدين

٧ـ محمد صادق

٨ـ رحمة الله خان

٩ـ غلام غوث

١٠ـ كندن لال

١١ـ كاشى راج

١٢ـ مير حيدر بخشى (حيدرى)

أى أن «ميرأمّن» و «ميربهادر» «على حسينى» قد تقرر تعيينهما فى كلية فورت وليم فى نفس الوقت، وكما سبق أن ذكرنا فإن «ميرأمن» قد وصل إلى جلجرست بواسطة حسينى، ويبدو من هذا أن جلجرست كان يعرف حسينى قبل هذا التاريخ.

ويؤيد هذا القول إن ميرأمن قد تم تعيينه ككاتب فقط، أما حسينى فقد تم تعيينه فى وظيفة «ميرمنشى» فإن لم يكن جلجرست يعرفه جيدا من قبل، فكيف يصدر قرارا بتعيينه فى منصب «ميرمنشى» مباشرة؟

وعلى أية حال فإن «محمد عتيق صديقى» فى مؤلفه «جلجرست أوراسكاعهد» قد أورد فهرسًا مفصلا لمصنفى كلية «فورت وليم» وفيه أن تعيين «ميرأمن» كان فى ٤ مايو عام ١٨٠١م(٣٩).

ومن الفهرست السابق لا يبدو أن أسماء ما تحت وظيفة «كاتب» قد وردت على هذا النحو من الترتيب نفسه، ولكن البروفيسور «أحمد فاروقى» قد أوردها بمثل هذ ا الترتيب مع بعض التقديم والتأخير، ونستنتج من ترتيبه أن «ميرأمن» قد احتل المرتبة الرابعة فى وظيفة ما تحت كاتب(٤٠) (أو كاتب ثانى).

وظل «ميرأمن» موظفا فى كلية فورت وليم حوالى ست سنوات إلى أن قدم استقالته، وقد أكمل أثناء عمله كتابيه «باغ وبهار» و «كنج خوبى».

استقالته من الوظيفة ووفاته:

عمل «ميرأمن» فى الكلية فى ٤ مايو سنة ١٨٠١ م وحتى يونيو ١٨٠٦م، وقد صرح «صديقى» لأول مرة فى العدد رقم ١ لمجلة «لغتنا» الأسبوعية من خلال أعمال «فورت وليم» أن رئيس شعبة اللغة الهندية قد شكا فى ٤ من يونيو عام ١٨٠٦م من أن «ميرأمن» قد رفض التدريس لأحد الطلاب، وقد اعترف ميرأمن بما ورد فى الشكوى المعروضة على مجلس الكلية واعتذر متعللاً بكبر سنه وضعف جسمه وبعد الإطلاع على أقواله توصل مجلس الكلية إلى أن «ميرأمن» يريد الاستقالة من هذه الوظيفة، فقرر المجلس أن يمنحه راتب أربعة أشهر علاوة على راتب الشهر الجارى مع قبول استقالته(٤١).

وقد ذكر هذا القول خواجه أحمد فاروقى أيضا فى مقدمة «كنج خوبى» لكنه لم يذكر اكتشاف «عتيقى صديقى».

ولا يعرف أين ذهب وكم بقى على قيد الحياة بعد خروجه من الكلية؟

وقد كتب بروفيسور «ممتاز حسين» فى مقدمة «باغ وبهار» أن الشيخ المسن «ميرأمن» قد انتقل إلى جوار ربه فى هذا العام أى ١٢١٧ هـ/١٨٠٢م(٤٢).

وقد ذكر المؤلف أن مرجع هذا القول إلى «تذكره هميشه بهار» «لنصر الله خان خورجوى» الذى ذكر فيه ابن «ميرأمن» مير أحسن فكتب يقول:

[أسلم أبوه الروح فى صباح يوم الخميس سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م](٤٣).

وعلى أية حال فإن «ميرأمن» قد عاش حياة صعبة متنقلاً من بلد إلى آخر، ولكنه ترك لنا كتاباً ما زال علامة مضيئة على جبين الأدب الأردى وهو كتاب«باغ وبهار».

هوامش الفصل الثانى

* أسست كلية فورت وليم نتيجة لتحول شركة الهند الشرقية من مجرد شركة قامت لغرض التجارة الإنجليزية فى إقليم الهند، لشركة تقوم بخدمة الأغراض السياسية والاستعمارية للملكة البريطانية فى تلك البلاد، وقد أدرك القائمون على إدارة تلك الشركة أنهم لن ينجحوا فى أهدافهم إلا إذا أتقن موظفى الشركة اللغة الأصيلة لأهل البلاد حتى يتمكنوا من التوغل فى شئون البلاد ويسيطرون على مقاليد الحكم فيها، وبالفعل قام الحاكم العام اللورد ولزلى فى ١٨ من أغسطس ١٨٠٠ ميلادية بإنشاء كلية فورت وليم لتدريس اللغة الأردية وآدابها للضباط الإنجليز من موظفى الشركة وعين السيد جان جلجرست مديرا لشعبة اللغة الأردية وآدابها وكان من أهداف كلية فورت وليم تبسيط الأدب وتنقيته من فنون الصنعة المفرطة حتى يسهل على الأجانب فهمه وتعلمه. ومن الذين التحقوا بالعمل فى تلك الكلية - علاوة على ميرأمّن الدهلوى، مير بهادر على حسين، مير محمد كاظم على جوان، مير حيدر بخشى حيدرى، وقد اختتمت الكلية أعمالها وتوقفت فى عام ١٨٥٤م. وقد أسدت تلك الكلية للأدب الأردى خدمات جليلة بما قدمته من روائع أدبية على يد من التحق بها من أدباء أمثال ميرأمن - بهادر على حسين - وحيد بخشى حيدرى.

(انظر: د. سميع الله، فورت وليم كالج ايك مطالعه، ط١، نشاط آفست بريس تانده، فيض آباد، أبريل ١٩٨٩م، ص ١٠ إلى ٥٧. وأيضا: ايشورى برشاد (داكتر) نيو هسترى آف انديا، ريو ايزد ايدشن (اردو) اندين بريس، اله آباد ١٩٤٥م، ص(٤١١).

(١) د. نفيس جهان بيكم: ميرأمن دهلوى حيات وتأليفات، ص ٤١.

(٢) باغ وبهار ازميرأمن دهلوى، مرتبه رشيد حسن خان، ص١٢ -١٣.

(٣) المرجع السابق، ص٦.

(٤) نفس المرجع، ص٦.

(٥) مقدمة باغ وبهار: رشيد حسن خان، ص٥١.

(٦) ميرأمن دهلوى حيات وتأليفات: ص٤٣.

(٧) The Oxford history of India from the earliest times to the end of 1911. By: Vincent. Smith, C.I.E Oxford 1920, p326,327.

(٨) Cambridge history of India, ed, Six. Richard Burn, Cambridge, 1937.

(٩) ميرأمن حيات وتأليفات: ص٤٤.

(١٠) رشيد حسن خان: باغ وبهار، ص١٣.

(١١) كريم الدين: طبقات شعراء الهند، ط١، لكنهو. الهند، ص٢٣٦.

(١٢) محمد يحيى تنها: سير المصنفين، حصه اول، محبوب مطابع، دهلى، ١٩٢٤م، ص٧٣.

(١٣) سيد محمد: أرباب نثر اردو، اعتقاد ببلشنك، نيودلهى، ١٩٧٧م، ص٥٨.

(**) الطف فى العالم بلطف يارب بحق رسول كبار

(١٤) القصة الأردية دراسة تحقيقية نقدية: إسلام آباد، مارس، ١٩٨٧م، ص١١٦.

(١٥) ميرأمن: كنج خوبى، طبعة القسم الأردو بجامعة دهلى عام ١٩٩٦م، ص٥.

لست بشاعر ولا بأخ لشاعر واختبرت نفسى فقط

(١٦) الأصل الفارسى:

إن احتجاب وجه حبيبى غبار لجسد ى..

فما أطيب تلك اللحظة التى أرفع فيها الحجاب عن هذا الوجه

(١٧) The strangers infalible East India Guide, p.113.

(١٨) وحيد قريشى: باغ وبهار، ايك تجزيه، لكنهو، ص١٨.

(١٩) سيأتى التعريف بهذ ا الكتاب بعد قليل.

(٢٠) باغ وبهار، ص٤.

(٢١) المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٢٢) نفس المرجع، ص٧.

(٢٣) باغ وبهار، ص٦.

(٢٤) ميرأمن الدهلوى: كنج خوبى، ص٤.

(٢٥) باغ وبهار، المقدمة، ص٩.

(٢٦) ميرأمن حيات وتأليفات: ص ٤٩.

(٢٧) ورد الحديث عن هذه الوقائع فى فصل الظروف البيئية.

(٢٨) ميرأمن الدهلوى: باغ وبهار، مقدمة ممتاز حسين، ص٢٤.

(٢٩) Fall of the Moghal Eimpire. By: Firtolumth Sarkar, Vol. I edition 1971, Chapters, 15, 16.19, 23.

(٣٠) باغ وبهار، مقدمة رشيد حسن، ص١٤.

(٣١) المرجع السابق، ص١٤.

(٣٢) ملحق تشريحات، ص٢٦٤، الهامش١٠.

(٣٣) باغ وبهار، ايك مطالعه، ص٥١.

(٣٤) المرجع السابق، ص٧٠.

(٣٥) رشيد حسن خان: باغ وبهار، ص١٢.

(٣٦) محمد عتيقي صديقي: جان جلجرست اوراسكا عهد، ط٢، ص١٢٠.

(٣٧) مقدمة باغ وبهار، ص٩.

(٣٨) Origins of Modern Hindustans Literature, p.105.

(٣٩) جلجرست اوراسكا عهد: ص١٩٨.

(٤٠) كنج خوبى از ميرأمن دهلوى، مقدمة خواجه أحمد فاروقى، ص١٠٦.

(٤١) باغ وبهار: مرتبة سليم اختر ص٢٣٣، وأيضا كنج خوبى: مقد مة ص٦.

(٤٢) باغ وبهار: مقدمة ممتاز حسين، كراتشى ١٩٥٨م، ص٤٨.

(٤٣) المرجع السابق، ص٥.

الفصل الثالث

الإنتاج الأدبي لميرأمّن الدهلوي



نسب إلى «ميرأمّن» عملان هما: «باغ وبهار» و«كَنج خوبى». وقد بدأ «ميرأمّن» فى تأليف «كَنج خوبى» فى عام ١٢١٧هـ - ١٨٠٢م حيث ذكر «ميرأمّن» نفسه ذلك صراحة فى مقدمة كَنج خوبى (١).

وقد استغرق تأليف هذا الكتاب عامين فقد أتمه فى عام ١٢١٩هـ الموافق ١٨٠٤م، ويعرف هذا من الأبيات التى وردت فى آخر كتاب «كَنج خوبى» فهو يقول:

كَنج خوبى جب كيايين نى تمام

تهنى ايك تاريخ هوئى مجكو ضرور

تب كها دل سى كه كر ميرى مدد

وه لكاَ كهتى به شادى وسرور

كَنج خوبى لطف سى معمور سى

ليك كر بدكَو كو اس مصرع سى دور

(١٢٥١، ٣٢ - ١٢١٩هـ) (٢)

و«كَنج خوبى» ترجمة لأخلاق محسنى ذلك الكتاب الفارسى الشهير فى الأخلاق وقد ترجمه «ميرأمّن» نزولا على رغبة «جان جلجرست» ليدرس فى كلية فورت وليم، وقد كتب «ميرأمّن» فى مقدمة الكتاب ما يلى:

[أمرنى بلطف السيد جان جلجرست نعمة الله صاحب الخلق والمروءة ومقدر اللغة الأردية أن أقوم بترجمة أخلاق محسنى الفارسى إلى لغتنا ليدرس فى الكلية فقبلت على الرأس والعين] (٣).

وكتاب أخلاق محسنى كان ذا مكانة مرموقة بين كتب الأخلاق الفارسية ومؤلفه هو «كمال الدين حسين بن على كاشفى سبزوارى بيهقى» الذى يعرف عامة بـ «ملاحسين كاشفى» أو «ملاحسين واعظ كاشف» وقد ولد فى قرية بيهق فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى. وقد تلقى تعليمه هناك ثم اشتغل بالوعظ والتفكير، ثم جاء إلى هراة عن طريق نيسابور ومشهد وقضى أوقاتا فى صحبة مولانا جامى وظل بها حتى توفى عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤ م .

وألف ملا واعظ كاشفى حوالى أربعة عشر كتاباً من أشهرها:

١ - «جواهر التفسير لتحفة الأمير» وهو تفسير للقرآن فى مجلدين والذى عنون باسم «على شيرنوائى».

٢- «جامع الستين» وهو تفسير لسورة يوسف.

٣- «مواهب عليه» المعروف بـ «تفسير حسينى».

٤- «مختصر الجواهر» وهو خلاصة «جواهر التفسير».

٥- «روضة الشهداء» وهو مشهور فى موقعه كربلاء ترجم فى الأردية باسم «كربل كتها».

٦- «أنوار سهيلى» وهى ترجمة لكليلة ودمنة وكانت تدرس لفترة طويلة فى الهند. أما عن «أخلاق محسنى» فقد سمى المؤلف هذا الكتاب بهذا الاسم لأنه ينسب إلى الأمير التيمورى «مير أبو الحسن». ومن حسن الحظ أنه يتضح من اسم الكتاب نفسه عام التأليف بحساب الجمل وعبارة التاريخ الفارسية التى ترجمها «ميرأمّن» نذكرها فيما يلى:

[قلت للقلم إنك قلبت الرأس عقباً، فنور عين الكلام من تراب قدمك، وقد كتب الآن «أخلاق محسنى» كله اكتب تاريخ هذا «أخلاق محسنى»] (٤). (٩٠٠هـ)

ويشتمل «أخلاق محسنى» على أربعين باباً وخاتمة، وقد قام «ميرأمّن» بترجمة الكتاب كله لكنه كتب مقدمة ثانية قبل مقدمة الكتاب الأصلى كما أضاف من عنده خاتمة بعد انتهاء الترجمة.

وقد أشار «ميرأمّن» فى مقدمته إلى بعض النقاط الجذابة؛ فعلى سبيل المثال: شيد الإنجليز على شاطئ البحر فى كلكتا قلعة فى مواجهة بيت حاكم الولاية يقول عنها «ميرأمّن» [لم ير أحد فى الهند مثل هذا المكان ولا سمع عنه فلو نظرت من جهة القلعة سيبدو لك أنه أنف للمدينة. وقد أصبح بسببه شكل المدينة أفضل من ذى قبل وقد بدت القلعة كرأس والمدينة كجسم] (٥).

وبعد ذلك نظم «ميرأمّن» فى بيتين من الشعر تاريخ تأسيس بيت الحاكم فيما يلى:

جب بناى مكان عالى شان

وصف كر سكتى نهين بى جس كازبان

پوچهى دل سى بناكى مين تاريخ

بولابى جفت طاق نو شيروان» (٦)

١٢١٤ هجرى- (١٨٠١ ـ ١٨٠٢م)

ويشتمل «كَنج خوبى» على أربعين بابا مثل «أخلاق محسنى» وتفصيله كما يلى:

الأول: فى العبادة

الثانى: فى الإخلاص

الثالث: فى الدعاء

الرابع: فى الشكر

الخامس: فى الصلاة

السادس: فى الرضا

السابع: فى التوكل

الثامن: فى الحياة

التاسع: فى الغضب

العاشر: فى الأدب

الحادى والثلاثون: فى الغيرة

الثانى والثلاثون: فى السياسة

الثالث والثلاثون: فى اليقظة

الرابع والثلاثون: فى الفراسة

الخامس والثلاثون: فى كتمان السر

السادس والثلاثون: فى انتهاز الفرصة

السابع والثلاثون: فى رعاية الحقوق

الثامن والثلاثون: فى صحبة الأخيار

التاسع والثلاثون: فى دفع الأشرار

الأربعون: فى تربية الخدم

والأبواب الأربعون لكَنج خوبى تمثل الصفات الأربعين التى يقول عنها المصنف إن الملوك يحتاجون إليها ولابد من رعايتها (٧) .

وقد أعد مصنف «أخلاق محسنى» كتابه على النحو التالى إذ يذكر أولا صفة أخلاقية مثل العبادة والشكر والصبر والغضب والشجاعة وغير ذلك ثم يشرحها، مع إلقاء الضوء عليها من خلال حكايات ونصائح لتتضح الصفة ويكون كلامه أكثر تأثيراً، أما كتاب «كَنج خوبى» فمختصر بصفة عامة؛ فباب العبادة على سبيل المثال يشتمل على صفحة ونصف فقط، وباب الإخلاص صفحة واحدة، وباب الدعاء يشتمل على ما يقرب من صفحتين، ومع هذا فبعض الأبواب طويلة نسبيًا، وعلى سبيل المثال فإن الباب الخامس عشر يحتوى على نحو عشرين صفحة، وأطول باب فى «كَنج خوبى» هو الباب الأربعون الذى يتعلق بتربية الخدم ويشتمل على اثنتين وستين صفحة. أورد ميرأمَن فى بعض حكايات كَنج خوبى اسم صاحب الحكاية التى قد تكون شخصية تاريخية، وعلى سبيل المثال فقد أورد اسم السلطان سنجر فى إحدى الروايات (٨) .

أخلاق محسنى وكَنج خوبى:

ونذكر فيما يلى بعض الاختلافات بين «أخلاق محسنى» و«كَنج خوبى» ليتضح الفرق بين الأصل والترجمة.

جاءت حكاية المجرم أمام خليفة خراسان فى الباب الثانى «الإخلاص» لأخلاق محسنى، وقد ذكر فى «كَنج خوبى» خليفة مصر بدلا من خليفة خراسان (٩).

وقد جاءت قصة البنت الجميلة لعالم مرو فى الباب الثامن والعشرين لأخلاق محسنى التى تبدأ هكذا:

[وكان لأحد علماء مرو بنت بارعة الحسن] (١٠).

ولا يوجد فى ترجمة «ميرأمّن» اسم المدينة وعبارته كما يلى:

[كان هناك بنت ذات جمال فتان وخصال حميدة لأحد العلماء] (١١).

وترجمة ميرأمّن فى بعض الأحيان تكون تفسيراً وبياناً للأصل الفارسى بدلا من أن تكون ترجمة محضة، فهو يغير الجملة الفارسية البسيطة إلى عبارة ذات تصوير فنى جذاب، وذلك بسبب سعة أفقه وقدرته على التخيل.

وعلى سبيل المثال:

وردت فى «أخلاق محسنى» فى قصة يعقوب الليث هذه الجملة:

«جاء يعقوب مرتدياً تمام أسلحته» (١٢).

أما ميرأمّن فقد فصل القول كما يلى:

[صعد يعقوب إلى أعلى البيت لابساً درعاً فولاذيا وخوذة وسروالا حديديا وجورباً حديدياً وقفازات حديدية، وكان يتمنطق بحزام ومتسلحاً بالأسلحة الخمسة وقد ارتدى نظارة معظمة ليرى معسكر الجيش» (١٣).

وقد حذف ميرأمّن فى بعض المواضع الأسماء المذكورة فى «أخلاق محسنى» مثلا ذكر مؤلف «أخلاق محسنى» فى الباب الرابع والثلاثين قصة الإمام الشافعى والإمام محمد، ولكن حُذف هذان الأسمان من كَنج خوبى وذكرا على أنهما شيخان مقربان إلى الله (١٤).

وبالمقارنة بين عبارات أخلاق محسنى وكَنج خوبى يتضح صدق دعوى ميرأمَن وهو أنه صاغ مفهوم الأصل الفارسى فى محاورة يومية لدهلى (١٥).

فنجده يضيف، أحياناً لفظة واحدة على العبارة الفارسية فيجعل المفهوم أكثر سعة وتأثيراً، وفى بعض الأحيان يستخدم فى الترجمة الاستعارة أو المحاورة حتى أنه يمكن القول: إن ترجمة «ميرأمَن» قد فاقت الأصل الفارسى فى بعض المواضع (١٦).

ميرأمَن شاعرا:

اهتم ميرأمَن فى ترجمته لـ «أخلاق محسنى» بترجمة النثر نثراً، وترجمة الشعر نظما. ولكن ما حقيقة هذه الأبيات المنظومة، يقول ميرأمَن:

[لقد انتقى المؤلف حوالى ألف بيت للأساتذة من الكتب ووضعها فى موضعها المناسب، وقمت بنظمها بالهندية حسب فهمى، وما أردت طوال حياتى أن أقرض شعراً، لكن المضمون الذى ورد فى ذهنى دون عمد قد قمت بنظمه ولست تلميذاً لأحد ولا أستاذاً لأحد.

لست شاعرا ولا أخ لشاعر

لكننى فقط اختبرت مزاجى وطبيعتى (١٧)

ويتضح من خلال أشعار كَنج خوبى أن ميرأمَن قد نظم الأبيات الفارسية بلفظها فى الهندية ولهذا يمكن القول: إنه كان ناظماً جيداً وما كان بشاعر.

وإذا كنا قد تحدثنا فى هذا الفصل عن «كَنج خوبى» فقط فهذا يرجع إلى أن عمله الثانى موضوع رسالتنا سيكون له أحاديث أخرى فى كل أبواب وفصول الرسالة ولن يكون تناوله سريعاً كما فعلنا فى «كَنج خوبى».

هوامش الفصل الثالث

(١) ميرأمّن دهلوى، كَنج خوبى: مدققة خواجه أحمد فاروقى، شعبه أردو دهلى يونى ورستى ١٩٦٦م - ص،

(٢) كَنج خوبى، ص ٣٢ .

عندمـــا أتممت كَنج خـــوبى

كـــان من المحـــتم أن يلم بى الوهن

فـــقلت للقلب ســـاعـــدنى

فـــبـــدأ يقـــول بفـــرح وســـرور

كَنج خـــوبى مـــعـــمـــور باللطف

لكن أجعل سليط اللسان بعيدا عن هذا المصراع

١٢٥١ - ٣٩ = ١٢١٩ هـ.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠٣ .

(٤) كَنج خوبى، ص ٣٢٠ .

(٥) المرجع السابق، ص ٢ .

(٦) عندما أسس هذا المكان الشامخ

عـــجـــز اللســـان عن وصـــفـــه

ســـألت قلبى عن تاريخ تأســـيـــســـه

قـــال «زوج وفـــردا أنو شـــيـــروان»

١٢١٦هـ (١٨٠١ م - ١٨٠٢م)

(٧) كَنج خوبى: ص ١١ .

(٨) كَنج خوبى: ص ١٩ .

(٩) أخلاق محسنى: ص ٨، كَنج خوبى، ص ١٤ .

(١٠) كَنج خوبى: ص ١٤ .

(١١) أخلاق محسنى : ص ٨٩ .

(١٢) أخلاق محسنى: ص ٩٥ .

(١٣) كَنج خوبى: ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(١٤) أخلاق محسنى: ص ١١٩ ـ كَنج خوبى، ص ١٩٠ .

(١٥) كَنج خوبى: ص ٤، ٥ .

(١٦) ميرأمّن دهلوى حيات وتأليفات: ص ٢٤٣ .

(١٧) كَنج خوبى: ص٥ .

نه شاعر هون مين أورنه شاعر كا بهائى

فقط مين نى كى ابنى طبع أزمائى



الباب الثانى

كتاب باغ وبهار



الفصل الأول

التعريف العام بالكتاب



يعد كتاب «باغ وبهار» من أشهر المؤلفات النثرية فى الأدب الأردى وأكثرها جاذبية على الإطلاق، وقد ألف «ميرأمّن» هذه القصة أثناء عمله بكلية «فورت وليم» (١).

وبين «ميرأمّن» بعد الحمد والثناء، سبب تأليف الكتاب فقال:

[إنه فى عهد الجنرال الحاكم (ماركوس ولزلى) اشتاق السادة العظماء إلى تعلم اللغة الأردية والحديث بها مع أهل البلاد، وإتمام جميع المهام الملكية بها، فألفت فى هذا العام كتب عديدة طبقا للأوامر] (٢).

يقول «ميرأمّن» إنه بدأ فى تأليف كتاب «باغ بهار» فى سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م لكنه نظرا لضيق الوقت أتم هذا الكتاب فى بداية سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م، فيقول فى نهاية كتابه:

[كنت أفكر فى أن أسميه «باغ وبهار» إذ إنه اسم جميل، كما أن اسمه هذا يتفق مع تاريخ إتمامه بحساب الجمل، ولهذا أسميته عندما فرغت من تأليفه: «باغ وبهار».

عندما اكتمل باغ وبهار

كان هذا عام ١٢١٧هـ

والآن سيروا فيه ليلاً ونهاراً

لأن اسمه وتاريخه هو باغ وبهار (٣)

ولمزيد من تأكيد هذا التاريخ يقول «ميرأمّن» فى كتابه «كنج خوبى»:

[بدأت هذا الكتاب لتربية أطفال هذا الكثير العيال (يقصد نفسه) بعد إتمام باغ وبهار فى سنة ١٢٧١هـ / ١٨٠٢م] (٤).

لكن هناك قرائن تدل على أن «باغ وبهار» قد أكمل قبل عام ١٨٠٢م، فنقدم أولا فى هذا الصدد تقريرا «لجان جلكرست» نفسه قدمه فى مجلس الكلية فى ١٢ من يناير ١٨٠٢م، وقد ذكر فى هذا التقرير عدد صفحات كل كتاب وبيان رسم الخط، وحساب تكاليف الطبع، كما ذكر فى هذا التقرير اسم كتاب «باغ وبهار» لميرأمّن فى المرتبة السابعة، وعدد الصفحات فى هذه النسخة ٤٣٢ صفحة، ومقاسها ربع صغير، وكان هذا الكتاب فى رسم الخط الفارسى، ومن المحتمل أن تكون تكاليف طباعة خمسمائة نسخة هو ثمانية آلاف وثمانمائة روبية، وحسب تقرير «جلكرست» أن ثمانية وخمسين صفحة «لباغ وبهار» قد تمت طباعتها فى ١٢ من يناير ١٨٠٢م (٥).

وعندما رفض مجلس الكلية خطة الطباعة التى قدمها «جلكرست» كتب رسالة إلى مجلس الكلية فى ٢٠ من يناير ١٨٠٢ م، ولنتأمل هذه العبارة التى وردت فى هذه الرسالة:

[.. إننى بذلت جهداً حوالى ثمانية أشهر فى إعداد ستين صفحة من كتاب جهار درويش أى «باغ وبهار» ...] (٦).

ويتضح من هاتين القرينتين أن «باغ وبهار» لميرأمّن قد اكتمل عام ١٨٠١م علاوة على أن «ميرأمّن» قد أورد طلباً فى مقدمة «باغ وبهار» كتب فيه:

[جعل هذا الفقير إلى الله قصة «جهار درويش» بعد جهد جهيد فى لغة الأردو الفصيح «باغ وبهار»] (٧).

فلو كان هذا الطلب للوظيفة، فمعنى ذلك أنه أكمل «باغ وبهار» قبل أن يتقرر تعيينه فى «فورت وليم» فى يناير ١٨٠١م، لكنه من الممكن ألا يكون هذا الطلب للوظيفة، بل يكون من أجل الحصول على المكافأة والأجر، لأن الكلية قررت فى ٣١ من أغسطس ١٨٠٢م أن تمنح ميرأمّن الموظف فى الكلية، مكافأة قدرها خمسمائة روبية نظير ترجمته لقصة جهار درويش من اللغة الفارسية إلى اللغة الأردية (٨).

ويرى واحد ممن فهرسوا المخطوطات الأردية للمكتب الهندى أن «باغ وبهار» قد اكتملت فى ١٢١٥هـ / الموافق ١٨٠١م وكان اسمها «جهار درويش» طبقا للاسم الأصلى للرواية، لكنها اشتهرت باسم «باغ وبهار» وهو الاسم الذى يتفق وتاريخ الانتهاء منه بحساب الجمل(٩).

ويوفق محمد عتيق صديقى بين هذين التاريخين، فيقول:

«من الضرورى أن نبدى فى هذا الصدد احتمالا وهو أنه عندما أجلت طباعة «جهار درويش» [أى باغ وبهار] مع طباعة الكتب الأخرى، من الممكن أن يكون «ميرأمّن» قد جعل اسم كتابه «باغ وبهار» بعد إعادة النظر فى نسخة «جهار درويش»، وذكر فى هذه المناسبة سنة تأليفه وهى ١٢١٧هـ الموافق ١٨٠٢م (١٠).

وهذا الاحتمال هو الأقرب إلى التصديق فيما يتعلق بتاريخ التأليف والطبع بالنسبة لكتاب «باغ وبهار».

مختلف طبعات «باغ وبهار»:

لازال تدوين وتصحيح ونشر قصة «باغ وبهار» يجرى حتى اليوم ويعمل على تصحيح متنه ولغته الدارسون فى الهند وباكستان وأوربا.

١ـ نسخ مخطوطة قديمة:

توجد نسخة خطية «لباغ وبهار» فى المكتب الهندى بلندن، ولكن دون ذكر لتاريخ تحريرها، وهى مكتوبة بخط «النستعليق» وبها أخطاء إملائية كثيرة، وفى آخرها كتبت جملة تمام نشر ـ تمت ـ والصفحات غير مرقمة، ومتنها كامل.

وطبقاً لنظام إملاء «جلجرست» والذى كان مطبقًا بالتزام على مطبوعات «فورت وليم» فإن علامات أصوات اللين وأصوات المجهول كان لابد من وضعها، وكذلك علامات القراءة، أما فى هذه المخطوطة فقليلًا ما نرى الكسر والفتح والعلامات الأخرى كذلك، ونجد علامات أصوات اللين والمجهول فى أوائل الصفحات وأواخرها،وتقل فى أواسطها، على أى حال يعلم من هذا، أن كاتب هذه النسخة كانت أمامه بالضرورة نسخة أخرى كتبت طبقاً لنظام «جلجرست» فى الإملاء، وإن كنا لا نعلم أى نسخة هذه التى نقل عنها ناقل هذه النسخة موضوع الكلام، ولكنها تطابق نسخة الكتالوج الهندى فى الغالب (١١).

كما توجد مخطوطتان «لباغ وبهار» وإحدى هاتين المخطوطتين ملك الدكتور «جان جلجرست» وهى غالباً التى كتب مسودتها «ميرأمّن» بنفسه، والتى قدمها إلى «جلجرست» لينال رضاه، والمخطوطة الثانية ملك لمستر «جان رومر» والتى كتبت تحت رعاية كل من

«ميرأمّن» و«رومر» (١٢)، و«جان رومر» هذا كان موظفًا فى شركة الهند الشرقية، وقد ارتبط بها هو و«ميرأمّن» من سنة ١٨٠٢م حتى عام ١٨٠٤م، وعين مدرسًا للهندية، ولدى «جان رومر» أيضًا نسخة خطية من كتاب «كنج خوبى» لميرأمّن، والتى أعطاها لمؤسسة «رويال إيشياتك» بلندن (١٣).

٢- النسخ المطبوعة:

طبع «باغ وبهار» مرات عديدة، ولكن من ناحية التدوين، فهناك ثلاث نسخ جديرة بالذكر، الأولى نسخة الكتالوج الهندى والثانية هى التى طبعت لأول مرة كاملة بمطبعة هندوستانى بكلكتا، والثالثة هى التى رتبها وأعدها «دنكن فاربس»، وهناك نسخة أخرى جديرة بالذكر وهى التى حققها «مولوى عبدالحق» وفيما عدا ذلك من طبعات فكلها تعتمد على نسخة «عبدالحق» (١٤).

(١) نسخة الكتالوج الهندى:

وهى التى طبعت فى مجلد يجمع بين دفتيه كتبًا أخرى بناء على قرارات مجلس كلية «فورت وليم» والتى اتخذها بعد مراسلات بينه وبين «جان جلجرست» وقد جاءت «باغ وبهار» فى هذا الكتاب فى ١٠٢ صفحة، ولا توجد نسخ للكتالوج الهندى اللهم إلا واحدة فى مكتبة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن (١٥).

وأهمية هذه النسخة أننا نعرف منها أن «ميرأمّن» قد راجع القصة قبل الطباعة، وثانيا أننا من خلالها يمكننا تصحيح الأخطاء التى وقعت فى الطبعة الأولى، وهذه النسخة كما ذكرنا عبارة عن ١٠٢ صفحة ، وكتبت بالخط النسخ، والتزم فيها بقواعد الإملاء الخاصة «بجلجرست» (١٦).

ونجد فى هذه النسخة أيضا بعض العناوين وقد كتبت بالحروف الإنجليزية والبعض الآخر بالحروف الكجراتية (١٧).

الطبعة الأولى [طبعة كلكتا ١٨٠٤م]:

وهى من حيث الترتيب الزمنى تعد الثانية ولكنها الأولى من حيث كونها الطبعة الكاملة الأولى، وقد طبعت فى كلكتا عام ١٨٠٤م، كما جاء فى نهايتها، مع أنه كتب فى صفحتها

الأولى أنها طبعت عام ١٨٠٣م، وهذا الاختلاف كان مألوفا فى تلك الفترة ونجد له أمثلة كثيرة فى ما طبع آنذاك من كتب، وربما يكون السبب فى ذلك هو أن التاريخ المكتوب على الصفحة الأولى هو تاريخ إرسال الكتاب إلى المطبعة وبداية الطبع، والتاريخ الذى ورد فى الصفحة الأخيرة هو تاريخ تمام الطبع.

ومن هذه الطبعة ثلاث نسخ، الأولى منها موجودة فى مكتبة آنجمن ترقى اردو، أما الثانية ففى مكتبة الجامعة الإسلامية بعلى كرهـ، وثالثتها موجودة فى مكتبة المكتب الهندى بلندن.

والنسخة الأولى كاملة وتقع فى ٢٥٠ صفحة إضافة إلى فهرس وصفحة لتصحيح الأخطاء (١٨).

وبالرغم من إلحاق التصحيح بنهاية النسخة إلا أن بها أخطاء عديدة أشير إليها فى الحاشية (١٩).

الصفحة الأولى من الطبعة الأولى:

أشار مولوى عبدالحق فى النسخة التى حققها إلى ماكتب على الصفحة الأولى من هذه الطبعة من أن «باغ وبهار» مأخوذة عن «نوطرز مرصع» التى هى ترجمة للقصة الفارسية «جهاردرويش»، ولكن السؤال هو: هل كتب «ميرأمّن» هذا الكلام بنفسه؟ فإن كانت من عمل «ميرأمّن»فلماذ لم يشر إلى ذلك فى الكتاب؟ (٢٠).

المقدمة:

أما فيما يتعلق بالمقدمة والتى جاءت فى تسعة عشر سطرا فيتصور أنها لـ «جان جلجرست»، ويرجع هذا التصور إلى ما كتبه «دنكن فاربس» فى مقدمة النسخة التى أعدها، وهو أن هذه المقدمة يبدو أنها «لجلجرست»، وبالطبع فهذا ليس كلاما مؤكدا، وينبغى التحفظ حياله، لأنه لم يرد فى هذه المقدمة لا فى بدايتها ولا فى نهايتها اسم كاتبها صراحة، وربما تكون هذه المقدمة ناقصة أصلا، وسقطت تكملتها ولم تشملها أية نسخة (٢١).

نسخة «دنكن فاربس ١٨٤٦م:

قام هذا المستشرق الإنجليزى المشهور، بتحقيق إحدى نسخ «باغ وبهار»، وقد طبعت هذه النسخة أربع مرات، المرة الأولى فى لندن عام ١٨٤٦م، والمرة الثانية عام ١٨٤٩م فى لندن

أيضا، ويوجد نسخة من هذه الطبعة فى مكتبة جامعة (بومباى) ونسخة أخرى فى مكتبة الجمعية الأسيوية بكلكتا، أما الطبعة الثالثة وهى بنفس مكتبة الجمعية المذكورة وصدرت من لندن أيضا عام ١٨٥١م، والطبعة الرابعة كانت عام ١٨٦٠م بلندن كذلك (٢٢).

وقد كتب المحقق فى مقدمته أن متن هذه النسخة كتب طبقاً لمتن الطبعة الأولى (أى طبعة كلكتا) التى صدرت عام ١٨٠٣م. ومن هنا فإن هذه النسخة على قدر كبير من الأهمية، وترجع أهميتها أيضا إلى أن النسخة التى حققها «مولوى عبدالحق» كانت قد كتبت طبقا للنسخة التى حققها «فاريس» وقد طبعت نسخة «فاريس» عام ١٨٤٦م.

وكتب «فاريس» فى مقدمة الطبعة الرابعة أنه توجد بعض الأشياء التى يمكن الاعتراض عليها فى أصل متن «ميرأمّن» ومثل هذه الأخطاء توجد عموما فى الكتابات الشرقية (٢٣).

وقد كتب على الصفحة الأولى (الغلاف) لهذه النسخة فى السطرين الأخيرين هذه العبارة [... ١٢٦١هـ الموافق ١٨٤٥م فى مطبعة وليم واتس].

وقد ورد فى الصفحة الأخيرة منها، أن سنة الطباعة عام ١٨٤٦م، ويشتمل متنها على ٢٦٠ صفحة، ثم يليها قاموس مفصل لكلماتها، يحتوى وحده على ١٣٢ صفحة ولم يلتزم «فاريس» فى نسخته هذه بقواعد إملاء «جلجرست» (٢٤).

نسخة مولوى عبدالحق (١٨٦٩م):

ليس لهذه النسخة أهمية خاصة إلا أنه ثمة أمرين نستطيع بناءً عليهما أن نجعل لها قدراً من الأهمية، الأمر الأول هو المقدمة التى كتبها «مولوى عبدالحق» وكتب فيها أن «ميرأمّن» قد أخذ قصته من قصة «نوطرز مرصع» لميرزا عطا حسين خان (٢٥) وهذا الأمر لم يشر إليه «ميرأمّن» فى ثنايا قصته، وقد أورد «مولوى عبد الحق» الأمثلة التى تبرهن على ذلك، مما يدل على أن «مولوى» لم يطلع على الطبعة الأولى والتى صرح فيها «ميرأمّن» بأن قصته مأخوذة عن قصة «جهار درويش».

وهناك أمر آخر يجعل أهمية لما كتبه «مولوى عبدالحق» وهو أنه ألقى الضوء على كتاب «باغ وبهار» فى وقت لم يكن معروفاً فيه لدى العامة والخاصة، ومن الجدير بالذكر أن «مولوى عبدالحق» رتب نسخته طبقاً لنسخة «فاريس»، وأورد فى نهاية تلك الطبعة معجما للألفاظ الخاصة والصعبة (٢٦).

ونشـرت «باغ وبهـار» بالخط الهندى فى دهلى عـام ١٨٦٩م عـلاوة على طبعـها بالخط الكجراتى (٢٧) فى بومباى عام ١٨٧٧ م (٢٨).

تراجم باغ وبهار:

لم تقـتصـر قـراءة «باغ وبهـار» على قـارئى الأردية فقـط بل إنها ترجـمت إلى مـختلف اللغات فى الهند وأوروبا.

وهذا بيان بالترجمات الإنجليزية لـ «باغ وبهار».

١ ـ ترجـم «ايل ايف اسـميث» باغ وبهـار إلى الإنجليـزية فى عـام ١٨٣١م ونشـرها فى كلكتا، وهذه الطبعة نشرت فى لندن عام ١٨٥١م.

٢ ـ وفى عام ١٨٥١م نشر «دنكن فاربس» ترجمة إنجليزية «لباغ وبهار».

٣ـ ونشرت ترجمة إنجليزية أخرى لـ «باغ وبهار» فى عام ١٨٥٢م لإيست وك (EAST-WEKS) فى هرت فورد.

٤ ـ والترجمة الرابعة قام بها (ج ـ إيف ـ بينس J. F. Bains) عام ١٨٨٧م وطبعـها فى كلكتا.

٥ ـ وترجمة خامسـة إلى الإنجليزية قام بها أى بيرى تحت عنوان Stories OF Bagha Bahar، وكان ذلك عام ١٨٩٠م بلندن.

٦ ـ وطبع (ليفتنت كرنل ايج كوينتين H. Quentin) ترجمته الإنجليزية «لباغ وبهار» فى كلكتا عام ١٩٠١م.

٧ ـ وآخر التراجم الإنجليزية حسب المعروف حتى الآن لباغ وبهار (لراجا جهجوسنج) وطبعها فى لاهور عام ١٩٠٤م (٢٩).

وقد كتب (جارسان دى تاسى) أن «باغ وبهار» قد ترجمت إلى اللغة الأرمينية أيضا، وقد ترجمها (دتاسى) نفسه إلى الفرنسية فى عام ١٨٦٩م (٣٠).

وترجم المستشرق التشيكى المشهور (يان مارك Y. MARK) قصة «باغ وبهار» إلى اللغة التشيكية عام ١٨٦٣ م ونشرت فى تشيكو سلوفاكيا) (٣١).

وترجمت «باغ وبهار» إلى مختلف اللغات الهندية وهذا بيان ذلك:

١ـ ترجمة هندية (لجيوار ام جات) لكهنو ١٨٨٧م.

٢ ـ ترجمة كجراتية فى عام ١٨٨٣م نشرت فى عام ١٩٤٠م (٣٢).

٣ـ ترجمة إلى البنجابية نظماً وترجمها (أمام بخش شيروى وطبعت) فى مطبعة (سنج ميل ببلى كيشنز) فى عام ١٩٧٣م (٣٣).

وهكذا حظيت باغ وبهار بعناية الكتاب فنسخوها عدة مرات، كما اهتم بها الطابعون فتعددت طبعاتها فى عدة أماكن، ووصل الاهتمام إلى مداه من خلال الترجمات العديدة وبخاصة فى اللغة الإنجليزية حيث ترجمت ـ على ما نعلم ـ سبع مرات وقد تكون هناك ترجمات أخرى لم تصل إلينا أخبارها.

وهذا التعدد فى النسخ والطبع والترجمات خير دليل على ذيوع صيت «باغ وبهار» وذيوع صيت مؤلفها ميرأمّن، ولعل هذا الاهتمام كان الحافز وراء اختيارها موضوعا لدراستى هذه، وكذلك مشجعاً لى للإقدام على ترجمتها إلى اللغة العربية!!.

هوامش الفصل الأول

(١) سبق الحديث عن هذه الكلية بالتفصيل فى الفصل الثانى من الباب الأول.

(٢) مير أمَّن دهلوى: باغ وبهار، مرتبة رشيد حسن خان، ص١١.

(٣) مير أمَّن دهلوى: باغ وبهار، مرتبة رشيد حسن خان، ص٢٢٦.

(٤) مير أمَّن دهلوى: گنج خوبى مقدمه د/ خواجة أحمد فاروقى. دهلى، ص٤٢.

(٥) Origins Modem Hindustani Literature Scenrse Material Gilechrist, By: M, Atique Siddiequi Aligarh, First Edition, 1963,P,10-7.

(٦) محمد عتيق صديقى: جلكَرست اوراسكا عهد، ص١٤٨.

(٧) مير أمَّن دهلوى: باغ وبهار، مقدمة رشيد حسن خان، ص٣.

(٨) جلكَر ست اوراسكا عهد: ص١٥٣-١٥٤.

(٩) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص٢٢٦.

(١٠) محمدعتيق صديقى: جلكَرست اوراسكا عهد، ص١٥٥.

(١١) رشيد حسن خان مقدمة باغ وبهار ص٦٩ .

(١٢) باغ وبهار ازميرأمَّن مقدمة أز سليم اختر نيودهلى ١٩٧٧م ، ص٦٨ ، ٦٩ .

(١٣) ميرأمَّن دهلوى : گنج خوبى مقدمة داكتر خواجه أحمد فاروقى، ص٣١.

(١٤) باغ وبهار ازميرأمَّن دهلوى، مقدمة رشيد حسن خان، ص ٧٥ .

(١٥) جميل نقوى: اردو نثر كا ار تقا بارهويس صدى عيسوى سى فورت وليم كالج تک اردو أكاديمى. سندهـ - كراچى نقش ثانى ١٩٨٦م ، ص ٤٣ .

(١٦) سهيل بخارى: اردو داستان تحقيقى وتنقيدى مطالعة. إسلام آباد ١٩٨٧ ، طـ١ ، ص ١١٧ .

(١٧) گل كَرست اوراسكا عهد: ص ١٥١ .

(١٨) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص ١٣ .

(١٩) نفيس جهان بيكَم: ميرأمَّن حياة وتأليفات، ص ١٧١ .

(٢٠) جميل نقوى: اردو نثركا ارتقا، ص ٤٠ .

(٢١) جديد اردو آدب كا ايك ابتدائى نثر نكار: مطبوعة إسلامك كلجر ١٩٣٩م، ص ٧٥ .

(٢٢) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص ١٩ .

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٩ .

(٢٤) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص ٨٧ .

(٢٥) سنتحدث عن هذا الأمر بالتفصيل فى الفصل الخاص بمصادر الكتاب.

(٢٦) د. نفيس جهان بيكم: ميرأمّن حياة وتأليفات، ص ١٧٨ .

(٢٧) الخط الكجراتى: ويكتب به اللغة الكجراتية لغة منطقة «كجرات» الواقعة فى سواحل الهند الغربية، واللغة الكجراتية منحدرة من أصل سنسكريتى، وأصبحت لغة قائمة بذاتها منذ القرن الثانى للميلاد ولكن بدأت تعرف بهذا الاسم الجديد الخاص منذ القرن السابع عشر، أى بعد أن أصبحت المنطقة مقاطعة خاصة ذات حدود سياسية تعرف باسم كجرات.

(انظر: محيى الدين الألوائى: الأدب الهندى المعاصر، ط١، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٨٤).

(٢٨) كيان چندچين: اردوكى نثر داستانين، ص ٥٨٦ .

(٢٩) كيان چندچين: ص ٥٨٦، ٥٨٧؛ أيضا سليم اختر: مقدمة باغ وبهار، ص ٥٩، ٦٠ .

(٣٠) نفيس جهان بيكم: ميرأمّن حياة وتأليفات، ص ١٨٠ .

(٣١) اردوكى نثر داستانين: ص ٥٨٦ .

(٣٢) نفسه: ص ٥٨٦ .

(٣٣) سليم اختر: باغ وبهار، ص ٣٤٠ .

الفصل الثانى

باغ وبهار - دراسة موضوعية



فيما يتعلق بموضوع «باغ وبهار» فهو عبارة عن قصة ملك وأربعة دراويش قادت الصدفة هذا الملك إلى لقاء هؤلاء الدراويش، ومن خلال هذا اللقاء تتوالى الأحداث وتتطور لتكتمل القصة فى النهاية، والغرض الأساسى من هذه القصة علاوة على التسلية والترفيه، هو إسداء النصح والإرشاد ولكن بشكل غير مباشر.

قصة الملك آزادبخت:

وتبدأ القصة بحكاية الملك «آزادبخت» وهو ملك عادل كريم تحظى الرعية فى ظله بموفور الرعاية والتكريم، ولدى هذا الملك كل ما يصبو إليه الإنسان فى حياته من نعم ومتع، فهو ملك لمُلك واسع مترامى الأطراف، ولا يوجد ما ينغص حياة هذا الملك ويقض مضجعه سوى أنه لم يرزق بولد يكون وارثاً للعرش من بعده، فتملكه اليأس والقنوط وزهد فى كل شئ، ولما أدرك وزيره ماهو فيه من ألم وحزن سأله عن السبب فأطلعه الملك على ما يعتمل فى صدره وأنه بلغ الأربعين من عمره ولم ينجب من يخلفه، وأنه يريد أن يدع أمور الملك ويتفرغ للصلاة والعبادة إلى أن ينتهى أجله، وكان الوزير عاقلاً ذا حكمة وحنكة، فنصح الملك بالتريث فى اتخاذ هذا القرار، وحذره من مغبة تركه للسلطنة دون حاكم يمسك بزمام أمورها فتهلك ويسأل عنها وعن الرعية يوم يقف بين يدى الديان.

واقترح عليه الوزير أن يقوم بمهام الملك فى الصباح ويتفرغ للعبادة فى المساء ويبتهل إلى الله أن يرزقه بالولد الصالح، فاقتنع الملك بما أشار به الوزير، وذات يوم قرأ الملك فى أحد الكتب أنه إن كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن ولم يجد منهما مخرجاً، فعليه أن

يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى ثم يتوجه إلى المقابر ويصلى ويسلم على رسول الله ﷺ ويتيقن فى نفسه من هوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا.

وعندما اطلع الملك على تلك النصيحة فى الكتاب، تذكر قول وزيره «خردمند» وأدرك تطابق النصيحة مع قول الوزير، ولكنه فكر أنه ليس من المناسب أن يركب ويسافر فى هيئة الملوك، بل الأفضل أن يذهب إلى المقابر ليلاً بعد أن يبدل هيئته أو أن يلتحق بخدمة أحد الزهاد أو يسهر طوال الليل، عله يتحقق له المراد فى الدنيا والنجاة فى الآخرة عن طريق هؤلاء الموتى.

وبعد أن قرر ذلك، ارتدى زياً عادياً وخرج ذات ليلة متخفياً من قلعته آخذاً معه بعض المال، واتخذ طريقه إلى الخلاء حتى بلغ المقابر وكان يصلى على النبى ﷺ، وأثناء سيره هبت عاصفة هوجاء وكانت الريح عاتية، وفجأة لمح الملك على البعد ناراً تتلألأ مثل ضوء النهار، ولما توجه صوب ذلك الضوء أبصر أربعة نساك يرتدون أثمالا بالية ويجلسون فى صمت، فانتحى الملك جانباً ووقف يرقبهم، وقطع أحد هؤلاء الدراويش هذا الصمت وقال لبقيتهم ينبغى أن نقطع الليل فى الحديث لنسرى عن أنفسنا فليحك كل منا قصته وما مر به من أحداث فى حياته شريطة ألا يكذب أحدنا فيما يروى عن نفسه، فوافق الجميع على هذا الاقتراح على أن يبدأ صاحب الاقتراح بسرد حكايته أولا.

قصة الدرويش الأول:

بدأ الدرويش الأول يقص حكايته فقال إنه ولد فى بلاد اليمن لأب يعمل رئيساً للتجار، ويملك من المال ما لا يدخل تحت حصر ولم يرزق أبوه بأبناء سواه هو وأخت له، وقد تزوجت الأخت فى حياة أبيها، ولهذا استأثر هذا الابن بكل الرعاية والحنان والتدليل من والديه، وتعلم فنون العسكرية وفن الحساب والتجارة وظل يرفل فى نعيم أبويه حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، ثم مات عنه أبوه فجأة وتلته أمه فى نفس العام، وبعدها تولى هذا الدرويش أمر نفسه وورث تجارة والده وإدارتها كما ورث عنه أيضاً ثروة طائلة لدرجة أدارت رأسه، والتف حوله رفاق السوء فعلموه الاستهتار والمجون والميسر والشراب وكافة الملذات المباحة والمحرمة إلى أن نفدت ثروته ولم يبق لديه إلا ما يستر بدنه فقط ولم يكن لديه حتى قوت يومه وتنكر له الجميع وابتعدوا عنه، فلم يجد بداً من الذهاب إلى أخته التى

أكرمت وفادته واعتنت به إلى أن استراح واسترد بعض عافيته، وذات يوم نصحته أخته أن يخرج للعمل حتى لا يسخر منه الناس ويتقولون عليه وساعدته بالمال حتى يسير تجارة إلى بلاد الشام ويبيعها ويتكسب منها،وبالفعل أعد الدرويش العدة وأرسل أحد التجار بتجارته إلى دمشق بحراً وتوجه هو إليها براً، وحينما بلغ بوابة مدينة دمشق كان الوقت ليلاً والبوابات مغلقة فانتظر خارج السور حتى ينبلج الصبح وتفتح الأبواب، وأثناء انتظاره وجد صندوقاً متدلياً خارج السور، فتوجه إليه ليفتحه.

قصة أميرة دمشق:

وظل الصندوق يتدلى من السور إلى أن وصل إلى الأرض وعندئذ توجه إليه الدرويش ليفتحه عله يجد به كنزاً أو شيئاً ثميناً، وفتحه بحرص، فوجد به حسناء فاتنة جريحة ملطخة بالدماء تتأوه من شدة الألم فحملها وانتظر حتى الصباح ثم دخل إلى المدينة، واستأجر مكاناً للإقامة واستدعى الجراح لعلاجها، وظل يسهر عليها طوال أربعين يوما وينفق عليها من أموال تجارته إلى أن تماثلت للشفاء، وبعد أن نفد ماله وأدركت الحسناء ذلك أرسلته إلى أحد البساتين وأعطته رسالة أحضر بموجبها أموالا طائلة، ثم شجعته تلك الحسناء على الذهاب إلى أحد التجار لشراء الفاخر من الملابس والحلي.

قصة التاجر يوسف:

وعندما توجه الدرويش الأول إلى هذا التاجر استقبله استقبالاً حاراً ودعاه إلى ضيافته وقد رفض فى البداية إلا أن الحسناء نصحته بضرورة قبول الدعوة فامتثل لأمرها ثم طالبته أن يدعو «التاجر يوسف» لضيافته بدوره، وأعدت العدة لذلك الحفل وتلك الضيافة، وعندما حضر «التاجر يوسف» بصحبة الدرويش الأول وبدأت طقوس الضيافة، لمح الدرويش ضيقاً يبدو فى ملامح «التاجر يوسف»، واستفسر عن السبب، فعلم أن ليوسف معشوقة لا يطيق فراقها ولا طرفة عين، فأرسل الدرويش فى طلبها ولما حضرت، أشرق وجه التاجر يوسف وأخذ يمازحها ويبادلها العناق والقبلات ولما دارت الخمر برأسيهما أقدما على مالا يليق من سلوك مشين أمام الحضور وألح التاجر يوسف على الدرويش أن يشاركه الشراب ولم يكف عن إلحاحه إلا عندما امتثل لرغبته، وغاب الجميع عن الوعى ومن بينهم الدرويش، ولما أشرقت الشمس أفاق الدرويش من نومه ولكنه وجد المكان خالياً إلا منه، ولم يجد يوسف أو

الجارية أو معشوقته الحسناء أو أحداً من الخدم، ولما جال فى المكان بحثاً عنهم وجد التاجر يوسف والجارية مقطوعى الرأس وملفوفين فى بساط، فطاش صوابه وظل يبكى وينوح حتى .فترب منه خادم الحسناء الأمين وعاتبه على مشاركة يوسف وجاريته المجون والسكر ولما سأله عن سبب قتلهما؛ أبى أن يجيبه، ولما ألح عليه فى معرفة مكان الحسناء، رق له وأخبره بمكانها، وعندما ذهب إليها الدرويش رفضت مقابلته بل أنكرت معرفتها به أصلا، فهام الدرويش على وجهه حزناً على فراقها ولما أشرف على الهلاك عاد يتوسل إليها لتعفو عنه وشفع له عندها خادمها وكاتم أسرارها، وبعد كثير من الإلحاح منه والدلال من جانبها رق له قلبها وعفت عنه وتزوجته، شريطة ألا يسألها عن أى شئ، ولما عقد القران وتم الزفاف، ظل الدرويش صاداً عن الحسناء لا يقربها قط، وبعد مدة سألته مندهشة عن السبب فى هذا الصدود فأخبرها برغبته فى أن يعرف السر فيما جرى للتاجر يوسف وجاريته، وبعد تردد أخبرته الحسناء أنها ابنة ملك دمشق، وأنها وقعت فى غرام أحد الغلمان الذين يعملون فى خدمتها ولما شغفها حباً قربته منها ووهبته المال دون حساب وهيأت له تجارة عظيمة ولكنها استشعرت عدم إخلاصه لها فتوجهت إلى قصره لتتيقن من صدق حسها، وهناك اكتشفت خيانته لها مع جارية وضيعة دميمة قبيحة الخصال ولما ثارت ثائرتها لما شاهدته من علاقتهما خشى العاشقان افتضاح أمرهما، فاستل الغلام خنجره وطعنها به، ثم وضعها فى صندوق وألقاه خارج سور المدينة، إلى أن أنقذها الدرويش الأول، ثم أرسلته إلى هذا الغلام - الذى هو التاجر يوسف - ليعقد معه أواصر صداقة وحثته على دعوته إلى النزول فى ضيافته، ولما كان حفل الضيافة انتهزت الفرصة للانتقام منه هو وعشيقته وقتلتهما، ثم قالت أميرة دمشق للدرويش الأول والآن علينا أن نختفى من هنا قبل عودة أبى الملك، ثم خرجا سراً بليل وأخذا ينهبان الطريق بجواديهما إلى أن بلغ منهما التعب كل مبلغ وكانا قد وصلا إلى شاطئ بحر خضم ليس له نهاية فترك الدرويش الأميرة لتستريح وذهب للبحث عن طريق يسلكانه، ولما رجع لم يجد الأميرة ولم يعثر لها على أثر وأضناه البحث عنها ليل نهار فى كافة الأنحاء دون جدوى ولما تملكه اليأس وأوشك على التخلص من حياته واستعد ليلقى بنفسه من حالق، وجد فارساً ملثماً يحول بينه وبين أن يلقى بنفسه ويبشره أنه سيلقى محبوبته عندما يذهب إلى بلاد الروم ويلتقى هناك بثلاثة دراويش وملك يدعى «آزادبخت» عندئذ ستتحقق بغيته.

وإلى هنا تنتهى قصة الدرويش الأول ويشرع الدرويش الثانى فى سرد حكايته.

قصة الدرويش الثانى:

هذا الدرويش هو ابن ملك فارس، عاش منعمًا مدللا محبًا لمجالسة الحكماء والعقلاء ليسمع منهم سير الخالدين والعظماء، ومنهم حاتم الطائى: إذ حكى له أحدهم ذات يوم قصته مع الملك «نوفل» التى أدرك منها الدرويش مدى جود وسخاء ومروءة حاتم الطائى فأراد أن يقتدى به فبنى فى المملكة بناء عظيمًا له أربعون بابًا وأخذ يغدق على الفقراء والدراويش الأموال دون حساب ليصفه الناس بصفة الجود، وذات يوم دخل عليه فقير فى هذا البناء ذى الأربعين بابًا لطلب الصدقة وقد دخل عليه أربعين مرة حيث دخل فى كل مرة من باب مختلف، فلما استنكر الدرويش هذا السلوك من الفقير غضب الرجل غضباً شديداً وعيره بأنه مدعى للجود والسخاء بالباطل وأن الجواد يجود بكل ما يملك دون أن يتأفف وأن هناك من تفوقه جوداً وسخاء وهى أميرة البصرة، فهفت نفس الدرويش للقاء تلك الأميرة ليعرف مدى جودها وسخائها، فاستودع ملكه من يأتمنه من وزرائه لحين عودته وخرج متجرداً من كل شئ متوجهًا إلى البصرة للقاء تلك الأميرة، ولما بلغ مشارف البلاد وجد من مظاهر الكرم والجود ما يفوق الوصف وبعد مدة طلب لقاء الأميرة وبعد إلحاح وافقت الأميرة على لقائه من وراء حجاب وعند اللقاء أعرب لها الدرويش عن مدى إعجابه بها لما عرفه عنها من جود وسخاء لكنه فى دهشة من كثرة ما تنفقه من أموال، وطلب معرفة سر هذا الثراء الفاحش فبدأت الأميرة تقص عليه قصتها.

قصة أميرة البصرة:

فقالت له إنها ابنة ملك عظيم كان له سبع بنات هى أصغرهن، وذات يوم سأل الأب الملك بناته من هو صاحب الفضل فى جعلهم أميرات فسارعت ست منهن بالقول أن الفضل يرجع إليه فى ذلك إلا هى فقط ظلت صامتة إلى أن سألها الملك فطلبت الأمان ثم قالت إن صاحب الفضل فى جعله ملكاً هو أيضًا صاحب الفضل فى جعلها أميرة والملك لمالك الملك سبحانه وتعالى، فغضب عليها الأب ونفاها فى غابة موحشة لم تطأها قدم مخلوق من قبل قط، ولما امتثلت لقضائها وصبرت وتضرعت لله أرسل لها من ينقذها ، وقد عثرت فى ذلك المكان على كنز عظيم وأموال لا حصر لها، فبنت القصور والمدن والمرابط والموائل لخدمة المسافرين والعابرين واسترضت أباها وأخواتها، وظل أبوها يزورها إلى أن بلغ أجله وهى إلى اليوم تنفق من ذلك المال دون أن ينفد لأنه هبة وعطاء من الله، وعندما سمع الدرويش منها

تلك الحكاية أعجب بها أيما إعجاب وأراد أن يتزوجها، فأوقفت الأميرة موافقتها على شرط ينبغي للدرويش أن ينفذه، ولما سأل الدرويش عنه، قالت له: إن لها تجارة في بلد يعرف بـ «نيم روز» وبها شاب يجمع أهل مدينته كلهم أول كل شهر خارج المدينة ويقتل غلاماً دون أن يعرف أحد سبباً لذلك فإن أراد الزواج منها فعليه أن يذهب إلى هناك ويأتيها بالسبب وراء ما يفعله هذا الشاب وعندئذ ستتزوجه في التو والساعة، فوافق الدرويش على شرطها وأعد العدة للتوجه إلى بلاد «نيم روز».

قصة أمير «نيم روز»:

وخرج الدرويش الثاني متوجهاً إلى بلاد «نيم روز» وبعد جهد جهيد بلغ هذا البلد وانتظر إلى أن كان اليوم الأول من الشهر فأبصر الناس جميعاً يتشحون بالسواد ويقفون خارج المدينة عن بكرة أبيهم إلى أن جاء فتى يافع يركب ثوراً وفي يده سيف ويتبعه غلام يحمل وعاءً في يده وترجل الفتى عن الثور وأمر الغلام بعرض الوعاء على الناس فامتثل الغلام وكان كل من ينظر في الوعاء يبكي وينوح بشدة، ثم رجع الغلام وجثا على ركبتيه أمام الفتى الذي أطاح بالسيف رأسه، ثم ارتد عائداً من حيث أتى، ولما رأى الدرويش ذلك المشهد تملكته الحيرة والدهشة وأراد أن يتبع الفتى ليعرف السر، لكن الناس حالوا بينه وبين ذلك، واضطر الدرويش إلى أن ينتظر مطلع الشهر الجديد، ولما حان الموعد تكرر نفس المشهد بنفس الأحداث ثانية وفي تلك المرة أصر الدرويش على تتبع خطى ذلك الشاب مهما كان الثمن، وعلى الرغم من تحذيرات الناس إلا أنه تتبعه، ولما أدرك الشاب أن هناك من يتبعه صب عليه جام غضبه وهدده بالموت إلا أن الدرويش لم يتراجع وظل مصراً على معرفة سره، ولما رأى الشاب إصرار الدرويش أخذه معه، وبعد أن توطدت المعرفة بينهما، أطلعه على السر محذراً له من مخاطر تلك العلاقة، وسُر الأمير سروراً لا مزيد عليه وعاش إلى جوارها إلى أن سرق منه الكتاب الذي به اسم الله الأعظم ففقد تلك الحسناء، ومنذ ذلك الحين يقوم بما يقوم به في كل شهر حتى يعرف الناس ما أصابه فيدعون له بتحقيق الأمل.

وبعد أن أنهى الأمير قصته، قال الدرويش له لقد احتملت أنا الكثير من المصاعب في سبيل العشق ورغم هذا أعاهدك على أن أسيح في بقاع الدنيا لأبلغك أملك، ثم غادره وطاف في البلدان خمس سنوات لكنه لم يدرك شيئاً وفي النهاية صعد الجبل بعد أن يئس تماماً وأراد أن يلقي بنفسه فإذا بمن يمنعه ويبشره بتحقيق مراده بعد أن يتوجه إلى بلاد الروم ليلتقي

بالملك «آزادبخت» على أن يصحب معه الدراويش الثلاثة. وإلى هنا تنتهى قصة الدرويش الثانى، وعندما سمع الملك «آزادبخت» قصة الدرويشين خرج من مكمنه وتوجه إلى قصره وأرسل فى استدعاء الدراويش الأربعة.

قصة الملك آزادبخت:

وعندما مثل الدراويش الأربعة بين يدى الملك «آزادبخت» أخبرهم أنه استمع إلى قصة الدرويشين الأول والثانى البارحة ويريد أن يستمع إلى قصةالدرويشين الثالث والرابع، ولما رأى أن الدراويش يتوجسون منه خيفة، قال لهم ليطمئنهم سأحكى لكم أنا قصتى أولا لتطمئن قلوبكم، ثم بدأ الملك يروى لهم أنه عندما كان فى مقتبل العمر وأثناء عقده لديوانه العام كان من بين الحضور فى الديوان تاجر أجنبى جاء للتجارة ولما مثل بين يدى الملك قدم له من بين ما قدم من هدايا ياقوتة ثمينة لا مثيل لجمالها وقيمتها، فبهر الملك بالياقوتة وكان يطلبها من الخازن كل يوم ويثنى على جمالها وندرتها ويعرضها على رجال ديوانه فخوراً بها، فاستنكر كبير وزرائه هذا السلوك وطلب من الملك الإذن فى الكلام، ولما أذن له قال الوزير: لا يليق بالملك أن يتغزل فى حجر مهما كانت قيمة هذا الحجر فهو حجر أصم والمفروض على الملك المسلم ألا يأتى بمثل هذا السلوك الذى هو من شيم الكفار وعبدة الأصنام، وعلى كل فهناك من يعلق سبعة يواقيت فى رقبة كلبه فى «نيسابور» والناس هناك يدعونه بـ «عابد الكلب» أو «المفتون بالكلب»، فلما سمع الملك قول الوزير دخله غضب شديد واتهمه بالكذب فيما يتعلق بالرجل «عابد الكلب»، وأمر بزج الوزير فى غيابة السجن، عندما علمت زوجة الوزير وابنته بنبأ سجن الوزير تنكرت ابنته فى زى الرجال وخرجت إلى نيسابورلتأتى بدليل براءة أبيها وتطلق سراحه، وعندما وصلت إلى هناك أعلنت أنها ابن أحد التجار جاء ليشترى ويبيع ما معه من بضائع وأبصرت حانوتاً كبيراً يجلس فيه شيخ ذوهيئة عظيمة وإلى جواره على أريكة حريرية ثمينة يتمدد كلب فى دعة ويجلب له عبدان الهواء بالمروحة، وعلى بعد خطوات يوجد قفصان من حديد يقبع فيهما رجلان فى هيئة رثة يحرسهما عبدان أسودان قبيحا الشكل، وقدم الخدم الطعام للكلب فى صحاف من الذهب والفضة، وعندما أكل الكلب وشرب؛ حمل الغلمان بقايا طعامه وقدموها إلى الرجلين الحبيسين، فاندهشت ابنة الوزير مما رأت، واقتربت من الشيخ الوقور وحيته وقدمت نفسها له على أنها ابن تاجر، فرحب به الشيخ وأكرم وفادته على خير ما يكون الإكرام، ووقع الشيخ فى حب ذلك الفتى ابن التاجر

وأصبح لا يطيق فراقه، وأراد ابن التاجر أن يستدرج السيد المفتون بالكلب إلى بلاد الروم ليبرهن على صدق أبيه الوزير، فأخبر السيد أنه سيعود إلى بلاد الروم حيث إن والده ينتظره ولا يستطيع أن يفارقه أكثر من ذلك، فحزن الشيخ لفراق ابن التاجر ثم استقر رأيه على مرافقته إلى بلده، وعندما أشرف الشيخ وابن التاجر على مشارف بلاد الروم، بلغ نبأ وصولهما إلى الملك «آزادبخت» الذى أمر بإحضارهما لديه، ولما مثلا بين يديه وجد الملك مع السيد الكلب وفى رقبته قلادة فيها سبع يواقيت ثمينة، فتأكد من صدق الوزير وأمر بالإفراج عنه، وسأل السيد عن سر هذه اليواقيت التى يعلقها فى رقبة الكلب على الرغم من أن هذا الأمر يسيئ إلى سمعته ويجعل الناس يتهمونه بالكفر، وبعد ترغيب وترهيب من الملك قال له السيد أنه الابن الأصغر لتاجر من بلاد فارس وأن هذين الرجلين المحبوسين فى القفص أخواه، وأنه حبسهم فى القفص بعد أن لقى منهما ما لقى من صنوف العذاب والغدر والخيانة، فقد طمعا فى نصيبه من ثروة أبيه ودبرا لقتله عدة مرات ولم يكن ينقذه فى كل مرة سوى هذا الكلب المخلص الوفى وعلى الرغم من ذلك لم يكن يسيئ إليهما بل يكرمهما ويحسن إليهما فينقلب إحسانه عليهما بالشر والمكر عليه، وعدد السيد للملك مرات الخيانة وطرقها واعترف شقيقاه بصدق ما قاله، ثم عرض جسده على الملك ليتيقن من صدق ما لاقى من أهوال، وتأكد الملك من صدق روايته وأقره بأنه كان محقًا فيما صنع، ثم جاء دور ابن التاجر فى الحديث فكشفت ابنة الوزير عن شخصيتها فبهت السيد المفتون بالكلب من كونها فتاة وليست شاباً كما كان يتوقع فأخذ يصرخ ويبكى لأنه كان يتمنى أن يتبنى ذلك الشاب ويهبه ثروته الطائلة فهدأ الملك «آزادبخت» من روعه ومن أجل أن يرضيه زوجه ابنة الوزير وأنجب منها ولدين كانا قرة لعينه.

وهكذا انتهى الملك «آزادبخت» من رواية قصته وبعد أن انتهى طلب من الدراويش استكمال حكايتهم فبدأ الدرويش الثالث فى سرد حكايته.

قصة الدرويش الثالث: (قصة نعمان سياح)

قال الدرويش إنه ابن ملك من بلاد العجم وهو ابنه الوحيد وقد تربى على اللهو والمرح وذات يوم خرج مع أقرانه لرحلة صيد، وأثناء الصيد رأى غزالاً شاردا فطارده بفرسه وصقره إلى مكان بعيد ولكنه لم يستطع اللحاق به فرماه بسهم أصابه فى ساقه، فجرى الغزال جريحاً حتى صعد جبلاً على قمته قصر فدخله، والدرويش من خلفه وسمع من وراء

الباب شيخاً ينوح ويبكى ويدعو الله على من رماه بالسهم، فدخل عليه الدرويش فوجد الشيخ يبكى والظبى ممدداً أمامه وهو يخرج السهم من قدمه، فحياه الدرويش وطلب منه العفو لما بدر منه فى حق الظبى، ونام الدرويش لدى هذا الشيخ ولما استيقظ وجد فتاة حسناء فى الرابعة عشرة من عمرها، فوقع فى عشقها من أول وهلة وألقى عليها السلام لكنها لم تجبه على الرغم من إصراره على أن تجيبه، وفى النهاية اكتشف أنها تمثال من حجر صنعه هذا الشيخ، فسأله الدرويش عن حقيقة هذا التمثال، فأبى الشيخ فى بادئ الأمر أن يخبره وبعد إلحاح وتوسل من الدرويش قال له الشيخ أن اسمه «نعمان سياح» وأنه كان تاجراً كبيراً يطوف كل البلدان من أجل التجارة، وفى إحدى الرحلات قرر أن يذهب إلى بلاد الإفرنج فحمل تجارته وتوجه إليها فاستدعته ابنة الملك إلى قصرها لترى ما يحمل من سلع، ولما اطمأنت الأميرة إليه طلبت منه أن يسدى إليها معروفًا وسلمته رسالة إلى حبيبها وابن عمها فى محبسه وأعطته خاتمها ليسهل له مهمته، فتوجه ليسلمه الرسالة وكان حبيساً فى بستان بأمر الملك وسلمه «نعمان سياح» الرسالة فسأله السجين عن أحوالها وأثناء حديثهما جاء الحرس وأطبقوا على نعمان من كل الأرجاء ورشقوه بالسهام والنبال وأصابوه بجرح عظيم فقد الوعى على أثره، ولما أفاق وجد نفسه محمولا على محفة وحمالوه يتحدثون فيما بينهم بأن ملك الإفرنج حبس ابن أخيه لكى لا يسترد ملك أبيه بعد أن كبر وشب عن الطوق، وأعلن للناس أن ابن أخيه مجنون وعين عليه حراسة مشددة، ولما علم برسالة الأميرة إلى حبيبها أرسل فى أثر من يحملها، وبعد ذلك احتال الملك بحيلة بإيعاذ من وزيره تجعل الأميرة تقتل الأمير ابن عمها بيدها إلا أن الحيلة فشلت، وظل الأمير فى السجن وعادت الأميرة إلى قصرها حزينة ورجع «نعمان سياح» إلى وطنه وقرر أن يبنى بيتًا على قمة الجبل ويعتزل الناس فيه. وإلى هنا انتهت قصة نعمان سياح وبدأت قصة الدرويش الثالث.

فبمجرد أن سمع الدرويش الثالث تلك القصة لبس أثمال الفقراء والدراويش وتوجه إلى بلاد الإفرنج وبعد عناء شديد من أجل الوصول إلى قصر الأميرة ورؤيتها استطاع التقرب من أحد أتباعها الذى أخبره بمقتل الأمير المسجون، وهيأ له أسباب اللقاء بالأميرة، وتشفع له عندها وبعد تفكير قبلته زوجاً، وخوفاً من بطش الملك قررا أن يهربا بعيداً عن يده، وخرجا فى جنح الظلام ولما بلغ بهما التعب منتهاه نزلا بأحد البيوت وهناك إلتقيا بصاحب البيت واسمه «بهزاد خان» وكان شهماً كريماً لبثا عنده ستة أشهر تاق بعدها الأمير للعودة إلى وطنه

ورؤية والديه فخرجا فى رفقة «بهزادخان» وبعد قتال مع أعوان ملك الإفرنج نجحوا فى أن يركبوا السفينة وتوجهوا إلى بلاد العجم وخرج الملك والد الدرويش فى سفينته لمقابلة ابنه الذى أرسل يخبره بعودته وعندما أشرفت سفينة الدرويش على بلوغ الشاطئ قفز فرس الأميرة بها فى البحر وقفز خلفها بهزادخان بفرسه لينقذها فاختفى الاثنان ولم يظهر لهما أى أثر وأضنى الدرويش البحث عنهما دون جدوى، وكان يخرج كل يوم إلى الميناء ليبحث عنهما ولما فقد الأمل فى العثور عليهما هم بإغراق نفسه فى البحر فإذا بمن يمنعه ويبشره بأن الأميرة وبهزا دخان ما زالا على قيد الحياة وأنه سيلقاهما عندما يتوجه إلى بلاد الروم ويلتقى بالملك «آزادبخت» والدراويش الثلاثة.

وإلى هنا تنتهى قصة الدرويش الثالث وتبدأ قصة الدرويش الرابع.

قصة الدرويش الرابع:

قال الدرويش الرابع: إنه ابن ملك الصين، وقد تربى فى دعة وترف لكن دوام الحال من المحال فقد مات أبوه وهو لم يزل بعد صبياً فأوصى به عمه أن يرعاه ويتولى عنه الملك إلى أن يبلغ سن الرشد، ولما تولى عمه الملك عهد به إلى الحريم ليقمن على تربيته ورعايته وأبعده عن شئون الحكم تماماً ولما كبر الأمير أراد أن يتزوج من ابنة عمه، وكان له خادم أمين أوصاه والده به يدعى «مباركاً» فطلب منه الدرويش أن يشفع له عند الملك ليزوجه ابنته ويوليه الملك، ولما فاتح مبارك الملك فى رغبة الدرويش طلب مزيداً من الوقت حتى ينضج الأمير أكثر ويصبح جديراً بالملك و الزواج، وبعد فترة طلب الملك من مبارك أن يخلصه من الأمير ويقضى عليه لينفرد هوبالملك دون منازع، وسيجزل له المكافأة نظير قضائه على الأمير، فاصطنع مبارك الموافقة على طلب الملك فى نفس الوقت الذى حذر فيه الأمير من بطش عمه الملك به، لكنه أخذ يفكر فى وسيلة ليحميه بها، فتذكر أن والد الأمير على صلة وثيقة بالملك «صادق» ملك الجان وأنهما كانا يتبادلان الزيارات والهدايا وفى كل مرة يذهب الملك إلى زيارة «صادق» ملك الجان كان يهدى إليه قرداً من الحجر يسكنه أحد العفاريت، وهذه العفاريت تقوم بأداء أى خدمة لمن يقتنيها شريطة أن يكون عدد القردة أربعين وقد حصل والد الأمير على تسعة وثلاثين قرداً وبقى واحد، فاقترح مبارك أن يذهبا إلى الملك «الصادق» ويرجواه أن يمنحهما القرد الأربعين ليتمكنا من القضاء على عم الدرويش، وبالفعل توجها إلى جزيرة الجان ودخلا خيمة الملك وكان يعرف مباركا فحياه

وقدم له الأمير وذكره بصداقة أبيه له، فرحب به الملك «الصادق» وحكى له مبارك ما كان من شأن الأمير وعمه الملك وسأله العون، وطلب إليه أن يساعدهما ويقدم له القرد المتبقى، وبعد تفكير عميق وافق الملك «الصادق» شريطة أن يقدم له الأمير خدمة وألا يخون العهد وإلا سيكون ذلك وبالا عليه وعرض على الأمير صورة فتاة بارعة الحسن وطلب منه أن يبحث عنها فى كافة أرجاء الدنيا، ويأتيه بها، وعندئذ سيمكنه من ملكه ويزوجه بابنة عمه، وخرج الأمير ومعه مبارك يبحثان فى كل مكان عن هذه الفتاة وجالا فى الدنيا لمدة سبع سنين دون جدوى، إلى أن وصلا إلى إحدى المدن وقابلا هناك شيخًا هرمًا معدمًا وكان كفيف البصر يستجدى الناس، فأعطاه الأمير ديناراً فشكره وانصرف وسار الأمير خلفه فوجده يدخل مكاناً عاليًا خارج المدينة وكان المكان خاويًا تمامًا ودخل الشيخ ذلك المكان وخاطبه صوت من الداخل يسأله أين كان؟ وأثناء الحديث نظر الدرويش إلى الداخل فإذا به يرى صاحبة الصورة تتحدث إلى الشيخ على أنه أبوها فأذهلته المفاجأة، ولما ثاب إلى وعيه، أخذ يتقرب إلى الشيخ محاولا أن يتزوج ابنته حتى يأخذها إلى الملك «الصادق» وطلب يدها من والدها الذى رفض رفضاً قاطعًا خوفًا على حياته وحياة ابنته وقال له أنه لا يستطيع أن يتزوجها لأن أحد الجان وقع فى غرامها وقتل زوجها ولى عهد البلاد ليلة زفافها مما عرضه هو وابنته لغضب أهل المدينة جميعاً وعلى رأسهم الملك والد زوجها، إلا أن الدرويش واصل إلحاحه وتوسله حتى وافق الشيخ، ولم يمض وقت طويل حتى قضى الشيخ نحبه، بعد أن زوج ابنته للدرويش، ونصح مبارك الأمير ألا ينقض العهد مع الملك «الصادق»، وقرر الدرويش أن يصطحب الفتاة ومباركاً ويذهبوا إلى الملك «الصادق» وأثناء الطريق بكى الجميع فقد وقع الدرويش فى غرام الفتاة الحسناء لكن مباركاً حذره من مغبة خيانة العهد ومن بطش الملك «الصادق» لكن للعشق رأيًا آخر فقد تعلق الدرويش بالفتاة وتعلقت به وأخذا يبكيان وينوحان طوال الطريق ولما رأى مبارك حالهما أخرج حُقًا من العطر وأعطاه للفتاة وأمرها أن تدهن جسدها به لأن الجن لا يحبون رائحته فربما يمقت الملك «الصادق» رائحتها ويتركها للدرويش، ودهنت الفتاة جسدها كله بذلك العطر، وذهب الجميع إلى الملك «الصادق» ولما اشتم الملك الرائحة غضب غضباً عارماً واتهم الدرويش بالخيانة وهجم عليه يريد الفتك به فعاجله الدرويش بطعنة طار بعدها إلى السماء وفقد الأمير الوعى وأفاق ليجد نفسه فى صحراء جرداء ولم يجد الفتاة التى يعشقها فأخذ يبكى وينوح، وطاف وجال يبحث عنها فى

كل مكان دون جدوى، ولما أيقن فقدها نهائيًا أقدم على التخلص من حياته لولا أن منعه الفارس الملثم وبشره بوجود حبيبته على قيد الحياة وأنه سيجدها عندما يتوجه إلى بلاد الروم ويلتقى بالملك «آزادبخت» والدراويش الثلاثة الآخرين.

وإلى هنا تنتهى قصة الدرويش الرابع.

نهاية القصة:

ولما ختم الدرويش الرابع قصته فى حضرة الملك «آزادبخت» وبقية الدراويش، جاء خادم من قصر الملك مهرولاً ليزف إليه البشرى بأن إحدى حريمه قد ولدت له ولداً يغار القمر من حسنه، فتعجب الملك وسأل عمن تكون تلك المرأة فأخبروه أنها من غضب عليها الملك ونبذها منذ بضعة أشهر ونفاها فى قصر وحيدة وكانت حاملاً، والآن وضعت حملها، فلم تسع الملك الفرحة وخف مسرعًا إلى القصر واحتضن ابنه وأقام الاحتفالات فى كافة أنحاء المملكة ابتهاجًا بمولد الأمير، وأثناء تلك الاحتفالات ارتفع صوت البكاء والعويل فى القصر الملكى، وأخبر الخدم والحشم الملك بأن الأمير قد اختفى حيث هبط سحاب من السماء وحمل الطفل وغاب عن الأنظار، وساد الحزن والحداد أرجاء المملكة لاختفاء الأمير الوليد وبعد ثلاثة أيام هبط نفس السحاب بمهد مرصع باللآلىء ووضعه فى نفس مكانه وتركه واختفى، وكان الأمير نائمًا فى هذا المهد يرتدى أفخر الثياب ويلهو بأنفس اللعب، وطوال سبع سنين كان يختفى فى أول خميس من كل شهر لمدة يومين، ويعود فى اليوم الثالث، وذات يوم اجتمع الملك بالدراويش وسألهم كيف يتصرف حيال اختفاء ابنه أول كل شهر وكيف يعرف من يقوم بهذا، فأشار عليه الدراويش بأن يكتب رسالة ويضعها بين طيات ملابس الأمير ويسأل فيها عن شخصية من يأخذه ورغبته فى لقائه، ففعل الملك، فإذا برسالة تهبط عليه من السماء ومضمونها دعوة له ولمرافقيه للقاء وعليهم بركوب العرش الذى سيهبط عليهم من السماء، وركب الجميع ومعهم الدراويش الأربعة، فحملهم العرش وذهب بهم إلى مكان مجهول لكنه غاية فى روعته واكتحلوا بكحل سليمانى فرأوا الجن والحور يملئون المكان ويتوسط هذا المكان عرش ياقوتى يتربع عليه ملك الجان واسمه «شهبال بن شاه رخ» فنهض من عرشه وحيا الملك «آزادبخت» بترحاب عظيم وأجلسه بإعزاز وعرفه على نفسه وبين له سبب اختفاء الأمير مرة كل شهر، وقال له أن زوجته حملت وكان يرجو أن تلد له ولداً يرثه من بعده، وقطع على نفسه عهداً أنه لو رزق ببنت سيزوجها بولد من أولاد ملوك الإنس يولد

فى الوقت عينه وبالفعل ولدت له بنتًا فأمر خدامه وحراسه أن يهبطوا إلى الأرض ويبحثوا عند ملوك كل الدنيا من الإنس عن ولد ولد فى نفس اليوم، فأحضروا له ابن الملك «آزادبخت» فتعلق قلب شهبال به، لكنه كان يدرك مدى عذاب والديه لغيابه لهذا كان يأخذه لمدة يومين فقط ثم يعيده فى اليوم الثالث رأفة بأبويه، وطلب من الملك «آزادبخت» أن يزوجهما، فقبل على الفور وتوطدت الصداقة بين الملكين، ثم سأل شهبال عن الدراويش فأخبره الملك بقصة الدراويش الأربعة وما لحق بهم من مصائب ومتاعب، وطلب مساعدتهم فى الحصول على مآربهم، فقبل الملك شهبال على الفور، ثم جمع أعوانه من الجان فى كل الدنيا وأمرهم بالبحث فوراً عن الأميرات المختفيات، وجمع بين كل درويش وأميرته التى يعشقها وفرح الجميع بالتئام الشمل وتحقيق كل منهم بغيته.

وإلى هنا تنتهى أحداث القصة التى يختمها «مير أمن» بدعاء الله سبحانه وتعالى أن يبلغ الجميع أمانيهم مثلما بلغها الدراويش الأربعة والملك «آزادبخت».

هذا ملخص القصة من خلال سرد حكايات الدراويش الأربعة.

ويجمل بنا بعد ذلك أن نحكم على القصة من حيث بنائها الفنى ومدى توفر العناصر الأربعة للقصة فيما كتبه «ميرأمّن»، وكذلك استخراج أهم الآراء والأفكار التى كان المؤلف يرمى إلى التعبير عنها وإيصالها إلى القارئ، وهذا ما سوف يدور عليه الكلام فى الفصل التالى.



الفصل الثالث

البناء القصصى فى «باغ وبهار»



إذا ما شئنا أن نتحدث عن عناصر العمل القصصي في «باغ وبهار» فلابد أن نذكر أولا أن العمل القصصي لا يستوى ما لم تتوافر له عناصر بذاتها. فهناك حوادث وأفعال تقع لأناس أو تحدث منهم، وبذلك يوجد العنصر الثاني وهو عنصر الشخصية، ووقوع الحادثة لابد أن يكون في زمان ومكان وهذا هو العنصر الثالث، ثم الأسلوب الذي تسرد به الحادثة والحوار الذي يدور بين الشخصيات، أما العنصر الأخير فهو الفكرة أو وجهة النظر، فكل قصة تعرض بالضرورة وجهة نظر في الحياة وبعض مشكلاتها، وكل العناصر السابقة ليست سوى أدوات تكشف لنا بها القصة عن طريقة المؤلف في النظر إلى الحياة وفهمه لها وموقفه العام منها[١].

(١) الحادثة:

الحادثة في العمل القصصي هي مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظمة على نحو خاص هو ما يمكن أن نسميه الإطار ففي كل القصص يجب أن تقع أمور في نظام معين، وكما أنه يجب أن تحدث أمور، فإن النظام هو الذي يميز إطاراً عن آخر فالحوادث تتبع خطاً في قصة وخطا آخر في قصة أخرى [٢].

والحادثة في قصة (باغ وبهار) حادثة بسيطة للغاية باعتبارها حادثة أولية، اتخذ منها المؤلف ذريعة ووسيلة لتدفق أحداث القصة الرئيسية - وما تفرع عنها من قصص فرعية - تدفقاً منطقياً مقبولاً لدى القارئ، بعد أن مهد المؤلف في بداية القصة بتعريفنا بشخصية البطل الرئيسي وهو الملك «آزادبخت» ومدى ما يعانيه من ألم وضيق لكونه لم ينجب من يخلفه ويرث ملكه من هنا تبدأ أولى الحوادث في القصة بخروج الملك «آزادبخت» إلى المقابر

متخفياً ليلا ليدعو ويتضرع إلى الله ليرزقه بالولد ويلتقى بعد ذلك بأربعة دراويش يستمع إلى قصة اثنين منهم فى المقابر ثم يدعوهم إلى قصره فيقص عليهم هو قصة «خواجه سكپرست ـ السيد المولع بالكلب» ، ثم يقص الدرويشان الآخران قصتهما أيضاً، وقد وفق «ميرأمن» فى أن يجعل من الحادثة الأولى رباطاً متيناً يربط به كل الأحداث التالية إلى نهاية القصة، فبرغم أن كل قصة من قصص الدراويش الأربعة كان لها حدث رئيسى تصاعد حتى نهاية كل قصة إلا أن «مير أمن» قد أوقف أحداث كل قصة بما فيها قصص الدراويش الأربعة عند نقطة واحدة وهى لقاء الدراويش الأربعة بالملك « «آزادبخت» فى بلاد الروم، وعندئذ تأخذ أحداث القصة الاتجاه نحو لحظة الانفراج وحل العقدة بعثور كل الأطراف على ما يبغونه وهنا تكون نهاية الأحداث، فقد جعل الكاتب لكل القصص فى النهاية عقدة واحدة يؤدى حلها إلى انفراج أحداث القصة الرئيسية وكذلك القصص الفرعية، وأن تكون نهايتها فى وقت واحد دون أن يلحظ القارئ أى شطط فى الأحداث، أو فى العناصر الأخرى إلا فى القليل من المواضع.

فمثلما كان الحدث الرئيسى للقصة كلها هو لقاء الملك (آز اد نجت) بالدراويش الأربعة، فإن الحدث الرئيسى فى قصة الدرويش الأول بعد أن نتعرف على شخصيته وأصله ونشأته تأتى الحادثة الرئيسية وهى لقاؤه بأميرة دمشق بعد خروجه للتجارة ومن هنا تتوالى الأحداث إلى أن تصل إلى ذروتها باختفاء أميرة دمشق ويأس الدرويش الأول ابن تاجر اليمن من العثور عليها، ويهم بإنهاء حياته فيأتيه رسول الغيب يبشره بالعثور على الأميرة إذا هو توجه إلى بلاد الروم والتقى بثلاثة دراويش هناك، وسيكون تحقيق أمانيهم مرهوناً بلقاء الملك (آزاد بخت) وعند هذا الانفراج أو الحل الجزئى لعقدة قصة الدرويش الأول تتوقف قصته بتوجهه إلى بلاد الروم ومقابلته للدراويش الثلاثة.

ثم تبدأ قصة الدرويش الثانى ابن ملك فارس فبعد المقدمة تبدأ الحوادث تباعًا بسماعه لقصة «حاتم الطائى» وجوده وكرمه ثم سماعه بخبر أميرة البصرة وجودها الذى فاق كل حد ووصف وتتوالى الأحداث بمغادرة الأمير لبلاده وعرشه بعد أن خلف أباه فى الحكم وتوجهه إلى البصرة ليحظى بمقابلة الأميرة، ويعتبر لقاء الدرويش الثانى بأميرة البصرة هو الحدث الرئيسى فى قصته والذى ترتبت عليه بقية أحداث القصة من موافقة الأميرة على الزواج به إلى شرطها أن يأتى الدرويش بسر أمير بلاد «نيم روز» ، ثم سفر الدرويش إلى تلك البلاد

ومعرفته للسر، وخروجه للبحث عن حبيبة أمير بلاد «نيم روز» وفشله فى ذلك واقدامه على التخلص من حياته لولا وجود من بشره بتحقيق أمنيته إذا هو توجه إلى بلاد الروم ولقائه بالملك والدراويش الثلاثة، وهكذا يترك الكاتب الأحداث معلقة دون أن ينهيها ويبدأ أحداثاً جديدة.

وكى لا يشعر القارئ بالملل بتتابع قصص الدراويش الأربعة على التوالى نجده بعد أن ينتهى من قصة الدرويش الثانى، يقطعها بقصة على لسان الملك «آزادبخت» وهى قصة «خواجه سكَپرست ـ السيد المفتون بالكلب». وتبدأ الأحداث فى هذه القصة بمقدم تاجر كبير إلى بلاد الروم وتقديمه ياقوتة ثمينة لا نظير لها وإعجاب الملك «آزاد بخت» وتعلقه الشديد بها مما دفع وزيره المقرب لاستنكار هذا السلوك وتشبيهه للملك بأحد تجار «نيسابور» الذى علق سبعة يواقيت فى رقبة كلب، فيغضب الملك ويسجن وزيره إلى أن يتحقق من صدق روايته، وتتنكر ابنة الوزير فى صورة ابن تاجر يتوجه إلى «نيسابور» ليثبت براءة الوزير (أبيها)، وهناك تقابل التاجر وتتحقق من حكاية الكلب واليواقيت ويعتبر لقاء ابنة الوزير بتاجر «نيسابور» هو أهم أحداث تلك القصة فعليه ترتب ذهاب تاجر «نيسابور» برفقة ابنة الوزير ومقابلته للملك «آزادبخت» وما تلا ذلك من أحداث حيث يحكى «السيد المفتون بالكلب» أسباب تعليق اليواقيت فى رقبة كلبه وسجنه لشقيقيه وكانت قصته للملك مفعمة بالأحداث أيضاً لكنها تعتبر أحداثاً فرعية بالنسبة للقصة الأصلية، وبمعنى آخر فإن قصة «خواجه سكَپرست» قصة هامشية جداً ولا أثر لها على الأحداث، علاوة على أن شخصية (السيد المولع بالكلب) جاءت مخالفة تماماً لشخصيات الدراويش الأربعة التى اتصفت بالروحانية، وقد كتب بروفيسور «چيان چندچين» [٣] حول هذا الموضوع يقول:

«من المعلوم أن فى قصة «باغ وبهار» خمسة أبطال هم الدراويش الأربعة، والخامس هو «خواجه سكَپرست» حيث أن قصة الملك هى فى الأصل قصة «سكَپرست» وخلال تلك القصص الخمس قصص فرعية فى تغلغل بناء القصة من البداية إلى النهاية.

وتعد قصة (خواجة سكَپرست) هى القصة الوحيدة من بين قصص (باغ وبهار) التى بلغت أحداثها ذروتها، واكتملت كل عناصرها حتى العقدة، ثم حلها ولحظة التنوير والانفراج فيها ثم الخاتمة والنهاية!

ولعل المؤلف آثر أن يكمل تلك القصة الفرعية حتى نهايتها كى لا تتعارض أحداثها مع أحداث القصص الأصلية، أى قصة الملك «آزاد بخت» وقصص الدراويش الأربعة.

أما فيما يختص بقصة الدرويش الثالث فلو قارناها بقصة الدرويشين الأول والثانى وجدناها مختصرة إلى نصف حجمها تقريباً، وأحداثها بسيطة وبطيئة الإيقاع، ولعل حدثها الرئيسى هو لقاء الدرويش الثالث بشخصية «نعمان سياح» ويشرع فى قص حكايته التى تعتبر قصة فرعية أيضاً وتمضى الأحداث تباعاً إلى أن تبلغ ذروتها عندما غرقت الأميرة بفرسها فى البحر، وهام الدرويش الثالث على وجهه بحثاً عنها وعن نعمان سياح ويأسه من العثورعليهما وإقدامه على قتل نفسه فى نفس اللحظة التى جاءه فيها رسول الغيب بأن الأميرة على قيد الحياة وأنه سيلقاها ذات يوم إن هو ذهب إلى بلاد الروم والتقى بالملك وبقية الدراويش وتنتهى أحداث هذه القصة بتوجه الدرويش الثالث لبلاد الروم، ولم تكن قصة (نعمان سياح) الهامشية مرتبطة بقصة الدرويش الثالث الأصلية فحسب، بل إنها كانت سبباً فى تسلسل الأحداث، لأن الدرويش الثالث عندما سمع قصة أمير الإفرنج من (نعمان سياح) مضى بنفسه لأميرة الإفرنج وفرا سوياً من وجه أبيها، لكن عندما وصلا إلى بحر المدينة غرقت الأميرة وبشر الدرويش بالعثور عليها عند لقائه بالملك آزادبخت والدراويش.

وقصة الدرويش الرابع تعادل فى حجمها حجم قصة الدرويش الثالث تقريباً، وتشتمل تلك القصة أيضاً على عناصر ما فوق الطبيعة مثل قصة الملك (الصادق) الذى وقع فى عشق ابنة الشيخ الضرير، وقد أرسل الملك الصادق الدرويش الرابع ليبحث له عن حبيبته وبعد بحث طويل يعثر عليها الدرويش ويعتبر لقاء الدرويش بـ (شاه جنات) معشوقة الملك الصادق أهم أحداث تلك القصة حيث يقع فى عشقها ويحاول الاقتران بها، على الرغم من حب الملك الصادق لها، وبعد دخوله فى شجار مع الملك الصادق من أجلها، تختفى الأميرة، ويحاول الدرويش الرابع الانتحار لولا أن هناك من بشره بعثوره على حبيبته إذا توجه إلى بلاد الروم والتقى بالملك «آزادبخت» والدراويش الأربعة.

أما فيما يتعلق بقصة الملك «آزادبخت» فهى مرتبطة بقصة الدراويش الأربعة من البداية وحتى النهاية، أى منذ خرج الملك متوجهاً للمقابر ولقائه هناك بالدراويش الأربعة، وحتى انتهاء الدرويش الرابع من سرد حكايته، ثم إنجاب الملك لوريثه وذهابه للقاء الملك (شهبال) ملك الجن مع الدراويش الأربعة، وتحقيق الجميع آمالهم بفضل ذلك الملك، وهكذا نرى الترابط الواضح بين قصة الملك آزادبخت وقصة الدراويش الأربعة من البداية إلى النهاية.

وأخيراً نقول أن «مير أمن» قد وفق إلى حد بعيد على الرغم من طول القصة وتشابك أحداثها - وأنه قد اعترض أحداثها الرئيسية الكثير من القصص الفرعية أو الهامشية - أن يمسك بخيوط الأحداث بمهارة واقتدار واستطاع أن يستحوذ على اهتمامنا وتطلعنا إلى معرفة ما ستنتهى إليه هذه الأحداث، وبالفعل فى النهاية استطاع بعد أن جمع كل الخيوط فى عقدة واحدة، أن يحلها أيضاً دفعة واحدة دون أن يفلت منه الأمر - إلا فيما ندر - حتى النهاية، أى أن «مير أمن» نجح فى أن يجعل من أحداث قصته عقداً ثميناً لم تنفرط منه ولو حبة واحدة(٤).

(٢) السرد:

حين نقرأ القصة تتمثل الحادثة فيها ولكن من خلال تلك الألفاظ المنقوشة على الورق، أى من خلال اللغة، والسرد هو نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية (٥).

وللسرد طرق عديدة، الطريقة المباشرة أو الملحمية وطريقة السرد الذاتى وطريقة الوثائق(٦).

وقد اتبع «مير أمن» فى «باغ وبهار» الأسلوبين الأول والثانى فنجده فى بداية القصة يستخدم الطريقة المباشرة أو الملحمية وفى هذه الطريقة يكون الكاتب راوية من الخارج، فى تلك الحالة يكون الراوية شاهداً وهو بهذا المعنى حاضر لكنه لا يتدخل، ويروى الراوية هنا بضمير الغائب«هو». وهذا يعنى اصطلاحاً أنه راوية غير حاضر (٧).

على سبيل المثال يقول «مير أمن» فى بداية القصة:

«استمع وكلك آذان مصغية واحكم بالعدل، فقد قال الراوى وهو يحكى قصة الدراويش الأربعة. أنه كان هناك ملك عظيم يحكم بلاد الروم يدعى «آزادبخت» كأنه انوشيروان فى عدله وحاتم فى جوده وفضله...» (٨).

وأيضاً:

«وبهذا القصد توجه الملك إلى حيث ينبعث الضوء، فلما اقترب منه، وجد أربعة دراويش مساكين، وقد ارتدوا خرقاً بالية كالأكفان، يجلسون واضعين رءوسهم بين أرجلهم وكانوا صامتين فى عالم اللاوعى...» (٩).

أما الأسلوب الثاني الذى اتبعه أحياناً «مير أمن» في سرد قصته وهو طريقة السرد الذاتي أى أن يتكلم الراوى بضمير الـ «أنا» وهو عادة بطل يروى قصته في زمن مضى، فالراوى الآن إذ يبدأ السرد، يتخذ من نفسه - ومن غيره أيضاً - موضوعا لسرده - وبهذا الأسلوب تحكى الشخصية عن نفسها وتصير رواية (١٠).

وعلى سبيل المثال نجد في قصة الدرويش الأول، الدرويش نفسه يقوم بدور الراوى ويحكى للدراويش قصته بنفسه مستخدماً ضمير «أنا» مستعملا الزمن الماضى فيقول:

«يا عباد الله: لتلتفتوا إلىّ ولتستمعوا إلى كل ما وقع لى أيها الأصدقاء، كان مولدى في بلاد اليمن، وهى بلاد الصالحين، وكان والدى «خواجة أحمد» تاجراً كبيرا...» (١١).

كذلك تحدثت أميرة البصرة عن نفسها قائلة:

«اسمع أيها الشاب الفطن، سلطان هذه المنطقة كان أبى وكان له سبع بنات، وذات يوم أقام الملك احتفالاً وجلس وأحاطت به بناته، وقد تجلين في أبهى زينة، متحليات بأنفس الجواهر واللآلئ، فدار بخلد الملك أمر، فنظر إلى بناته وقال: «لو لم يكن أبوكن ملكاً ولو كنتن قد ولدتن في بيت فقير، فمن كان سيدعوكن بالأميرات أو الملكات؟ احمدن الله سبحانه وتعالى على أنكن أميرات، فكل ما تنعمن به هو بفضلى، فأجابت ست منهن دفعة واحدة، كل ما يقول جلالتكم هو الحق، وخيرنا في سلامتك، وأما السابعة وهى الأميرة التى تحدثك الآن، وهى أصغرهن سناً لكنها تبدو أرجحهن عقلاً، فقد ظلت صامتة ولم تشاركهن الحديث...» (١٢).

كذلك في قصة «السيد المولع بالكلب» نجد أن البطل نفسه هو الذى يروى بلسانه قصته للملك «آزادبخت» فيقول:

«أيها الملك!! هذا الرجل الذى على يمنتى هو الأخ الأكبر لهذا الغلام، وأما الذى على يسرتى فهو الأخ الأوسط لى، وأنا أصغرهما وكان أبى تاجراً في بلاد فارس، وحينما بلغت الرابعة عشرة من عمرى توفى أبى، بعد الانتهاء من مراسم الدفن، جاءنى أخواى هذان....» (١٣).

وهكذا اختار الكاتب الأسلوب المباشر للقصة الرئيسية وهى قصة الملك، ثم لجأ لطريقة السرد الذاتى لقصصه الفرعية فجعل أبطالها يروونها بأنفسهم بكل وقائعها، ثم عاد في

النهاية عند اختتام القصة الرئيسية والقصص الفرعية للإسلوب الأول ليتمكن من أن يصف للقارئ ما آل إليه مصير كل بطل من ابطال قصته.

ولقد وفق «مير أمن» في سرد قصته بطريقة مسلية طريفة مترابطة دون خلل من البداية إلى النهاية، وفي نفس الوقت الذى ساق فيه تعاليمه وأسدى النصح والحكمة للقراء من البداية المبكرة وحتى آخر حرف فيها، دون أن يشعر القارئ بالملل ودون أن تبدو النصائح والحكم والأخلاق في صورة مباشرة سافرة، بل إن «مير أمن» جعل هدفه هذا يطل على القارئ من بين سطور وثنايا القصة ليستخلصه القارئ ويقتنع به ويعمل به أيضاً، وكان «مير أمن» موفقاً في ذلك إلى حد بعيد.

(٣) البناء:

على الكاتب أن يختار وقائع بذاتها يؤلف بينها ويكون منها البناء الكامل للحادثة (١٤). وإذا نظرنا إلى «باغ وبهار» من حيث بنائها الفني وجدنا أن «مير أمن» اختار لقصته الصورة الانتقائية، حيث لا تكون بين الوقائع علاقة كبيرة أو ضرورية أو منتظمة وعندئذ تعتمد وحدة السرد على شخصية البطل الذى يربط بوصفه النواة الشخصية المركزية بين العناصر المتفرقة، وليس بالضرورة للكاتب في هذه الحالة أن يعرف كل تفاصيل القصة، قبل أن يبدأ كتابتها، بل يكفى أن يكون في ذهنه معرفة عامة بالطريق الذى ستتبعه القصة، وبالفعل فقد جعل المؤلف من شخوص قصته مشجباً كلما عنت له فكرة من الأفكار، اختلق شخصية من الشخصيات وألقى على كتفها بالأحداث ليطيل القصة ويفرغ فيها معتقداته وأفكاره، ففي كل قصة من القصص كان يضيف الجديد من الشخصيات وما يستلزمه ذلك من أحداث جديدة، فمثلاً في قصة الدرويش الأول قدم لنا الكاتب إضافة إلى شخصية الدرويش نفسه شقيقته أيضا ثم شخصية أميرة دمشق التى أدت بدورها إلى ظهور العديد من الشخصيات مثل شخصية الخادم الأمين والتاجر يوسف والجارية الدميمة وأم الأميرة (١٥).

وفي قصة الدرويش الثانى قدم لنا الكاتب علاوة على الدرويش شخصية الحطاب الفقير وزوجه ثم شخصية حاتم الطائى والملك نوفل والشحاذ الدرويش، وأميرة البصرة وأبيها الملك وشقيقاتها السبع وعندما أراد الكاتب أن يطيل قصته ويكثر من أحداثها طلع علينا بشخصية أمير بلاد «نيم روز» وخادمه، ومن خلال قصة أمير «نيم روز» ظهرت شخصيات جديدة

حركت الأحداث وأضفت عليها الحيوية والحركة مثل شخصيات الناسك الهندى والحورية(١٦).

وهكذا فى كل القصة كان الكاتب كلما أراد أن يضيف حدثاً جديداً أو يقدم عظة أو عبرة ابتكر شخصيات جديدة ساعدته على تحقيق ذلك الهدف، كما نجح «ميرأمن» فى أن يجعل شخصية الملك «آزادبخت» مبرراً قويا للأحداث، وللقاء كل شخصيات القصة ببعضهم البعض، هذا بالإضافة إلى أنه جعل من شخصية كل درويش من الدراويش الأربعة شخصية أساسية ساعدت على تدفق الأحداث فى كل أجزاء القصة.

وها هو ذا المؤلف يقدم لنا فى براعة ست قصص هى قصة الملك «آزادبخت» وهى القصة الأم التى تربط كل القصص الفرعية، وقصص الدراويش الأربعة حيث جاءت قصة كل درويش على حدة فيها كل عناصر القصة، ثم قصة «السيد المولع بالكلب» ثم ربط كل القصص بعضها بالبعض دون أن يفلت زمام الأمر من يده مما يعد قدرة وكفاءة من «مير أمن».

(٤) الزمان والمكان:

كل حادثة تقع لابد أن تقع فى مكان معين وزمان بذاته وهى لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما، والارتباط بكل ذلك ضرورى لحيوية القصة لأنه يمثل البطانة النفسية للرواية أو القصة (١٧).

وقد أغفل «مير أمن» عنصر الزمان فى مواضع كثيرة من القصة حيث إنه كان من الضرورى أن يروى حادثة تدوم سنين عددا، دون أن يراعى أن يتسق زمان تلك الحادثة مع بقية الأحداث كما فى قصة الدرويش الثانى، فقد ترك (أمير فارس) بلاده لعدة سنوات لا نعرف عددها، ليحظى بمقابلة (أميرة البصرة) وعندما التقى بها أرسلته فى مهمة لبلاد «نيم روز» لعدة سنوات أخر، لا نعرف عددها ثم خرج هو بنفسه بحثاً عن عشيقة أمير (نيم روز) لعدة سنوات أخر وتوجه بعد ذلك بأعوام إلى بلاد الروم ليحظى بمقابلة الملك آزادبخت والدراويش الآخرين (١٨)، وهكذا كان الزمان فى هذه القصة غير محدد وغير واضح الأبعاد.

وأيضا فى قصة الدرويش الرابع أى (أمير الصين) حيث استغرق بحثه عن معشوقة ملك الجان عدة سنوات، دون أن يراعى الكاتب تأثير تلك السنوات على شخصية البطل، وعلى سير بقية الأحداث (١٩).

كذلك فى قصة «السيد المولع بالكلب» خرجت ابنة الوزير (خردمند) لتبحث عن دليل براءة والدها إلى نيسابور، لسنوات عديدة دون أن يظهر تأثير تلك السنوات على ابنة الوزير، لا فى ملامحها ولا على سنها ولا على الشخصيات الأخرى أيضاً (٢٠).

وهكذا فإننا نجد الكاتب فى قصة «باغ وبهار» فقد منه عنصر الترتيب الزمنى فى أغلب المواضع، فاهتم الكاتب بالسرد للوقائع والأحداث، دون الاهتمام بعنصر الزمان وتأثيره على بقية العناصر.

أما بالنسبة للمكان فقد اهتم به الكاتب إلى حد ما أكثر من الزمان بالرغم من أن المعلومات الجغرافية ناقصة وبها كثير من الخلط، فقد كان الكاتب يسمى البلدان التى جرت بها الأحداث باسماء لبلدان حقيقية إلا أنها مجرد اسماء فقط، أما صفات تلك البلدان فى واقع الأمر لا تنطبق فى أى شىء على صفاتها فى القصة، فقد كانت مجرد اسماء فقط، أما حقيقة الأمر فهى أن الكاتب قد وصف أماكن وصفات وعادات واحتفالات وشخوص مدينة دهلى التى ينتمى إليها، فنحن نشعر بخصائص دهلى المكانية تطل علينا من كل مواضع القصة كما أننا نشتم رائحة عاداتها وتقاليدها واحتفالاتها تفوح من بين كل سطر من سطور القصة.

وفى رأى د. سيد عبدالله: «لقد نجح مؤلف باغ وبهار فى أن يرسم لنا فى جلاء تام صورة زمانه وطبيعة الحياة فيه، فأصبحنا كأننا من خلال القصة نرى أبواب وأسوار دهلى، ونرى أهلها يروحون ويغدون ويتحدثون أمامنا»(٢١).

وعلى سبيل المثال: «الاحتفالات فى «باغ وبهار» كثيرة، وكانت هذه الاحتفالات مظهراً هاماً فى مجتمع ذلك العصر، وكانت الولائم العظيمة إحدى لوازم البلاط الملكى فى تلك الفترة حيث تميزت بالسخاء والوفرة الشديدين، ويمكن أن نرى ونطلع على طقوس تلك الولائم، لنكتشف كل تفاصيل الحياة فى قصور دهلى فى ذلك العصر وما تتسم به من رفاهية وبذخ، وهذا ما نلحظه أيضاً فى عرض تلك الولائم والاحتفالات فى «باغ وبهار» فقد كان المؤلف يفرط فى وصف تلك الولائم والاحتفالات لدرجة أنه ينسى أن فاكهة المواسم المختلفة لا تجتمع على مائدة واحدة، ولكنه إبهار الأسطورة، إن حضارة دهلى تتحدث فى «باغ وبهار» وتتحرك صورها وتصور أمراءها، أعيادها،مناظرها وجمالها، ولائمها

واحتفالاتها، عاداتها وتقاليدها وآدابها، كل شيء كان في دهلي في تلك الفترة، وكل ما يمكن أن يكون فيها نجده في (باغ وبهار) فكأن (باغ وبهار) صورة ناطقة صادقة للحياة وطبيعي أن الأدب وحده هو الكفيل بتبيان ذلك .

ومن أمثلة أثر البيئة الهندية في قصص «باغ وبهار»، نجد الأخت تودع أخاها طبقا للعادات الهندية:

«وعقدت روبية الإمام الضامن في عضدي، ووضعت علامة (الماست) على رأسي»(*)، وقالت حابسة دموعها: «عش محموداً طيباً، استودعك الله سبحانه وتعالى، ارجع سريعا كما ذهبت»(٢٢) .

وكذلك وداع الدرويش الأول لعيسى الجراح:

«وشددت على يده قائلا: «لقد أحييتني بفضل براعتك وسعيك لشفائها؛ ولم ينقذني من الموت سواك، غنمك الله السلامة، ومنحته نبات «البان(**)»(٢٣) .

وعند وصفه لمجلس الطرب في حديقة التاجر يوسف يقول:

«حضر إلى المجلس أربعة فتيان في غاية البهاء والحُسن، مسترسل شعرهم، وأخذوا يغنون ويصفقون، فلو حضر إلى هذا العالم «تان سين» وسمعهم لنسي فنه كله، وبعد أن يسمعه «بيجو باؤر(***)» ذهب عقله»(٢٤) .

فبالرغم من أن قصة الدرويش الأول تدور أحداثها في «بغداد» و «دمشق» إلا أن العادات التي وردت بها تخص الشعب الهندي على وجه التحديد مثل عادة توديع المسافر بروبية الإمام الضامن، ووضع الماست على رأسه، وتوديع الضيف بنبات «البان»، كذلك الاستعانة بأسماء فناني الطرب المشهورين في الهند مثل «تان سين» و «بيجو باؤر» .

ومن العادات الهندية أيضًا أن تحرق المرأة نفسها، بعد أن يموت زوجها وفاء له، مثلما فعلت زوجة «خواجة سَك پرست» السيد المولع بالكلب بعد أن بلغها نبأ موته(٢٥) .

فتلك الأمثلة للعادات الهندية الخاصة التي تخللت أحداث القصة، ماهي إلا برهان قاطع على تأثر الكاتب ببيئته مما انعكس على عمله الأدبي الرائع «باغ وبهار» .

(٥) الشخصيات أو الأدوار:

والشخصيات فى «باغ وبهار» تتسم بنفس الخصائص التى تتسم بها الشخصيات فى كل القصص بصفة عامة، فإذا وضعنا هذه الشخصيات أمام أعيننا منذ بداية الحدث الرئيسى للقصة، ثم أخذنا نتقدم مع هذا الحدث، فإننا سنجد لكل شخصية ما يميزها من حيث الملامح والسلوكيات وسنلمس تطورا فى تلك الشخصيات كلما توغلنا بين ثنايا سطور القصة وإن كان هذا التطور يبدو قليلاً للغاية، فالشخصية الطيبة فى القصة تبدو فى أقصى درجات الطيبة، وكذلك الشخصية الشريرة ولا يبدو عليها أى أثر من آثار تجارب الحياة وخاصة شخصيات الرجـال[٢٦]. فهى ليست بالمستوى اللائق فنياً، حيث لا نجد فيها التطور الطبيعى وخاصة شخصيات الدراويش الأربعة[٢٧] فهم يبدون ذوى ملامح واحدة وسلوك واحد وصفات واحدة من حيث الشجاعة والسخاء والجود، وقدرتهم العظيمة على إنجاز الأعمال التى تتطلب صلاحيات خاصة لكن فى الغالب، فإن القوى الغيبية تتدخل فى إنجاز أكثر تلك الأعمال، لأن هذه الشخصيات تتسم بالجهل فى كثير من أمور الحياة ولا وجود لشخصية رجل فى (باغ وبهار) تسترعى اهتمامنا بقوة شخصيتها وتفردها فيما عدا بعض الشخصيات الفرعية[٢٨].

والدراويش الأربعة يشتركون فى صفة واحدة ألا وهى العشق والمحبة، وربما فضل «ميرأمن» تلك الصفة التى يتصف بها معظم شخصيات قصته لأن تلك الصفة كانت هى الغالبة على شخصيات القصص فى عصره من أعلى طبقة إلى أدناها، ومن الواضح بصفة عامة أن كل تلك الشخصيات تفتقد الهمة والميل إلى المثل الأخلاقية ولهذا فإن هذه الشخصيات، مع اتصافها الظاهرى بتلك الصفات (الأخلاق والتدين)إلا أنهم جميعًا كانوا ذوى بأس عظيم، وهم أيضا يشعرون بالوحدة الموحشة، وهم دراويش فى الظاهر مع أن كلا منهم أمير لملك عظيم، وكل منهم يخرج للبحث لكى يصل إلى هدفه، وهو يصل إليه بعد أن يظهر الجرأة والهمة.

«ومع أن الأبطال الأربعة لباغ وبهار ينتمون إلى ممالك متباعدة إلا أنهم يتفقون فى الصفات الشخصية مما يدل على أن ميرأمن صاغ تلك الشخصيات فى قالب واحد من حيث الوصف والسمات الشخصية، ثم منحها أسماء مختلفة»[٢٩].

فنجد الدرويش الأول وقصته تعتبر أروع جاذبية من حيث الفن القصصي - هو ابن لتاجر كبير يبدد أموال أبيه الطائلة بعد وفاته، لمصاحبته رفاق السوء، ثم يلجأ لبيت أخته بسبب الفقر، مرتدياً رداء القحة وعدم الحياء حيث يلجأ وهو رجل إلى أخته طلباً للعون والمأوى وأخته مثل أى أخت تبذل حياتها لأخيها وتساعده بكل ما تستطيع لتجعل منه إنساناً ناجحاً، وأخيراً تستيقظ نخوته وغيرته، ويبدأ سفره الروحانى، ويجد فى الطريق أميرة دمشق، ويضحى لينقذ هذه الأميرة من الموت، مظهراً سلوك خدمة الخلق وحب الإنسان ويغلب على عشق الدرويش الأول عنصر الخنوع والمذلة وعدم الوقار، لكنه عاشق وفى لا يميل إلى أى إمرأةسوى أميرة دمشق بل إنه عندما تبوح الأميرة بسر عشقها، لا يبدو عليه أى تغير فى نخوته ووفائه.

أما فيما يتعلق بالدرويش الثانى (أمير فارس) فإنه بعد أن سمع عن جود وسخاء أميرة البصرة، وضع نصب عينيه أن يلتقى بتلك الأميرة، ولهذا ترك العرش والتاج لوزيره واتجه صوب البصرة وبعد لقائه بأميرة البصرة تقرب إليها وصرح بعشقه لها عن طريق الوساطة، لكن حتى أثناء إظهار العشق كان الدرويش الثانى ذا وقار واقتدار وحياء وخجل، وذهب من أجل الأميرة ليأتى لها بسر أمير «نيم روز» برغم ما فى ذلك من مشقة ونصب لكنه لم يعد بعد أن عرف، بل إنه أظهر روح الإيثار ولازم أمير «نيم روز» وخرج ليبحث له عن معشوقته، وعلى كل حال فإن شخصية الدرويش الثانى تتميز بالسخاء والجود والوفاء والإيثار والوقار.

أما الدرويش الثالث (أمير العجم) فإن رحلته الروحية ضعيفة للغاية، فقد صيغت بداية الرحلة بطريقة جيدة وأسلوب حسن حيث رأى الدرويش أميرة الإفرنج فى منامه فوقع فى حبها، ومن أجل هذا الغرض سردت قصة (نعمان سياح) لكن عندما تتوالى أحداث القصة، نجد أن الأمير لم يتحمل فى سبيل عشقه القدر الكافى من الجهد والمشقة، فيما عدا تعرضه للخطر عندما ذهب لبلاد الإفرنج، وسعى فى جنازة عاشق الأميرة وابن عمها رغم ما فى هذا التصرف من خطر على حياته وطبقا لمقولة - إن الأمراء ينتظرون حتى ينضج الطعام ثم يأكلونه - فعندما تأتى المواقف الصعبة والهامة نجد الدرويش يقف صامتا متفرجاً فقط، ويخوض القائد الفارس (بهزاد خان) كل المعارك نيابة عنه، وحتى عندما تسقط الأميرة فى

الماء وتغرق، فإن من يغامر بحياته فى تلك اللحظة ويقفز خلفها بحصانه هو الفارس (بهزادخان)، وهكذا فإننا نجد الدرويش الثالث يحجم أمام المهام الجسام وكأنه لا يقدر عليها، فيما عدا موضع واحد فقط هو الذى أقبل فيه على المخاطرة بحياته حين شارك فى جنازة العاشق القتيل، رغم تحذير الملك من قتل من يشارك فى تلك الجنازة.

والدرويش الرابع هو أمير بلاد (الصين) وبعد وفاة أبيه تولى عمه المُلك، ونزل الأمير إلى الحريم لتقوم الخادمات بتربيته، وحينما شب عن الطوق وأراد أن يتولى الملك خلفاً لأبيه، طمع عمه فى الملك وأراد التخلص منه، لولا خادمه الوفى (مبارك) والدرويش فى هذه القصة سلبى تماماً فهو يعتمد على (مبارك) فى كل شىء حتى فى إنقاذ حياته من بطش عمه، وهو منقاد له ويذهب معه إلى الملك الصادق ملك الجان ليطلب مساعدته، فوعده الملك بالمساعدة مقابل أن يأتى الدرويش بالفتاة التى يحبها الملك، فوافق الدرويش على الفور، وعلى الرغم من تحذير الملك الصادق له بألا يخون العهد، إلا أنه خان بالفعل حيث وقع فى حب تلك الفتاة ولم يحفظ عهده مع الملك الصادق، كما أنه بعشقه لهذه الفتاة خان ابنة عمه أيضاً وكان يحبها ويرغب فى الزواج منها، وهذا سلوك معيب. وعلى هذا فإن شخصية الدرويشين الثالث والرابع ضعيفتان فنياً ولا تتركان أى أثر خاص فى نفس القارئ.

وعلاوة على شخصيات الدراويش الأربعة فى قصة (باغ وبهار) فهناك شخصيتان لهما أكبر الأثر فى أحداث القصة وهما الملك (آزادبخت) و (خواجه سكپرست ـ السيد المولع بالكلب).

فقد اعتبر أحد النقاد شخصية (آزادبخت) شخصية بطل رئيسى فى أحداث (باغ وبهار) بل إنه اعتبرها الشخصية الأساسية والمفتاح لأحداث القصة كلها(٣٠).

وفى الواقع أن قصة (باغ وبهار) ليست قصة الملك (آزادبخت) بل إنها قصة الدراويش الأربعة، ولا تبدو قصة الملك (آزادبخت) فى الظاهر قصة واحدة بل إنها اتخذت وسيلة وذريعة لسرد قصتين آخرتين فقد رأينا فى قصة الملك (آزادبخت) أنه لم يسرد سيرته الذاتية بل حكى قصة (خواجة سگ پرست) وهى قصة تمثل ضمن ما تمثل : أولاً : الصراع بين أهل الخير وأهل الشر، ثانياً: صدق مقولة «اتق شر من أحسنت إليه»، وثالثًا: قد يكون الحيوان الأعجم خير للإنسان من أخيه الإنسان.

فنجد فى قصة (السيد المولع بالكلب) أنه حينما بلغ شقيقاه أقصى حد من حدود الشر والحقد تجاه أخيهما، نرى (السيد) يبلغ أقصى حدود الخير معهما، ويحسن إليهما على الرغم من بطشهما المتكرر به، لدرجة أنه لا يجد مفراً من أن يحبسهما فى قفص إتقائاً لشرهما، فقد كان (المولع بالكلب) على دين وخلق، وكم غفر لأخويه سلوكهما المشين معه، لكنه فى النهاية اضطر لحبسهما، وفى الظاهر يبدو أن (المولع بالكلب) كان ذا شخصية جذابة، لأن أميرة (زيرباد وسرنديب) عندما وجدته وقد أشرف على الموت، أحبته ودخلت فى دينه وضحت بحياتها من أجله، كذلك فإنه كان متمسكاً بدينه وعقيدته لأنه كان عندما يرغب فى الزواج يجعل من سيتزوجها تدخل فى دينه وتعتنق الإسلام ويعلمها أركانه، فلهذا فإن السيد المولع بالكلب كان جديراً بأن يزوجه الملك (آزادبخت) من ابنة وزيره رغم كبر سنه.

ومن الشخصيات الثانوية للرجال فى قصة (باغ وبهار) شخصية التاجر «يوسف» الذى اتصف بحب الدنيا وملذاتها ولو على حساب الآخرين كما أنه غادر عديم الوفاء سافك للدماء لم يتورع عن قتل الأميرة على الرغم من كل ما قدمته إليه وصنعته من أجله.

كذلك شخصية وزير الملك (آزادبخت) الذى يدعى «خردمند» وقد كان صادقًا ومحبًا للحق حتى ولو ضحى بحياته، فقد واجه الملك «آزادبخت» بأن سلوكه حيال الافتتان بالجوهرة، وهى حجر، أمر غير لائق، وفيه خروج عن الدين مما عرضه لسخط الملك وأوقعه فى السجن، حتى استطاعت ابنته تخليصه من حبسه.

كما أننا نتأثر بفروسية ومروءة (بهزادخان) فقد كان شهماً شجاعًا يخف لنجدة الآخرين حتى دون أن يعرفهم، وهو الذى قاتل جيوش أمير الإفرنج دفاعاً عن الدرويش الثالث وقفز وراء الأميرة فى البحر لإنقاذها مما عرضه للغرق معها.

بالمقارنة بين شخصيات الرجال وشخصيات النساء فى (باغ وبهار) نجد الشخصيات النسائية أكثر حيوية وتعتبر من أحسن ما كتب «مير أمن» (٣١).

ومن تلك الأدوار النسائية دور بطلة قصة الدرويش الأول (أميرة دمشق) وهو دور مهم ومؤثر ففى هذا الدور توجد الصفات الطيبة ظاهرياً ومعنوياً معًا، وحالة الألم التى وجدها عليها الدرويش الأول عندما كانت جريحة وحبيسة فى الصندوق بعد خيانة حبيبها لها

وإقدامه على قتلها، جعلت القارئ يهتم بها ويتعاطف معها وهذه هي الألفاظ التي وردت عي لسانها:

«الحب والمعروف الذي أسديته لك هل هذا جزاؤه؟ اطعني مرة ثانية. إنني فوضت أنصافي وإنصافك إلى الله» (٣٢).

فهي تثير في القارئ انفعالات الرقة والرحمة وندرك أن الأميرة حتى وإن فاضت روحها فهي ثابتة في العشق، لكن الأحداث التالية تثبت لنا أن أميرة (دمشق) قد تفوهت بهذه الألفاظ وهي تحت ضغط الألم والخطر وليس عن طيب خاطر، لكنها ما أن سنحت لها الفرصة حتى انتقمت ممن ظلمها وجنى عليها وهو التاجر «يوسف» وجاريته فقد قتلتهما شر قتلة، وهكذا نجد شخصية أميرة (دمشق) تنضج وتتطور مع نمو الأحداث وهي تتشكل في كل موقف طبقًا لمقتضى الحال، فهي أيضا تنسى وتتجاهل أحيانًا ما أسداه لها الدرويش الأول من معروف وجميل، لكنها تعود وتقربه إليها وتتزوجه عندما تتيقن من صدق مشاعره وحبه الجم لها ولثباته في عشقها.

وبطلة قصة الدرويش الثاني في (باغ وبهار) هي أميرة البصرة، وهي شخصية سخية جداً بدرجة تفوق (حاتم الطائي) في جوده وكرمه، وهي مؤيدة للحق وصادقة وتؤمن بالقضاء والقدر فبسبب قول الحق يلومها أبوها الملك شديد البأس، لكن إيمانها الشديد بالقضاء والقدر يوصلها إلى مخزن مليء بالكنوز والنفائس لكن عندما حكى لها خادمها قصة عن أمير مدينة «نيم روز» تقرر الأميرة دون معقولية لقرارها أن من يأتي لها بخبر هذا السر الذي يجعل الأمير يقتل رجلا في مطلع كل شهر، ستتزوجه وتكون طوع أمره، وكأنها تريد أن ترى من سيتزوجها مغامراً، مما يؤكد إيمانها بالقضاء والقدر أيضاً.

أما بطلتا قصة الدرويش الثالث والدرويش الرابع أي أميرة الإفرنج وابنه الفقير الهندي الأعمى، فلا نجد فيهما أي جاذبية ولا روعة، فأميرة الإفرنج ترتمي في أحضان الدرويش الثالث - بعد مقتل حبيبها - مثل الثمرة الناضجة (٣٣) دون أي عناء أو مشقة.

أما بطلة قصة الدرويش الرابع فهي تمثال مجسم للتسليم والرضا فبعد مقتل زوجها في ليلة الزفاف، تقضي أياماً مظلمة مع أبيها الأعمى الفقير، وفي الظاهر لا يوجد في قلبها أي شعلة لعشق تجاه أي شخص، وعندما تلتقي بالدرويش الرابع تحافظ على إتزانها على الرغم

من أنها تميل إليه دون سبب معلوم، فهى مسيرة فى كل شئون حياتها منذ زوجها أبوها من ابن الملك، ثم زواجها من الدرويش الرابع أيضا، وخضوعها لرغبة الدرويش فى أن تذهب للقاء الملك «الصادق» ملك الجان، ثم موافقتها على الهروب منه أيضاً، فهى شخصية تنتقل من موقف إلى موقف مثل قطعة الشطرنج، دون أن تبدو منها أى خطوة تؤكد قوة شخصيتها، أو تتخذ أى موقف وتتمسك به حتى النهاية.

وثمة أدوار للنساء عديدة علاوة على أدوار النساء الأصلية، والتى لها دور ذو أثر كذلك، وأهم تلك الأدوار دور ابنة وزير الملك (آزادبخت) التى نجحت فى إحضار (السيد المولع بالكلب) إلى قصر الملك (آزادبخت) لعلو همتها واستقلالها ودأبها، فقد نجحت فى أن تطلق سراح أبيها من محبسه وأسلوب فكر ابنة الوزير وأسلوب عملها منطقى خالص، فإنها لا تنساق وراء انفعالاتها، ورغم حداثة سنها، فإنها كانت رابطة الجأش عندما بكت أمها، ولامتها، وتذرعت بالصبر والثبات، وقد قامت بالعديد من الحيل لتوقع (السيد المولع بالكلب) فى حبائلها، وإخفاؤها لأنوثتها يدل على أنها شديدة الحذر ذات فطنة ودهاء فى سلوكها.

ونتأثر أيضا بوفاء وثبات قدم زوجتى (السيد المولع بالكلب) أى ملكة (زيرباد) وأميرة (سرانديب) فهاتان المرأتان تدخلان فى دين الله على يد (السيد المفتون بالكلب) وانتحرت أميرة سرانديب بعدما علمت بمقتل زوجها، كما ماتت أميرة (زيرباد) حزناً على مولودها.

وأقصر أدوار النساء لكنه دور حيوى هو دور تلك المرأة التى تتميز بالخبث والدهاء الشديدين والتى شبهها (ميرأمن) - بخالة الشيطان - والتى وردت فى قصة الدرويش الثالث - إنها ظهرت فى القصة للحظة واحدة، ولكنها تترك فى قلوبنا وأذهاننا، أثاراً لا تمحى بسبب خداعها ومهارتها حيث احتالت على أميرة الإفرنج وادعت أنها عجوز معدمة لتطلع على سرها وتنال مكافأة الملك، وأخذت منها خاتمها الخاص لتبرهن للملك على صدقها.

ومما يسترعى النظر أن الكاتب قد استعان بعناصر ما فوق الفطرة وما وراء الطبيعة من جان ومردة وعفاريت فى أحداث قصته واستخدام عناصر ما وراء الطبيعة سمة من سمات الأدب الأردى خاصة فى إرهاصاته الأولى تأثراً بالملاحم والأساطير، حيث لجأ الكتاب لهذا الأسلوب لإضفاء عنصر التشويق لقصصهم، ولضمان جذب إنتباه القارئ لها، ولاقتناع أهل

ذلك الزمـان بوجـود الجـان والمردة، ومـا لديهم من قـدرة على حل الأمـور المستعصية والمعضلات (٣٤).

وعى اختلاف موضوعات القصص الأردية القديمة، إلا أنها تتفق فى شىء واحد، هو أنها تكاد تكون أحداثها ووقائعها وطريقة عرضها وبيانها واحدة لأنها اعتمدت على الجن والعفاريت أحيانا، أو على القصص العجيبة والغريبة فى أحيان أخرى (٣٥).

فلم تخل قصة منها من ذكر الطلاسم والسحر والجن والعفاريت والملك الذى لم يرزقه الله بالولد، ثم ببركة أحد المتصوفة الذى يدعو له دعوة صالحة يرزق بالولد (٣٦). وفى أثناء أحداث هذه القصة أو تلك، نرى حكايات العشق والغرام والصراع بين الإنس والجن والأمراء والسحرة (٣٧)، وكل ذلك ممكن ومقبول فى دنيا الأساطير والقصص الهندية القديمة.

وقصة «باغ وبهار» شأنها شأن القصص الأخرى قد اعتمد مؤلفها على عناصر ما فوق الفطرة، لكنه لم يجنح كثيراً لاستخدام ذلك العنصر إلا فى الضرورة فقط، ولم يخرج فى توظيف شخصياته الخارقة عن إطار الحض على الصداقة والوفاء، ووضعها فى مكانها المناسب مما أضفى جاذبية على قصته.

ونجد عناصر ما فوق الفطرة أو شخصيات العفاريت والجن فى مواضع قليلة فى «باغ وبهار» دون إسراف، لكنها مؤثرة وذات دور فعال فى تطور الأحداث، وأول المواضع التى ورد فيها ذكر للجان والعفاريت، كان فى قصة أمير «نيم روز» حيث ظهرت شخصية ابنة ملك الجن التى تسكن «جبل قاف» ولولا وقوع أمير «نيم روز» فى غرام تلك العفريتة لما أصيب بالجنون ولا التقى بالدرويش الثانى وتوالت أحداث القصة ولا كان هناك سبب وجيه لسرد الكاتب لقصة (أمير نيم روز) ضمن أحداث القصة الرئيسية (٣٨).

كذلك ظهرت شخصيات الجان مرة أخرى فى قصة الدرويش الرابع متمثلة فى شخصية الملك «الصادق» ملك الجان، الذى كان صديقاً لوالد الدرويش الرابع ملك الصين، وقد استخدم المؤلف شخصية الملك «الصادق» ليخرج الدرويش الرابع من أزمته الأولى مع عمه الملك، كما جعله سبباً فى اتصال الأحداث، ولقاء الدرويش بمعشوقة الملك الصادق والفوز بها.

وشخصية ملك الجان هنا شخصية تتمتع بمواصفات نبيلة سامية، حيث إنه يعرف حق الصداقة لصديقه ملك الصين الراحل ويهب لنجدة ابنه عندما لجأ إليه، ويمقت الخيانة

ونقض العهود، حيث نجده يحذر الدرويش من مغبة الخيانة وسوء عاقبتها، وشخصية الملك الصادق تتفوق على شخصية الدرويش (أمير الصين) وتبدو أعظم نبلاً ورقياً، في حين يبدو الدرويش خائنا للعهد متذبذب المشاعر (٣٩).

وتتجسد عناصر ما فوق الفطرة في خاتمة القصة أيضا متمثلة في شخصية ملك ملوك الجان «شهبال» الذي جعل منه المؤلف سبباً في إطلاق سراح الأميرات المختطفات من قبل الجن وتزويجهن للدراويش الأربعة، وتزويج ابنته لابن الملك «آزادبخت». وشخصية ملك الجان «شهبال» شخصية هامة لها عظيم الأثر في أحداث القصة، وعلى الرغم من أن ظهورها على مسرح الأحداث لم يستغرق إلا وقتاً قصيراً للغاية، إلا أن تلك الشخصية تعتبر شخصية محورية حيث اعتمد عليها المؤلف في انفراج عقدة كل قصص «باغ وبهار» مما أدى إلى بلوغ الأحداث منتهاها (٤٠).

وقد نجح «مير أمن» إلى حد بعيد في توظيف عناصر ما وراء الطبيعة من جان ومردة في المواضع التي رأى أنها تستلزم هذ التوظيف دون مبالغة أو إفراط أو شطط في أحداث القصة، فجاء هذا التوظيف مشوقًا وجذابًا، مما أضفى على القصة المزيد من الجودة والاتقان.

هوامش الفصل الثالث

(١) عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، ط٧ القاهرة ١٩٧٨م، ص١١٢.

(٢) Muir, Edwin. The Structure of the Novels, The Hogarth Press, London,, 1949, p. 16.

(٣) اردوكى نثرى داستانين: ص٣٧٩.

(٤) زهرا معين: باغ وبهار كاتنقيدى مطالعة، ص ٨٣.

(٥) ميشيل بوتور:بحوث فى الرواية الجديدة، ت. انطونيوس، بيروت ١٩٨٢م، ص ١١٧.

(٦) يمنى العيد: تقنيات السرد الروائى، ط١، لبنان، دار الفارابى ١٩٩٠م، ص٩١.

(٧) حسن بحراوى: بنية الشكل الروائى، المركز الثقافى العربى، بيروت ط١٩٩٠، ص ١١٩.

(٨) باغ وبهار: ص٧١.

(٩) باغ وبهار: ص٨٠.

(١٠) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائى، ط١، بيروت ١٩٨٩، ص٣١٤.

(١١) باغ وبهار: ص٨٢.

(١٢) باغ وبهار: ص١٥٧.

(١٣) باغ وبهار: ص٢٠٥.

(١٤) R. Bourneuf et, R. Ouellet, "L' Univers du Roman", Ed. Puf, 1981, p.86.

(١٥) باغ وبهار: ص٧١ إلى ١٣٢.

(١٦) باغ وبهار: ص ١٣٣ إلى ١٨١.

(١٧) B. Volette; "Esthetique du Roman Modern", Paris, 1972, p. 93.

(١٨) باغ وبهار : ص ١٣٣ إلى ١٨١ .

(١٩) باغ وبهار : ص١٨٣ إلى ٢٦٣ .

(٢٠) باغ وبهار : ص٢٨٧ إلى ٣١٩ .

(٢١) ميرأمن سى عبد الحق تك : ص ٤.

* بعض العادات الهندية لجلب الرزق والبركة للمسافر .
(انظر : قمرأستان : آداب سلطنت ورسوم معاشرت، ط٢ ، غضنفر أكاديمى ، پاكستان ، كراچى، ب.ت ، ص٥٦).
(٢٢) باغ وبهار : ص٨٧ .
** نبات البان : نبات له لون أحمر قانى ويستخدم فى تطهير الفم ويعطيه الناس فى الهند لبعضهم البعض على سبيل التحية والبركة.
(فرهنگ آصفية : سيد أحمد دهلوى ، لاهور ، مكتبة سهيل (ب . ت) ص١٠٧) .
(٢٣) باغ وبهار : ص٩١ .
* (تان سين) (بيجوباور): من أهم الموسيقيين الذين برزوا فى العهد المغولى فى الهند.
(انظر : ايس . ايم . اكرام ، وحيد قريشى (د) : دربارملى . ت. عبدالحميد يزدانى ، ط١ ، كراچ، ١٩٤٧م، ص١٠٣).
(٢٤) باغ وبهار : ص٩٦ .
(٢٥) باغ وبهار : ص١٥٤.
(٢٦) فخر الإسلام اعظمى : سب رس سى خطوط غالب تك . اشاعت أول. ديسمبر ١٩٨٥م ص٧٨ .
(٢٧) بروفيسور محمد أرشد كيانى : قصة نگارى كار ارتقا . لاهور . د.ت. ص١٤ وما بعدها .
(٢٨) سيد وقار عظيم : همارى دستانين. اردو مركز . لاهور . ط٢ ص٨٥.
(٢٩) سليم اختر : باغ وبهار كانتقيدى مطالعة : ص٧٩ .
(٣٠) چيان چندچين: اردو كى نثرى داستانين : ص٣٧٩.
(٣١) همارى داستانين ص٨٧ .
(٣٢) رشيد حسن خان : باغ وبهار ، ص٣٢ .
(٣٣) ممتاز حسين : مقدمة باغ وبهار ، ص٤١ .
(٣٤) بروفيسور حميد خان : مقدمه سفينه أدب (حصرة نثر) لاهور . أكتوبر ١٩٦٦ م، ص١٠ .
(٣٥) رام بابو سكسينه : تاريخ ادب اردو، ترجمة ميرزا محمد العسكرى ـ غضنفر اكاديمى . كراتشى. پاكستان ب.ت، ص٤٩٩.
(٣٦) د. أبو الليث صديقى : آج كا اردو أدب . كراچى . ط٢ ، ١٩٨٢ م، ص١٧٤ ، ١٧٥ .
(٣٧) اس . ام. معين قريشى اردو زبان وادب. ط١ ، كراچى ، ابريل ١٩٨٦م، ص٦٧ .
(٣٨) انظر : باغ وبهار ، من ص١٨٣ إلى ٢٦٣ .
(٣٩) باغ وبهار : من ص٢٨٧ إلى ٣١٩.
(٤٠) باغ وبهار : من ص٣١٣ إلى ٣١٧ .

الفصل الرابع

المغزى الفكرى فى «باغ وبهار»



لم يكن الهدف من القصص القديمة مجرد التسلية والترفيه فقط وإنما كانت تقصد إلى تعليم شيء ما أيضاً و «باغ وبهار» من هذا النوع (١) .

فهذا الكتاب يعد من الكتب القلائل التى تتعرض للأخلاقيات فى الأدب الأردى بل إنه - كما يرى البعض - يعد بحق صحيفة مجسمة للأخلاق (٢) .

فقد وضع «مير أمّن» قيمه الأخلاقية وألقى الضوء على محاسن الإسلام والمسلمين فى كل موضع من «باغ وبهار» على لسان شخصيات قصته وساق الحكم والمواعظ والصفات الإنسانية الرفيعة لكن على نحو غير مباشر مما زاد فى روعة القصة. جعل «مير أمّن» من الجانب الترفيهى والجانب الأخلاقى التعليمى خطين متوازيين يسيران جنبًا إلى جنب من بداية القصة إلى نهايتها .

والأخلاق والحكم والمواعظ فى «باغ وبهار» لا حصر لها وبما أن المجال لا يتسع هنا لذكرها كلها فسوف أقدم بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر والقليل أمارة على الكثير :

ففى قصة الدرويش الأول عندما رغب الملك «أزادبخت» فى التخلى عن العرش والخروج من المملكة للسياحة والسفر يقدم لنا المؤلف درسًا فى ضرورة عدم تنصل المسئول من مسئوليته والراعى عن رعيته فيقول على لسان الوزير:

«يا قبلة العالم اطرح هذا الوهم عن قلبك، فلست من يترك العالم فى صراع مستمر وقد أقيمت هذه السلطنة بجد واجتهاد سموكم العظيم ، ولو أفلت زمام هذه البلاد من يد جلالتك ولو للحظة وخرجت نتيجة للجهل والحمق، فستفنى وتنهار تماماً لاقدر الله، كما أنه فى يوم القيامة.

عندمـا يسألك ربك ويقول لك : «لقد وليتك على هذا الملك وحملتك مسئولية الرعية فيئست من رحمتنا وجعلت الرعية في حيرة واضطراب فبماذا ستجيب على هذا السؤال؟ عندئذ لن تجديك العبادة في ذلك اليوم المهيب شيئاً ، ولهذا فقلب الإنسان هو بيت عبادة الله وسيسأل الملك عن عدله فقط... والسياحة في الغابات من شأن النساك والزهاد، وليست من شيم الملوك (٣) .

ومن القيم الأخلاقية التي حرص المؤلف على إبرازها ، قوله في سوء عاقبة من يصاحب رفقاء السوء ويأمن لهم :

«الخلاصة أن شيطان الإنسان إنسان مثله، فضللت الطريق القويم وتبدل الزمان ، وبدأت ممارسة الغناء والرقص في كل وقت ونسيت التجارة واشتغلت بالميسر، فلما رأى الرفاق والخدم أنني غافل تمام عن ثروتي وتجارتي، بدأوا يأخذون منها ويسرقونها وأنا لا أدري شيئًا عن النفقات والمصاريف، من أين تأتي ولا إلى أين تذهب ، فالمال بلا حساب والقلب قاس ومع تلك الحال حتى لو أنني كنت أملك خزائن قارون لم تكن لتبقى، وفجأة أصبحت فقيراً لم يبق لي من اللباس سوى ما يستر بدني، وتنكر لي كل الناس حتى أصدقائي وندمائي بل إنني كنت إذا التقيت بهم في الطريق يشيحون بوجوههم عني» (٤) .

ودرس أخلاقي ثالث يتمثل في ضرورة خروج الرجال للعمل لتكون رجولتهم حقه تقول أخت الدرويش الأول: ياعزيزي أنت أخي ونور عيني وتذكار لوالدي ولقد طابت نفسي لمقدمك لكن الله تعالى خلق الرجال للكسب والكد والعرق، أما الدعة في البيت فليست من شيم الرجال، والرجل الذي يلزم البيت يتعرض للملام(٥) .

وهذه حكمة تحض على العدل حيث يقول : «العدل واجب وينبغي للإنسان ألا يجانب العدل والإنصاف»(٦) وكما قال في الوفاء بالعهد : «كي تكون رجلا ينبغي أن تفي وأن تكون فعالاً قوالاً»(٧) .

وفي قصة الدرويش الثاني أورد الكاتب قصة «حاتم الطائي» كاملة لما فيها من كرم ورفعة خلق وشهامة ومرءوة وإيثار (٨) .

وهذا درس آخر ونصح بنبذ رذيلة الطمع يقول على لسان الدرويش الثاني :

«من حرف الفاء الفاقة، ومن حرف القاف القناعة ، ومن حرف الراء الرياضة ، فمن لا يعمل بهذه الأحرف فليس بفقير، فكل وأنفق مما حصلت عليه منى، ثم عُد واطلب منى مرة ثانية فإن الصدقة تمنح لرفع الفاقة لا لجمعها وادخارها أيها الطماع» (٩) .

وهذا درس فى التواضع تقول أميرة البصرة: «ليس من اللائق التفاخر بالمُلك والحديث عنه فى الدنيا لأن كل الناس سواء فى الحقيقة، إلا من شُرف بدين الإسلام فهو الأفضل»(١٠).

كذلك أراد «مير أمّن» أن يعلمنا أن القدر حتم والقدر لابد وأن يقع، وقد أيد نظرته هذه بكثير من القصص مثل قصة غضب الملك من أميرة البصرة وطردها فى حالة من العسر الشديد ثم غناها مرة أخرى (١١) . وقصة جنون أمير «نيم روز» فى السنة الرابعة عشرة من عمره (١٢) .

وفى قصة الملك «آزادبخت» يقدم لنا المؤلف نصيحة بالتريث والتأنى فى الحكم فعندما أمر الملك «آزاد بخت» بقتل وزيره «خردمند» حينما شعر أنه يكذب عليه وقف سفير ملك الفرنجة بين يدى الملك وقال : : «التمس من جلالتكم أن تتحقق من تقصير الوزير» فقلت له: «وهل هناك ذنب أكبر من الكذب؟ خاصة أمام الملوك؟ فقال السفير : «لم يثبت كذبه، ربما كان كل ما ذكره صدقاً ومن غير المناسب الآن قتل البرىء» (١٣) .

وهذه نصيحة أخرى بالصبر على البلاء على لسان ابنة الوزير «خردمند» : قالت ابنة الوزير: «يا أمى العزيزة!! إن القدر لا يُحارب ، عندما يبتلى الإنسان عليه بالصبر وبالأمل والرجاء فى الفضل الإلهى ، فإنه كريم لا يدخل الإنسان فى مأزق إلا وعنده منه المخرج (١٤) .

ويقدم لنا درساً فى نعمة رضاء الوالدين على لسان ابن التاجر (ابنة الوزير) يقول : «والد هذا الإنسان قد سمح له بالسفر لعام واحد فقط، ولو تأخرت فإنه يموت فى شيخوخته، ورضاء الأبوين من رضاء الله ، فلو أنهما غضبا علىّ أخشى أن يدعوا علىّ فأكون محروماً فى الدنيا والآخرة» (١٥) .

أما قصة «السيد المولع بالكلب» فهى كلها عبارة عن درس فى ضرورة الوفاء والإخاء والعدل والصدق، كما يبين الكاتب أيضاً فضائل الدين الإسلامى وحميد خصاله وينفر من الكفر والإلحاد ويحث على الإيمان ولنر ما ورد على لسان «السيد المولع بالكلب» من سخط

على الكفر وترغيب للأميرة فى اعتناق دين الإسلام قلت : «الإنصاف شرط، لو تكرمت فلتفكرى فى أن الخالق الذى خلق الحبيب مثلك من قطرة ماء ووهبك هذا الحسن والجمال لتخلبى لب آلاف البشر فى آن واحد، هل هو جدير بالعبادة؟ وما الصنم حتى تعبدينه؟ إنه حجر نحته الناحتون وجعلوا له صورة وخدعوا به الحمقى من الناس الذين أضلهم الشيطان وهم يعتقدون أن المصنوع هو الصانع، فالذى يصنعونه بأيديهم يحنون رءوسهم أمامه، ونحن المسلمين نعرف الذى خلقنا ونؤمن به، وقد جعل لهم جهنم وجعل لنا الجنة، ولو شرفت الأميرة بشرف الإسلام، فستدرك حلاوة الإيمان وتفرق بين الحق والباطل وتدرك خطأها» (١٦) .

وفى قصة الدرويش الرابع يقدم المؤلف لنا عظة فى ضرورة الحياء قالت الحسناء : أيها الشاب اتق الله لا تنظر إلى غير محرم فالخجل والحياء من حسن الأدب (١٧).

وأيضا درس فى الأمانة قال لى : هذه أمانه للملك «الصادق» واحذر أن تخونه فيها (١٨).

أما القصة بتمامها فهى عبارة عن درس كبير فى ضرورة الصبر على الشدائد والآلام وأنه فى النهاية لابد أن يدرك الإنسان مقصده ومطلبه طالما كان هدفه نبيلاً وشريفاً، كل تلك الأسباب جعلت لكتاب «باغ وبهار» أهمية خاصة فى تاريخ القصة فى الأدب الأردى «فباغ وبهار» هى الإرهاصات الأولى وأول نموذج للقصة المكتوبة فالعناصر التى تميز الرواية من شخصيات ومشاهد وخلفية اجتماعية ثقافية وأهداف إصلاحية لا تخلو منها «باغ وبهار» يمنحها أهمية خاصة فى تاريخ الأدب الروائى، كما أن «باغ وبهار» تعتبر بمثابة وثيقة وخريطة للحياة الاجتماعية والحضارية فى الفترة التى ألفت فيها، وشخصيات تلك القصة تقدم دليلاً حياً على ذلك أيضاً.

فتلك القصة بكل ما تحويه تعكس صورة حية لحضارة العصر كذلك لغتها وأسلوب بيانها وما ورد فيها من نصائح وحكم وأخلاق ، كل هذه الأسباب مجتمعة تجعلنا نتفق مع معظم النقاد على أهمية «باغ وبهار» ، مما جعل لها مكانة فى تاريخ الأدب الأردى حتى اليوم.

هوامش الفصل الرابع

(١) مولوى سيد محمد : باغ وبهار ايك مطالعه ، اشاعت أول. اعجاز ببلشنك هاوس، نى دهلى. أبريل ١٩٨٣م ، ص٢٣٤ .

(٢) كلج خوبى : مقدمة ، خواجه أحمد فاروقى ، ص ٧٠ .

(٣) باغ وبهار : ص ٧٦.

(٤) باغ وبهار : ص ٨٤ .

(٥) باغ وبهار: ص ٨٦.

(٦) باغ وبهار: ص ١٠٩.

(٧) باغ وبهار : ص ١٣٨ .

(٨) انظر باغ وبهار : من ص١٣٥ إلى ص ١٣٩ .

(٩) باغ وبهار : ص ١٤٠ .

(١٠) باغ وبهار : ص ١٥٠ .

(١١) باغ وبهار : ص ١٥٧ إلى ١٦٥ .

(١٢) باغ وبهار : ص ١٦٦ إلى ١٨٢ .

(١٣) باغ وبهار : ص ١٨٧ .

(١٤) باغ وبهار : ص ١٩٠ .

(١٥) باغ وبهار : ص ١٩٦، ١٩٧ .

(١٦) باغ وبهار : ص ٢٣١ .

(١٧) باغ وبهار : ص ٢٩٧ .

(١٨) باغ وبهار : ص ٣٠٤ .



الباب الثالث

دراسة نقدية لكتاب «باغ وبهار»



الفصل الأول

مصادر باغ وبهار



شفاهة. وبسبب دعاء مرشده «نظام الدين» راجت هذه القصة فى الفارسية[١].

وقد ترجم «ميرأمّن» - على حد قوله - قصة الدراويش الأربعة بناءً على طلب «جلجرست» فى المحادثة الهندية الخالصة[٢].

والقصة الفارسية «الدراويش الأربعة» التى نسبها «مير أمّن» إلى «أمير خسرو»

تعتمد على الحكايات السمعية والشفهية لاعلى الواقع، وعلى وجه العموم قد تنسب أى قصة أو واقعة إلى شيخ صالح تبركًا به وذلك درءاً لتلك النظرة المتشككة التى كان ينظرها علماء ذلك الزمان للقصص والحكايات ظناً منهم أنها تفسد الأخلاق، وهكذا قالوا عن «وامق وعذرا» «ويس ورامين»[٣]، ولهذا فقد نسبت قصة «جهار درويش» إلى «أمير خسرو» وذكرت معها قصة «نظام الدين اوليا» حتى تكتب لها الشهرة والذيوع وحتى لايظن بها بعضهم ظن السوء[٤].

ومن المصادفات العجيبة أن شخصية «أمير خسرو الدهلوى» قد أثرت تأثيرًا واضحاً فى الأدب الفارسى كما نسبت إليه كل القصص المعقدة والحكايات الغريبة مثل من كانت أم «أميرخسرو» وكم كان بارعًا فى الموسيقى؟ ومادوره فى ابتكار آلة الطبل والعود؟ وما هى علاقته بالانشاد؟ وهل صنف «اميرخسرو» «خالق بارى» أم أحد غيره؟ وهل كتب «اميرخسرو» كتاب «أفضل الفوائد» المشتمل على أقوال «نظام الدين اوليا» أم غيره؟ والأشعار الهندية التى تنسب إلى «اميرخسرو» هل هى من فيض قريحته أم منسوبة إليه؟ أو قصة «الدراويش الأربعة» التى نسبها «ميرأمّن» إلى «اميرخسرو» هل هى تصنيفه أم لغيره؟.

وقد حاول كل من له إلمام بمؤلفات وأحوال «اميرخسرو» أن يجيب عن تلك التساؤلات وقد وصلوا فى بعض الأمور إلى نتيجة طيبة.

وقد كتب أحد النقاد مقالاً مفصلاً ومدعماً بالأدلة عن قصة «الدراويش الأربعة» الفارسية وهو ملحق بمقالات شيرانى، ولم يكن أمام «شيرانى» سوى النسخة الخطية لقصة الدراويش الأربعة التى كتبها (محمد على المعروف بمعصوم على خان) فاستنتج «شيرانى» فى ضوء الشواهد الداخلية والخارجية، أن «باغ وبهار» ليس إلا ترجمة للنسخة الفارسية «لمعصوم على خان» وأنها ليست لأمير خسرو الدهلوى ونلخص دلائل «شيرانى» فيما يلى:

١ ـ لم يذكر «أميرخسرو» أو أى مؤلف من مؤلفى التذاكر ممن تناولوا سيرته أى شىء يتعلق بـ «جهار درويش».

٢ ـ ألفت كتب عديدة حول حياة «نظام الدين أوليا» وأقواله ذكرت فيها أحواله بالتفصيل، دون أن يرد فى أى منها ذكر لقصة «الدراويش الأربعة».

٣ـ كتبت النسخة الخطية الفارسية لقصة «الدراويش الأربعة» فى القرن الثانى عشر الهجرى على وجه التقريب ولم يعثر على أى نسخة قبل هذا التاريخ، ويبدو أن هذه القصة ألفت حوالى القرن الثانى عشر، فلو اشتهرت هذه القصة قبل هذا التاريخ لأشير إليها فى «آنين اكبرى» الذى وردت فيه أشهر القصص فى ذلك العهد،

٤ ـ ورد ذكر «أميرخسرو» و «نظام الدين أوليا» فى نسخة «الدراويش الأربعة» لأمير أحمد خلف شاه محمد «ولم يرد لهما ذكر فى قصة «الدراويش الأربعة» التى ألفها «حكيم محمد على المخاطب بمعصوم على خان».

٥ ـ جاءت فى كتاب «الدراويش الأربعة» الفارسى أشعار «لحافظ» و «فغانى» و «نظيرى» و«عرفى» و «شاهبور» الذين كانوا لاحقين لـ «أميرخسرو» وورد القليل من أشعار وأقوال الشيخ «سعدى» الذى كان معاصرًا لـ «امير خسرو».

٦ ـ وقد ذكرت فى مواضع عديدة من كتاب (چهار درويش) عملة «التومان» و«الأشرفى» وهاتان العملتان راجتا بعد عهد «أميرخسرو» كما أن «التومان» عملة إيرانية خالصة ولم ترج فى الهند فى ذلك الوقت.

٧ ـ ذكرت خلال القصة أسماء العديد من المناصب مثل (قورچيان وكشكچيان واشك آقايان، وكيل السلطنة خزانه دارو واميرآخور وغيرها) وقد راجت هذه المصطلحات فى الهند بعد مجىء المغول إليها، ولا توجد أسماء هذه المناصب فى عهد «أميرخسرو».

٨ ـ وردت فى القصة الفارسية هاتان العبارتان:

(مذهبى هو محبة الأئمة الاثنى عشر وأداء الصلاة والسلام) (ويجب عليك وقت المصلحة أن تظهر التقية وأن تسجد للصنم بغير تذمر).

ويتضح من هاتين العبارتين أن مؤلف القصة الفارسية كان شيعياً اثنى عشرياً، ومعروف بالقطع أن «اميرخسرو» كان سنياً.

واستخلص «شيرانى» من تلك الشواهد أن «باغ وبهار» ليس ترجمة لقصة «چهار درويش» الفارسية التى ألفها «امير خسرو» بل إنها ألفت بعد فترة طويلة من عهده[٥].

ومال «مولوى عبد الحق» إلى اعتبار «باغ وبهار» ليست ترجمة عن «چهار درويش» لأمير خسرو الدهلوى» ورجح أن يكون «ميرأمّن» قد وضع أمامه «نوطرز مرصع» لـ «ميرزا عطا حسين تحسين خان» وكان دليله على ذلك التشابه بين الكتابين فى الكثير من المواضع[٦].

ويقول «سيد قدرت نقوى»:

«لم تكن لدى الشيخ عبد الحق فى ذلك الوقت نسخة «فورت وليم كالج» إذ كتب على الغلاف الخارجى لنسخة فورت وليم كالج الآتى: «باغ وبهار تأليف مير أمّن الدهلوى ومصدرها نوطرز مرصع المترجمة عن قصة چهار درويش الفارسية لعطا حسين خان».

وقد أكد «جلجرست» هذا الأمر فى المقدمة أيضا فقال:

«إن أول من ترجم قصة چهار درويش إلى الأردية هو مير حسين عطا خان تحسين وأسماها «نوطرز مرصع» ولكنها تعتبر ترجمة غير فصيحة من الناحية الأدبية، إذ أن فيها فقرات ومحاورات وجمل من العربية لاتحصى، أما مير أمّن والذى يعمل فى «فورت وليم كالج» فقد ابتعد عن أسلوب حسين هذا، وتبنى اسلوباً سهلاً بسيطاً ونجح فيه إلى حد كبير ويمكن أن يعرف هذا علماء اللغة الأردية[٧].

وهكذا أيضًا ذكر «مستر ايل ايف سميث» فى تمهيده لباغ وبهار التى ترجمها إلى الإنجليزية وطبعها: «لقد أخذ مير أمّن قصة باغ وبهار من نوطرز مرصع لتحسين» [٨].

وبناءً على هذه الأقوال كلها فإن «مير أمّن» برىء من التهمة المنسوبة إليه (ترجمته عن چهار درويش الفارسية) إلا أنه حقيقة لم يذكر «نوطرز مرصع» فى المقدمة لأسباب عدة منها:

١ـ أنه كتب ذلك على غلاف الكتاب وفى مقدمة «جلحرست» فليس من المناسب التكرار.

٢ ـ من المسلم به أن «نوطرز مرصع» كان عند « مير أمّن» وكذلك النسخة الفارسية أيضاً المجهولة المصدر والمؤلف إذ أننا نجد أحياناً اختلافا بينه وبين «نوطرز مرصع»، وعلاوة على الكتابين السابقين فقد كانت القصص المروية شفهيًا على ألسنة الناس فى هذا الموضوع محفوظة لدى «مير أمّن» ويغلب على كتابه طابع هذه القصص المسموعة، أما «نوطرز مرصع» فهو يخلو من ذلك.

ومن المرجح أن «جلجرست» كان قد اختار «نوطرز مرصع» ليقدمه إلى مجلس كلية «فورت وليم» لكن عندما قدم هذا الكتاب إلى المجلس، قرر المجلس أنه ليس على المستوى المطلوب واللائق، فأشار «جلجرست» على «مير أمّن» بترجمته، ولكى يحسن من موقف كتاب «نوطرز مرصع» جعله مصدراً لباغ وبهار، وقد قبل «مير أمن» هذا الاقتراح على مضض، ولهذا لم يذكر ذلك فى المقدمة، و«جلجرست» «نفسه يعترف بأن «مير أمّن» ابتدع اسلوباً جديداً، والكلام هنا عن الأسلوب حيث إن القصة والشخصيات وغير ذلك كان موجوداً من قبل سواء أمام تحسين أو «مير أمّن» والفرق بينهما فى الأسلوب فقط ولذا فإننا لانستطيع أن نقرر أو نسلم بأن مأخذ «باغ وبهار» هو «نوطرز مرصع» من عدمه دون أن نعقد مقارنة بين الكتابين لنخلص إلى نتيجة.

باغ وبهار ونوطرز مرصع:

تعد قصة «نوطرز مرصع» هى أول ترجمة أردية منشورة لقصة «جهار درويش» قام بها «مير محمد حسين عطاخان» المتخلص بـ «تحسين» ويعتبر تحسين عميد للهاشميين الرضويين بمدينة «آتاواه» وكان والده «محمد باقرخان شوق» أستاذاً فى الشعر والخط، وقد بلغ تحسين أيضًا فى الأردية والفارسية شعرا ونثراً وفى فن الخط إلى درجة رفيعة، وقد لقب فى

فن الخط بـ (مرصع رقم) وفى الغالب ترجع تسميته لمؤلفه فى الأردية «نوطرز مرصع» إلى هذا السبب[٩].

وليست لدينا أية معلومات عن المراحل المبكرة لحياة تحسين والغالب أنه ارتبط بجنرال «اسمتهـ» فى «بتنه» وقد رافقه إلى «كلكتا»، ومكث «اسمتهـ» فى الهند منذ يناير ١٧٦٨م وأغلب الظن أنه رحل عنها فى نهاية عام ١٧٦٩م، وأثناء السفر إلى «كلكتا» أسمعه عزيز لديه قصة «جهار درويش» ليسرى عنه، فلما سمعها «تحسين» أراد أن ينقلها إلى اللغة الأردية ولم يقم «جنرال اسمتهـ» فى «كلكتا» فترة طويلة بل عاد إلى انجلترا وعند رحيله عن «كلكتا» توسط لتحسين ليتولى منصب «وكيل نظارت» فى «بتنه»، فتوجه «تحسين» من «كلكتا» إلى «بـتـنـه» [١٠] لكنه عزل من منصبه بسبب شكاوى الحساد، وأخيراً توجه إلى «فيض آباد» للبحث عن وظيفة بعد أن أقام فى «بتنه» عاما أو عاماً ونصف، وعمل عند الحاكم الإنجليزى كابتن «هاربر» وحدث هذا عام ١٧٧٢م تقريباً ولعله التحق ببلاط «شجاع الدولة» عن طريق كابتن «هاربر»، وقد تحين الفرصة ذات يوم وأسمع «نواب شجاع الدولة» بعض المواقف من قصة «نوطرز مرصع» فأعجب بها وأمره أن يكملها[١١]، فبدأ فى إتمامها، وأتمها بعد عدة أيام وأراد أن يقدمها إليه إلا أن موت «شجاع الدولة» قد حال دون ذلك، وعندما تولى «آصف الدولة» العرش أراد تحسين أن يقدم مؤلفة إليه فأضاف بعض كلمات المديح فى الديباجة وقصيدة فى مدحه ثم قدمها إليه ونجح فى مهمته[١٢].

وهكذا تم تأليف «نوطرز مرصع» فى سنة ١٧٧٥م بعد بدايته عام ١٧٦٨م وقد ألف «نوطرز مرصع» فى لغة أردية مغلقة للغاية مشحونة بالألفاظ والتراكيب الفارسية، وعلى حد قول «مهرجند كهترى» مؤلف قصة «ملك محمد وكيتر افروز» يقول «لم يستطع الإنجليز طباعة هذا الكتاب نظراً إلى أن تحسين ألفه فى ألفاظ ثقيلة فصيحة وعبارات ثقيلة وموزونة»[١٣].

وقد اعترض «جلجرست» أيضاً - فى مقدمته للطبعة الأولى الإنجليزية لـ «باغ وبهار» - على تعقيد والتواء ألفاظ «نوطرز مرصع» واستعمال الفارسية والعربية بغير ضرورة[١٤].

ونقدم فيما يلى أهم الاتفاقات والاختلافات فى قصة «باغ وبهار» و «نوطرز مرصع» والتى تتعلق عموماً بالأحداث.

والجدير بالذكر هنا أنه توجد اختلافات فى الأسلوب والتفاصيل إلى جانب الاختلافات الرئيسية.

فالاختلاف الرئيسى بين «نوطرز مرصع» و«باغ وبهار» هو الاختلاف فى ترتيب القصص والحكايات ففى «نوطرز مرصع» تأتى قصة الدرويش الثالث بعد قصة الدرويش الثانى مباشرة وبعد ذلك تأتى حكاية الملك «فرخ سير بادشاه».

لكن فى «باغ وبهار» يتحدث الملك «آزاد بخت» بعد قصة الدرويش الثانى مباشرة أى قبل إيراده قصة الدرويش الثالث.

يوجد فى «نوطرز مرصع» مقدمة بروفيسور نور الحسن هاشمى اسم الملك «فرخنده سير» وإن كان المؤلف قد ذكر فى الهامش أن اسم الملك قد جاء فى بعض الكتب على أنه «فرخ سير» وفى البعض الآخر على أنه «آزادبخت» وفى معظم النسخ «فرخنده سير»[١٥].

لكن المؤلف بنفسه كتب اسم الملك (فرخ سير) عندما كتب فهارس القصص فى بداية الكتاب، وأيضاً كتب هذا الاسم بلفظ واضح عندما بدأ قصة هذا الملك.

أما «باغ وبهار» فاسم الملك فيها هو «آزادبخت» وذكر فى «نوطرز مرصع» أن عمر الملك «فرخنده سير» كان حوالى خمسين سنة[١٦].

وجاء فى كتاب «باغ وبهار» أن عمر الملك «آزادبخت» أربعون سنة [١٧].

وذكر فى «نوطرز مرصع» أن «فرخنده سير» كان ذات يوم مع صديقه، إذ رأى وجهه فى المرآة فوجد شعراً أبيض فى لحيته السوداء[١٨].

أما باغ وبهار فجاء فيه أن الملك كان ذات يوم فى قصره مشتغلا بالذكر والتسبيح وبعد أداء الصلاة لمح وجهه فى المرآة فوجد شعراً أبيض فى شاربه[١٩].

أخيراً أراد «آزادبخت» أن يتخلى عن أمور السلطنة فمنعه وزيره الذكى من هذا، واتفق الملك مع الوزير وقرر منذ ذلك اليوم أن يجلس كل صباح فى القصر ليمارس مهام الملك، ويشتغل بعد الظهر بالأذكار والأوراد والاستغفار ويدعو الله لما فيه الخير له[٢٠].

ولكن الملك فى «نوطرز مرصع» كان يشتغل فى النهار بأمور المملكة ومهامها، وبالليل كان يزور المقابر[٢١].

أوجه الخلاف بينهما فى قصة الدرويش الأول:

جاء فى «باغ وبهار» أن والد الدرويش الأول كان ملك التجار خواجه أحمد (٢٢).

وأما «نوطرز مرصع» فجاء فيه أن والد هذا الفقير هو ملك التجار بدون ذكر اسمه(٢٣).

وكما يوجد اختلاف فى الأحداث، نجد اختلافاً أيضاً فى مواضع عديدة فى الكتابين من حيث التفاصيل وكيفية العرض، فعلى سبيل المثال:

يذكر «مير أمّن» تفاصيل مراسم العزاء فى وفاة ملك التجار كما يلى:

«اجتمع فى سرادق العزاء لملك التجار كل من الأقرباء والأجانب والصغار والكبار، ووضعوا عمامة ملك التجار على رأس الدرويش الأول بعد قراءة الفاتحة ترحماً عليه، وقالوا له مواساة لقلبه: هكذا يموت والد كل شخص ووالدته، فاصبر!

وجمع الخدم كل الأموال، وعندما رأى اللصوص والانتهازيون والمجاملون هذه الأموال، تقربوا إلى الدرويش الأول وشغلوه بالملذات والشهوات(٢٤).

ويقول تحسين:

«بعد عدة أيام من وفاة ملك التجار اجتمع الأقارب وقدموا التعزية لابنه وفرجوا عن قلبه الكسير، ولكن ما أن فرغ الحزين من أداء مراسم التعزية حتى بدأ يحتفل مع أصدقائه، ويلهو ويتنزه(٢٥).

وانتهت ثروة والد الدرويش الأول بعد مدة وجيزة فتبدلت أحواله. يقول تحسين فى هذا الصدد: وصلت أحوال الدرويش الأول إلى أنه لم يبق له إلا قلنسوة على الرأس وحزن فى القلب، وتركه أصدقاؤه وأحباؤه، فبقى وحده فى المدينة كقرص الشمس، وأخيراً ذهب إلى أخته متجرداً من الحياء(٢٦).

وعلى خلاف هذه المبالغة يصور «مير أمّن» هذه الأحداث فيقول: «إذ وصلت أحواله إلى أنه لم يبق لديه إلا القلنسوة وما يستر العورة، وتركه كل من كان يأكل ويوافق على كل ما يقوله، بل لو قابله أحد منهم فى الطريق لأعرض عنه، كما تركه الخدم والحشم، حتى لم يبق له عود يأكله ثم يشرب الماء، وعانى من فاقة شديدة، حيث إنه لم يجد طعاماً وشرابا

لمدة يومين ولم يقدر على تحمل الجوع فارتدى رداء عدم الحياء ووصل إلى مدينة أخته والتقى بها(٢٧).

يذكر تحسين: إن الدرويش الأول كان يقضى الليل خارج سور دمشق، إذ رأى أن الصندوق ينزل من السور فأخذه الدرويش إلى حيث يجلس وفتحه فوجد به فتاة جميلة مجروحة(٢٨).

وأما باغ وبهار، فلم يذكر فيه أن الدرويش ذهب بالصندوق إلى مكانه، بل إنه اقترب من الصندوق فألفى صندوقاً من الخشب(٢٩).

يقول تحسين: إن التاجر يوسف عندما جاء إلى الدرويش كضيف قام الدرويش بواجبات ضيافته تعظيماً وتكريماً له ولم يقصر في ذلك قط(٣٠).

فقد اختصر تحسين تفاصيل الضيافة بينما أسهب مير أمّن في سردها يقول: «وصل التاجر يوسف إلى الدرويش تلبية لدعوته فجاء إليه غلامان جميلان حاملين زجاجة الشراب وشرعا يسقيانه(٣١).

وهكذا نرى إلى آخر القصة.

أوجه الخلاف بينهما فى قصة الدرويش الثانى:

يبدأ الدرويش الثانى قصته بمدح وطنه بلاد فارس قائلاً: إن أصفهان نصف الدنيا(٣٢).

لكننا لا نجد مدحاً لفارس أو أصفهان فى نوطرز مرصع(٣٣).

يقول تحسين: إن نوفل غريم حاتم الطائى، قال: من يأتى برأس حاتم سينال مائتى دينار كجائزة(٣٤).

ولكن مير أمّن يقول: من يبحث عن حاتم ويأتى به هنا، سينال خمسمائة دينار من الملك(٣٥).

يقول تحسين: وعندما بدأ الدرويش الثانى اقتداء بحاتم سلسلة السخاء والجود فى مكان ذى أربعين باباً جاءه ذات يوم فقير من أحد الأبواب وسأله فأعطاه، ثم جاء من باب آخر وسأله الصدقة فأعطاه، ثم جاء من باب ثالث ورابع وخامس إلى آخره و قد أعطاه الدرويش فى كل مرة مسألته(٣٦).

ولم يذكر تحسين ماذا كان الفقير يأخذ من الدرويش.

ولكن «مير أمَن» يذكر ذلك بإيضاح فيقول: «ذات يوم جاء فقير إلىّ من باب أمامى وطلب منى شيئًا فأعطيته دينارًا واحدًا، ثم جاء من باب آخر وطلب منى دينارين فعرفته لكننى أغمضت عينى وأعطيته حاجته، وهكذا جاء ودخل من كل الأبواب وأضاف دينارًا واحدًا فى كل مرة، وأنا أيضًا تجاهلت وأعطيته ما سألنى وأخيرًا جاء من الباب الأربعين وطلب منى أربعين دينارًا فأعطيته إياها(٣٧).

جاء فى «باغ وبهار» أن الناس فى بلاد «نيمروز» كانوا يجتمعون فى ميدان فى مطلع كل شهر وينتظرون مجىء شاب وكان غلام ذلك الشاب يأخذ شيئًا من يد مولاه ويريه للناس، وكان من يرى ذلك الشىء يبكى بصوت عال(٣٨).

لكن جاء فى «نوطرز مرصع» أن من كان يرى تلك الصورة يشرع فى مدحها ويصفها بصفات جميلة(٣٩).

أما بالنسبة لقصة أميرة البصرة والتى قصها على الدرويش الثانى.

يقول «مير أمَن»: إن العرش المرصع للملك كان موضوعًا على سرير مربع ثمنه مائة وخمس وعشرون ألف روبية، أعدته الأميرة له بصفة خاصة(٤٠).

وأما تحسين فلم يذكر ذلك على الإطلاق.

وعندما عرف الملك أن الملكة هى ابنته الأميرة التى طردها قال: «أخبروا الملكة أن تحضر إلى هنا ومعها الأميرات على وجه السرعة، وبمجرد وصولهن تناول الملك الطعام معهن(٤١).

لكن يبدو من رواية «نوطرز مرصع» أن الملك تناول الطعام أولاً ثم استدعى الملكة ومن معها، يقول تحسين: «إن الملك جلس متحيرًا متعجبًا بعد تناوله الطعام ثم دعا الملكة والأميرات(٤٢).

وفى «باغ وبهار» كان الملك يأتى طوال حياته بمفرده وأحيانًا يصحب الملكة معه أيضًا ويدخل القصور(٤٣).

ولكن تحسين لم يذكر ذلك.

أوجه الخلاف بينهما فى قصة الملك «آزادبخت»:

سبق أن ذكرنا أن قصة الملك «آزادبخت» تبدأ فى «باغ وبهار» بعد قصة الدرويش الثانى، وأما فى «نوطرز مرصع» فتبدأ فيه قصة «فرخنده سير» أو «آزادبخت» بعد قصة الدرويش الثالث.

جاء فى «باغ وبهار» أن «آزادبخت» دعا الدراويش الأربعة وقدم لهم طعام الإفطار فتناولوه أمامه(٤٤).

وأما «نوطرز مرصع» فلم يرد به ذكر لوجبة الإفطار. قال «آزاد بخت» للدراويش إننى كنت معكم بالليل عندما كنتم تحكون قصصكم، فسمعت أحوال اثنين منكم والآن أريد أن أسمع من الاثنين الآخرين(٤٥).

وأما «نوطرز مرصع» فجاء فيه أن «آزادبخت» قال: «إننى سمعت فى الليلة الماضية حقيقة أحوال الأصحاب الثلاثة، والآن أنا فى انتظار سماع قصةالدرويش الرابع (٤٦).

ذكر «مير أمّن» فى «باغ وبهار» أن تاجراً كان يسكن فى «نيسابور» قد علق اثنتى عشرة حبة من ياقوت فى قلادة، ووزن كل حبة سبعة مثاقيل، وقد علق هذه القلادة فى عنق كلب(٤٧).

وأما «نوطرز مرصع» فجاء فيه وزن حبة الياقوت كما جاء فى «باغ وبهار(٤٨) لكنه لم يذكر كم كان عدد حبات الياقوت، ثم يقول تحسين بعد ذلك: إنه كان فى القلادة أربع عشرة ياقوتة(٤٩)، وبعد أن نطق الوزير بهذا الكلام، أمر الملك بإدخاله السجن بعد شفاعة مندوب الإفرنج، وأنذره إن لم يعدل عن قوله هذا أو يثبته خلال عام فسينال عقاباً شديداً(٥٠).

وأما «نوطرز مرصع» فلم تذكر فيه مدة عام. جاء فى «باغ وبهار» أن سن السيد عابد الكلب كان واحداً وخمسين سنة(٥١).

وأما «نوطرز مرصع» فلم يذكر شيئًا عن سنه. ابنة الوزير التى وصلت إلى السيد عابد الكلب متنكرة فى هيئة ابن تاجر تعرف نفسها قائلة: «وطن هذه النكرة هو بلاد الروم، وتسكن منذ زمن فى استانبول، والدى تاجر ولايستطيع أن يتحمل مشقة السفر بسبب كبر سنه، لذلك أرسلنى لأتعلم التجارة(٥٢).

وأما في «نوطرز مرصع» فلم تتحدث فيه ابنة الوزير عن وطنها بشيء وتقول فقط: «إن والدي تاجر وأرسلني إلى هذه الولاية مع أسباب التجارة ليختبرني(٥٣).

رأى السيد أخويه يقومان بخدمات في القافلة فجاء فيها إلى البيت وكرمهما، ولكن ذات ليلة أيضاً أراد أخواه أن يقتلاه، فإذا بالكلب يهجم عليهما فاستيقظ الناس وقبضوا عليهما، بعد ذلك حبسهما السيد في القفص(٥٤).

ولكن رواية «نوطرز مرصع» تختلف هنا تماماً فجاء فيها أن السيد جاء بأخويه وعينهما في خدمة ملك الإفرنج وبعد عدة أيام كانت زوجة السيد تتنزه في الحديقة إذ رآها الأخ الأوسط فأصبح مغرماً بها، ثم أخبر أخاه الأكبر حيث اتفقا على قتل السيد.

وذات ليلة كان السيد نائماً وذهبت زوجته لقضاء الحاجة، إذ جاء الأخوان وجثما على صدر السيد، وأوثقاه بالحبال ثم ألقياه في البحر، وعندما استرد السيد وعيه رأى الغسالين يغسلون الثياب ويدعونه للأكل حتى حل المساء وأراد الغسالون أن يذهبوا إلى بيوتهم فأخفوه في الأعشاب لكي لا يضره أي حيوان بالليل، وبات السيد الليلة وهو فاقد الوعي حتى أشرقت الشمس، فاستيقظ ورأى أرضاً خصبة فاقترب منها فرأى هناك الأحباش يتناولون الحمص، فقدموا إلى السيد حفنة من الحمص تناولها السيد ثم نام وفي اليوم الثاني طحن السيد القمح وخبزه، وسر الحبشيون بهذا العمل، ثم غادر السيد ذلك المكان، ومشى ثلاث ليال وكان يأكل في الطريق أي شيء حتى وصل في اليوم الرابع إلى باب القلعة(٥٥).

وتتفق رواية «باغ وبهار» مع رواية «نوطرز مرصع» عند باب القلعة، ولكن في «باغ وبهار» تبدأ من هنا قصة جديدة للشاب الآذربيجاني.

يقول تحسين: إن ثلاثة أقفال كانت معلقة بباب قلعة كورستان(٥٦).

ولكن مير أمّن يقول: «إن قفلاً كبيراً كان معلقاً بباب قلعة كورستان(٥٧).

عاش السيد وزوجته بعد ابنة الوزير عيشة طيبة لمدة عام، بعد ذلك ماتت ابنة الوزير بسبب سقوط الحمل(٥٨).

وأما باغ وبهار فجاء فيه أنها عاشت عيشة طيبة لمدة عامين(٥٩).

قضى السيد مع ابنة وكيل الملك فى قلعة جورستان ثلاث سنوات، وأنجبا فى هذه المدة طفلين(٦٠) .

وجاء فى «باغ وبهار» أن الشاب الآذربيجانى علم ابنة وكيل الملك أركان الإسلام، وأقرأها كلمة الشهادة، ثم تزوجها، وأنجب منها خلال ثلاث سنوات طفلاً واحداً فقط(٦١) .

وهكذا إلى آخر القصة .

قصة الدرويش الثالث :

وردت قصة الدرويش الثالث فى «باغ وبهار» بعد قصة الملك «آزادبخت»، وأما «نوطرز مرصع» فوردت فيه قصة الدرويش الثالث قبل قصة «آزادبخت» أو «فرخنده سير» .

خرج الدرويش الثالث الذى هو أمير العجم مع أصدقائه للصيد، وكان يطلق الصقر على الطيور المختلفة حتى وصل إلى مكان بعيد(٦٢) .

وأما «نوطرز مرصع» فورد فيه ذكر الأصدقاء فقط ولم يرد فيه ذكر الطيور. يخبر «نعمان سياح» الدرويش الثالث عن مميزات مدينة الإفرنج قائلاً: إن جميع الشوارع فى كل سوق وكل حارة مستوية وممهدة وقد غسلت ورشت بالماء وبالغة النظافة تخلو من أى شائبة حتى وإن كان قشة والمبانى متنوعة وتضاء الأنوار بالليل على طرفى الشارع، ورأيت خارج المدينة كثيراً من أنواع الزهور والفواكه التى لامثيل لها إلا فى الجنة(٦٣) .

وأما «نوطرز مرصع» فلم يذكر فيه إلا مدينة مينوسير(٦٤) .

وعندما جاء مندوب أميرة الإفرنج ليدعو نعمان السياح اعتذر نعمان بأنه مجهد مكدود، وودع السيد بالعطر والتنبول(*)(٦٥) .

ولم يذكر تحسين فى «نوطرز مرصع» العطر والتنبول.

رجع «نعمان سياح» من عند أميرة الإفرنج وهو مفتون بها، فيقول نعمان: «عندما خرجت كان العالم كله ظلاماً فى عينى، وكنت أريد أن أقول شيئاً لكنه كان يخرج من فمى شىء آخر كالمجنون» وعندما رآه أصدقاؤه فى هذه الأحوال نصحوه بأن يبتعد عن مكان العشق(٦٦) .

وأما رواية «باغ وبهار» فتختلف قليلا عن رواية «نوطرز مرصع» فيقول السياح - طبقا لرواية باغ وبهار -: هكذا وصلت إلى القصر لكننى كنت مسيطرا على حواسى، وبدأ الأصدقاء والأحباء يسألوننى لماذا تبدلت أحوالك هكذا؟ قلت: لقد ارتفعت الحرارة فى المخ بسبب الذهاب والعودة(٦٧).

يقول الدرويش فى نهاية قصته: «إننى أردت بعد غرق الأميرة وبهزادخان أن أذهب إلى ذلك الجبل الذى كان طريقاً للعشاق، وأنهى حياتى، فإذا بالشيخ صاحب الرأى السديد، يقول لى: إن الأميرة وبهزادخان على قيد الحياة(٦٨).

ولكن رواية «باغ وبهار» تقول: إن الدرويش قال «ذات ليلة جلست على شاطئ البحر وأردت أن أغرق نفسى فدخلت فى الماء حتى وصل الماء إلى عنقى، ثم أردت أن ألاطم الأمواج، حتى وصل ذلك الراكب مرتدى النقاب، وأخذ بيدى، وقال لى: اطمئن، إن الأميرة وبهزان خان على قيد الحياة(٦٩).

قصة الدرويش الرابع:

يقول الدرويش الرابع الذى هو أمير بلاد الصين: إن عمر هذا الفقير كان خمس سنوات عند وفاة والده(٧٠).

ولم يذكر فى «باغ وبهار» عمر الدرويش بل جاء فيه فقط: «إن هذه الحادثة وقعت بدون توقع ومات قبلة العالم الذى كان والد هذا اليتيم(٧١).

عندما ذهب «مبارك» بالأمير إلى عمه أى ملك بلاد الصين طلب الملك المنجمين وتحدث معهم عن زواج الأمير، أدرك المنجمون قصد الملك وقالوا: سيكون القمر تحت عقرب لمدة ثلاث سنوات، وسيكون يوم العيد إن شاء الله بعد أربع سنوات(٧٢).

ولكن جاء فى «باغ وبهار» أن هذا العام كله غير سعيد ولايوجد أى تاريخ سعيد فى أى شهر قمرى، فلو انقضى هذا العام بخير وعافية، كان العام القادم مناسباً للاحتفال بعمل خير(٧٣).

وعندما أتم الدرويش الرابع قصته جاءت البشرى من القصر أن جارية «آزادبخت» «ماه رو» قد أنجبت ولداً للملك(٧٤).

وأما نوطرز مرصع فلم يرد فيه ذكر اسم الجارية بل ورد فيه اسم الملك «فرخنده سير»(٧٥).

وعندما طار الملك فرخنده سير والدراويش الأربعة إلى ملك الجان بالعرش السليمانى أغمى على هؤلاء الخمسة(٧٦).

وأما باغ وبهار فلم يذكر فيه أن هؤلاء الخمسة قد فقدوا الوعى.

كانت هذه الاختلافات بين الكتابين على سبيل المثال لاالحصر، لكن كما أنه يوجد اختلاف فى بعض المواضع من الكتابين، توجد أيضاً مواطن اتفاق وتطابق بينهما فى الأحداث والجمل ونكتفى هنا بأن نقدم بعض الأمثلة على هذا التطابق فى التعبيرات والجمل باختصار:

نوطرز مرصع	باغ وبهار
والد هذا العاجز ملك التجار الذى اسمه (ص٧٨)	والد هذا العاجز ملك اسمه السيد أحمد (ص٢٧)
أخيراً ارتديت نقاب عدم الحياء ووصلت إلى شقيقتى (ص٨٠)	أخيراً ارتديت نقاب عدم الحياء وقصدت الذهاب إلى شقيقتى (ص٢٩)
أدركت فى ذلك الحين أنه لعلها أميرة لأى بلاد لأجل ذلك تتحدث بالعقل (ص٩١)	ثم عرفت أنها أميرة لأى بلاد تلك التى تتحدث بالعقل والقلب (ص٣٦)
بعد وصولها كالمصيبة المفاجأة عانقت الشاب، فكأن الخسوف أحاط بالقمر ص١٠٣ - ١٠٤ .	عانقت تلك العفريتة ذلك الشاب الجميل، فكأن الخسوف قد أصاب البدر الكامل (ص٤٣)
قام عزيز من ناحية وقال: أيها الأصدقاء لا توجد علاقة بين العقل والعشق (ص١١٤)	قال رجل قائم فى ناحية : أيها الأصدقاء إن العشق ضد العقل (ص٤٣)
قالت بعد استماعها لهذا القول، حسناً هل بدأ الزكام يصيب الضفدع أيضاً؟	قالت بعد استماعها لهذا القول غاضبة: ماشاء الله هل تعشق غيرى، هل أصاب

(ص١١٢-١١٣)	الزكام الضفدع أيضاً (ص٤٧)
فعل السيد حسب الإرشاد (ص١٢٦)	فعل السيد حسب الآمر (ص٥٥)
وإلا أين أنت وأين أنا؟ (ص١٣٠)	وإلا أين أنا وأين أنت؟ (٥٧)
حديقة.. ومعها خادمة مثل القطة مع الجمل (ص١٣١)	خادمة مع الحديقة كأن القطة فى عنق الجمل (ص٥٨).
إذ رأيت أن أسباب الضيافة لم تجهز (ص١٣٩)	فرأيت أن أسباب الضيافة لم تجهز هنا (ص٦٤)
بل ما أعجبنى هذا الأسلوب (ص١٤٢)	بل ما أعجبنى حمقك (ص٦٦)
ياعزيزى إننى حاتم (ص١٥٣)	ياعزيزى أنا الذى هو حاتم (ص٧٣)
هذا العلم الموجود على العرش ثبته (ص١٥٣)	ثبت العلم على العرش (ص٧٤)
رماه على الأرض وقال : يا بابا لماذا تغضب؟ (ص١٥٦)	رمى كل شيء على الأرض وقال: اسكت يا بابا لا تغضب هكذا (ص٧٧)
الآن دلى بعيدة (ص١٥٧)	الآن دلى بعيدة (ص٧٧)
لا أحتاج إلى أى شيء من أموال الدنيا (ص١٦٥)	إننى لا أحتاج إلى مال الدنيا (ص٨٢)
وأنا أيضاً أتمنى وأشتاق إلى زوج منذ مدة (ص١٦٧)	وأنا أيضاً أتمنى من مدة أن أتزوج (ص٨٤)
إن الكلمة كانت فى الحقيقة كلمة كفر (ص١٧٧)	هذه الكلمة كلمة كفر (ص٩١)
عندما وصل الشاب عند باب الحديقة صرخ صرخة مهيبة حتى فتح الباب بنفسه (ص١٨٨-١٨٩)	وصل ذلك الشاب إلى الباب وصاح صيحة مهيبة ففتح ذلك الباب بنفسه (ص١٠٠)
بعد الفراغ من الصلاة .. قال أين الدرويش؟ (ص١٩٠)	عندما أنهى الصلاة نادى أين الدرويش؟ (ص١٠١)

وبعد أن استعرضنا بعض الاختلافات والاتفاقات بين كتابى «باغ وبهار» و«نوطرز مرصع» لايمكننا أن ننفى إطلاع «مير أمّن» على قصة «نوطرز مرصع» «لتحسين خان» لكن إطلاع «مير أمن» على قصة «نوطرز مرصع» لايعنى أنه نقلها نقلا حرفيًا، بل المرجح أنه قد اطلع على نسخة فارسية «لچهار درويش» لايعرف مصدرها، ونسخة لـ «نوطرز مرصع» ولعل هذا هو السبب وراء الاختلاف فى كثير من المواضع بين الكتابين.

الخلاصة هى سواء أكان مصدر «باغ وبهار» من حيث القصة والشخصيات والأحداث قصة «نوطرز مرصع» أو القصة الفارسية «چهار درويش» إلا أن طريقة السرد والبيان والتفاصيل والجزئيات كلها من فيض قريحة «مير أمّن» ومن ابتكاره ومن تأليفه، وهذه الأمور هى روح الكتاب وهى التى ترفع من قيمته.

هوامش الفصل الأول

(١) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص١١.

(٢) باغ وبهار : رشيد حسن خان، ص١١ .

(٣) وامق وعذرا: هي إحدى قصص العشق الفارسية التي تناولها شعراء كثيرون منهم ناصر خسرو، ونظامي والخاقاني ومولوي وسعدي، سواء أفردوا لها منظومات مستقلة أو أشاروا إليها في أشعارهم فقط. (انظر: لغت نامه: على اكبر دهخدا، ص٢٧٩) .

ويس ورامين: وهي من قصص الغرام التي اشتهرت في الأدب الفارسي وكان أول من ألفها هو فخر الدين الجرجاني، ومن الخطأ نسبتها إلى شاعر غيره، كما أشار إليها شعراء كثيرون كنظامي والمولوي وسعدي، (انظر أيضا: لغت نامه، ص٢٧٩) .

(٤) حافظ محمود شيراني : باغ وبهار دراسة وتحقيق، ص٧٧ .

(٥) مقالات حافظ شيراني: ص٤٢ .

(٦) مولوي عبد الحق: مقدمة باغ وبهار، ص١٤.

(٧) فورت وليم كالج ايك مطالعه. داكتر سميع الله، شعبه اردو سلطانبور: ط١ ، ١٩٨٩م، ص١٣٦ .

(٨) سيد قدرت نقوي: مير أمن كي معترضين اشاعت اول، دهلي، ١٩٨٣م، ص١١٥ .

(٩) اردو دائرة معارف إسلامية: زير اهتمام دانشكاه بنجاب. لاهور. جلد ٦ طبع أول ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

(١٠) رام بابو سكسينه: تاريخ ادب اردو، ترجمة ميرزا محمد عسكري. كراتشي .باكستان .ب. ت. ص٤٠٣.

(١١) نوطرز مرصع: مرتبه نور الحسن هاشمی، آله آباد، ١٩٥٨ .، ص٢٧ .

(١٢) اردو دائرة معارف اسلامية: جلد ٦ ص١٢٠٧ .

(١٣) المقدمة: ص١٩، ٢٠ .

(١٤) كَل كَرِست اوراسكاعهد: (ضميمة ص٩١) .

(١٥) نوطرز مرصع: ص٦٥ ورقم المتن والهامش (٣) .

(١٦) نوطرز مرصع، ص٦٦ .

(١٧) باغ وبهار: رشيد حسين خان، ص ١٧ .

(١٨) نوطرز مرصع: ص٦٦ .

(١٩) باغ وبهار: ص١٧ .

(٢٠) باغ وبهار: ص٢٢ .

(٢١) نوطرز مرصع: ص ٧٥ ـ٧٦ .

(٢٢) باغ وبهار: ص٢٧ .

(٢٣) نوطرز مرصع:ص٧٨ .

(٢٤) باغ وبهاز: ص ٢٨ .

(٢٥) نوطرز مرصع : ص٩ .

(٢٦) نوطرز مرصع : ص٧٩ ـ ٨٠ .

(٢٧) باغ وبهار: ص٢٩ ، ٣٠ .

(٢٨) نوطرز مرصع: ص٨٤ .

(٢٩) باغ وبهار: ص٢٢ .

(٣٠) نوطرز مرصع، ص١٠٣ .

(٣١) باغ وبهار: ص٤٣ .

(٣٢) باغ وبهار: ص٧١ .

(٣٣) نوطرز مرصع: ص١٥٠ .

(٣٤) نوطرز مرصع:ص ١٥١ .

(٣٥) باغ وبهار: ص٧٢ .

(٣٦) نوطرز مرصع: ص١٥٦.

(٣٧) باغ وبهار: ص٧٦ ـ٧٧.

(٣٨) باغ وبهار: ص٨٦.

(٣٩) نوطرز مرصع: ص١٧٠.

(٤٠) باغ وبهار: ص٩٦.

(٤١) باغ وبهار: ص ٩٧.

(٤٢) نوطرز مرصع: ص١٨٤.

(٤٣) باغ وبهار: ص١١٥.

(٤٤) باغ وبهار : ص١١٥.

(٤٥) باغ وبهار: ص ١١٥.

(٤٦) نوطرز مرصع: ص٢٤١.

(٤٧) باغ وبهار: ص١١٨.

(٤٨) نوطرز مرصع: ص٢٤٤.

(٤٩) نوطرز مرصع: ص٢٤٨.

(٥٠) باغ وبهار: ص١١٩.

(٥١) باغ وبهار: ص١٢١.

(٥٢) باغ وبهار: ص١٢٣.

(٥٣) نوطرز مرصع: ص٢٤٩.

(٥٤) باغ وبهار: ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٥٥) نوطرز مرصع: ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٥٦) نوطرز مرصع: ص٢٨٧.

(٥٧) باغ وبهار: ص١٧٥.

(٥٨) نوطرز مرصع: ص٢٩٢.

(٥٩) باغ وبهار: ص١٨٠.

(٦٠) نوطرز مرصع: ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٦١) باغ وبهار: ص٨٣. .

(٦٢) باغ وبهار: ص١٨٧.

(٦٣) باغ وبهار: ص١٩١.

(٦٤) نوطرز مرصع: ص٢١٢.

(*) التنبول: نوع من أنواع الأعشاب الهندية المعطرة للفم والتى تقدم للضيوف على سبيل الترحاب (فرهنگ آصفيه: ص٥١٩).

(٦٥) باغ وبهار: ص١٩٢.

(٦٦) نوطرز مرصع: ص٢١٧.

(٦٧) باغ وبهار: ص١٩٣.

(٦٨) نوطرز مرصع: ص٢٣٨.

(٦٩) باغ وبهار: ص٢٠٧.

(٧٠) نوطرز مرصع: ص٣٠١.

(٧١) باغ وبهار: ص٢٠٨.

(٧٢) نوطرز مرصع: ص٣٠٣.

(٧٣) باغ وبهار: ص٢١٠.

(٧٤) باغ وبهار: ص٢١٨.

(٧٥) نوطرز مرصع: ص٣٢٢.

(٧٦) نوطرز مرصع: ص٣٢٤.

الفصل الثانى

أسلوب الكتاب



ترجع القيمة الأدبية التى يتمتع بها كتاب (باغ وبهار) بالدرجة الأولى إلى الأسلوب الذى كتب به، فهو يجمع بين بساطة اللغة وسحر البيان.

وتنبع بساطة اللغة وسهولتها عند «ميرأمن» من اعتداله فى استخدام ألفاظ اللغة الفارسية وتراكيبها واستخدام ألفاظ لغات الهند المحلية، كذلك تنبع السهولة فى استخدامه للغة الحوار التى تدور على ألسنة العامة فى مدينة دهلى. أما سحر البيان فهو ما يتجلى فى بلاغة التعبيرات الأدبية الاصطلاحيةوهى ما يطلق عليها فى الأردية مصطلح (محاوره)(١) وكذلك يبدو فى كثرة إيراد المحسنات مثل السجع والطباق.

الخصائص اللغوية:

تتميز لغة كتاب (باغ وبهار) بالاعتدال فى استخدام ألفاظ اللغة الفارسية وألفاظ لغات الهند المحلية. فقد أدى اعتماد اللغة الأردية على الجمع بين ألفاظ لغات الهند المحلية وألفاظ الفارسية والعربية والتركية إلى السماح للأدباء باستخدام ما يشاءون من ألفاظ تلك اللغات. وحين نشأ الأدب الأردى على الإقتداء بالأدب الفارسى أدى ذلك إلى زيادة المزج بين ألفاظ اللغة الفارسية - على وجه الخصوص - وألفاظ لغات الهند المحلية، وكان هذا المزج سبباً فى وجود تيارين متوازيين فى اللغة الأردية أحدهما فارسى والآخر هندى، وحينما يغلب الأثر الفارسى فى عهد، يزيد معه استخدام ألفاظ اللغة الفارسية ويقل استخدام الألفاظ الهندية، وحينما يزيد الأثر المحلى يزيد معه استخدام الألفاظ الهندية ويقل استخدام الألفاظ الفارسية حتى صار هذا المد والجزر جزء من تاريخ اللغة الأردية، وكان ذلك سببًا فى وجود التباين بين لغة الأدباء فى الهند على اختلاف المكان والزمان(٢).

وكان الأدباء فى الدكن (فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى) يكثرون من استخدام ألفاظ لغات الدكن المحلية مما أدى إلى عدم فهم الكثير من أعمالهم الأدبية فى العصر الحديث.

ومع بداية القرن الثامن عشر الميلادى ظهر فى «دهلى» حركة أدبية تنادى باستبعاد الثقيل من ألفاظ لغات الهند المحلية واستبدالها بألفاظ فارسية وهى ما يطلق عليها فى الأدب (اصلاح زبان)(٣)، ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادى تزامن فى الهند هذان التياران، فكان الأدباء الذين ينتمون إلى أصل غير هندى مثل «مؤمن» و«غالب» فى دهلى و «ناسخ» فى مدينة لكهنو(٤) يبدأون بتعلم الفارسية منذ الصغر وكذلك الكتابة بها قبل الأردية ولهذا بدا أثر اللغة الفارسية واضحا فى إنتاجهم الأدبى. أما الأدباء مثل «انشا» فى لكهنو و«ذوق» و «نظير اكبر آبادى و«بهادر شاه ظفر» فى دهلى(٥) فكانوا يجلون قدر اللغة الأم ولا يتعقبون الألفاظ والتراكيب الفارسية إلا ما أصبح جزءً من بنيان اللغة الأردية لا يمكن الاستغناء عنه، ولهذا بدا فى إنتاجهم الأدبى الأثر الهندى أكبر وأوضح(٦).

ويمثل «ميرأمن» حد الاعتدال بين استخدام كل من الألفاظ والتراكيب الفارسية والألفاظ والتراكيب الهندية. فلم يستخدم من ألفاظ الفارسية وتراكيبها إلا ما صار مألوفاً وأصبح يدور على ألسنة العامة. ولم يستخدم من ألفاظ لغات الهند المحلية ما قد يستخدم فى مقاطعة دون أخرى، واقتصر على ما يستخدم فى مدينة (دهلى) وهى المدينة التى يطلق النقاد على لغة أهلها (تكسالى اردو) أى (الأردو الفصيح)(٧) وقد ذكر «ميرأمن» فى مقدمة كتابه أنه لم يستخدم سوى لغة أهل دهلى رغم أنه قضى الكثير من حياته بعيداً عنها، لأنه عاش مطلع حياته بها وخبر كل شئ فيها ورأى قصورها ومهرجاناتها، وكان ذلك سبباً فى صحة لغته وسلامتها(٨) كما أشار «جلجرست» إلى عدم اتجاه «ميرأمن» إلى الإقبال على استخدام ألفاظ الفارسية مثل بعض الأدباء المعاصرين له، فقال فى تعليق قدمه فى الطبعة الأولى «الباغ وبهار»:

[إن ميرآمّن أخرج النثر الأردى من عقدة الفارسية إلى شمس عصر جديد](٩).

ويقدم «ميرآمّن» فى كتابه التراكيب الإضافية والوصفية طبقًا لقواعد اللغة الأردية فى

مواضع، ويقدم التراكيب الإضافية والوصفية على شاكلة التراكيب الإضافية والوصفية فى اللغة الفارسية في مواضع أخرى. فمن المعروف فى قواعد اللغة الأردية أن المضاف إليه يسبق المضاف ويأتى بينهما حرف إضافة(١٠) فنقول (أحمد كى كتاب) بمعنى (كتاب أحمد) أما فى الفارسية فنأتى بالمضاف ثم المضاف إليه فنقول (كتاب أحمد) بمعنى (كتاب أحمد). وكذلك الصفة فهى تأتى فى الأردية قبل الموصوف(١١) فنقول (اچها آدمى) بمعنى (رجل طيب). أما في الفارسية فنأتى بالموصوف غالبا قبل الصفة فنقول مردِ خوب بمعنى رجل طيب.

ومن نماذج استخدام «ميرأمن» للإضافة الفارسية «كَنج قارون» بمعنى كنز قارون» فيقول:

(اس ور خرجى كى آكى، اكر كَنج قارون كاهوتا، توبهى وفانه كرتا) (ص٢٩)

(لو كان لدى هذا المبذر، خزانة قارون فلن تبقى)

وكذلك قوله:

(اس جوان نى برى نيب تاب سى تيارى ضيافت كى كى) (ص٣٩)

وترجمته (إن هذا الشاب قد أعد العدة لحفل الضيافة على أكمل وجه).

ومن نماذج التراكيب الإضافية التى أوردها «ميرأمن» وأتى فيها بالمضاف إليه أولا طبقا للقواعد الأردية (جوانى كى عالم) أى (عالم الشباب) فيقول: اس جوانى كى عالم مين كيتكى كى شراب ياَكل كلاب كهنجوانيى) (ص٢٩) وترجمته (وفى عالم الشباب استخدم خمر الكيتكى أو زهرة الجلاب) وكذلك (آدمى كا شيطان) أى شيطان الإنسان.

يقول: «غرض آدمى كاشيطان آدمى» (ص٢٩)

«الخلاصة فإن شيطان الإنسان إنسان».

وكذلك قوله «انكهون كى بتلى» بمعنى (إنسان العين) وقوله (مان باپ كى موتى) أى ذكرى الأب والأم.

يقول: «توميرى آنكهون كى پتلى أور مان باپ كى موتى مى كى نشانى هى»

بمعنى: «إنك إنسان عينى، وأثر لذكرى أبى وأمى».

ومن نماذج التركيب الوصفى التى قدمها «ميرأمن» على الطريقة الفارسية فأتى بالموصوف قبل الصفة (خلعتين فاخرة) بمعنى (خلعة ثمينة).

فيقول: «جو خلعتين فاخره اور جواهر بيشى قيمت، سركار مين بادشاه كى اور اميرون كى، دركار مطلوب هوتى، اسى كى يهان بهم پهنچتى».

بمعنى: «وكانت تصل إليه الخلع الثمينة والجواهر النفيسة التى يستخدمها الملوك والأمراء».

وكذلك قوله (خواصين شيكل) بمعنى (الوصيفات الجميلات).

يقول: «اور لزكيان عمدون كى اس كى مصاحبت مين اور خواصين شكيل خدمت مين رهتين» (ص١١٩).

بمعنى: « وكانت تصحب معها بنات الحكام وتكون الوصفيات الجميلات فى خدمتها» وكذلك قوله «دو پنجر آهنى» بمعنى «قفصان حديديان»

فيقول: «اس مين دو بنجرى آهنى لتكتى هين» (ص١٢٢).

بمعنى: «ويعلق به قفصان حديديان».

وتوجد فى كتاب «باغ وبهار» بعض التراكيب الوصفية على الطريقة الفارسية ولكن يمكن وضع الكسرة الوصفية تحتها كما يمكن قراءتها بدون كسرة أيضا، وكان ذلك طبقًا لما هو شائع فى لغة دهلى فى ذلك العصر[١٢].

ومن أمثلة هذه التراكيب قوله «دو حبشى بد هيئت مسلح» أى «حبشيان قبيحان مسلحان».

فيقول: «دو حبشى بد هيئت مسلح دونون طرف كهريى هين» (ص١٢٢).

بمعنى: «ويقف مسلحان حبشيان قبيحا الشكل».

وكذلك قوله: «دو غلام امرد خوبصورت اس كى خدمت كر رهى هين» (ص١٢٢)

وترجمته: «يخدمه غلامان أمردان حسنا الصورة صغيران».

ومن أهم مميزات لغة كتاب «باغ وبهار» كثرة ايراد التراكيب اللفظية التى يمكن أن

نقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: التراكيب التى تتكون من لفظين مترادفين قد يكون أحدهما أكثر تأثيرا أو سعة. وهذه التراكيب تضفى على الجمل تنسيقا وانسجاما خاصا، وتزيد اللغة فصاحة وسلاسة.

ومن أمثلة هذه التراكيب ما يلى:

«راهى مسافر جنگل ميدان مين سونا اچهالتى جلى جاتى» (ص١٦)

«العابر المسافر يمشى فى الغابة والوادى لاعبًا بالذهب والجواهر».

- «ايک تو يهى فقير جو كفنى سيلى يهنى هونى مرشدون كى حضورى مين حاضر اور بولتا هى»(ص٢٧)

«هذا هو الفقير الذى يمثل فى خدمة المرشدين ويتكلم لابساً ثمله وكفنه».

- «مجهے فقير نى برمى چاؤ چوز سى مان باب كى سائى مين بروورش بانى» (ص٢٨)
« أنا الفقير الذى تربيت مدللاً منعماً فى ظل أبوى».

- «كونى سر پر بورها برانه رها» (ص٢٨)

«لم يبق على رأسى أى شيخ أو كبير».

- «راه بانت مين اكر كهين بهينت ملاقات هو جاتى» (ص٢٩)

«لو قابلته والتقيت به فى طريق أو سبيل».

- «اور تيسرى پهر ميوى خشك وتر پهل پهلارى... اپنى روبرو كهلا كر جاتى»(ص٣٠)

«وفى العصر تقدم إلى الفواكه الجافة والطازجة اللينة، وتجعلنى أكلها أمامها»

- «مين نى اسى اونى بونى بيچ دالا اور دار ودرمن مين خرج كرنى لكا» (ص٣٥)

«أنا بعته بثمن رخيص بخس وبدأت أنفقه فى العلاج والدواء».

- «اور تاكيد پر كهانى كى كر رهى هى كه خبر دار بامزه هوا اور آب ونمک بو باس

درست هی» (ص٤٢)

«وتؤكد بالنسبة لكل طعام أنه لابد وأن يكون ذا مذاق طيب ويكون ماؤه وملحه ورائحته ونكهته على خير ما يرام».

- مين تلاش مين ناؤ نواری کی جاؤن... اگر حکم هو تو کَهات بات اس دريا كاديكهون»(٦٨).

«أنا أذهب لأبحث عن سفينة أو قارب... لو تأمرى أذهب لأرى ساحل أو شاطئ لهذا البحر»

- «جس کو مشکل کتهن پیش أوی، تومین اس کو آسان کردون» (ص٦٩) «من تعترضه مشكلة أو معضلة، فأنا أذللها له».

- «هماری طالع مين يهين لكها هی كه روز لكريان تورين اور سر پر دهر كر بازار مين بيچين، تب نون روتی ميسر آوی» (ص٧٣)

«لقد قدر علينا أن نقطع الحطب كل يوم ونحمله على رءوسنا ونبيعه فى السوق فنحصل على قوتنا من ملح وخبز وعيش».

- غرض دونون نی مجهی خوب خورد خام كيا» (ص١٤٢).

«الخلاصة أنهما استغلا صغر سنى وحداثتى».

القسم الثانى: من التراكيب اللفظية عند«ميرأمن» هى التى تتكون من لفظين يمكن أن يؤدى أحدهما المعنى كاملا فيغنى عن الآخر، ولكنه يأتى باللفظ الثانى طبقا للغة الحديث المستخدمة فى دهلى فى ذلك الوقت، وطبقا لما يدور على ألسنة الناس، وهذه الصورة موجودة فى لغتنا العربية أيضا فنحن نقول (الصحة والعافية) و (الهناء والشفاء) و (أهلا وسهلا) وغير ذلك من الأمثلة التى تجرى على الألسنة يوميا ومن أمثلة هذه التراكيب:

- «اور کی آدمی مرهم کی تیاری کی لئی کچهُ بيس پاس رهی تهی» (ص٣٤) «وكان هناك عدة أشخاص يطحنون شيئا لإعداد المرهم»

- «بغير پوچهی کجهی اتنا مال.. ميری حوالی كيا» (ص٣٧) «قدم إلى هذا القدر من

المال، دون أن يسألني أو يلح علي»

- «اس جوان نی بری ایب تاپ سی تیاری ضیافت کی کی» (ص٢٩) «أعد هذا الشاب حفلاً فخماً لاستضافتي».

- «دیکهتا هون تو نازنین .... سادی خوزادی؛ بن كَهنی پاتی .. خبر کیری مین ضیاقت کی لکَ رهی هی» (ص٤٢)

«عندما رأيتها وجدتها ذات دلال وبسيطة دون حلى، تطمئن على أن كل الأمور قد هيئت لبدء حفل الضيافة.

- «چكمك سی أكَ جهار بهون بهان كر كهاليتی»(ص٦٧)

«يشوون الطعام على النار ويأكلونه».

- «بربن دن کی عرصی مین،هرج مرج كهينچتا هو اشهر نيمروز مين جاپهنچا (ص٩٨).

«وصلت مدينة نيم روز خلال عام بشق الأنفس»

- «ماری درکی کی لرهتا پرتا پهار سی نیچی آیا» (ص١٤٧)

«نزلت من الجبل متدحرجاً خوفاً»

- «ایک کتا لهو مین شور بور پر هی» (ص١٥٥)

«وجد كلب ملطخا بالدماء»

- «کونا کنهرادیکهنی لکَی» (ص١٥٧)

«بدأت تنظر في كل الأنحاء»

القسم الثالث: من تراكيب «باغ وبهار» اللفظية هي التي نجد فيها لفظين متضادين تقريبا، وهي ترد في «باغ وبهار» متتالية في بعض الفقرات مما يبرز المعاني ويوضحها ويمتع القارئ ويثير خياله.

ومن الفقرات التي أورد فيها «ميرأمن» العديد من الألفاظ المتضادة قوله:

- «تمام آدمی چهوئی پری لرکی بورهی، غریب غنی، شهر کی باهر چلی» (ص٨٦)

«ذهب كل الناس خارج المدينة صغيرهم وكبيرهم، طفلهم وكهلهم، فقيرهم وغنيهم».

ويوجد فى كتاب «باغ وبهار» بعض الاختلافات فى قواعد اللغة عما هو متبع فى قواعد اللغة الأردية فى العصر الحالى(١٣)، فقد استخدمها «ميرأمن» طبقا لما هو متبع فى عصره، ثم نالها التعديل والتغيير فى العصور التالية ومن أمثلة هذه الإختلافات:

١ - اضافة (ان) إلى الفعل عند إسناده إلى جمع المؤنث، فمن المعروف فى قواعد الأردية المستخدمة اليوم أن حرفى (ان) يستخدمان فى جمع الاسم المؤنث فنقول (لركى) بمعنى فتاة ونجمعها (لركيان) بمعنى فتيات، ونقول (بچى) بمعنى طفلة ونجمعها (بچيان) بمعنى طفلات. أما فى إسناد الفعل لجمع المؤنث فنضيف حرفى (ين) عند تصريف الفعل فى الماضى فنقول (چلين) بمعنى سرن و (دورين) بمعنى جرين، أما فى «باغ وبهار» فنرى فى بعض المواضع أن (ان) مضافة إلى الفعل عند إسناده لجمع المؤنث، ومن أمثلة ذلك قوله:

- «يه باتين هوتيان تهين» (ص١١١)

وترجمته «هذه الأقوال تقال»

وقوله - «يه سما ديكهـ كر، كهورون كى باكين دال ديان» (ص١٨٨)

وترجمته «وعندما رأيت هذا المشهد، ارخيت لجام الفرس».

٢ - استخدام حروف (كَا،كَى) بعد فعل الكينونة، فمن المعروف فى القواعد المستخدمة اليوم أن (كَا، كَى) يستخدمان عند تصريف الفعل فى زمن المستقبل(١٤). فنقول (كهانى كَا) بمعنى سيأكل و (كهانى كَى) بمعنى سيأكلون، ولكن «ميرأمن» يستخدم (كَاوكَى) مع أداة الكينونة فيقول (هى كَا) و (هين كَى).

ومن أمثلة ذلك قوله:

- «آيانى كون هين كَى كه ايسى بلا مين كَرفتار هونى هين» (ص١٥١) بمعنى «من هذا الذى أصبح أسيراً لهذه المصيبة».

٣ - استخدام الفعل المساعد (چاهنا) بعد صيغة الماضى المطلق بدلا من استخدامه بعد المصدر. فمن المتبع فى الأردية الحديثة أن يستخدم الفعل المساعد (چاهنا) بمعنى الرغبة بعد المصدر من الفعل(١٥) فنقول (ديكهنا چاهتا هى) بمعنى أراد النظر، لكن «ميرأمن»

يستخدمه بعد صيغة الماضى المطلق فيقول (ديكهاجانيى) ، ومثال ذلك قوله:

- «جو كچهـ هوسوهو چل كر ديكها جانيى» (ص٢٤)

«فليحدث ما يحدث ولتذهب لنرى» .

٤ - إختلاف نهاية الفعل الماضى الذى يسبق (نا) المصدرية المنتهى بحرف الألف مثل (أنا - جانا - بلانا) فمن المتبع اليوم أن نضيف حرف الياء إلى هذه المصادر قبل إضافة الياء المجهولة فنقول (آتى - جانى - بلانى)(١٦) . لكن «ميرأمن» يستخدم حرف الواو فيقول (آوى - جاوى - بلاوى) وكان ذلك شائعاً فى أشعار تلك الفترة . ومن أمثلة ذلك قوله:

- «خدا كرى بادشاه كى مرضى آوى جو رو به رو بلاوى» (ص١٨ ، ١٩) «جعل الله الملك يوافق على مقابلتى» .

- دل كو اس غفلت دنيا دى سى هشيار ركهى اور عبرت سى رووى» (ص١٢٣) «فلتوقظ قلبك من غفلة هذه الدنيا، وتأخذ العبرة»

٥ - استخدام الفعل فى زمن المضارع الحالى وذلك عند روايته لأحداث القصص . ولا يستخدم الزمن الحالى فى مثل تلك المواضع فى عصرنا الحالى(١٧) يقول:

- «ديكها تو ايكـ تخت يچها هى اور اس پر ايكـ پرى زاد عورت .. عجب ادا سى ديكهتى هى» (ديكهـ ر هى هى) (ص١٨٩) «رأيت سريراً مفروشًا تجلس عليه حورية ... وتنظر بدلال عجيب»

- «پت كى چون اكهار كر ديكها تو دولها سر كتا هوا پرا تر يتهتا هى اور دلهن كى منهـ سى كف چلا جاتاهى اور اسى متى لهو مين لتهرى هونى بى حواس پرى لولتى هى (لوت رهى هى) (ص٢١٩) .

«وعندما خلعت الباب، وجدت العريس مقطوع الرأس، والدم يتدفق من فم العـروس، وهى تتدحرج على الأرض الملطخة بدماء العريس دون وعى» .

٦ - استخدام (كر كر) كصيغة وصفية للفعل (كرنا) بدلاً من (كركى) التى تستخدم فى عصرنا الحالى(١٨) فيقول:

«ایک دن شیش محل مین نماز ادا کرکر وظیفة پر هـ ر هی تهی» (ص١٧).

«وكان يسبح بعد أداء الصلاة فى القصر البللورى».

٧ - استخدام بعض أشكال للفعل المتعدى لم تعد مستخدمة فى الوقت الحالى مثل قوله:

- «جتنا کـهـا سکا کـهـالیـا باقی ان سبـهـون کـو انهـا دیا اور شکر نـعـمت کـهـه بهـجـایا» (ص٩٠).

«أكلت ما استطعت وتركت الباقى لهم وحمدت الله».

- «جس بادشـاه على الإطلاق نـی آپ کـو بادشـاه بنـایا، انهین نی مـجـهـی بهـی بادشـاه زادی کهوایا» (ص٩٢)

«الملك المطلق الذى جعلك ملكاً هو أيضاً من جعلنى أميرة».

٨ - عدم وجود فرق فى استخدام ضمائر الخطاب (تم، آپ) و (تمهارا - آپكا) فمن السائد اليوم فى المخاطبة أن ضمير (آپ) يستخدم فى الدرجة القصوى للتعظيم لكن «ميرأمن» استخدم هذين الضميرين فى نفس المواضع تقريباً فيقول:

- «خر دمند يه وعده سن كر خوش هوا اور دونون هاتهـ انهاكر دعادى كه جب تلک يه زمين وآسمان بريا هين تمهارا تاج وتخت قائم هى» سر «خردمند» عندما سمع هذا الوعد ورفع يديه ودعا الله قائلا: أبقى الله تاجك وعرشك، ما بقيت السماء والأرض».

- «لى قبله!! كياكهون كاش كى تمهارى خدمت مين بندگى پيدانه كى هوتى» (ص ١٢٦).

«يا ملاذى، ماذا أقول ليتنى لم أكن خادما لك».

٩ - عدم وجود فرق فى استخدام تصريف الفعل فى صيغة الأمر، فمن المعروف فى قواعد اللغة أن للأمر ثلاث صيغ، فمن الفعل (كرنا) نقول:

(كر أو كرو أو كيجى) وهذه التصاريف متدرجة فى التبجيل والاحترام، فلا نقول لطفل صغير (كيجى) ولا نقول لملك أو وزير (كر) ولكن هذا الفرق لايبدو واضحاً فى «باغ وبهار» فقد استخدم (كرو- كيجى) على السواء فى حالة الاحترام القصوى: يقول: «درويش كوشه

نشين متوكلون سى مدد ليجنى اور روز راتب يتيم اسير عيال دارون، محتاجون اور راند بيواؤن كوكر ديجنى... پروردكار كى عنايت پر نظر ركهنى» (ص٢١) .

«استعن بالدراويش المعتكفين والمتوكلين، وأجر فى كل يوم راتبًا لليتيم وصاحب العيال والمعدمين والأرامل... وانتظر عناية الله» .

«قبلة عالم، اس تصور باطل كو دل سى دور كرو» (ص٢٠)

ـ «يا قبلة العالم ابعد هذا التصور الباطل عن قلبك» .

وتوجد فى «باغ وبهار» صيغة أخرى للأمر أصبحت متروكة اليوم فى الكتابة لكنها مازالت تستخدم فى لغة الحديث التى تدور على ألسنة الناس يوميا. وهذه الصيغة تتكون بإضافة (يو) إلى أصل الفعل فيقول (كريو) من (كرنا) و (جانيو) من (جانا) ومن أمثلة ذلك قوله: «اكر تجهى همارى خاطر منظور هى تو بمركز همارى بات مين دم نه ماريو جوهم كهين سو بلا عذر كى جانيو ـ اپنا كسى بات مين دخل نه كريو» (٣٦) .

«لو تنشد رضائى، فلا تتأخر فى الامتثال لأمرى، افعل ما أقول دون تقصير. ولا تتدخل فيما لا يعنيك» .

١٠ ـ استخدام أداة النفى (نه) بدلاً من (نهين) وهذا عكس ما يستخدم فى الأردية الحديثة فقد اقتصرت الكتابة على استخدام (نهين) فى معظم الأحيان. ومن أمثلة استخدامه (نه) للنفى قوله):

«مين نه قبول كرتا تها اور وه بهى نه مانتا تها» (٨٢)

«إننى كنت لا أقبل وهو أيضاً لا يوافق» .

ـ «اس كى تواضع مدارات كسو نى نه كى» (ص٨٢)

«لم يقم باستضافته أى شخص»

ولكن «ميرأمن» يستخدم (نهين) مع الفعل فى بعض الأحيان مثل قوله: «پر مين كجهه نهين چاهتا» (ص٨٣) .

«لكننى لا أريد شيئاً» .

١١ ـ اشتقاق بعض المصادر من الاسم أو الصفة وهذا ما يطلق عليه اصطلاحا (المصدر الجعلى) ومن أمثلة ذلك اشتقاق مصدر (ننكيانا) بمعنى التعرية من صفة (ننكا) بمعنى «عارى» واشتقاق مصدر (بتيانا) بمعنى التحدث من كلمة (بات) بمعنى حديث، ومن أمثلة ذلك قوله:

- «جلدى كوچ كرو نهين تو اب كاروان پر كر كرسب كو ننكيا لين كى» (ص١٥٤).

«ارحل بسرعة وإلا فسوف نسطو على القافلة وننهبها».

- «دو پيادى اتهائى ليى جاتى هين اور اپس مين بتياتى هين» (ص١٥٤)

«وكانا رجلان يحملانى ويتحدثان فيما بينهما».

- «اور آپ كهورى كو تنكيا كر اس فوج طرف پهرا» (ص٢٠٥).

«وركل فرسه وتوجه إلى الجند»

- «موچهون پر تاووى كر، چرهوان جوتا ارايا» (ص١٠٨)

«فتل شاربه وانتعل حذاءه»

١٢ ـ استخدام الاسم الموصول (كه) بمعنى الذى بدلا من (جو) أو (جوكه). فميرأمن يبدأ الجمل الوصفية بـ (كه) متأثراً بأسلوب الكتابة الفارسية مما يضفى على هذه الجمل الوصفية قدرا من الصعوبة على عكس الجمل التى لا تبدأ بالاسم الموصول(١٩). ومن هذه الجمل قوله:

- «آكى روم كـ ملك مين كونى شهنشاه تها كه نوشيروان كى سعى عدالت اور حاتم كى سى سخاوت اس كى ذات مين تهى» (ص١٦).

«وكان فى بلاد الروم ملك كأنه انوشيروان فى عدله وحاتم الطائى فى سخائه».

- «ليكن فرزند كه زندكانى كا پهل هى، اس كى قسمت كى باغ مين نه تها» (ص١٧).

«لكن الأولاد ثمرة الحياة، لم يثمروا فى بستان حظه».

ويوجد فى «باغ وبهار» عدد كبير من الألفاظ المهجورة حاليا أو طرأ تغيير على معناها. وتوجد قائمة لمثل هذه الألفاظ فى كل الطبعات المشهورة للكتاب. ومن أمثلة هذه الألفاظ (كسو) التى أصبحت (كسى) بمعنى شخص و (كبهو) فأصبحت (كبهى) بمعنى مرة

و(كدهو) أصبحت (كدهر) بمعنى جهة و (جدهو)أصبحت (جيدهر).

ومن الألفاظ التى حدث تغيير فى مفهومها بمرور الزمن، ولا تستخدم الآن بنفس المعانى التى استخدمها «ميرأمن» لفظ (قبيلة) التى استخدمها بمعنى (بيوى) أى زوجة فيقول:

- «قبيله كو به سبب محبت كى ساتهـ لياء (ص٣٤)

«أخذ الزوجة معه بسبب محبته لها».

وكذلك استخدم لفظ (رندى) بمعنى (عورت) أى إمرأة فيقول: «وه جوان اور اس كى رندى، دونون سر كتى پرى هين» (ص٤٤).

«ذلك الشاب وزوجته كانا ملقيين على الأرض مقطوعى الرأس».

كذلك (يتيم) بمعنى (غلام):

«اس كو اس جوان نى وه چيز جو هاتهـ مين تهى، دى وه يتيم لى كر ايك سرى، سى، هر ايك كو دكهاتا جاتا تهاء (ص٨٦).

«قدم ذلك الشاب له ما فى يده، فأخذه الغلام وعرضه على الناس الواحد تلو الآخر».

ومن الملاحظ أن بعض ألفاظ «باغ وبهار» تختلف فى طريقة كتابتها عما هى عليه الآن. ويرجع ذلك إلى أن نطقها فى الماضى مطابقا لإملائها الذى كتبه «ميرأمن» ومن أمثلة هذه الألفاظ (تهيتهـ) فأصبحت (ٹهيهـ) بمعنى خالص.

فيقول: «جان جلكرست صاحب نى .. لطف سى فرمايا كه اس قصه كوتهٹهـ هندوستانى گفتگو مين ... ترجمه كرو» (ص١١).

«أمرنى جلجرست أن أترجم هذه القصة فى اسلوب هندى خالص».

ولفظ (بهوكهـ) فأصبح (بهوك) بمعنى الجوع فيقول:

- تاب بهوكهـ كى نه لاسكاء (ص٢٩).

«ما استطعت أن أصبر على الجوع»

ولفظ (سامهنى) فأصبح (سامنى) بمعنى أمام يقول:

- «تين بار كَرد به بهرا ارو سامهنى آكر كهرا هوا» (ص٥٠).

«طاف حولى ثلاث مرات ثم مثل أمامى».

ولفظ (بينچ) فأصبحت (بيچ) بمعنى البيع فيقول:

- شهر مين اس كو بينچ لاؤ» (ص٤٣)

«قم ببيعها فى المدينة»

ولفظ (تهانبون) فأصبح (تهان) بمعنى مكان فيقول: - كيهان تلك اپنى تنين تهانبون» (ص١١٢)

«إلى أى درجة، سوف أتماسك»

ولفظ (مانى) فأصبح (مان) بمعنى أم فيقول:

- «مانى بينى كاكَم هونا چهپايا» (ص١٢١)

«أخفت الأم خبر فقد ابنتها»

* * *

ورغم السلاسة والسهولة التى يصف بها جميع النقاد لغة «ميرأمن» إلا إنه هناك مواضع فى القصة نرى فيها بعض التعقيد الذى قد يرجع سببه إلى التقديم والتأخير فى أجزاء الجملة، أو إلى ادخال جمل فرعية فى الجمل الرئيسية وعلى سبيل المثال يقول:

- «مين نى اس كا دل بهت بى اختيار شوق مين ان كى خريدارى كى پايا» (ص٥٨) «وجدت قلبه فى شوق عظيم لشراء تلك الأشياء»

فنراه فى هذه الجملة قام بتقديم لفظ (بى اختيار شوق) وتأخير المضاف إليه فأتى به قبل الفعل على عكس ما هو متبع فى ترتيب الجملة الأردية.

وكذلك قوله:

- «ايك بار لوندى ميرى خاطر تركستان سى ميرا باپ لايا» (ص١٣٦) «ذات يوم جاء أبى بجارية من أجلى من تركستان».

ففى هذه الجملة نرى «ميرأمن» قدم جميع المتعلقات على الفاعل، على عكس الجملة الأردية التى تبدأ بالفاعل.

وكذلك قوله: «اسى بندر مين جهان مين حاكم تها بعد تين چار سال كى ايك روز بالا خانه محل كى كه بلند تها واسطى سير اور تماشى دريا وصحرا كى مين بينها تها اور هر طرف ديكهتا تها» (ص١٧٢، ١٧٣).

«وفى تلك المنطقة التى كنت حاكماً لها، صعدت أعلى قصرى بعد ثلاثة أو أربعة سنوات لأنعم بجمال الطبيعة، وكنت أتطلع هنا وهناك».

ونلاحظ هنا تقديم الجار والمجرور على الفاعل وتقديم المضاف على المضاف إليه على عكس ما هو متبع، وكذلك يقول:

- «به موجب حكم بادشاه كى، اس آدهى رات مين كه عين اندهيرى تهى، ملكه كو جو نرى بهو نرى مين پلى تهين اور سوا نى اپنى محل كى دوسرى جگه نه ديكهى تهى بهرتى لى جاكر ايک ميدان مين كه وهان پرنده پرنه مارتا انسان كاتو كيا ذكر جهور كر چلى آنى» (ص١٩٢).

«امتثالاً لحكم الملك، حملنا الأميرة المدللة - التى لم ترى أى مكان سوى قصرها - فى ليلة مظلمة وتركناها فى مكان لا يستطيع الطير أن يطير فيه فما بالك بالإنسان».

ونلاحظ هنا تداخل الجمل الفرعية فى الجملة الرئيسية مما يضفى نوعا من التعقيد على العبارة.

الخصائص البلاغية:

أورد «ميرأمن» فى كتابه «باغ وبهار» عدد لا حصر له من التعبيرات الأدبية الاصطلاحية التى تميزت بالفصاحة والبلاغة فحققت للقصة العديد من المزايا، فهى اختصار للجمل، لأنها قد تأتى فى صورة تشبيه أو استعارة أو كناية، فيقدم التعبير الأدبى الواحد معانى العديد من الجمل والعبارات وبهذا يصير التعبير أداة جيدة للإيجاز. كما أن التعبيرات الأدبية تبين لنا مدى رقى المجتمع الذى يستخدمها وتعكس الأفكار والمشاعر التى يواجه بها الناس المواقف المختلفة فى ذلك العصر. يقول ممتاز حسين (أن ميرأمن يفضل الإيجاز بفطرته ولهذا يستخدم التعبيرات الأدبية والاستعارات والبدائع بكثرة)(٢٠).

ومعظم تعبيرات «باغ وبهار» مازالت تستخدم حتى اليوم فى اللغة الأردية فى نفس الموضع، مثال ذلك:

- «دم ناك مين آيا»(ص١٦٦)

بمعنى «بلغت الروح الأنف» وهو تعبير يبين مدى شدة الضيق.

- «سر بر خاك أرانا» (ص١٧٣)

بمعنى «يهيل التراب على رأسه» وهوكناية عن شدة الحزن.

- «تم نى سانب آستين مين بالى هين» (ص٢٢٣)

بمعنى «لقد ربيت الأفعى فى كمك» وهذا التعبير كناية عن من يأمن جانب الخائن ويحسن إلى اللئيم.

- «اور تو بستى كو چهوَر كر جنگل پهار كيون سيتاهى» (ص٢٦٧) بمعنى «لماذا تركت القرية وتتشبث بالجبل والغابة».

فالمصدر هنا هو «سينا أن يخيط أو يلصق» وهو فى هذه العبارة كناية عن التصاق الإنسان بمكان معين وتمسكه الشديد به.

- «ما ندكَى كى سبب خوب پيت بهر كر سويا» (ص٢٦٦)

بمعنى «ومن أجل البقاء ملأت جوفى ونمت».

فالمصدر (پيت بهرنا: يحشو البطن) كناية عن الأكل حتى الشبع.

وهناك بعض التعبيرات التى هجرت تقريباً، ولكنها لا تمثل أى خلل عند القراءة، بل أنها تضفى على القصة طابعا خاصاً، حتى أننا لو استطعنا الاستعاضة عنها بتعبيرات حديثة ربما تفقد القصة طابعها وشدة تأثيرها.

ومن أمثلة هذه التعبيرات التى لم تعد متداولة حالياً قوله:

- «جو مرد نكهنو هو كر كَهر سيتا هى اس كو دنيا كى لو كَ طعنه مهتا ديتى هين» (ص٣٠).

- إن الشخص الذى يلازم البيت بسبب الكسل، يطعن الناس فى سيرته»

- «تهوری عرصی مين سب زخم بهر كرا انكَور كر لائی» (ص٣٥)

«التأم - طاب كما يطيب العنب - الجرح خلال عدة أيام».

- «مين يه بات سنتی هی كانهہ هو كيا» (ص٤٧)

«عندما سمعت هذا الخبر تجمدت فی مكانی».

ويوجد الكثير من التعبيرات الأدبية الفارسية الأصل بين تعبيرات «ميرأمن» وقد حدث بعض التغيير فی هذه التعبيرات مع تطور اللغة ومنها ما قد أهمل. ومن أمثلة هذه التعبيرات التی قدمها «ميرأمن» مترجمة عن الفارسية تعبير (انتظار كهينچنا) من التعبير الفارسی (انتظار كشيدن) فيقول:

- «وه مونڈ هی پر بيٹها ميرا انتظار كهينچ رهاتها» (ص٣٩)

«وكان ينتظرنی جالساً على الكرسی».

- وتعبير (قطع كرنا) من التعبير الفارسی (قطع كردن)

فيقول - «سخاوت كاجامه خدانی اس عورت بر قطع كياهی» (ص٧٨)

«إن الله عز وجل أوقف، رداء الجود والسخاء على تلك المرأة».

وتعبير (دست به سر هوا) من التعبير الفارسی (دست به سر كردن).

فيقول: - «مين اسی مختار كار جان كر اور ديرينه سمجهہ كر دست به سر هوا» (ص٨٤)

«ولما أدركت أنه صاحب الأمر والحنكة فأديت له التحية»

وتعبير (عقد باندهہ كرنا) من المصدر الفارسی (عقد بستن) فنقول:

- «اس ملک مين ملكه سی عقد باندهہ كر رهنی لگا» (ص١٧١).

«تزوج الملكة وبدأ يعيش فی هذه البلاد».

وتعبير (كپرون مين نه سمايا) من التعبير الفارسی (درجامه نكنجيدن)

فيقول: «يه خوش خبری سن كر مين ايسا پهو لا كه كپرون مين نه سمايا» (ص٢٢٣)

«وعندما سمعت هذا الخبر ضاقت بی ملابسی».

ضرب الأمثال:

وقد استعان «ميرأمن» فى قصته «باغ وبهار» بضرب الأمثال ليضفى على أسلوبه رونقاً وجده، والمثل هو خلاصة تجارب المجتمع عبر السنين الماضية ويكون جملة واحدة أو عدة جمل طويلة كانت أم قصيرة، ويوظف المثل فى مناسبات معينة ليزيد الكلام قوة وتأكيداً، وتكون جملته جملة تامة تؤدى المعنى المطلوب فى الوضع المراد ويجوز التقديم والتأخير فى ألفاظه، ويستعمله أهل اللغة جميعًا من العامة والخاصة(٢١)، واللغة الأردية تحتوى على ذخيرة عظيمة من الأمثال، ويرجع هذا إلى أن الأمثال العربية والفارسية والهندية قد انصهرت فى بوتقة واحدة ودخلت فى حوزة الأمثال الأردية وفى صميم نسيجها، ووراء كل مثل من الأمثال تكون سلسلة طويلة من الخبرات الإنسانية والطبائع البشرية، وخاصة فى الحكايات الأدبية التى تحفل بالتجارب الإنسانية والطبائع البشرية وتربط خبراتنا وأحاسيسنا بالتجارب الماضية بواسطة ضرب المثل الذى (يضم البحر فى القريه) أى أن ضرب المثل وسيلة جيدة للإيجاز والاختصار والفصاحة والبلاغة فى آن واحد(٢٢).

وهذه نماذج لما ورد فى قصة «باغ وبهار» من أمثال:

- «كس برتى پر تتا پانى» (ص٥١)

وترجمته: ««أنت لا تعرف من يخدعك» أى أن الإنسان قد يحسن الظن بمن لا يستحق أو كما نقول فى أمثالنا العربية (من تظنه موسى تجده فرعون).

- «اونت چرهى كتا كانى» (ص٥٩)

«من ركب على الجمل، يعتبر غيره كلباً»

ويطلق على من أصابه الغرور ويعتقد أنه أكبر وأعظم الخلق، وغيره حقير.

- «صورت نه شكل چو لهى مين سى نكل» (ص٦٠)

«ليس لديك شكل جميل، أخرج من الفرن»

ويطلق على قبيح الشكل الدميم الذى يفرط فى التجمل بلا طائل.

- «منتى نهين كرم كى ريكها ان آنكهون كى سبب پرسب كچهه ديكها» (ص٦٣)

"عمل الإنسان لا يمحى، والناس تعرف كل شئ لأن لها عيون ترى بها"

- "كتى كى دم كو باره برس كَارو تب بهى تيرهى رهى" (ص١٧٢)

"لا يستقيم ذيل الكلب حتى ولو دفن فى الأرض اثنى عشر عاما".

ويطلق على من يكون منحرف السلوك ولا يغير من طبعه ويعود إلى جادة الصواب أبدا مهما حاول الناس معه.

- "كَهر يين رهى نه تيرتهـ كَنى موندا مندا فضيحت تهى" (ص٢٤١)

"لم يعد إلى البيت أو إلى المعبد، وذاع صيته وساءت سمعته"

ويطلق على من يرجم بالإتهامات وهو لم يقترف إثما.

ويوجد فى "باغ وبهار" مئات من المحادثات فى صورة حوار بين شخصين، وعلى الرغم من أن معظم هذه المحادثات تتميز بالصنعة والتكلف فى لغة الحوار، إلا أننا إذا كشفنا نقاب هذا التكلف اتضح لنا بساطتها وارتجالها. ومن الجدير بالذكر ان هذا التصنع والتكلف كانا من سمات الحياة فى ذلك العصر، خاصة فى بلاط الملوك، وعند الحديث مع الأمراء والأميرات(٢٣).

ومن أمثلة هذه المحادثات ما جاء على لسان أخت "الدرويش الأول" حين تقول:

- "اكَرچه ملاقات سى دل بهت خوش هوا، ليكن بهيا تيرى يه كيا صورت بنى" (ص٣٠).

"رغم إن قلبى قد فرح بلقائك فرحا شديدا، لكن انظر يا أخى فى أى هيئة تبدو؟".

ونلاحظ جواب الدرويش:

- "اچها اب تم مان كى چكَر هو، جو كهو سو كرون" (ص٣١)

"حسناً، فأنت الآن فى مكان والدتى، وكل ما تقولينه سأفعله"

ويقول التاجر يوسف حينما رأى الدرويش الأول:

"أو مهريان برى راه دكهانى" (ص٣٩)

«أقبل يا عزيزى، لقد ترقبت الطريق طويلاً»

ونلاحظ فى قصة (حاتم الطائى)(٢٤) حوار الشيخ الحطاب وزوجه العجوز:

- «برهيا بولى كه اگر همارى دن كچهـ بهلى آتى تو حاتم كو كهين هم ديكهـ پائـ اوراس كو پكر كر نوفل كى پاس لى جاتى تو وه پانچ سو اشرفى ديتا اور هم آرام سى كهاتى، اس دكهـ دهندى سى چهوت جاتى» (ص٧٢).

«قالت العجوز: لو واتانا الحظ، لوجدنا (حاتم الطائى) فى أى مكان لذهبنا به إلى نوفل فمنحنا خمسمائة دينار، ونعمنا بالراحة والسكينة وتخلصنا من تلك المصائب».

فأجابها الشيخ قائلا:

- «جورو هى نى كها كيا ترتر كرتى هى همارى طالع مين يهى لكها هى كه روز لكر يان تورين اور سر پر دهر كر بازار مين بيچين، تب نون رونى ميسر اوى... (ص٧٣).

«قال الشيخ: لماذا تثرثرين؟ لقد قدر علينا أن نقطع الحطب ونحمله على رءوسنا ونبيعه فى السوق حتى يتيسر لنا الخبز والملح».

ويقول أمير (نيم روز) للحورية التى جاءت إليه:

- «مين نى كها كى اجى، اب پهر كب ملاقات هوگى؟ يه كيا تم نى غضب كى بات سنائى، اگر جلد آؤ گى تو مجهـ جيتا پاؤ گى، نهين تو پچتاؤ گى» (ص١٠٥)

«قلت يا عزيزتى متى ألقاك مرة ثانية؟ لماذا أسمعتنى هذا الخبر غير السار، إن أتيت بسرعة فستجديننى على قيد الحياة، وإلا فستندمين».

وهذه أمثلة بسيطة ولم يرد فيها أى لفظ صعب، ويتضح من هذا أن المؤلف قد كتب هذه الحوارات بلغة الحديث اليومى للعامة بمنتهى الدقة والمهارة، وبعيداً عن أى تكلف.

وتوجد فى قصة «باغ وبهار» نماذج شيقة وطريفة لحوارات بلغة (الريختى)(٢٥) أى لغة أحاديث النساء، وقد كتبها «ميرأمن» على لسان النساء فبدا الحديث يحمل الطابع النسائى.

وتعتبر قصة (باغ وبهار) هى القصة الوحيدة التى تشتمل على لغة الريختى الخاصة بأواخر القرن الثامن عشر فى دهلى. ولا تقتصر فائدة الكتابة بلغة أحاديث النساء على مجرد العرض الشيق الطريف لأحاديث النساء، أو بث الروح فيها، بل إنها تقدم لنا صورة للحضارة

والعادات والتقاليد الموجودة فى هذا العصر، وتعكس لنا صورة حية للمجتمع وما يجرى داخل القصور(٢٦).

ومن نماذج الأحاديث النسائية هذه العبارات التى جرت على لسان شقيقة الدرويش الأول فتقول:

- «اى بيرن تو ميرى آنكهون كى پتلى اور مان باپ كى مونى متى كى نشانى هى تيرى آنى سى ميرا كليجا تهند هوا... ليكن مردون كو خدا نى كمانى كى ليى بنايا هى، كهر مين بيهى رهنا ان كو لازم نهين .... نهين تو مين اپنى چهرى كى جوتيان بنا كر تجهى پهناؤن اور كليجى مين دال ركهون» (ص٣٠، ٣١)

«يا أخى ! أنت هدب عينى، وتذكار من أبواى، وسر قلبى بمقدمك إلى... لكن الله عز وجل قد خلق الرجال للعمل، ولا يليق بهم أن يجلسوا بالبيت وإلا فقد كان يمكننى أن أصنع الحذاء من جلدى وألبسك اياه وأسكنك فى قلبى».

وقالت الأخت وهى تودع أخيها عند سفره:

- آنسو پن كر بولى سدهار ور، تمهين خدا كو سونپا پيتهـ دكهاتى جاتى هوا اسى طرح جلد اپنا منهـ دكها ئيو» (ص٣١)

«قالت بعد أن هطلت دموعها وهى تودعه، الآن استودعك الله وأرى ظهرك وأنت ترحل فعد مسرعاً لأرى وجهك».

وأيضاً تحدثت أميرة دمشق إلى الدرويش الأول معنفة ومهددة فقالت:

- چه خوش آب همارى عاشق هين؟ ميندكى كوبهى زكام هوا.. اكر كسى اوزنى به حركت بئى معنى كى هوتى، پرور دكار كى سون اس كى بوتيان كتوا چيلون كو بانتى» (ص٤٧).

«يا فرحتك! سعادتك عاشق لى؟ أصاب الضفدع الزكام، لو سلك غيرك هذا السلوك معى، فمائة قسم بالله لكنت مزقته إرباً إرباً، وألقيت به إلى الضوارى».

وعندما عادت أميرة دمشق بعد غيبتها عن القصر أنبتها أمها ولامتها قائلة:

«اى كم بخت ناشدنى!... كاش كى تيرى عوض مين پتهر جنتى تو صبر آتا اب بهى تو به كر، جو قسمت مين تها سوهوا، اب آكى كيا كرى كئ؛ جيوى كى يا مرى كئ» (ص٦٤ـ ٦٥)

«أيتها التعسة الوضيعة، ليتنى كنت قد ولدت حجراً بدلا منك فكنت صبرت على هذا، الآن توبى واستغفرى، قد قدر ما قدر، والآن ماذا ستفعلين، ستعيشين أم تموتين؟»

ولعل الحوار الذى دار على لسان المرأة الماكرة مع أميرة الإفرنج هو أكثر الحوارات جاذبية وحرارة فى الأدوار النسائية «لباغ وبهار» ولنستمع إلى حوارها:

- «مين غريب رنديا فقيرنى هون - ايک بيتى ميرى هى كه وه دوجى سى پورى دنون دردزه مين مرتى هى اور مجهـ كو اتنى وسعت نهين كه اهى كاتيل چراغ مين جلاؤن كهانى پينى كو تو كهان سى لاؤن؟ اكر مركئى، تو كور كفن كيون كر كرون كى اور جنى، تو دائى جنائى كوكيا دون كى، اور جچا كو شبهوارا، اچهوانى كهان سى بلاون كى، آج دو دن هوئى هين كه بهو كى پياسى پرى هى صاحب زادى اپنى خير، كچهـ تكرا پارچه دلا تو اس كوپانى پينى كا آدها رهو» (ص٢٠٢).

«إننى فقيرة لى بنت حبلى تتضور جوعًا، وليس فى مقدورى أن أشعل موقداً، فمن أين آتى بالطعام؟ وإن ماتت ابنتى كيف أكفنها؟ وإن وضعت فمن أين ادفع للقابلة وأقدم لابنتى مايلزمها فى ذلك الحين؟ إن ابنتى جائعة وعطشى منذ يومين، أيتها الأميرة، إن تكرمت وتفضلت فاعطنى شيئاً تتقوت به ابنتى».

ويقدم لنا نثر «ميرأمن» ربطاً وتجانساً جميلاً بين الجمل والألفاظ خاصة تلك التى وردت فى جمل الحوار عن غير عمد بالسليقة. وقد اهتم «ميرأمن» فى بعض المواضع بايراد الألفاظ التى تقدم السجع، وكان يحتذى فى ذلك اسلوب النثر الفارسى الرصين وبخاصة (جلستان سعدى)[٢٧] الذى ذكره فى مقدمة (كَنج خوبى)[٢٨].

والألفاظ المسجعة لدى «ميرأمن» قد تكون فى جملة واحدة، وقد تكون فى جملتين أو أكثر وقد تكون فى أواسط الجمل أو قد تكون فى أواخرها كالشعر، ويبدو أحياناً أن «ميرأمن» يقدم ويؤخر أجزاء الجمل كى يتمكن من السجع والترصيع، وتبين الأمثلة التى سبق ذكرها فى إطار الحوارات التزام «ميرأمن» بالسجع، ومن الأمثلة التى يتضح فيها أيضا السجع قوله:

- «نظر كى مجال نه تهى جو اس كى جمال پر تههرى» (ص٣٥)

«لا يمكن للنظر أن يقع على جماله»

- «مين دل كى شوق سى اور اتهكهيليون كى ذوق سى هر روز انعام بخشش دينى لكَى» (ص٥٤)

«وقد شرعت فى منح الجوائز يوميا من شوق قلبى»

- «تب انهون نى فرمايا كه مرتضى على ميرانام هى اور ميرا بهى كام هى» (ص٦٩)

«فقال اسمى (مرتضى على) وهذا هو عملى»

- «مين يهودى سى پوچهون كه ايسى كيا تقصير كى هى، جس كى بدلى يه تعزيز كى هى» (ص١٣٧).

«فسألت اليهودى ما هو ذنبه، حتى يعاقب هذا العقاب»

- غرض دونون نى مجهى خوب خورد خام كيا اور حضرت يوسف كى بهائيون كا سا كام كيا» (ص١٤٢)

«الخلاصة استغلا صغر سنى وسذاجتى، وفعلا معى كما فعل اخوة يوسف»

وفى نهاية حديثنا عن أسلوب «ميرأمن» نستطيع أن نوجز خصائص أسلوبه فى أنه كان أسلوباً سهلاً ممتنعاً فعبارته تبدو سهلة فى ظاهرها ولكن من الصعب محاكاتها والكتابة على منوالها. ولنقدم فى النهاية هذه العبارات التى تضم الجمل القصيرة المسجعة والتى راعى فيها الموسيقى الناتجة من المشاكلة بين الحروف. فيقول على سبيل المثال:

- «اتنى مين ناؤ برهـ كنى اور دريا كى لهر مجهى كهين سى كهين لى كَئ غوطى پر غوطى كهاتا تها اور موجون مين چلا جاتا تها آخر تهک كيا خدا كو ياد كرتا تها كچهـ بس نه چلتا تها» (ص١٤٠، ١٤١)

«أثناء ذلك أبحرت السفينة، وحملتنى الأمواج إلى مكان بعيد، وصارعت الأمواج حتى تعبت، وأخيرا أخذت أذكر الله وأسبحه لكننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً».

- «اكر كهانا وهان كهائيو تو پانى يهان پيجيو» (ص١٩٤).

«لو تأكل الطعام هناك، فلتشرب الماء هنا».

وهكذا كان تميز الأسلوب فى «باغ وبهار» السبب فى التفاف القراء والكتاب والنقاد حولها والإشادة بها واعتبارها من أفضل ما كتب فى اللغة الأردية، وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصل التالى.

هوامش الفصل الثانى

(١) (محاوره) لفظ يطلق فى الأردية على التعبير الأدبى الاصطلاحى الذى له معنى متعارف عليه وقد يستمد مدلوله من مجرد فهم معانى كلماته منفصلة. وهو يتكون من لفظين أو أكثر وقد تستخدم هذه الألفاظ فى غير معناها المعجمى، وقد تحتاج لعبارة أو جملة أخرى لتؤدى المعنى المراد، ومن أمثلتها (غم كهانا) فمعناها هو (الحزن) رغم أن المعنى الحرفى لألفاظها هو (أكل الحزن) وقد استخدم لفظ الأكل مجازا. وكذلك (رنگ لانا) معناها (يسبب الفضيحة) رغم أن المعنى الحرفى لها هو (يأتى بلون) وقد استخدم لفظ لون مجازا.

(ألطاف حسين حالى: مقدمة:ـ شعر وشاعرى باهتمام اسحاق على علوى. لكهنو (د.ت)، ص١٢٢، ١٢٣.

(سيفى آتش لكهنوى: هماری محاوره. لاهور. (د.ت)ص٦).

(٢) أنور سديد: اردو أدب كى تحريكين، ط١، كراچى ١٩٨٥، ص٢٣٦ - ٢٤٤.

(٣) عبد السلام الندوى: شعر الهند، جـ١، مطبع معارفى اعظم اكره (د.ت) ص٣٤ـ ٣٦.

(٤) (مؤمن): هو مؤمن خان مؤمن (١٢١٥هـ - ١٨٠١م/ ١٢٦٨هـ - ١٨٥٢م) أحد أعلام مدرسة الشعر الأردى فى دهلى فى النصف الأول من القرن ١٩ الميلادى. وتميز فى نظم الغزل، وقد قدم أجداده من كشمير إلى دهلى فى عهد شاه عالم ثانى والتحقوا بالعمل فى البلاط كأطباء ملكيين، وتبدو فى الشعر عند مؤمن شدة التأثر باللغة الفارسية التى تمكن من التعبير بها عن أحاسيسه الدقيقة.

(عبادت بريلوى: مؤمن اور مطالعه مؤمن ط١لاهور. اردو دنيا، ١٩٦١م، ص٢٠ - ٢٥).

(غالب): هو ميرزا أسد الله خان غالب المتخلص بغالب (١٢١٢هـ - ١٧٠٧م/ ١٢٨٥هـ - ١٨٦٩م) هو أحد أعلام مدرسة الشعر الأردى فى دهلى فى النصف الأول من القرن ١٩م قدم أجداده إلى دهلى فى عهد شاه عالم ثانى وولد غالب فى (اكرا) وحصل فيها علومه ثم انتقل إلى دهلى وكان معاصرا لذوق ومؤمن وعمل استاذا للملك بهادر شاه ظفر ويعد إنتاج غالب قمة ما وصل إليه الرقى العقلى بالهند، كما توجد له علامات بارزة فى تجديد اللغة وقد وصل التأثر بالشعر الفارسى إلى أقصى حدود الاعتدال فى أشعار غالب.

(عبادت بريلوى - غالب اور مطالعه غالب، ط١، لاهور ١٩٦٩، ص٤.

(ناسخ): يعتبر المؤسس الحقيقى لمدرسة لكهنو فى الشعر الأردى، وهو أحد علماء اللغة المتبحرين الذين وضعوا قواعد جديدة للنظم وأدخلوا تعديلات على اللغة وقد اشتهر بالتجديدات التى أضافها على أسلوب الغزل، وقد عاد ناسخ وتلاميذه إلى نزعة الإتجاه إلى الفارسية التى بدأت مع حركة اصلاح اللغة فى دهلى فى بداية القرن الثامن عشر الميلادى (م١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م).

(رام بابو سكسنه تاريخ ادب اردو. ت. مرزا محمد عسكرى. كراتشى. غضنفر اكيدمى (د.ت).

(٥) (انشا) (م١٢٣٢هـ/ ١٨١٨م) كان شاعرا فى بلاط شاه عالم ثانى ويعتبر من أعلام الشعر فى لكهنو، ويعتبر كذلك أحد علماء اللغة الهندية إلى جانب إجادته للعربية والفارسية وقد قام بجهود كبيرة للمحافظة على كيان اللغة الأردية والاحتفاظ بجذورها الثقافية.

(قدرت الله شوق: تذكره طبقات الشعرا، ط١. لاهور. مجلس ترقى ادب، ١٩٦٨، ص٤٠).

(ذوق): هو محمد ابراهيم ذوق (١٢٠٤هـ - ١٧٨٩م/ ١٢٧١هـ - ١٨٥٤م) أحد الدعائم الأساسية لمدرسة الشعر الأردى فى دهلى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى وترجع ملكته إلى دوره الواضح فى حركة الاتجاه نحو الاستقلال التدريجى عن الشعر الفارسى، كذلك لاستخدامه أسلوب مميز يجمع بين الفصاحة والبلاغة وكان أفضل من نظم القصيدة الأردية فى عهده والعهود التالية، وزاده فضلا توليه منصب أستاذ الملك.

(انظر: تنوير أحمد علوى: ذوق سوانح اور انتقاد. ط١. لاهور. مجلس ترقى ادب ١٩٦٣م، ص٢٨).

(نظير) نظير أكبر آبادى شاعر يتمتع بمكانة كبيرة نظراً لعمره المديد لكنه تميز عنهم جميعا بانفراده بوصف الطبيعة الهندية وخاصة حيوانات الغابة ومعارك الطيور. والمتبقى من أشعاره حوالى ستة آلاف بيت تشمل التصوف والفلسفة بحيث أنه «يعد من كبار الفلاسفة والأخلاقيين.

(محمد جميل أحمد: اردو شاعر برايك نظر. ط١. كراتشى ١٩٨٥م، ص١٠٨ - ١١١.

(ظفر): هو أبو ظفر محمد سراج الدين بهادر شاه الثانى آخر ملوك المغول فى الهند، وتخلص فى أشعاره بظفر، وكان شاعرا حساسا له أربعة دواوين تضم جميع أغراض وقوالب الشعر الأردى وكانت لديه القدرة على النظم فى العديد من لغات الهند المحلية فله أشعار فى اللغة البنجابية ولغة البشتو، وقد تتلمذ فى الشعر على يد شاه نصير ثم ذوق ثم غالب، كذلك كان راعيا للشعر والثقافة وجعل من قلعة الحكم مركزاً للاشعاع الثقافى.

أحمد جعفرى: بهادر شاه ظفر اور انكا عهد. ط٣. لاهور. شيخ غلام على، ١٩٦٩م، ص٣٧، ٣٨.

(٦) ابتسام صالح الدين (د): رسالة دكتوراه بعنوان «مدرسة الشعر الأردى فى دهلى فى النصف الأول من القرن ١٩ الميلادى» - جامعة القاهرة ١٩٨٩م، ص٣٤٧ - ٣٥٥.

(٧) محمد حسين آزاد: آب حيات لاهور سنك ببلى كشنز، د.ت، ص٥٨، ٥٩.

(٨) رشيد حسين خان: باغ وبهار، ص١٥.

(٩) باغ وبهار كاتنقيدى مطالعه: ص١٠٨.

(١٠) مولوى عبد الحق: قواعد اردو، ١٩٩٤م، اشاعت سولهوين - انجمن ترقى اردو، ص١٥٧ - ١٦١.

(١١) نفسه: ص٦٥ - ٧٢.

(١٢) مولوى عبد الحق: قواعد اردو، ص١٦٧.

(١٣) سيد قدرت نقوى: ميرأمّن كى معترضين نئ دهلى، ط١، ١٩٨٣م، ص١٠٦.

(١٤) مولوى عبد الحق: قواعد اردو، ص٩٥.

(١٥) نفسه: ص٨٥.

(١٦) قواعد اردو: ص٩٢.

(١٧) قواعد اردو: ص٩٤.

(١٨) مولوى عبد الحق: قواعد اردو، ص١٦٣.

(١٩) قواعد اردو: ص٧٨.

(٢٠) مقدمة باغ وبهار: ص١٢٧.

(٢١) د. سيفى آتش لكهنوى: همارى محاورى ص٧.

(٢٢) Taylor, A., Standard Dictionary of Falhlor Mythoulogy and Legend, Funk and Wagnalls, Co. N.Y. 1950, Vo 1.2, p.602.

(٢٣) كليم الدين أحمد: اردوزيان اورفن داستان كوسرفراز، ص١٥٥.

(٢٤) حاتم الطائى: هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى وكنيته أبو سفانة وأبو عدى، وأجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة حاتم الطائى وهرم بن سنان وكعب بن مامة، وحاتم أشهرهم ذكرا، أدرك مولد النبى ﷺ ومات قبل مبعثه وحاتم من فحول الشعراء.

(انظر: جمال الدين محمد بن محمد بن نباته المصرى: سرح العيون، ط٤، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٢٧٨هـ).

(٢٥) الريختى: لفظ (ريختى) هو المؤنث من لفظ (ريخته) والمقصود بها لغة أحاديث النساء، أى الألفاظ والمصطلحات الخاصة بالنساء وكان أول من أدخلها على النظم الأردى الشاعر سعادت ياررنگين فى لكهنو، فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى، ثم شاعت بعد ذلك فى الأدب الأردى. (سيد أحمد دهلوى: فرهنگ آصفيه - كـ - مادة ريختى - لا هور، د.ت).

(٢٦) عبد السلام الندوى: شعر الهند، جـ١، مطبع معارف اعظم گره، د.ت، ص٨٩.

(٢٧) كلستان سعدى: مؤلفه هو مشرف الدين مصلح بن عبد الله سعدى الشيرازى، شاعر كبير من شعراء القرن السابع الهجرى، تلقى علومه ومعارفه فى شيراز ثم استكمل تعليمه فى بغداد، له كليات تشتمل على قصائد وغزليات وقطع وترجيع بند ومقالات وقصائد عربية، من أهم مؤلفاته كتاب البوستان الذى ألفه عام ٦٥٥هـ، والكلستان الذى ألفه عام ٦٥٦هـ وموضوعاته تدور حول الأخلاق والحكمة من خلال القصص والحكايات، وهو يتمتع بأسلوب بديع وعبارات رصينة.

(انظر لغتنامه: تأليف على أكبر دهخدا، جلد هشتم، زير نظر: دكتر محمد معين ودكتر سيد جعفر شهيدى ١٢٥٨ - ١٣٣٤ هـ. ش، چاپ اول ازدوره جديد بهار ١٣٧٣ مؤسسة انتشارات وچاپ دانشگاه تهران ص١٢٠٤٠.

وانظر كتاب كلستان بتصحيح وحواشى عبد العظيم جرجانى بانظريات جديد، طبع دوم كتابخانه ومطبعة علمى درسنة ١٣١٠ شمسى رمز (يه).

(٢٨) ميرأمن دهلوى: كنج خوبى، ص٤.

الفصل الثالث

مكانة «باغ وبهار» فى النثر الأردى



لم يحظ أى كتاب فى الأدب الأردى بما حظى به كتاب «باغ وبهار» من اهتمام وتقدير وشهرة دامت حتى يومنا هذا ، إذ يعد كتاب «باغ وبهار» أول صحيفة فى النثر الأردى الحديث، ويكفى مؤلفه «ميرأمّن الدهلوى» فخراً أن كتابه لا يزال يدرس بعد مرور قرن ونصف من الزمان على تأليفه وقام الكثير من الكتاب باختصاره وتبسيط حكاياته وإدخاله فى المناهج الدراسية نظرا لما تحويه قصصه من تعاليم أخلاقية ودروس ومواعظ ولا زال تدوين وتصحيح ونشر قصة «باغ وبهار» يجرى حتى اليوم، ويعمل على تصحيح متنه ولغته الدارسون فى الهند وباكستان وأوروبا، ولعل من أفضل الطبعات التى صححها الدارسون الأوربيون طبعة «دنكن فاربس» التى نشرت فى لندن سنة ١٨٤٦م، وطبعة (كلكتا) سنة ١٨٠٣م والطبعة التى نشرت بواسطة مطبعة (مصطفائى كانپور) فى ١٨٥٤[١].

ومن أهم العلماء الهنود الذين اهتموا «بباغ وبهار» أبو الأردية (مولوى عبد الحق) الذى يعتبر أول محقق نشر «باغ وبهار» فى (انجمن ترقى اردو) وكتب مقدمة له، كذلك نشر بروفيسور (سيد وقار عظيم) طبعة لـ «باغ وبهار» فى لاهور عام ١٩٥٢م.

كما نشر بروفيسور (ممتاز حسين) فى نوفمبر ١٩٥٨ م نصا (لباغ وبهار) وكتب مقدمة مفصلة له.

ونشر (رشيد حسن خان) نصاً لـ (باغ وبهار) من خلال مكتبة جامعة نيودلهى المحدودة عام ١٩٦٤م.

هذا بالإضافة إلى أنه نشرت ترجمات عديدة للكتاب، فقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية والأرمينية والتشيكية وهنا ننشر ترجمته إلى العربية ضمن هذه الرسالة.

ولعل ذيوع صيت الكتاب وشهرته يرجع إلى عدة أسباب وأهمها:

١- الأهمية الأسلوبية :

أسلوب «باغ وبهار» الفريد هو السر الحقيقى فى شهرة الكتاب علاوة على لغته، فبالرغم من أن لغة الكتاب هى نموذج للغة السليمة منذ أكثر من قرنين. إلا أن لغته ما زالت تلتقى فى كثير مع اللغة فى هذه الأيام، فقد حرص «ميرأمّن» على عدم استعمال الألفاظ الهندية بكثرة كما كان الشأن فى زمانه(٢) كما أنه كان يستخدم ألفاظا سهلة خاصة به بدلا من الألفاظ السائدة مما يضفى حسنا على حسن الأسلوب(٣).

وقد اعتبر أسلوب «ميرأمّن» من الجواهر الثمينة لأن الأساس الذى قام عليه «باغ وبهار» هو السلاسة والبساطة والجاذبية(٤).

وأثنى على «ميرأمّن» منذ طباعة «باغ وبهار» كل النقاد، وألقوا الضوءعلى خصائصه النثرية وأسلوبه المثالى، يقول المفكر الأوروبى «دنكن فاريس» الذى قضى عدة سنوات هامة من حياته فى تدوين وطباعة «باغ وبهار»:

[... ترجم عطا حسين خان «چهار درويش الفارسى» بعنوان «نوطرز مرصع» لكنه لم يلق قبولا كنموذج لهذه اللغة بسبب كثرة المحاورات الفارسية والعربية والأسلوب المفرط فى الصنعة والمحسنات اللفظية، ثم جاء ميرأمّن ليزيل هذا النقص فكتبه من ترجمة عطا حسين الذى سبق ذكرها الآن](٥).

كان أسلوب «ميرأمّن» مباشرا سلساً وانسيابيًا فقد كان كل ما عليه أن يفعله هو أن يجعل مستوى كتابته مساويا لمستوى حديثه لأنه كان يتحدث بلغة دهلى أى (اللغة الفصحى)(٦)* .

وكان أسلوب «ميرأمّن» سببا فى إشادة د/ جلجرست مدير كلية «فورت وليم» به حيث يبدو من التعليق الذى كتبه على الطبعة الأولى «لباغ وبهار»أن «ميرأمّن» قد أخرج النثر الأردى من عباءة الفارسية وعقدتها إلى شمس عصر جديد فيقول:

[فى كلامه - ميرأمّن - براعة حقيقية تجعل الإنسان يظن أنه كتب هذه القصة بنفسه](٧).

ويقول سير سيد أحمد خان ما ملخصه:

[.. إن «ميرأمّن الذى فاق الجميع بعد أن كتب باغ وبهار.. يملك قدرة كاملة على كتابة النثر](8).

وفى الحقيقة فإن أهمية الكتاب ترجع إلى أنه يمكننا من رصد التغيرات فى القواعد، والتغير الذى طرأ على اللغة منذ تأليف الكتاب من قرن ونصف.

و«باغ وبهار» خاصية يتميز بها عن كل المؤلفات المعاصرة له أو اللاحقة به وهو استخدامه أسلوب المحاورة وهذا طبقا لقول «ميرأمّن» نفسه حيث قال: «عندما يبلغ النثر أعلى مرتبة يكون بذلك قد تمكن من استخدام أسلوب المحاورة»(9).

واستخدم «ميرأمّن» المحاورات على نحو صحيح وفطرى(10)، واستخدام المحاورات على نحو فطرى لا يعد إسرافاً فيها، بل إنه شكل جميل من أشكال الاكتفاء الذاتى، فالمبالغة بمعنى تقديم صورة للحياة الفردية أو الاجتماعية فى مثيل من الألفاظ لا وسيلة له إلا عن طريق المحاورات الجيدة والمناسبة، وكذلك فإن نثر «ميرأمّن» قد نفخت فيه الروح باستعمال المحاورات(11).

وتجنب «ميرأمّن» فى أسلوبه استخدام التقفية والسجع لكنه لم يهملهما تماماً، لأننا نجد فى بعض المواضع استخداماً للسجع.

وقد أيد د. سيد عبد الله هذا الرأى حيث يقول: إن «ميرأمّن» عندما كان يشرع فى استخدام لغة المحاورة كان يستخدم السجع أحيانا(12).

ومن أهم الخصائص التى يتميز بها «باغ وبهار» حبكة القصة ولغتها، فقد اتسم أسلوب «ميرأمّن» بالسهولة الواضحة والتى كان يتطلبها العهد الذى كتب فيه، تميزت الكتب التى كتبت فى عهد «فورت وليم» بنفس الخصائص، إلا أن ما يميز «باغ وبهار» عنها هو استخدامه للغة المحاورة والمحادثة وخلق محاسن أدبية رفيعة، ونفس الشىء فى سلاسة البيان وفصاحته نجدها على مستوى أدبى رفيع(13)، أما القصة ففيها لطف ومتعة لا يدانيها أى متعة فى كتاب آخر، و «ميرأمّن» عندما يكتب بلغة شرفاء دهلى تتناثر منها الورود ويشعر القارئ كأنه قد ألقى عليه بظلال من السحر، وكذلك طريقة «ميرأمّن» فى حبك القصة، حيث إن القارئ عندما يبدؤها لا يتركها إلا عندما تنتهى.

«باغ وبهار» مرآة اجتماعية وحضارية لعصره:

لكل قصة أو حكاية ميزة خاصة تتميز بها ومن أهم المميزات التى تميز القصة الجيدة هى أن تكون مرآة تعكس سمات وحضارة وعادات عصرها وتلك الصفة هى أيضا أهم ما يميز «باغ وبهار» على وجه الخصوص، فهو يعتبر صورة ناطقة لكل ما يتعلق بحضارة ومدنية وأسلوب الحياة فى عصره فكما يقول كيان جند: «إن لميرأمّن إحساسا خاصا فى قصته لكل ما يتعلق بدهلى ولهذا فكل تفاصيل الحياة فى دهلى منقوش ومحفوظ فى «باغ وبهار»[١٤].

فكل ما يتعلق بحياة الأمراء فى دهلى طعامهم وشرابهم، أماكن إقامتهم، أزيائهم، وعاداتهم اجتهد «ميرأمّن» أن يصوره بأسلوب خاص فى كتابه، واهتم «ميرأمّن» على وجه الخصوص بتصوير الاحتفالات والمآدب وهذا يرجع إلى أن «ميرأمّن» نفسه قد عاصر ملوك المغول وأمرائهم لفترة ليست بالقصيرة[١٥].

وكانت هذه الاحتفالات جانبا هاما من المجتمع فى ذلك العصر، وكانت الولائم العامرة إحدى لوازم البلاط الملكى فى تلك الفترة حيث تميزت بالسخاء والوفرة، ويمكن أن نطلع على بعض مواصفات هذه المآدب والولائم فى هذا النموذج:

«وفى تلك الأثناء كنا قد بلغنا المنزل، ففوجئت بمظاهر البهجة والزينة بادية على البيت، ووجدت كل الأرجاء نظيفة تفوح منها رائحة العطر، والحراس قائمون بالباب، فعقدت الدهشة لسانى لكننى تيقنت من أنه بيتى فدخلته، ووجدت الرياش والمتاع والطنافس فى كل مكان، ورأيت كثيرا من التحف والنفائس، وكانت المصابيح مضاءة فى الطاقات وقد ازدانت تلك الطاقات بالورود والزهور، ورائحة البخور والصندل تفوح وتنبعث من كل الأركان، والقناديل مضاءة بالشمع الكافورى فى الردهات والممرات، والثريات تتدلى من كل مكان، وكل شخص يؤدى واجبه ويشغل موقعه المحدد، ومن المطبخ تصدر أصوات القدور والأوانى ومكان الماء على أتم استعداد، فقد وضع الماء فى الأباريق ولف فى القماش ليبرد، وصفت الآنية والصحاف والأكواب ووضع الثلج فى الأباريق.

والخلاصة لقد كان كل شىء على أتم الاستعداد للحفل والضيافة، والراقصات والراقصون الذين يرتدون زى النساء والمنشدون يجلسون فى زى فاخر وينشدون الأغانى على إيقاع الموسيقى[١٦].

ففى تلك الولائم كانت تتوافر كل الأشياء التى تتعلق بها، وهذا يشرح الحالة الذهنية الخاصة بتلك الفترة، إذ إن كل هذه الأشياء دائما تكون وليدة الثروة والغنى الفاحش، وكانت الأموال وفيرة فى القصور الملكية ولذا فإننا نجد مثل هذا البذخ الشديد فى القصور الملكية فى الحفلات التى يعرض لها «باغ وبهار» وعلى سبيل المثال:

«عادت الوصيفة واصطحبتنى إلى قصر الأميرة وعندما ذهبت وجدت على الجانبين صديقات الأميرة، فوصيفاتها [بيكنيان، قلماقنيان تركنيان حبشنيان ازبكنياه كشميرنيان] وحشمها وخدمها وقيانها كل حسب منزلته طبقًا للرسوم الملكية وكان المكان زاخرا بالخدم والحشم، فكيف أصف هذا المشهد وأى لفظ يعبر عن كثرة الحضور، فصدرت منى زفرة رغما عنى واختلج قلبى لكننى تماسكت وسرت بين هذا الجمع ناظرا لهذا المشهد وثقلت قدماى فقد كانت الوصيفات على قدر عظيم من الحسن والجمال لدرجة أننى عندما كنت أمر بواحدة منهن لا أستطيع أن أغادرها إلى الأخرى، وكانت الأرائك مصنوعة من خشب الصندل...»(١٧).

و «باغ وبهار» بوجه عام تعتبر مرآة ثاقبة تعكس لنا الحياة فى ذلك العصر إلى أبعد مدى، فللشخصيات فى «باغ وبهار» سلوك اجتماعى وحضارى خاص فهى تسير وتتحدث وترى وتسمع على نحو معين ولها أسلوبها الخاص فى التفكير والعمل، كما أن لها معتقداتها الاجتماعية الخاصة.

ويتضح فى «باغ وبهار» السمات النفسية والاجتماعية والعاطفية للشخصية الدهلوية، وإذا تفقدنا القصة من البداية إلى النهاية وجدنا سمات حضارة دهلى الاجتماعية تتجلى فى المشاهد والشخصيات والحوار بوضوح ملحوظ(١٨).

فنجد مراعاة مقام الناس فى الحديث ومراتبهم واختيار الوقت المناسب للحديث، وكذا نلحظ التواضع والدقة والاحترام والتلميحات أثناء الحديث وهذا كله من مميزات دهلى فعلى سبيل المثال:

نجد فى قصة الدرويش الأول الطريقة المثلى لحديث الوزير «خردمند» إلى الملك «آزادبخت» ملك الروم والتى تعكس كيفية الحديث إلى الملوك والعظماء فى ذلك الزمان فيقول «خردمند» للملك:

«جعل الله عبدك وخادمك فداء لسلامة جلالتكم وخلد الله ملكك، لكن اعتزالك يا ملجأ وملاذ الدنيا على هذا النحو تضيع به السلطنة سدى»(١٩).

كذلك نلاحظ طريقة الحوار المهذب بين شخصيات القصة مثلا ففى قصة «السيد المولع بالكلب» نجد فى حديث الأخ الأصغر إلى شقيقيه ما يدلنا على هذا: ««فقلت: يا أخواى، ماذا تقولان؟ أنا غلامكم، ولا أدعى بأننى أخ لكما، مات أبونا وأنتما فى منزلة أبى، أريد خبزاً يابسًا ليقيم أودى، وسأقوم على خدمتكما، ولا شأن لى بالتقسيم والتوزيع، أنا أسد جوعى ببقايا طعامكما وأكون برفقتكما(٢٠).

هذه لهجة وجهاء دهلى الخالصة والتى نجد لها أمثلة لا تحصى فى «باغ وبهار».

كما كتب «ميرأمّن» عن مختلف طبقات المجتمع الهندى دونما وعمد منه حيث نجد أقسام الموظفين والخدم والفقراء والمتصوفة كما كانوا فى الهند فى ذلك العهد، وصور لنا صفات الأم والأصدقاء والأخت(٢١)، وما تتصف به تلك الشخصيات فى البيئة الهندية، ولنلحظ هذا الحوار بين الأخت وشقيقها فى قصة الدرويش الأول:

«ذات يوم بدأت أختى - التى هى بمثابة الأم لى وتقوم على راحتى - تحدثنى قائلة: يا عزيزى أنت أخى ونور عينى وتذكار لوالدى ووالدتى ولقد طابت نفسى بقدومك فحينما أراك أصبح كالحديقة وأنت لى البرعم...(٢٢)

ولنلحظ سلوك الأم تجاه ابنتها رغم علمها بأنها مذنبة فى قصة الدرويش الأول:

«وبعد أن سمعت أمى هذا الكلام منى، أشفقت على وغلبتها عاطفة الأمومة وكتمت عيبى وأمرت بإعداد كل ما يلزم الحفل والضيافة»(٢٣).

ومن سمات المجتمع فى ذلك الوقت الحرص على الصداقة وورد فى «باغ وبهار» ذلك الحديث الذى دار بين الدرويش الأول والتاجر يوسف:

«يا أخى إن كنت تريد أن تسلك هذا المسلك معى، فلم أبديت الصداقة أولا؟ فالسلام له قيمة كبيرة بين الأصدقاء ولدى الكرام من الناس، فانشرح صدرى لحديثه ووجدت أنه ليس من المروءة أن أكون معه على تلك الحال، فجلست إكراما له وقلت أنا طوع أمرك ورهن إشارتك، فسر كثيرا لقولى وضحك قائلا ليتك تشرفنى فى دارى اليوم فسأقيم حفلا لاستقبالك لنتسامر بعض الوقت ونتناول العشاء سويا(٢٤).

ومن يقرأ «باغ وبهار» يرى عهد «محمد شاه وأحمد شاه» ملوك المغول بكل تفاصيله والمعتقدات السائدة فى ذلك العصر، فقد رسم «ميرأمّن» صورا مثالية لملوك ووزراء وأمراء تلك الفترة، ولننظر لهذا الوصف المثالى للملك «آزادبخت» فى قصة الدرويش الأول وكيف كان مثالا للعدل مما أشاع الطمأنينة لدى الجميع:

«كان هناك ملك عظيم له مُلك الروم، يدعى «آزادبخت» كأنما هو فى العدل انوشيروان، وفى الجود والسخاء حاتم، وكانت مدينة «قسطنطينية» التى يسمونها الآن «استانبول» حاضرة ملكه، أما رعيته فكانت فى رغد من العيش وخلو فى البال، فكل إنسان آمن فى نفسه نهاره كيوم العيد، وليله كليلة البراءة، وما اتسعت المملكة لشحاذ أو لص أو متسول أو محتال، وما أوصدت قط ليلاً أبواب الدور، أما الحوانيت فهى مفتوحة فى اتصال ودوام، وفى سوح الغابات وما أكثرها فى طريق المسافرين يسعك أن تنام أو تسير دونما سؤال من أحد من أين وإلى أين»[٢٥].

وهذا تصوير لشخصية الأمير كما رسمها «ميرأمّن» فى قصة الدرويش الثانى، وكيف كان الأمراء يعدون إعدادا جيدا حتى إذا ما كانت الفرصة لتوليهم الملك كانوا على قدر المسئولية:

«وقد هيأ لى والدى، ملك هذه السلطنة منذ الصبا، أستاذاً بارعا فى كل مجال وفن ليعلمنى أصول وقواعد وقوانين المملكة، لأصبح ماهرا فى شتى أنواع المعرفة، وبفضل الله عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرى كنت قد برعت فى كل العلوم، وتعلمت آداب الحديث، وكيف أحسن الجلوس والقيام و«رسوم» الملوك، وكان شغلى الشاغل وما أصبو إليه ليل نهار هو أن أجلس فى مجلس الحكماء والأدباء لأستمع إلى سير الملوك وأحوالهم وسير أولى العزم والمشهورين»[٢٦].

أما وصفه للجراح ففيه يقول:

«وخرجت للبحث عن طبيب (جراح) وسألت أهل المدينة عنه وأين يقيم؟ فقال لى أحدهم: «هناك طبيب ماهر وحكيم فى فنه وفريد فى براعته، لوقصده شخص فإنه بفضل الله وبحكمته يدرك بغيته، وهو يقيم فى هذا الحى واسمه عيسى»[٢٧].

وعندما يصف «ميرأمَن» أى مدينة فى قصته فكأنه يصف إحدى مدن الهند ومدينة دهلي في هذا العهد على وجه التحديد ولننظر لوصف مدينة الإفرنج فى «باغ وبهار»:

«فوصلنا إلى تلك البلاد في خلال عدة شهور، ووجدت أن الشوارع فى الأسواق ممهدة والأزقة مرصوفة ومسطرة وكانت نظيفة بكل معنى الكلمة، وليس بها شائبة واحدة، وكانت المبانى من طرز مختلفة وألوان متعددة والمصابيح مضاءة فى كل موضع وكانت الحدائق خارج المدينة تشتمل على زهور نادرة وفواكه عجيبة لعلها لا توجد إلا فى الجنة»(٢٨).

كما أبرز «ميرأمَن» أيضا على عمد أو غير عمد الكثير من المعتقدات التى كانت سائدة فى عصره ففى الفترة التى عاش فيها «ميرأمَن» كانت دولة المغول تجنح للإنهيار بعدما واجهت الهجمات الشرسة لكل من «أحمد شاه ابدالى» و«نادرشاه درانى»(٢٩). مما نتج عنه ميل كثير من الناس إلى العزلة والانطواء واعتبار التصوف هو النجاة والخلاص ولهذا اختار «ميرأمَن» لأبطال قصته أن يكونوا دراويش ومتصوفة وكان الخلاص من أزماتهم يأتى دائما بظهور الفارس الملثم أو الخضر عليه السلام وهو رمز إلى المرشد الذى يرشد السالكين.

ففى نهاية قصة الدرويش الأول نجد الدرويش يقول:

«وهممت بأن ألقى بنفسى بل ورفعت قدمى فأمسك بيدى شخص فى تلك اللحظة، وعندئذ ثبت لرشدى فرأيت فارسا يرتدى ملابس خضراء، ويضع على وجهه نقابا وقال لى: «لماذا تريد أن تتخلص من حياتك؟ فالقنوط من رحمة الله كفر، ولابد أن يكون الرجاء رفيقك حتى الموت، ففى خلال ثلاثة أيام ستلتقى بثلاثة دراويش مثلك فى بلاد الروم هم أيضا فى هذه المحنة، وتجشموا مثلك المتاعب والمصاعب، «ستجد أيضا ملك يدعى «آزادبخت» وهو كذلك يواجه مشكلة عويصة، وعندما سيلتقى بكم أنتم الأربعة، فسوف يتحقق مراد كل منكم على خير وجه»(٣٠).

ومن بين المعتقدات السائدة فى تلك الفترة أيضا اللجوء إلى زيارة القبور عند الشدائد أو قضاء الحوائج ففى قصة الدرويش الأول أن الملك «آزادبخت» خرج متخفيا للمقابر ليدعو بقضاء حاجته:

«وذات يوم قرأ الملك فى أحد الكتب، أنه إذا كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن، ولم يجد منهما مخرجا، فعليه أن يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى، ثم يتوجه إلى المقابر

ويصلى ويسلم على رسول الله ﷺ، ويتيقن فى نفسه من دونيته وهوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا ويبكى متعظا معتبرا ويتدبر قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذى خلق كثيرا من قبله من ذوى المال والجاه، وبعد أن دار الزمان بهم صاروا ترابا... وعندما يفكر الشخص فى هذه الأمور فى نفسه يدرك أن الدنيا كالفراشة، فينفتح قلبه كالبرعم ولا يحزن من أى شىء ولا على أى شىء»[٣١].

كذلك استعانة أهل هذا العصر واعتقادهم فى الغيبيات ومخلوقات ما وراء الطبيعة وخاصة الجن وأن أمانيهم من الممكن أن تتحق بواسطتهم فعلى سبيل المثال جاء فى قصة الدرويش الرابع ما يلى:

«قال: قصة هذه الأشياء التى تراها، أن أباك تصادق منذ شبابه مع الملك «صادق» ملك الجن وكانا يتزاوران، فكان يذهب إليه مرة فى كل عام، ويهدى إليه التحف والعطور والنفائس، ويقيم هناك حوالى شهر وعند مغادرته يعطيه الملك «صادق» قردا من الزمرد وكان الملك يأتى بهذا القرد ويضعه فى هذا السرداب ولا يعرف هذا الأمر إلا أنا»[٣٢].

كل تلك الأمثلة توضح أن «باغ وبهار» يعتبر صورة صادقة للمجتمع الهندى الذى كان يعيش فيه المؤلف، آدابه ورسومه وعاداته، وهو بذلك يتمتع بأهمية تاريخية، لأنه يعكس لنا الحياة الاجتماعية والمعتقدات الذهنية لذلك المجتمع خلال تلك الفترة.

هوامش الفصل الثالث

(١) باغ وبهار: مقدمة سليم اختر، ص٢٤١.
(٢) مولوى سيد محمد: باغ وبهار ايک مطالعة، ص٢٣٤.
(٣) د. گيان جندچين، اردو نثر كى داستان، ص٢٢٧.
(٤) كليم الدين أحمد: اردو زبان اور فن داستان كوسر فراز، ص١٥٥.
(٥) باغ وبهار: رتبه سليم اختر مقدمة، ص٦٨.
(*) أى اردو معلى
(٦) تاريخ الأدب الأردى: ترجمة محمد صادق، ص٢١٠.
(٧) باغ وبهار كا تنقيدى مطالعة: ص١٠٨.
(٨) آثار الصناديد: سير سيد أحمد خان، ط٢١، دهلى، ص١٠٦.
(٩) فورت وليم، ايك مطالعة، ص١٣٨.
(١٠) انظر الفصل الخاص بأسلوب الكتاب.
(١١) د. سيد عبد الله: نثر باغ وبهار الحى، ص٨٩.
(١٢) ميرأمن سى عبد الحق تک: ص٣٧.
(١٣) رشيد حسن خان: باغ وبهار، ص١٣.
(١٤) گيان چند: اردو نثر كى داستان، ص٣٧٩.
(١٥) محمد ارشد كيانى، افسانوى نثر، لاهور، ص٣٠.
(١٦) ميرأمّن دهلوى: باغ وبهار، ص ٩٨، ٩٩.
(١٧) باغ وبهار: ص١٥٣، ١٥٤.
(١٨) محمد ارشد كيانى: افسانوى نثر، ص٣٠.
(١٩) باغ وبهار: ص٧٦.
(٢٠) باغ وبهار: ص٢٠٥.
(٢١) كليم الدين أحمد: اردو زبان اور فن داستان كوسرفراز ص١٥٥.
(٢٢) باغ وبهار: ص٨٥،٨٦.
(٢٣) باغ وبهار: ص١٢٧.

(٢٤) باغ وبهار: ص٩٤.
(٢٥) باغ وبهار: ص٧١.
(٢٦) باغ وبهار: ص١٣٣، ١٣٤.
(٢٧) باغ وبهار: ص٨٩.
(٢٨) باغ وبهار: ص٢٦٩.
(٢٩) انظر الفصل الأول من الباب الأول.
(٣٠) باغ وبهار: ص١٣١.
(٣١) باغ وبهار: ص ٧٨، ٧٩.
(٣٢) باغ وبهار: ص ٢٩١.




الخاتمة



فى نهاية هذا البحث ألخص أهم النتائج التى تأتى لى التوصل إليها بعد هذه الدراسة التحليلية والنقدية لكتاب «باغ وبهار» فأقول أولا إن التوفيق حالفنى فى اختيارى لهذا الكتاب موضوعا للدراسة لأنه كتاب منثور، ولم يحظ النثر حتى الآن من اهتمام الدارسين فى مصر بمثل ما حظى به الشعر الأردى من دراسات من خلال العديد من الرسائل الجامعية السابقة.

بدأت البحث بالتعرف على تاريخ الدولة المغولية فى قيامها وازدهارها وتدهورها، وتتبعت أثر ذلك فى الحياة الأدبية.

كما سعيت إلى التعرف على حياة «ميرأمّن» وهى حياة اكتنفها الغموض لشح المراجع التى تحدثت عنه وبخاصة فى مصر ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله. كذلك عرفت بكتابه الثانى «گنج خوبى» وبالنظر فيه تبين أنه أصعب أسلوبا من «باغ وبهار» كما أنه لا يتمتع بشهرته أيضا.

وقد عرفت بباغ وبهار وما تضمنه من قصص وموضوعات كما وضحت المنهج الذى اتبعه المؤلف فى القصص «لباغ وبهار»، وكذلك وضحت المغزى الفكرى والأهداف الأخلاقية والتربوية وراء تأليف «باغ وبهار» والتى رفعت من شأن الكتاب الذى استحق أن يدرس دراسة وافية.

وعند دراستى لمصادر هذا ا لكتاب تبينت أنه اعتمد على كتاب بعنوان «نوطرز مرصع» «لميرزا عطا حسين تحسين خان»، وبعد عقد الموازنة بين الكتابين ثبت لى أن «ميرأمّن» لم

يكن مقلدا تقليدا ببغاويا بل إنه أضاف كثيرا من بنات أفكاره، وأخرج الكتاب فى أسلوب خاص به، مما حدا بالنقاد إلى أن يشيدوا بحسن صنيعه.

كما درست أسلوب الكتاب دراسة واعية، وكان لابد من هذه الدراسة لأهميتها، ولشرح ذلك أقول إنه استبان لى بعد دراسة أسلوب هذا الكتاب أن أسلوبه من السهل الممتنع، وهذه النتيجة تؤيد حقيقة هامة فى الأدب الأردى، وهى أن كلية «فورت وليم» كان لها شعار خاص فى الأدب وهو عرض الأدب فى أسلوب سهل واضح رغبة منها فى التيسير على موظفيها من الإنجليز فى تعلم اللغة الأردية، وكتاب «ميرأمّن» هذا يعد مثالا هاما لهذا المنهج الذى دعت إليه هذه الكلية، فعنى الكتاب من بعده بالكتابة فى أسلوب سهل، وهجروا الأسلوب القديم المثقل بالبديع، والذى يستغلق على الفهم، وبذلك ظهرت مدرسة جديدة فى الأدب الأردى كان رائدها هو «ميرأمّن».

أما حين تحدثت عن منزلة هذا الكتاب، فقد تداعت الأفكار وتشعبت، فألممت بما تضمنه من حكم ومواعظ وعبر ومُثل وقيم، وكان هذا الكتاب لذلك موضع دراسة إلى اليوم فى المدارس الهندية والباكستانية، وذلك لأهمية ما تضمنه، ولوضوح معانيه وسلاسة أسلوبه، وهو بذلك يشبه كتاب «گلستان» لسعدى فى الفارسية، و«كليلة ودمنة» لابن المقفع فى العربية.

كما أن هذا الكتاب طوفت بنا قصصه فى قصور سلاطين المغول، فأظهرتنا على طرف من تواريخهم، كما أنها مضت بنا بين طبقات الشعب فأوقفتنا على أوضاعهم وأحوالهم، ولهذا جمع كل ما ينبغى معرفته خصوصا عن بلد هذا المؤلف وهى مدينة «دهلى».

ثم ترجمت هذا الكتاب «باغ وبهار» إلى اللغة العربية وقد ترجمته ترجمة حرفية مع حرصى على استقامة العبارة العربية على قدر طاقتى.

وبالله التوفيق

قائمة المراجع



المراجع

أولا المراجع العربية:

- آلان روب جرييه: نحو رواية جديدة، ترجمة: محمد إبراهيم مصطفى، دار المعارف، مصر.

- أحمد السعيد سليمان (دكتور): تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الجزء الثانى، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٢م.

- بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، القاهرة ١٩٩٣م.

- جمال الدين الشيال: تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية فى الهند، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٦٨م.

- جمال الدين محمد بن محمد بن نباته المصرى: سرح العيون، المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الرابعة، ١٢٧٨هـ.

- جمال سعيد (دكتور): الملحمة والرواية، كتاب الفكر.

- جوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٨م.

- حسن بحراوى: بنية الشكل الروائى، المركز الثقافى العربى، بيروت ط١، ١٩٩٠م.

- حميد الحميدانى: بنية النص السردى، المركز الثقافى العربى، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

- سهيل بخارى: القصة الأردية، دراسة تحقيقية ونقدية، إسلام آباد مارس، ١٩٨٧م.

- عبدالسلام ندوى: شعر الهند، جزء١، مطبع معارفى أعظم كرهـ، بدون تاريخ.

- عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.

- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، طـ٧، القاهرة، ١٩٧٨م.

- لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامى (الجزء الثالث)، ترجمة عجاج نويهض، تعليقات وحواشى: شكيب أرسلان، طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

- محمد عبدالمجيد العبد: الإسلام والدول الإسلامية فى الهند، القاهرة، ١٩٦٨م.

- محمد كامل الخطيب: الرواية والواقع، دار الحداثة، سلسلة النقد الأدبى.

- محيى الدين الألوائى: الأدب الهندى المعاصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

- ميشيل بوتور: بحوث فى الرواية الجديدة، ترجمة: أنطونيوس، بيروت، ١٩٨٢م.

- يمنى العيد: تقنيات السرد الروائى، طـ١، لبنان، دار الفارابى، ١٩٩٠م.

ثانيا: المراجع الأردية:

- أبو الليث صديقى: آج كا ارو ادب، كراچى، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- أحمد جعفرى: بهادر شاه ظفر اورانكا عهد، لاهور، شيخ غلام على، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.
- اس ايم اكرام، وحيد قريشى (د): دربار ملى. ت. عبدالحميد يزدانى، ط١، كراچى، ١٩٤٧م.

اس. ام. معين قريشى: اردو زبان وادب، كراچى، الطبعة الأولى، أبريل ١٩٨٦م.

أشرف صبوحى دهلوى: بزم آخر در شهر دهلى كـ دو أخير بادشاهون كا طريق معاشرات، طـ١، مجلس ترقى أدب، ١٩٦٥م.

- الطاف حسين حالى: مقدمة شعر وشاعرى، باهتمام: اسحاق على علوى، لكهنو، بدون تاريخ.
- أنوار هاشمى: تاريخ پاك وهند، كراچى بك سينتر ملير تاون شب، كراچى، ١٩٩٠م.

أنور سديد: اردو ادب كى تحريكين، كراچى، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- (ايس - ايم - اكرام - وحيد قريشى - د -): در بار ملى - قومى زندگى كى كـ انى، معاصرين كى زبانى، ترجمة وتعليق: خواجه عبدالحميد يزدانى، كراچى، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م.
- ايشوردى برشاد (د): نيو هسترى اف انديا ريو ايزد ايد شن (اردو)، اندين بريس، آله آباد، ١٩٤٥م.
- بير نير (د): شاهجهان أيام اسيرى اور عهد اور نجزيب تك، ترجمة: خليفة سيد محمد حسين، كراچى، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.
- تنوير أحمد علوى: ذوق سوانح اور انتقاد، لاهور، مجلس ترقى ادب، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.
- حامد حسن قادرى: داستان تاريخ اردو، لكشمى نرائى اكروال تاجر كتب، آجرا، ١٩٩٦م.

- حافظ محمود شيراني: مقالات حافظ محمود شيراني، الجزء الثالث، ترتيب : مظهر محمود شيراني، مجلس ترقي أدب، لاهور، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م.

- حميد أحمد خان (بروفيسور): مقدمة سفينه أدب (حصة نثر)، لاهور، أكتوبر، ١٩٦٦م.

- رام بابو سكينه: تاريخ أدب اردو، ت: ميرزا محمد عسكرى، كراتشي، باكستان، بدون تاريخ.

- زاهرا سعين: باغ وبهار كا تنقيدى مطالعه، ط١، لاهور، ١٩٨٦م.

- جميل نقوى: اردو نثر كا ارتقا بارهوين صدى عيسوى س فورت وليم كالج تك مختصر خاك، اردو أكاديمى، سندهـ - كراچى، نقش ثانى ١٩٨٦م.

- سليم اختر: باغ وبهار كاتنقيدى مطالعه، اشاعت اول. دهلى، ١٩٨٣م.

- سميع الله (د): فورت وليم كالج ايك مطالعه، نشاط آفست بريس تانده، فيض آباد، الطبعة الأولى، أبريل ١٩٨٩م.

- سهيل بخارى: اردو داستان تحقيقى وتنقيدى مطالعه، إسلام آباد، الطبعة الأولى. ١٩٨٧م.

- سيد أحمد دهلوى، فرهگنك آصفيه، أربعة مجلدات، لاهور، مكتبة سهيل، بدون تاريخ.

- سيد عبدالله (د): باغ وبهار كى زنده نثر، أشاعت أول دهلى، أبريل ١٩٨٣م.

- سيد قدرت نقوى: ميرأمّن كى معترضين ، ط١ ، دهلى، ١٩٨٣م.

- سيد محمد محمد: ارباب نثر اردو، اعتقاد ببلشنگك هاوس، نئ دهلى، ١٩٧٧م.

- سيد محمد مولوى: باغ وبهار ايك مطالعه، اعجاز ببلشنگك هاوس، نئ جهلى، أشاعت أول أبريل ١٩٨٣م.

- سير سيد أحمد خان: آثار الصنايد، دهلى، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

- سيفى آتش لكهنوى: همارى محاوره، لاهور، بدون تاريخ.

- صاحب زاده عبدالرسول: پاك وهندكى إسلامى تاريخ تا عهد حاضره، لاهور، بدون تاريخ.

- ضياء الدين باراني: تاريخ فيروز شاهی، كلكتا، ١٨٦٥م.

- عبادت بريلوی:

- غالب اور مطالعه غالب، الطبعة الأولى، لاهور، ١٩٦٩م.

- مؤمن اور مطالعه مؤمن، طبعة لاهور، اردو دنيا، ١٩٦١م.

- عبدالسلام خورشيد: تاريخ تحريك باكستان، الجزء الأول، اسلام آباد، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

- على عابد: أصول انتقاد ادبيات، مجلس ترقى أدب، لاهور، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

- غلام حسين ذو الفقار: اردو شاعرى كاسيا سى اور سما چى بس منظر، سلسلة نثريات شرقية، لاهور، جامعة پنجاب، ١٩٦٦م.

- فخر الإسلام اعظمى : سب رس س خطوط غالب تك، اشاعت أول ديسمبر ١٩٨٥م.

- قدرت الله شوق: تذكرة طبقات الشعرا، لاهور، الطبعة الأولى، مجلس ترقى ادب، ١٩٦٨م.

- قمر آستان: آداب سلطنت ورسوم معاشرت، غضنفر اكاديمى، باكستان، كراچى، الطبعة الثانية، دون تاريخ.

- قدوسى: إعجاز الحق، تاريخ سندهـ، الجزء الثانى، كراچى، الطبعة الأولى.

- كليم الدين: فن داستان گوئى، بتنه، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

- كَلبدن بيكَم: همايون نامه، ترجمة: رشيد اختر ندوى، لاهور، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

- كَيان جند (د) : اردو كى نثرى داستانين: انجمن ترقى اردو باكستان، كراجى، ١٩٦٩م.

- محمد ارشد كيانى: قصة نكَارى كا ارتقا، لاهور، بدون تاريخ.

- محمد اكرام: رود كوثر، لاهور، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

- محمد حسين آزاد: آب حيات، لاهور، الطبعة الثامنة، بدون تاريخ.

- محمد جميل أحمد: اردو شاعر برايک نظر، كراتشى، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

- محمد رفيق وآخرون (شيخ) : تاريخ باكستان وهند، لاهور، ١٩٨٧م.

- محمد عتيق صديقي: جلكَرست اوراسكا عهد، انجمن ترقى اردو «هند»، على كَر هـ، ١٩٦٠م.

- محمد مصطفى خان شيفته: كَلشن خار، ترتيب: كلب على خان فائق.

- محمد يحيى تنها: سير المصنفين، حصة أول، محبوب مطابع دهلى، ١٩٢٤م.

- محمود على ماهر خان: علم الحروف يا تحقيقات ماهر، حصة سوم، دهلى، ١٩٣٤م.

- ملا حسين واعظ كاشفى، أخلاق محسنى، لكهنو، ١٣١٣هـ.

- مولوى سيد محمد: باغ وبهار ايك مطالعه، دهلى، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- مولوى عبدالحق (د): قواعد اردو، الناظر برس، لكهنو، ١٩١٤م.

- قواعد اردو، أشاعت سولهوين، انجمن ترقى اردو، ١٩٩٤م.

- مير أمَّن دهلوى:

- باغ وبهار، مرتبه رشيد حسن خان، مكتبة جامعة لميتد نيو دلهى، ١٩٧٤م.

- باغ وبهار، مرتبه سليم اختر، ايجو كيشنل بك هاوس، على كَرهـ، ١٩٧٧م.

- باغ وبهار، مقدمة: ممتاز حسين.

- كَنج خوبى، مرتبه خواجه أحمد فاروقى، شعبه اردو دلهى يونيور ستى، ١٩٦٦م.

- مير محمد حسين عطا تحسين خان: نوطرز مرصع، مرتبه بروفيسور سيد نور الحسن هاشمى، آله آباد، ١٩٥٨م.

- نادم سيتابورى: فورت وليم كالج اور اكرام على، اداره فروع اردو لكهنو، ١٩٥٩م.

- نفيس جهان بيكَم: ميرأمَّن دهلوى حيات وتأليفات، دهلى، ١٩٨٦م.

- وحيد قريشى (د): باغ وبهار ايك تجزيه، نصرت ببلشرز- حيدرى ماركيت امين آباد، لكهنو.

- وقار عظيم: همارى داستانين، اردو مركز لاهور، طبع دوم، بدون تاريخ.

- جديد اردو ادب كا ايك ابتدائى نثر نكار، مطبوعة اسلامك كلجر، ١٩٣٩م.

- كاروان ادب: مجموعة مقالات، فيروز سنتر، لاهور، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

- كمبنى حكومت: مجموعة مؤلفين، نيا اداره، لاهور، الطبعة الرابعة، ١٩٦٩م.

ثالثا: المراجع الفارسية:

- ذبيح الله صفا (دكتر): تاريخ ادبيات ايران، تهران، ٢٥٣٦ شاهنشاهى.

- عباس اقبال آشتيانى: تاريخ مفصل ايران از صدر إسلام تا انقراض قاجاريه.

- على اكبر شهابى خراسانى: روابط ايران وهنديا تأثير روابط ايران وهند در ادبيات دوره صفويه، تهران، ١٣١٦هـ . ش.

- محمد دبير سياقى: دوره تاريخ ايران از آغاز تا انقارض قاجاريه،، تأليف: حسن بيرنيا، عباس اقبال آشتيانى، تهران، د.ت.

- نصر الله فلسفى: زندكانى شاه عباس أول، جلد أول، تهران، چاب أول، ١٣٣٤هـ .ش.

- سعدى الشيرازى : كلستان، تصحيح وحواشى عبدالعظيم جرجانى بانظريات جديد، طبع دوم كتابخانه ومطبعه علمى در سنة ١٣١٠ شمسى رمز (يه).

رابعا: رسائل الدكتوراه:

- ابتسام صالح الدين: مدرسة الشعر الأردى فى دهلى فى النصف الأول من القرن ١٩ الميلادى، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.

- أحمد عبدالقادر الشاذلى: طبقات أكبرى، رسالة دكتوراه تحت رقم ٤٣٤، كلية الآداب - جامعة القاهة، ١٩٨٥م.

- عبدالعزيز محمد مصطفى بقوش: أمير خسرو الدهلوى وقصته شيرين وخسرو، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٦٩م.

خامسا: المجلات والدوريات:

١ - باللغة العربية:

- مجلة ثقافة الهند، عدد يونيو ١٩٥٥م.

٢ ـ باللغة الفارسية:

ـ مجلة هنر ومردم، العدد ١٥٨، طهران، طبع وزراة الثقافة والنشر.

سادسا: دوائر المعارف والمعاجم:

أ ـ الأردية:

ـ اردو دائرة معارف إسلامية، زير اهتمام دانشگاه پنجاب، لاهور، جلد٦، طبع أول، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.

ب ـ العربية:

ـ حسين مجيب المصرى: المعجم الفارسى العربى الجامع، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٨٤م.

جـ ـ الفارسية:

ـ على أكبر دهخدا: لغت نامه، زير نظر: دكتر محمد معين ودكتر سيد جعفر شهيدى، ١٢٥٨ ـ ١٣٣٤ هـ. ش، چاپ أول از دوره جديد بهار ١٣٧٣هـ. ش. مؤسسة انتشارات وچاپ دانشگاه تهران.

سابعا: المراجع الأجنبية:

-- Ali, K. A New History Of Indo - Pakistan Since 1526. Lahore, 1985.

-- Boumeuf, R.,Quellot, R. "L'Univers Du Roman" Ed. Pub. 1981, P. 86.

-- Burn, R. Cambridge History Of India. Iv Vols, Cambridge, 1922 - 29.

-- Duff, Grant. History Of The Mahrattas, Vol. 1, 1952.

-- Duder, George. AHistory Of India From The Earliest Times To ThePresent Day. London 1936.

-- Elliot, H. M. The History Of India, As Told By its Own Historians.

Vol. VII, VIII Edited And Continued By John Dowson, M.R.A.S., London, 1877.

Elphinstone, H.M History Of India, The Hindu And Mohmeton Periods. Third Edition, London 1849.

Gibb, E.G.W. A History Of Ottoman Poetry. Vol II Edited By Edward G. Browne M.R., London, 1902.

-- Howorth, H. History Of The Mongols. 3 Vols. London, 1846.

-- Ishwari, P. A Short History Of Muslem Rule In India. Allahabad, 1933.

-- Lane -- Poole: Medievel India Under Mohmmeden Rule. London, 1917.

-- Moreland, W.H. And Chetterjee, A.C. A Short History Of India.

Second Edition, London, 1944.

-- Muir, E. The Structure Of The Novele. The Hogarth Press, London, 1949.

-- Pakistan History Board. A Short History Of Hind - Pakistan, First Edition, Karachi, 1955.

-- Panikkar, K.M. A Survey Of Indian History, Bombay, 1963.

-- Spear, P. Twilight Of The Mughuls, Studies In Late Mughul Delhi.

Cambridge, University Press, 1951.

-- Sarker, J.N. Fall Of The Mughol Empire. Second Edition, Rev.

Calcutta, M.C. Sarker, 1949 - 52.

-- Sharma, S.R. The Religious Policy Of The Mughol Emperors. Aria Publishing House, Second Edition, 1962.

-- Siddoequ, M.A. Origins Of Modern Hindustani Literature Scenrse Material Gil-christ. Aligarh, First Edition, 1963.

-- Smith, V. The Oxford History Of India From The Earliest Times To The End Of 1911. C.I.E Oxford 1920.

-- Taylor, A. Standard Dictionary Of Folklor, Mythology And Legend, Vol. II, Funk And Wagnalls Co. N.Y. 1950.

-- Volette, B. "Esthetique Du Roman Moderne" Paris, 1972, P. 93.

القسم الثانى: الترجمة



الق إلىّ سمعاً وليكن حكمك عدلا قال الراوى وهو يقص قصة الدراويش الأربعة:

كان هناك ملك عظيم له مُلك الروم يدعى «آزادبخت» كأنما هو فى العدل «أنوشيروان» وفى الجود والسخاء حاتم، وكانت مدينة «قسطنطينية» التى يسمونها «استانبول» هى حاضرة ملكه، أمّا رعيته فكانت فى رغد من العيش وخلو فى البال، فكل إنسان آمن فى نفسه نهاره نهار العيد وليله ليلة البراءة، وما اتسعت المملكة لشحاذ أو لص أو متسول أو محتال وما أوصدت قط ليلا أبواب الدور، أمّا الحوانيت فهى مفتوحة فى إتصال ودوام، وفى سوح الغابات وما أكثرها فى طريق المسافرين فيسعك أن تنام أو تسير دونما سؤال من أحد من أين وإلى أين؟ وقد انطوت تحت سلطان هذا الملك آلاف المدن ويؤدى إليه الخراج عديد من السلاطين ، ومع سعة هذا المُلك وعظمته إلا أن الملك لم يكن يغفل لحظة عن ذكر الله والتضرع إليه، فقد كان وافر الحظ من الطيبات وزهرة الدنيا إلا الولد الذين هم بهجة الحياة فقد خلت منهم روضة حياته، وكان يقضى جل وقته مفكراً فى هذا الأمر ، وعقب كل صلاة كان يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى قائلا:

«يا إلهى لقد منحت عبدك الضعيف من جودك وفضلك الكثير والكثير، لكن لابد لهذا البيت المظلم من قنديل ففى هذا راحة لقلبى لقد عدمت من يحمل اسمى ويروى ظمئى، وأنت سبحانك مالك لكل شيء فى خزائنك، فلتهبنى ولداً يخلد ذكرى ويحفظ ملكى».

وعلى هذا الأمل عاش الملك حتى بلغ من العمر أربعين عاماً، وذات يوم وبعد أن فرغ من صلاته وأخذ فى تدبير شئون ملكه، وقع بصره فجأة على مرآة أمامه ولمح شعرة بيضاء

فى فوده تتلآلآ كأنها خيط من لجين، وما أن رآها الملك حتى ترقرق الدمع فى مقلتيه وزفر زفرة حارة، وقال فى نفسه:

«واأسفاه على عمرك الذى ضاع هباءً منثورا فى مسعاك إلى الجاه والمال وحرصا عليهما، والآن ماذا أنت صانع بما تحصل لديك من أسباب المُلك؟ فلسوف تدع كل شىء فى النهاية ويأتيك رسول الأجل ملك الموت. وكلما مر يوم من العمر قل جهدى وضعف بدنى حتى ليتراءى لى أنه ليس مقدراً أن يولد لملكى وارث، وإننى فى النهاية سأموت وأدع كل شىء فالأجدر بى أن أتخلى عن تاجى وعرشى وأقضى البقية الباقية من حياتى فى ذكر خالقى سبحانه وتعالى».

وبعد أن جال هذا فى خاطره، خرج إلى الحديقة ورد تحية رفاقه.

ثم تحدث إليهم قائلا: «عليكم ألا تأتونى بعد اليوم، اذهبوا إلى الديوان العام وليقم كل منكم بأداء وظيفته. وبعد ذلك انتحى الملك ركنا من الأركان وانشغل بالذكر والعبادة، ولم يكن له شغل إلا البكاء وتصعيد الزفرات. ومضت الأيام بالملك على هذه الوتيرة، فما كان يطعم إلا ثلاث تمرات، ويحتسى من الماء القليل ويظل ليلا ونهارا فى محرابه حتى شاع هذا الأمر فى الرعية وعرفه الناس فى أرجاء المملكة وأدرك الناس أن الملك نفض يده من الملك وآثر عليه العزلة، وهب الطامعون يعيثون فى الأرض فسادا فى محاولة للاستيلاء على مقاليد الحكم فأعلنوا عصيانهم (وما دام هذا شأن الحاكم فلزام أن يختل نظام الحكم وتتزلزل أركانه) وبلغ خبر العصاة من كل صوب إلى البلاط فاجتمع أمراء البلاط ليتدبروا الأمر لتحقيق المصلحة.

وأخيرا رأى الأمراء ضرورة التوجه إلى الوزير العاقل الحكيم المقرب إلى الملك والموقر من قبله وصاحب المنزلة الرفيعة لدى جميع الحاشية، فتوجه إليه جمع من الأمراء والوزراء قائلين له: هذا هو حال الملك وهذه هى حالة الدولة، ولو تهاونا وتغافلنا عن هذه المحنة التى ألمت بمملكتنا لذهب الملك أدراج الرياح، فنحن الآن فى مشكلة خطيرة. وكان الوزير المحنك اسمه «خردمند» وهو اسم على مسمى وقد تكلم قائلاً: مع أن الملك كان قد منع مقابلته، لكن لنمض إليه جميعا وإن شاء الله سيسمح لنا الملك بمقابلته، قال ذلك وذهب ومعه الجميع إلى الديوان العام ثم تركتهم وتوجه إلى الديوان الخاص، وأرسل الحاجب ليستأذن الملك ويقول

له: هذا الشيخ الخاضع الماثل أمامك الآن، لم تكتحل عيناه منذ عدة أيام بجمال الدنيا، وإننى آمل أن يطمئن خاطرى بعد أن أتزود بنظرة إلى جلالتكم وأقبل أقدامكم الشريفة».

فأبلغ الحاجب هذا القول إلى الملك، ونظرا لمكانة الوزير لدى الملك وعلمه بإخلاصه وحنكته وشهامته، قال الملك بعد تريث: «ادعو خردمند للدخول فأقبل الوزير وقدم التحيات والتعظيمات وقبل الأرض بين قدمى الملك، ثم رفع رأسه ونظر إلى الملك، فوجده فى أعجب هيئة وقد تورمت عيناه من كثرة البكاء وشحب وجهه وامتقع لونه.

فساء «خردمند» ما صار إليه حال الملك فخر على قدميه، وعندئذ رفع الملك رأسه بيديه وأمره قائلاً: انظر إلى وقر عينا والآن دعنى وشأنى ولا ترهقنى أكثر من ذلك وعليك بإدارة شئون السلطنة».

وما إن سمع «خردمند» قوله حتى بكى بكاءً مراً وسالت دموعه حتى اخضلت لحيته وقال للملك: جعل الله عبدك وخادمك فداء لسلامة جلالتكم وخلد الله ملكك، لكن اعتزالك يا ملجأ وملاذ العالم على هذا النحو تضيع به السلطنة سُدى وتذهب أدراج الرياح، وستكون العاقبة وخيمة فى النهاية، ترى أى هاجس قد مر على خاطركم المبارك يا جلالة الملك؟ إن كان هذا الهاجس هو حرمان هذا البيت من وارث فمن الأفضل أن تطلعنى على سرك حتى أعرض عليك ما يرد على فكرى القاصر، لقد منحنا الرفعة من أجل اليوم الذى نيسر فيه الراحة والسعادة لملكنا، فإذا وقع ملكنا فى الحيرة بسبب شئون الحكم لا قدر الله فمتى إذا سنفيد ملكنا؟»

قال الملك: « الحق ما تقول أيها الوزير إن ما يختلج فى قلبى ويعتمل فى عقلى قد خرج عن نطاق تصرفى - اسمع يا خردمند لقد استنفد حكم هذه السلطنة كل عمرى، وما يؤلمنى ويقض مضجعى أن السنين قد مرت والآن لم يبق سوى الموت، وقد وصلتنى رسالته متمثلة فى شعرة بيضاء تخللت شعرى الأسود، إنها بمثابة من يقول لى: (لقد نمت الليل بطوله والآن جاء الصبح أفلا تستيقظ؟) وإلى الآن لم أرزق بالولد الذى تقر به عينى، ولهذا أخذ منى الحزن كل مأخذ وتمكن من قلبى، ولهذا زهدت فى كل شىء وما أريده هو أن أبتعد وأنصرف عن المال والجاه وأدع كل شىء وأخرج إلى الغابات والجبال فلا يرانى أحد قط، وهكذا أقضى أيام الحياة المعدودة، وإذا ما طاب لى مكان أقمت به، وانشغلت بالعبادة، ربما

يكون ذلك خيراً في النهاية، فأنا لم أجد للدنيا متعة ولا لذة، وبعد أن قال الملك هذه العبارة زفر زفرة حارة وطأطأ رأسه.

وحينما كان هذا الملك أميرا كان الوزير «خردمند» وزيراً لوالده، وكان أبوه يكن له محبة عظيمة لعلمه وحسن تدبيره فأخذ يحدثه قائلا: لا يليق بجلالتك أن تيأس من روح الله سبحانه وتعالى، فإن الذي أخضع لسلطانك ثمانية عشر ألف ملك كيف يشق عليه أن يهبك الولد؟ فيا قبلة العالم رد هذا الوهم عن قلبك، فلست من يترك العالم في صراع مستمر، وقد أقيمت هذه السلطنة بجهد واجتهاد جلالتكم العظيم، ولو أفلت زمام هذه البلاد من يد جلالتك ولو للحظة وخربت نتيجة للجهل والحمق، فستفنى وتنهار تماما لا قدر الله، علاوة على ذلك ففي يوم القيامة عندما يسألك ربك ويقول لك: لقد وليتك على هذا الملك وحملتك مسئولية الرعية فيئست من رحمتنا وجعلت الرعية في حيرة واضطراب «فبماذا ستجيب على هذا السؤال؟ عندئذ لن تجديك العبادة في ذلك اليوم المهيب شيئاً، ولهذا فقلب الإنسان هو بيت عبادة الله، وسيسأل الملك عن عدله فقط. فلتغفر لغلامك تجاوزه، فإن الخروج من البيت والسياحة في الغابات من شأن النساك والزهاد، وليس من شيم الملوك، فلا يليق بسموك السياحة في الغابات والجبال وقصر حياتك على ذكر الله والزهد في الدنيا، ولتنصت لهذا البيت:

من بحث في الغابة عم عند ربه

كمن بحث في المدينة عن ابنه وهو في حضنه!!

فإن تقبل عرض من يبغى انصافك وفداءك فمن الأفضل أن يتوجه ملاذ العالم في كل لحظة إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء فسبحانه وتعالى لا يقف ببابه محروم، ولتقم بمهامك الملكية بالنهار ولتحكم بين الرعية والغرباء بالعدل والإنصاف فتنعم رعيتك بالأمن ويظلها الله سبحانه وتعالى بظله، ولتشتغل بالعبادة ليلا فتكثر من الصلاة على النبي ﷺ والتوسل به ولتتصدق على المحتاجين والنساك والعباد، ولتجر راتبا على اليتامى وذوى العيال وعائلى الأرامل والمساكين، فبهذه الأعمال الطيبة وببركة النوايا الحسنة، يكون الأمل معقودا في رحمة الله بأن يبلغك مقصود قلبك وكل أمانيك وأن يمحو عن مزاجك الشريف كل ما علق به من كدر وهم، وأن يضع الخالق بعنايته سعادة ورضاء خاطركم الشريف موضع العناية والاعتبار وأن يفعل ما يرضيكم في العاجل إن شاء الله.

وهكذا أخذ الوزير «خردمند» يواسي الملك ويشد من أزره بهذا القول، فقال الملك (آزادبخت): من الأفضل أن نؤدى ما اقترحته أولا وعندئذ فليقض الله أمرا كان مفعولاً.

وعندما اطمأن قلب الملك لحديث الوزير توجه إليه بالسؤال: وما حال أمراء الدولة ورجال الديوان وكيف تتقلب بهم الأمور؟، فأجابه الوزير قائلا: كل أركان الدولة تلهج بالدعاء لقبلة العالم وتفتديه بالمال والروح، وهم فى غاية الاضطراب والقلق عليكم، فلتتفضل عليهم بالنظر إلى حسنكم المبارك ليطمئن خاطر الجميع، فهم الآن فى الانتظار فى الديوان العام.

فلما سمع الملك ذلك قال: «بمشيئة الله تعالى سأعقد الديوان غدا، فلتأمر الجميع بالحضور».

ولما سمع «خردمند» هذا الوعد سر سرورا لا مزيد عليه ورفع يديه بالدعاء قائلا: أدام الله ملك جلالتكم مادامت السماء والأرض، «ثم استأذن فى الانصراف وخرج سعيداً، وحمل هذه البشرى للأمراء فانصرف كل منهم إلى منزله فرحًا سعيداً»، وعمت الفرحة العارمة أنحاء المملكة، وعلم الرعية أن الملك سيعقد الديوان غداً، وفى الصباح وقف الجميع أمراء ووزراء وأركان دولة الصغير والكبير كل حسب منزلته، ليمثلوا بين يدى الملك، وظلوا فى انتظار مقدمه.

وعندما أصبح الصبح، رفعت الأستار وخرج الملك وتربع على عرشه المبارك، دقت الطبول فى كل جنبات القصر، وفى البداية قدم الحضور الهدايا والنذور والتحيات بين يدى الملك، فرد الملك تحية كل منهم وفقًا لمنزلته، ومكانته منه فسر الجميع وطاب خاطرهم. وعندما انتصف النهار نهض الملك ودخل إلى قصره وأمر بالطعام وبعد أن تناوله أخلد إلى الراحة والنوم، ومنذئذ قرر الملك أن يعقد الديوان صباحًا، ثم يقرأ الكتاب (القرآن) ويتلو الأوراد والتسابيح بقية اليوم، ويقف بين يدى الله سبحانه وتعالى يستغفره ويتوب إليه ويتوجه إليه بمطالبه وأمانيه.

وذات يوم قرأ الملك فى أحد الكتب، أنه إن كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن ولم يجد منهما مخرجا، فعليه أن يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى ثم يتوجه إلى المقابر ويصلى ويسلم على رسوله ﷺ، وأن يتيقن فى نفسه هوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا

ويبكى متعظا معتبرا ويتدبر قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذى خلق كثيرا من قبله من ذوى المال والجاه، وبعد أن دار الزمان بهم صاروا ترابا طبقا لذلك القول:

إذا نظر (دياكبيرا)(١) إلى الطاحونة

بكى قائلا: هكذا يسحق من يقع بين شقى الرحا

والآن من ينظر إلى سكان تلك المقابر لا يجد لهم من أثر سوى حفنة من تراب، وقد خلفوا وراءهم فى الدنيا ثرواتهم وآلهم وذويهم ومعارفهم وخدمهم وحشمهم وخيولهم وأفيالهم ولم تجدهم هذه الأشياء نفعا، بل إنهم أصبحوا مجهولين لا ذكر لهم ولا تعرف أحوالهم، وهل أكلتهم الأرضة والنمل والثعبان؟ وماذا مر بهم؟ وما آل إليه حالهم؟ وعندما يفكر الشخص فى هذه الأمور فى نفسه يدرك أن الدنيا كالفراشة، فيتفتح قلبه دائما كالبرعم ولا يحزن من أى شىء ولا على أى شىء، وعندما اطلع الملك على تلك النصيحة فى الكتاب، تذكر قول وزيره «خردمند» وأدرك تطابق النصيحة مع قول الوزير، ولكنه فكر أنه ليس من المناسب أن يركب ويسافر فى هيئة الملوك، بل من الأفضل أن يذهب للمقابر متخفيًا ليلاً بعد أن يبدل ملابسه ويتنكر أو أن يلتحق بخدمة أحد الزهاد أو النساك أو يسهر طوال الليل، فربما يتحقق له عن طريق هؤلاء الموتى المراد فى الدنيا والنجاه فى الآخرة.

وبعد أن قرر الملك ذلك، ارتدى رداء عاديا ذات ليلة وأخذ معه بعض المال وخرج متخفيا من القلعة واتخذ طريقه إلى الخلاء ووصل إلى المقابر وكان يصلى على النبى ﷺ سليم النية صافى القلب، وأثناء سيره هبت عاصفة شديدة وعصفت ريح عاتية، وفجأة نظر الملك فأبصر على البعد نارا تتلألأ مثل كواكب الصبح، فحدث نفسه قائلا: إن هذا الضوء فى تلك الظلمة والريح الشديدة لا يخلو من حكمه، فهذا مصباح لو أشعل لا يستطيع شىء أن يطفئه، ولا تقدر أى ريح عليه، وأيا كان هذا الضوء وأيا كان هذا المصباح الذى ينبعث منه، فلابد أن أذهب إلى حيث يوجد وأعرف حقيقته، فربما أضيىء قنديل بيتى من نور هذا المصباح فأجد مراد قلبى.

وبهذا القصد توجه الملك إلى حيث ينبعث الضوء فلما اقترب منه، وجد أربعة من النساك المساكين وقد ارتدوا خرقا بالية كالأكفان، يجلسون واضعين رءوسهم بين أرجلهم وكانوا

صامتين كأنهم فى عالم اللا وعى، وهم فى حالهم هذا كمن سافر مفلسا معدما مخلفا وراءه وطنه وعشيرته متحيرا مشغولا متألما لفراقهم، وقد تجمدوا فى أماكنهم وكأنهم نقش على جدار وبجوارهم سراج خافت الضوء موضوع على حجر لا يطفئه الهواء قط وكأن السماء هى فانوسه الذى لا خطر منه.

ولما رأى الملك «آزادبخت» هذا المشهد قال لنفسه: من المؤكد أن أمنيتك سوف تتحقق ببركة هؤلاء الزهاد وستينع شجرة أملك الذابلة بهم، فلتمض إلى خدمتهم وتقص عليهم خبرك، وتشاركهم مجلسهم، فربما يدعون الله رحمة بك ويتقبل الله دعاءهم، وأراد أن يتقدم إلى حيث يجلسون لكنه تريث لحظة وقال لنفسه: «أيها الأحمق لا تتسرع ولتتمهل قليلا فأنت لا تعلم من يكون هؤلاء؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ وأنى لك أن تعرف إن كانوا شياطيناً أو وحوشا صحراوية وقد تمثلوا فى صورة الإنسان وجلسوا على هذا النحو وتلك الحال، فليس من الأفضل الإسراع والتدخل فيما بينهم، بل الأحسن أن تنتحى جانباً وتختبئ لتعرف حقيقة هؤلاء الدراويش، وفى النهاية جلس الملك مختبئاً فى أحد الأركان صامتا لا يشعر به أحد، وأخذ ينظر إلى هؤلاء الدراويش ويستمع إلى حديثهم، وفجأة عطس أحدهم وحمد الله، فاضطرب الآخرون لانبعاث هذا الصوت، فرفعوا فتيل المصباح ليضيء أكثر وتوجهوا إلى فراشهم وشرعوا فى تدخين النارجيلة، وقال أحد هؤلاء الأحرار: أيها الأحباء والرفاق فى كل مكان، لقد همنا على وجوهنا فى كل مكان فترة من الزمن ولكن بحمد الله سبحانه وتعالى وبعونه التقينا سوياً اليوم فى هذا المكان، ولا نعلم ماذا سيكون المصير غدا؟ هل سنبقى معاً أم نفترق ؟ والليل طويل كالجبل وليس من المستحب أن نخلد إلى النوم الآن، والأفضل أن يقص كل منا ما مر به فى حياته شريطة ألا يكذب قط، وبهذا الحديث نقطع الليل، وعندما ينقضى معظمه، نخلد إلى النوم.

فقال الجميع: أيها المرشد لقد قبلنا كل ما اقترحته على الرأس والعين، لكن لتبدأ أنت أولاً وتحكى لنا حكايتك حتى نفيد منها»:

رحلة الدرويش الأول

اتكأ الدرويش الأول على ركبتيه،وشرع فى سرد قصته قائلا: يا عباد الله، لتلتفتوا إلى، ولتستمعوا إلى كل ما مر بى:

استـمـعـوا إلى سيـرتى بأذن مـصـغـيـة
استـمـعـوا فـقـد تبـدلت أحـوال الزمـان بى
وإن كل مـا مـر بى من الشـدائد والصـعـاب
سـوف أبينه لكم فـاسـتـمـعـوا إليـه

أيها الأصدقاء، كان مولدى فى بلاد اليمن وهى بلاد الصالحين وكان والدى «خواجه أحمد» تاجراكبيراً وملكا للتجار، ولا يدانيه أى ثرى ولا يفوقه أى ملك فى ذلك الوقت، فقد كان يملك كثيرا من القصور وله وكلاء مندوبون للبيع والشراء وكان فى بيته الآلاف من الروبيات والسلع والبضائع، رزقه الله باثنين من الأولاد، الأول هو أنا الفقير إلى الله الحاضر فى خدمة المرشدين فى لباس رث متواضع ويتحدث إليكم الآن، وأختى التى زوجها والدى فى حياته تاجرا وكانت تعيش فى بيت زوجها، والخلاصة كنت وحيدا فريدا فى هذا البيت الثرى فتصوروا مدى حب الوالد لى، فلقد نشأت وترعرعت فى ظل والدى فى كل نعمة وهناء، وبدأت أتعلم فنون الحرب والقتال وفن حساب التجارة والدفاتر وكذلك قضيت أربع عشرة سنة من عمرى فى لامبالاة، ولم يخطر ببالى أن ينزل بى أى شدة فى الدنيا، لكن فجأة توفى أبى وأمى كلاهما فى عام واحد بقضاء الله وقدره.

بعدها أصبت بحزن شديد أعجز عن بيانه، فبغتة أصبحت يتيماً وما بقى لى أحد من الكبار يعيننى، وكنت أبكى دائماً على هذه المصيبة التى حلت بى فجأة، فصمت عن الطعام والشراب، وانقضى أربعون يومًا واجتمع فى الأربعين الأقرباء والمعارف وغيرهم، وبعد الفراغ من قراءة الفاتحة، عينونى خليفة لأبى وأوصونى قائلين: «لن يبقى أى أب أو أى أم فى الدنيا إلى الأبد فكل نفس ذائقة الموت ونحن أيضا سنموت يومًا، فاصبر وتول أنت مسئولية البيت فقد أخذت مكان أبيك، فلتلتفت إلى تجارتك ومعاملاتك».

وبعد العزاء رجع كل منهم إلى بيته، ثم حضر الوكلاء والعملاء والخدم، وسلموا علىّ وقالوا: الق نظرة مباركة على الأموال والبضائع، وحينما رأيت فجأة هذه الأموال الطائلة

جحظت عيناى دهشة، أمرت بإعداد غرفة الاستقبال، فزين الخدم البيت بالأثاث الأنيق والمتاع الفاخر والستائر الجميلة وغيرها، وعينت لنفسى أفضل الخدم، وارتديت لباساً فاخراً وجلست على الأريكة مستنداً إلى الوسادة، وصاحبنى وقتها رجال كذابون طماعون متملقون وكنت أصاحبهم ليل نهار، وكانوا يتحدثون عبثا ولغوا ويقولون: أنت شاب، اطلب الخمر والورد وجالس الحسان وشاركهن الخمر.

الخلاصة أن شيطان الإنسان إنسان، فضللت الطريق القويم وتبدل الزمن، وبدأت ممارسة الغناء والرقص فى كل وقت ونسيت التجارة واشتغلت بالميسر والمقامرة، فلما رأى الرفاق والخدم أننى غافل تماما عن ثروتى وتجارتى، بدأوا يأخذون منها ويسرقونها وأنا لا أدرى شيئًا عن النفقات والمصاريف، من أين تأتى ولا إلى أين تذهب؟ فالمال بلا حساب والقلب قاس، وفى تلك الحال حتى لو أننى كنت أملك خزائن قارون فإنها لن تبقى، وفجأة أصبحت فقيراً لم يبق لى من اللباس سوى مايستر بدنى، وتنكر لى كل الناس حتى أصدقائى وندمائى، بل إننى كنت إذا التقيت بهم فى الطريق أشاحوا بوجوههم عنى، وتركنى الحرس والخدم ولم يبق لى من يسأل عن أحوالى إلا الهم والحزن، ولم يبق لدى شىء من الحمص لكى أقتات به كما لم يعد عندى ما أشربه، وقضيت يومين بدون طعام، لكننى لم أقدر على الجوع أكثر من ذلك، فأردت أن أذهب إلى أختى لكن الندم كان يساورنى لأننى لم أصنع معها أى معروف منذ وفاة أبى ولم أرسل لها أى رسالة، بل إنها أرسلت لى عدة رسائل للمواساة ولتعزينى فى وفاة أبى لكننى لم أرد عليها لذا كنت مترددا ولا أريد الذهاب إليها، لكن لم تكن لى حيلة ولم يكن لى ملجأ سواها، وفى النهاية عقدت العزم وذهبت إليها راجلا بعد مشقة طويلة، فنظرت أختى إلىّ وبكت بكاءً حارا على ما آل إليه حالى، وتصدقت بمالها على الفقراء من أجلى وقالت لى: إننى مسرورة جداً بلقائك لكن بالرغم من ذلك فأنا مندهشة لما أنت فيه من سوء الحال واعتلال البدن فكيف حدث هذا؟ فلم أستطع أن أجيبها وفاضت عيناى بالدمع، فأمرت بحياكة لباس جديد لى، فاغتسلت ولبسته وخصصت لى سكناً فاخراً عندهم لأقيم فيه، وكانت تعد لى الإفطار كل يوم من الحلوى والعصائر، والغذاء والعشاء من الأرز مع اللحم والكباب والفواكه وغيرها ولا تتركنى إلا بعد الفراغ من الطعام، وكانت تقوم على راحتى وتستضيفنى بأحسن ما تكون الضيافة، فشكرت الله عز وجل آلاف

المرات لأننى وجدت هذه الراحة بعد مشقة طويلة، وقضيت عند أختى بضعة أشهر ماكثًا ومستريحاً فى البيت.

وذات يوم بدأت أختى - التى هى بمثابة الأم لى والتى تقوم على راحتى - تحدثنى قائلة: يا عزيزى أنت أخى ونور عينى، وتذكار لوالدى ووالدتى، ولقد طابت نفسى بقدومك، فحينما أراك أصبح كالحديقة وأنت لى البرعم ، لكن الله تعالى قد خلق الرجال للكسب والكد والعرق، والراحة بالبيت ليست من شيم الرجال، والرجل الذى يلزم البيت يطعن الناس فيه خاصة وأن كل من بالمدينة صغيراً وكبيراً يقول بعد أن يراك هنا بدون سبب: إنه أهدر ثروة أبيه ويعيش عالة على زوج أخته، وهذا الأمر يخدش كرامتى وكبريائى وكذلك أنت، ولنا فى هذا القول ذلة ومهانة، ولوالدينا فضيحة وسوء سمعة وأنا لا أستطيع أن أخفيك عن عيون الناس، فأرجوك أن تسافر، وستتبدل تلك الأحوال إن شاء الله وتتحسن وسيعقبها الفرح والسرور. وبعد أن استمعت إلى قولها اشتعلت غيرتى واستحسنت هذه النصيحة منها وقلت: يا أختاه أنت بمثابة الأم لى، مرى بما تشائين وسأمتثل إن شاء الله وبعد موافقتى على هذا الأمر ذهبت أختى ثم عادت مع الجوارى بالأموال وقالت: «ستخرج قافلة التجار إلى دمشق، فلتشتر بهذه الأموال سلعاً واعطها لتاجر أمين واستكتبه صكاً موثقاً، واستعد أنت أيضا للسفر إلى دمشق، وبعد أن تصل إليها سالما إن شاء الله، أحص مالك وأرباحه واعرفه جيدا، وإلا فلتقم أنت بالبيع بنفسك».

فذهبت إلى السوق واشتريت البضائع وسلمتها إلى تاجر كبير واطمأننت بكتابة الوثيقة وقراءتها، وسافر التاجر بالسفينة بحراً، وأردت أنا أن أسلك طريق البر، وعندما هممت أن أودع أختى منحتنى ثوباً وفرسًا جميلا، وعلقت بسرج الفرس وعاءً مملوءً بالمأكولات والحلوى وقربة للماء، وعقدت روبية الإمام الضامن فى عضدى، ووضعت علامة الماست على رأسى وقالت حابسة دموعها: عش محموداً، أستودعك الله سبحانه وتعالى، ارجع كما ذهبت.

فقرأت فاتحة الكتاب وقلت: فليحفظك الله لقد قبلت نصيحتك، ثم امتطيت الجواد وتوكلت على الله وقطعت المنزلين فى منزل، والمسافة فى نصف الوقت حتى بلغت مشارف دمشق.

وحينما وصلت إلى باب المدينة، كان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل، وقد أغلق الحرس

البوابة، وتوسلت إليهم كثيراً كى أدخل وقلت: أنا مسافر، وجئت من بلاد بعيدة مسرعًا، فافتحوا كى أدخل وأنال قسطا من الراحة فأجابونى بغلظة قائلين: « لا يسمح لنا أن نفتح البوابة فى تلك الساعة من الليل فلماذا جئت الآن؟ »فلما سمعت ردهم الصريح ترجلت عن فرسى وفرشت سرجى بالقرب من سور المدينة وجلست عليه، ثم بدأت فى المشى لأسهر، ولما انتصف الليل هدأ كل شيء، فإذا بى أرى صندوقًا يتدلى من جدار الحصن، فعقدت الدهشة لسانى وتساءلت فى نفسى وقلت ما هذا؟ ربما أرسل الله سبحانه وتعالى خزينة الغيب (طاقة القدر) لطفا بأحوالى، وتوجهت حيث الصندوق خائفاً وبعد أن استقر على الأرض، وجدته صندوقًا خشبيا ففتحه بحرص، ووجدت به حسناء بارعة الحسن تخلب الألباب، وكانت جريحة ملطخة بالدماء تتأوه من شدة الألم ، مغلقة العينين تتحرك شفتاها وتتمتم ببعض الكلمات وتقول: «أيها الشقى، ناقض العهد، أيها الظالم، هل هكذا يكون جزاء الخير والحب؟ فلتضرب كما تشاء، لقد فوضت الأمر إلى الله، هو الذى يعدل بينى وبينك وسحبت خمارها على وجهها وهى غائبة عن وعيها فى ذهول ولم تلتفت إلىّ.

ولما رأيت حالتها وسمعت منها ما سمعت تساءلت فى نفسى: أى وضيع ظالم طعن تلك الحسناء الفاتنة؟ وماذا دار فى خاطره؟ وكيف امتدت يده إليها؟ فمحبته باقية فى قلبها حتى الآن، فهى لا تفتأ أن تذكره ذلك الذى بطش بها، وبينما كنت أحدث نفسى سمعت تلك الحسناء صوتى وفجأة رفعت نقابها عن وجهها وفى تلك اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليها، كدت أفقد وعيى واختلج صدرى وارتعد قلبى، وتمالكت نفسى بكل صعوبة ، وتجرأت وسألتها: «أصدقينى القول من أنت؟وماذا حدث لك؟ فلو حكيت لى فسوف تريحين قلبى».

وبعد أن سمعت سؤالى أجابت على مهل على الرغم من عدم قدرتها على الكلام قائلة: «الحمد لله أن حالى هذا من آثر الجرح فماذا أقول؟ إن الإنسان ضيف على الحياة، وحين همت روحى بالخروج أرسل الله إلىّ رجلا رحيماً، فقد أخفى تعس الحظ الصندوق وألقاه فى مكان، ولكن ببركة الدعاء نجوت أنا ونلت أنت الثواب» وصمتت بعد أن قالت ذلك.

وطوال الليل لم يكن بيدى ما أستطيع أن أفعله، فرفعت ذلك الصندوق وأحضرته عندى وظللت أعد الساعات المتبقية على انقضاء الليل وانبلاج الصبح كى أدخل المدينة وأحاول قدر استطاعتى علاجها، وكانت الساعات المتبقية من الليل كأنها جبل فوق قلبى وصدرى، وعندما بزغ الفجر بفضل الله وصاح الديك وبدأت أصوات الناس فى الانبعاث صليت صلاة

الفجر ووضعت الصندوق في جوال، وبمجرد أن فتحت أبواب المدينة دخلتها على الفور، ورحت أسأل كل من ألقاه من الناس أو أصحاب الحوانيت عن مكان أستأجره، وبعد بحث وتنقيب استأجرت مكاناً جديداً فسيحاً وأول ما فعلته أنني أخرجت تلك الحسناء من الصندوق واخترت لها مكانا مناسبا وأرحتها به، وتركتها مع رجل وقور، وخرجت للبحث عن طبيب (جراح) وسألت أهل المدينة عنه وأين يقيم؟ فقال لى أحدهم: هناك طبيب ماهر وحكيم فى فنه وفريد فى براعته لو قصده شخص فإنه بفضل الله وبحكمته يدرك بغيته، وهو يقيم فى هذا الحى واسمه عيسى.

وبعد أن سمعت هذه البشرى ذهبت على الفور وأخذت أبحث عن العنوان حتى وصلت إلى الباب، فرأيت رجلا ذا لحية بيضاء يجلس فى رواق البيت، وبجواره بعض الرجال يعدون المراهم ويمزجونها، فحييت الرجل وسلمت عليه بتوقير وقلت: لقد جئتك بعد أن سمعت عن شهرتك وبراعتك، والذى حدث هو أننى خرجت من بلدى للتجارة، وأخذت زوجتى معى لمحبتى لها، وعندما اقتربنا من هذه المدينة كان المساء قد حل بنا، ورأينا أنه من الأفضل ألا ندخلها ليلاً، فجلسنا تحت شجرة بالميدان فهاجمنا اللصوص واستولوا على الأموال والأمتعة وطعنوا زوجتى ولم يكن بيدى ما أستطيع فعله فقطعت ما بقى من الليل على أحر من الجمر. وعندما أشرق الصبح دخلت المدينة واستأجرت بيتاً وتركتها به وجئت إليك من بعيد، ولقد وهبك الله الكمال والبراعة فلتتكرم على الغريب المسافر، ولتأت معى وتشرف بيتى وتراها، وإن كتبت لها النجاة فسيكون معروفاً كبيراً منك وسأكون مطيعاً لك طوال حياتى، وكان عيسى الجراح عارفا بالله رحيم القلب، فجاء معى بعدما أدرك مدى خوفى وجزعى من حديثى معه، وبعد أن نظر إلى جروحها طمأننى قائلا: بفضل الله ستشفى تلك السيدة من جراحها خلال أربعين يوماً.

الخلاصة أن هذا الرجل غسل كل الجروح بماء «نيم» وطهرها وخاط الجرح خياطة متقنة، وما بقى من الجرح فقد أخرج حقا من جيبه ودهنه ثم ربطه وقال برفق شديد: سوف أحضر مرتين يوميا كى أعتنى بها وأرعاها، والحركة ممنوعة حتى يشفى الجرح، ولتصبوا فى فمها حساء الدجاج عوضاً عن الطعام ولتسقوها شراب ماء الورد بريح المسك حتى تسترد عافيتها، قال ذلك واستأذن فى الانصراف فشكرته شكراً جزيلا وشددت على يده قائلا: لقد أحييتنى بفضل براعتك وسعيك لشفائها، ولم ينقذنى من الموت سواك غنمك الله السلامة ومنحته

نبات «البان» وأذنت له بالانصراف وودعته وكنت أقوم على خدمة تلك الحسناء ليل نهار، وحرمت الراحة على نفسي، وتضرعت لله سبحانه وتعالى أن تسترد عافيتها يوما بعد يوم.

وبالصدفة حضر ذلك التاجر واعطانى مالى الذى كان أمانة لديه، وبدأت فى إنفاقه على علاجها ودوائها، ودوام الطبيب على الحضور، وخلال فترة وجيزة التأمت واندملت كل الجروح، وبعد عدة أيام اغتسلت الحسناء غسل الشفاء، وانتابتنى فرحة عارمة وكافأت عيسى الجراح بالخلع أو الأموال وأجلست فاتنتى على أريكة نفيسة، وتصدقت كثيراً على الفقراء والمساكين ، وكنت فى ذلك اليوم كمن ملك فى يده ملك الأقاليم السبعة، وبعد أن شفيت تبدل لونها وأصبحت تتلألأ كالشمس وتلمع كالذهب الخالص ولا يستطيع أحد أن يطيل النظر إلى حسنها البارع، والفقير قائم على خدمتها بإخلاص، وكنت أمتثل لكل ما تأمرنى به، أما هى فقد كانت تتيه بحسنها وفتنتها، ومالها من رفعة شأن وعزة وشرف، وذات مرة توجهت إلىّ بنظرها وقالت: انتبه إن كنت ترغب فى أن تكون إلى جوارى، فلا تعترض على أمر أمرك به قط ولتقم بأداء كل ما آمرك به بلا اعتراض ولا تتدخل فى شئونى على الإطلاق، ولا تسألنى وإلا فستندم».

ومن هذا المنطلق كان يبدو أنها تبغى أن أعمل خادمًا لديها، أما أنا فكنت لا أفعل ما يغضبها وأنصاع لرغباتها وألتزم بكل أوامرها.

ومرت فترة على تلك الحال، كنت أقوم فيها بكل ما تأمرنى به على أكمل وجه، وأنفقت كل ما أمتلكه من مال ومتاع عن آخره وكم عانيت فى تدبير أمور المعيشة اليومية، ولم أجد من يقرضنى فى هذا البلد الغريب، فاضطربت أحوالى كثيراً، ونال الضعف والوهن منى يوماً بعد يوم، وامتقع وجهى، ولكن لمن أشكو ضيق حالى، فما مر على القلب قد مر ، «وظلم الفقير على الفقير»(٢) ، وأدركت الحسناء ما أنا فيه من ضيق فقالت لى: «يا هذا!! إن ما قمت به من أجلى وفى خدمتى محفور فى قلبى كالنقش على الحجر، لكن ليس فى مقدورى أن أكافئك عليه فى التو والحال، فإن كنت لا تملك ما تنفقه على مايلزم من الضروريات، فلا بأس عليك ولتحضر لى دواة وقرطاساً، ففكرت فى تلك اللحظة أن من تتحدث بهذه الطريقة هى بنت ملك من الملوك ، وأحضرت ما طلبت فوراً، فكتبت تلك الفاتنة خطاباً ممهوراً بإمضائها الخاص وأعطته لى قائلة : «اذهب إلى القلعة فستجد هناك مكاناً متسعاً فسيحاً، اسم مالكه «شيدى بهار» أعطه هذه الورقة».

فوصلت إلى حيث وصفت لى، وأرسلت الخطاب مع الحارس فخرج على الفور شاب حبشى جميل ذو عمامة وإن كان لونه مائلاً للسمرة لكنه حسن الطلعة، فأخذ الخطاب منى ورجع فورا دون أن ينبس ببنت شفة، وبعد برهة جاء بصناديق مختومة يحملها الغلمان على رءوسهم وأمرهم قائلاً: «اذهبوا برفقة هذا الشاب إلى بيته» فسلمت عليه ورجعت إلى البيت وعلى الباب ودعت الغلمان ليعودوا من حيث أتوا، وحينما قدمت هذه الصناديق إلى الحسناء قالت: خذ هذه الأكياس الأحد عشر الممتلئة بالنقود وأنفقها عن آخرها والله رازق إن شاء الله تعالى، فأخذت المال وكنت أنفقه حسب الحاجة، لكننى لم أكن مطمئناً وتساورنى التساؤلات والشكوك، إذ كيف بالله منحتنى تلك الفاتنة هذه الأموال دون ضمان، وإن سألتها عن مصدرها فهى قد نهتنى من قبل عن السؤال ولا أستطيع سؤالها خوفاً منها.

وبعد ثمانية أيام خاطبتنى تلك الحسناء قائلة: إن الله عز وجل أعطى الإنسان لباس الإنسانية الذى لا يبلى ولا يتمزق ولا يتسخ، وإن كان الإنسان لا تتبدل مكانته عند الله سواء كان رث الملابس أو عظيماً فإن بالى الملابس لدى الناس لا قيمة له، فلتذهب إلى دكان التاجر يوسف واشتر خلعتين فاخرتين ثمينتين.

فركبت إلى حيث هذا الدكان، فوجدت شابا يلبس ثوبا زعفرانيا جالسا على أريكة، وكان جميل السمات والقسمات حتى كان الناس يقفون لرؤية طلعته البهية، فسلمت عليه وجلست بالقرب منه وأنا فى غاية الشوق إلى قربه وقدمت إليه حاجتى وكانت لهجتى مختلفة عن لهجة أهل هذه المدينة، وقال لى هذا الشاب بحرارة: كل ما ترغب فيه موجود لدينا، لكن أخبرنى من أى البلاد أنت؟ وما سبب إقامة الغريب فى تلك البلدة؟ فإن أخبرتنى عن السبب فهذا فضل منك» ولم يكن لدى رغبة فى أن أطلعه على أحوالى، فأجبته إجابة غير شافية وأخذت الملابس والجواهر، ونقدته الثمن وهممت بالذهاب، فقال الشاب غاضباً: يا أخى إن كنت تريد أن تسلك هذا المسلك معى، فلم أبديت الصداقة أولاً؟ فالسلام له قيمة كبيرة لدى الكرام من الناس «فانشرح صدرى لحديثه ووجدت أنه ليس من المروءة أن أكون معه على تلك الحال، فجلست إكراما له، وقلت: أنا طوع أمرك ورهن إشارتك فسر كثيرا لقولى وضحك قائلا: «ليتك تشرفنى فى دارى اليوم فسأقيم حفلا لاستقبالك لنتسامر بعض الوقت، ونتناول العشاء سويا» ولما لم أكن قد تركت تلك الحسناء بمفردها قط، لذا كنت أسوق لهذا التاجر الشاب الحجة تلو الحجة لكنه لم يتقبل عذرى قط.

وفى النهاية ودعنى بعد أن أقسمت له بأننى سأعود إليه بمجرد أن أوصل ما اشتريته من ملابس للبيت فأذن لى، فنهضت وحملت الملابس والجواهر إلى الحسناء بالبيت فسألتنى عن قيمة تلك المجوهرات وصفات الصائغ، فقصصت عليها كل ما حدث من أوله إلى آخره، وكيف أكرم هذا التاجر وفادتى، وأنه وجه لى الدعوة لزيارته فى المساء، فشرعت فى الحديث قائلة: إن على الإنسان أن يفى بوعده، فلتف بوعدك وقسمك تاركا إياى فى حفظ الله، فقبول الضيافة من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فقلت لها: لا رغبة لى فى أن أذهب وأتركك بمفردك لكن الأمر ما أمرت به وعلى الطاعةفسأذهب لكنى سأترك قلبى معك. ثم توجهت إلى دكان الصائغ ووجدته جالسا فى انتظارى، فقال بمجرد أن رآنى: «تفضل فقد انتظرتك طويلاً».

وأخذ التاجر بيدى وذهبنا إلى حديقة غناء ذات نسيم عليل مليئة بالجداول والأنهار والفوارات، وتحفل بشتى أنواع الثمار والفواكه التى تهتز الأشجار تحت ثقلها، وعلى تلك الأشجار السامقة تصدح مختلف الطيور بأعذب وأشجى الألحان، وفى كل ركن من أركان الحديقة الرياش والبسط الفاخرة، وأجلسنى ذلك الشاب فى قصر على حافة نهر، وبعد برهة تركنى ومضى، ثم عاد ثانية وقد ارتدى ثوبا مناسبا فقلت بعد أن رأيته: تبارك الخلاق فيما خلق، جنبك الله عين الحسود»، فابتسم وقال: من المناسب أن تبدل ملابسك أنت أيضا يا أخى: ولأجل خاطره بدلت ملابسى أنا أيضا، وقد أعد هذا الشاب كل أسباب الضيافة باهتمام وعناية وأحضر كل ما يجلب للقلب السرور، ثم بدأ يجاذبنى أطراف الحديث بحفاوة بالغة وفى أثناء ذلك أحضر الساقى دنان الخمر والكئوس البللورية وأحضر ما تشتهى الأنفس من صنوف الطعام، ودار الساقى بالشراب، وبعد الكأس الرابعة حضر إلى المجلس أربعة فتيان فى غاية الحسن مطلقى الشعر وأخذوا يغنون ويصفقون، ولو حضر إلى هذا العالم «تان سين» وسمعهم لنسى فنه كله، وبعد أن يسمعه «بيجو باؤر» سيفقد عقله، ومن فرط المتعة أغرورقت عينا هذا التاجر الشاب وفاض دمعه رغما عنه، فقلت له: «لقد توطدت أواصر الصداقة بيننا، ولا يجوز للصديق أن يكتم سره عن صديقه فى أى مذهب».

فقال ببساطة ودون تردد: «إن لى بالبيت حبيبة تجلس بمفردها، وأريد أن أدعوها إلى هذا الحفل لأسرى عن قلبها وقلبى لا يطيق فراقها لحظة واحدة».

قال هذا هو القول وهو فى غاية الشوق لدرجة أننى اشتقت إليها على الرغم من أننى لم ألتق بها من قبل.

فقلت له: «إننى مقدر لفرحك وسرورك فلتفعل ما شئت ولا تبطئ فلا لذة ولا متعة بدون الحبيب».

فأشار هذا التاجر الشاب إلى مكان ما، فجاءت إليه امرأة سوداء - يموت الإنسان قبل أجله من رؤيتها - وجلست إلى جواره، فدب الخوف فى قلبى لرؤيتها وقلت فى نفسى: «هل هذه المرأة هى حبيبة هذا الشاب التى اشتاق إليها وأسهب فى مدحها؟». وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله وسكت.

ودام المجلس ثلاثة أيام وفى الليلة الرابعة غلبنى السكر والنعاس فرحت فى سبات عميق، وعندما أصبح الصبح، أيقظنى الشاب وسقانى الخمر قائلا لحبيبته: «ليس من اللائق أن نكلف هذا الشاب أكثر من هذا»، وقام الاثنان واستأذنت أنا فى الانصراف فأذن لى بترحاب، وارتديت لباسى القديم ورجعت إلى بيتى، ومثلت بين يدى تلك الحسناء، ولم يكن قد سبق لى تركها بمفردها.

فاعتذرت لها وأنا فى غاية الخجل والأسف، وقصصت عليها وقائع حفل الضيافة، وكيف أن ذلك الشاب لم يسمح لى بالانصراف قبل مضى الثلاثة أيام، وكانت هذه الحسناء من الفطنة والحنكة بحيث ابتسمت قائلة: «لا جناح عليك فقد فعلت ذلك من أجل صديقك وقد عفوت عنك فلا بأس عليك، وعندما يذهب الإنسان لدى الآخرين لا يعود إلا برضائهم، لكن هل ستصمت أنت بعد هذه الدعوة؟ أم توجه إليه أنت أيضا الدعوة لينزل فى ضيافتك؟ عليك أن تدعو هذا التاجر وتكرم وفادته ولا تشغل بالك بكيفية حدوث ذلك، فسيكون كل شىء بين يديك فى التو والحال بفضل الله تعالى، وسيشرف ضيفك المكان وينيره».

فذهبت إلى الصائغ امتثالا لأمرها وقلت له: «أنا قبلت دعوتك على الرأس والعين فلتلب دعوتى»، فقال لى «طوع أمرك ورهن إشارتك».

وقلت له: «لو تشرفنا بالحضور فهذا عين الكرم» فساق لى شتى الحجج على عدم تمكنه من الحضور، لكننى ألححت عليه حتى قبل وأخذته معى إلى بيتى، لكننى فكرت فى نفسى أثناء الطريق وقلت: «لو كنت أقدر بنفسى على ضيافته، لكنت قد استضفته حتى يسعد بهذه الضيافة ويتذكرها على الدوام، والآن سأذهب به وأنظر ماذا سيحدث».

وفى هذه الأثناء بلغنا المنزل، فـفـوجـئت بعـلامـات الفـرح والسـرور بـادية على البـيت، ووجـدت كل الأرجـاء نظيفة تفوح منها رائحـة العطر، والحرس قائمون عند الباب، فدهشت لكننى تيقنت من أنه بيتى فدخلته، ووجدت الرياش والمتاع والطنافس فى كل مكان والبسط ذات الألوان البـديعة، وقد صـفت الأوانى والقنينات فى كل مكان ورأيت كـثيراً من التـحف والنفائس وكانت المصابيح مضاءة فى الطاقات وقد ازدانت تلك الطاقات بالورود والزهور، ورائحـة البخور والصندل تفوح وتنبعث من أحد الأركان والقناديل مضاءة بالشمع الكافورى فى الردهات والطرقـات والشريات تتدلى من كل مكان وكل يؤدى واجبه ويشـغل مـوقـعـه المحدد، ومن المطبخ تصدر أصوات القدور والأوانى ومكان الماء على أتم استعداد فقد وضع الماء فى الأباريق وربط بالقماش ليبرد، وقد صفت الأوانى والصحاف والأكواب ووضع الثلج فى الأباريق.

والخلاصة لقد كان كل شىء على أهبة الاستعداد للحفل والضيافة والراقصات والراقصون الذين يرتدون زى النساء والمنشدون يجلسون فى زى فاخـر وينشدون الأغانى على إيقاع الموسيقى.

فأجلست هذا الشاب التاجر على أريكة وقد عقدت الدهشة لسانى، إذ كيف تسنى كل ما أراه فى هذا الوقت القصير ولماذا؟ وكنت أبحث عن الحسناء فى كل مكان لكننى لم أجدها، فذهبت إلى المطبخ فوجدتها هناك مرتدية حلة الطباخ، وكانت بدون زينة.

- ليس بحاجة إلى الزينة من وهبه اللـه الحسن

- فانظر إلى القمر فهو جميل دون حلى أو زينة

وكانت الحسناء تشرف على الإعداد للحفل، وتقول مؤكدة ومحذرة لكل شخص، انتبه لابد أن يكون الطعام لذيذاً ويكون الماء والملح بالقدر المطلوب وكان العرق يتصبب منها.

فوقفت إلى جوارها ومدحتها ودعوت لها، فغضبت قائلة: «الإنسان يستطيع أن يفعل أشياء لا يقدر عليها الملائكة، فماذا فعلت أنا حتى تتحير وتندهش؟، فاعتذرت لها فلم تقبل وقالت: «لماذا تركت الضيف بمفرده وحيداً وأخذت تتجول فى الأنحاء؟ وماذا سيقول فى نفسه الآن؟ اذهب بسرعة إلى المجلس لتؤنسه وادع حبيبته أيضا إلى الحفل».

فذهبت إلى التاجر الشاب ورحت أجاذبه أطراف الحديث بحفاوة عظيمة وأثناء ذلك جاء غلامان وسيمان يحملان الشراب فى القنينات وبدءا يدوران بالخمر، فقلت لهذا الشاب: «أنا طوع أمرك بيد أننى أريد أن أدعو الحسناء التى تميل إليها بقلبك فإن أذنت أرسلت فى دعوتها».

ففرح قائلا: «هذا حسن لقد نطقت بما يدور فى خلدى». فأرسلت إليها خدما، فحضرت هذه المرأة على هودج فى منتصف الليل، وقد استقبلتها بحفاوة رغم أنفى وأجلستها إلى جوارى ففرح هذا الشاب لرؤيتها كأنه نال نعيم الدنيا، وتعلقت هذه السوداء برقبته، وبدا هذا المشهد وكأن القمر خسف وهو بدر، فعض الجميع أناملهم غيظاً لرؤيتهم هذا المشهد وكأن لسان حالهم يقول: أية مصيبة وقعت على رأس هذا الشاب؟ وشخص الحضور بأبصارهم إلى هذا المنظر تاركين كل ما يشغلهم من رقص وغناء فقال أحد الأشخاص : «أيها الأصدقاء إن بين العشق والعقل عداوة، فالعشق يخالف قواعد وأصول العقل، انظروا لليلى بعين المجنون، فقال الجميع : «آمنا بهذا القول».

ورغم كل هذا كنت أقوم على خدمته امتثالا لأمر تلك الحسناء وكان هذا الشاب يداعب ويغازل حبيبته وكنت لا أرغب فى رؤية ذلك، لكننى قبلت مرغما طاعة لأمرها، ولم ألتفت إلى ما يحدث بالحفل ولم أشارك فيه طبقا لأصول الضيافة، ومرت ثلاث ليال، وفى الليلة الرابعة قال التاجر الشاب: «نحن نرغب في أن تشاركنا الشراب، فلقد تركنا التجارة وكل شيء من أجلك منذ ثلاثة أيام»: فقلت فى نفسى إن لم أقبل طلبه فقد يتضايق فلابد من قبول طلب الصديق الجديد من أجل واجب ضيافته، فقلت للشاب: (أنا طوع أمرك وأمرك فوق الأدب) فقدم لى كأس الخمر فشربت، ثم بدأت الخمر تدور بالمجلس وغاب الجميع عن وعيهم وأنا معهم.

وحينما انبلج الصبح وارتفعت الشمس فى السماء ذراعين استيقظت وفتحت عينى ونظرت حولى، فلم أجد حفلا ولا مجلسا ولا حسناء، وكان هناك منزل خال كبير ، إلا من غطاء ملفوف فى أحد الأنحاء، وعندما فتحته وجدت به الشاب وحبيبته مذبوحين، وطاش صوابى من هول ما رأيت، وشل عقلى عن إدراك ما كان وكيف كان؟ وأخذت أنظر هنا وهناك متحيراً وأثناء ذلك رأيت خادما كنت قد رأيته أثناء الحفل فاطمئن قلبى لرؤيته بعض الشيء فسألته عما حدث فأجابنى قائلا: «ما الفائدة فى أن تفتش وراء هذا الحادث؟ فآمنت فى

نفسى بصدق ما يقوله، وتأملت لحظة ثم قلت: «لا جناح عليك لو لم تخبرنى بالحقيقة، لكن لتخبرنى إذن أين عنوان حبيبتى؟» فقال: «لا شك أننى سأخبرك بكل ما أعرفه، ولكن وأنت صاحب عقل وبصيرة لماذا ذهبت إلى هذا الرجل واحتسيت الخمر معه دون تكلف على الرغم من أن معرفتك به لم يمض عليها أكثر من أيام معدودة؟».

فأخذنى عميق الندم وشديد الأسف من جراء نصيحته وما أقدمت على فعله، ولم أنبس ببنت شفة، إلا قولى ألتمس العذر إننى قد قصرت، فأشفق على هذا الخادم ودلنى على عنوانها وودعنى، وبدأ يفكر فى كيفية مواراة هاتين الجثتين، وكنت قد ذهبت بعيداً خشية أن تلصق بى هذه التهمة، وظللت أسير مضطربا متعثرا أسقط ثم أنهض لأسقط ثانية لفرط شوقى إليها، حتى وصلت مساء إلى عنوانها، وقضيت الليلة مضطربا فى ركن بجوار باب منزلها، ولم أسمع أى صوت لوقع أقدام المارة، ولم يسألنى أحد عن هويتى، وأدركنى الصبح وأنا على تلك الحال من الشتات، وعندما أشرقت الشمس أطلت على الحسناء من الشرفة وهى فى غاية الحسن بوجه قمرى، وفى هذه اللحظة اجتاحتنى نوبة عارمة من الفرح والسرور لا يستشعرها إلا قلبى، فحمدت الله كثيراً.

وبينما أنا كذلك إذ جاءنى أحد الخدم وقال لى:

«اذهب واجلس فى ذلك المسجد، ربما تدرك بغيتك وأمنية قلبك»، فتوجهت إلى المسجد حسبما قال لى، لكن العين ظلت معلقة ببابها لأرى ماذا سيأتى من وراء حجب الغيب؟ وقضيت اليوم منتظراً كالصائم الذى ينتظر موعد الإفطار، ودخل الليل وأنا فى شدة الاضطراب والقلق، ومر اليوم ثقيلاً على قلبى ثقل الجبال، وفجأة قدم الخادم - الذى كان دلنى على عنوان حبيبتى - إلى المسجد وبعد صلاة المغرب جاءنى - وهو لى بمثابة كاتم أسرارى - وربت على يدى مطمئنا وأخذنى معه حتى وصلنا إلى حديقة وقال لى: «اجلس هنا إلى أن تدرك بغيتك» وانصرف مودعًا، ورحت أشاهد جمال زهور ذلك البستان والليلة مقمرة وأتطلع إلى الجداول والأنهار ذات النافورات وأستمتع بجمال الطقس، وأخذت أتذكر حسن قوام حبيبتى كلما نظرت إلى تلك الأشجار والأزهار، وأتذكر جمال وجهها وبهائه كلما نظرت إلى القمر ولكنى من طول الانتظار أصبح هذا المنظر كله بالنسبة لى كالشوك.

وأخيراً ألقى الله فى قلبها الرحمة، وبعد برهة هلت على الحسناء بالباب كالقمر فى ليلة تمامه، مرتدية غلالة على صدرها وثوبًا ثقيلاً ثمينًا محلى الذيل باللآلىء، وجاءت

متبخترة فى دلال، ثم توقفت وحينما وصلت أينعت الحديقة، وانشرح صدرى، وبعد لحظة من قدومها سيراً على الأقدام هنا وهناك توجهت إلى الأريكة وجلست، فتوجهت إليها كما يتوجه الفراش إلى المصباح، وعقدت يدى كالعبد بين يدى الملك، وكان الخادم موجوداً يشفع لى عندها، فقلت للخادم: «لقد أذنبت وقصرت، فإذا أرادت معاقبتى فسمعاً وطاعة»، وكانت الحسناء غير راضية وقالت بحدة: من المناسب لهذا الرجل أن يأخذ مالاً ويعد العدة ويعود فوراً من حيث أتى».

وبعد سماعى لقولها صرت كالخشب، إن يجرحنى شخص لا تخرج منى قطرة دم، وأظلمت الدنيا من حولى، وتأوهت آهة من القلب على إخفاقى فى تحقيق أملى، وجرى الدمع غزيراً من عينى، ولم يكن لى فى ذلك الوقت نصير سوى الله سبحانه وتعالى، وكنت يائساً محسوراً وقلت: «لتتريثى كثيراً قبل أن تقولى هذا القول، فلو كنت حريصاً على المال لما قدمت لك مالى ونفسى، وهل نسيت فى لحظة واحدة مدى تفانىّ فى خدمتك وفدائى لك بروحى، ثم يصدر منك هذا القول؟ وبعد كل هذا فلا حاجة لى للدنيا التى أحياها، فالعاشق لا يستطيع أن يحيا بسبب عدم وفاء المعشوقة، كأنه يحيا بنصف روح».

وما أن سمعت ذلك حتى اكفهر وجهها وتملكها الغضب وسخرت منى وقالت: «هل أنت عاشق لى؟، هل عضك ضفدع، لقد تجاوزت حدودك أيها الأحمق، إنك تعطى لنفسك أكثر مما تستحق، وهذا يدل على تفاهتك، (ففم صغير يصدر أقوالاً كبيرة)، فاصمت ولا تتحدث بمثل هذا الحديث التافه، وأقسم بالله لو صدر هذا الفعل من أحد غيرك لمزقته إرباً وألقيت به طعاما للجوارح لكن ماذا أفعل؟ إننى أتذكر جميلك فمن الخير لك أن تمضى فى طريقك، لقد انتهى رزقك عندى عند هذا الحد».

فقلت لها باكياً: إن كان من المقدر لى ألا يتحقق أملى وأمل قلبى وأن أهيم على وجهى فى الغابات والجبال فأنا عاجز عن ذلك» فغضبت من قولى وقالت: «أنا لا أرغب فى سماع هذا الهراء، فقل هذا القول لمن يحبه» ونهضت غاضبة ودخلت بيتها وناديتها كثيراً لكنها لم تلتفت لى فاضطررت أن أودع هذا المكان حزيناً يائساً.

ومجمل القول فقد مرت أربعون يوماً على هذا الأمر وعندما يئست من التجوال فى المدينة خرجت إلى الغابة، وكلما مللت الغابة كنت أسير فى أنحاء المدينة كالمجنون لا آكل بالنهار ولا أنام بالليل (ككلب الغسال لا مأوى له بالبيت ولا بالعين).

وحياة الإنسان بالطعام والماء، ووهن الجسد منى لدرجة أننى لم أكن أقوى على النهوض، فذهبت إلى المسجد ومكثت به، وذات يوم جاء الخادم الذى أعرفه لصلاة الجمعة، ومر بى وكنت أنشد هذا البيت بصوت خافت لضعفى:

من ألم القلب يموت الإنسان

أو يتحمل، فلتعجل يا إلهى بما قدرته لى

وكانت هيئتى قد تبدلت نهائياً، فتغير وجهى لدرجة أن من يرانى لا يستطيع أن يتعرف على ثانية، لكن هذا الخادم سمع صوتى المتألم وتوجه إلى، وتأسف لرؤيتى على تلك الحال وخاطبنى مشفقاً: كيف تدهور بك الحال إلى هذه الدرجة؟ «فقلت:» لقد مضى ما مضى فلقد قدمت لها المال، وبذلت لها الروح، وها هى ذى ترضى بما أنا فيه، فماذا أفعل؟».

وتركنى الخادم بالمسجد بعد أن سمع منى ذلك، وذهب إلى الصلاة، وبعد انتهاء الخطبة والصلاة خرج ووضعنى فوق محفة وتوجه بى إلى حيث توجد الحسناء، وأجلسنى خارج بيتها ومع أننى لم يكن قد بقى فى وجهى أى ضياء لكننى مكثت عندها أياما وليالى طويلة، فسألت الخادم عنى متجاهلة إياى من هذا؟ فأجابها الخادم قائلا: «هذا هو التعس المنحوس الذى نال منك اللوم والعتاب، وأصبح على هذه الهيئة بسبب ذلك، وهو يصطلى بنار العشق ويطفئها بدموعه، لكنها تشتعل أضعافا مضاعفة دون فائدة، هذا علاوة على موته خجلا وندماً.

فقالت هازئة به: «لماذا تكذب؟ لقد سمعت منذ وقت طويل أنه عاد إلى وطنه، والله أعلم من يكون هذا ومن تذكره عندى؟»، وعندئذ التمس الخادم وعقد يديه متوسلاً:

«إن منحتنى الأمان فسأقول لك» قالت: «قل لك الأمان» فقال الخادم: «إنك ذات شأن عظيم، بالله عليك ارحمى هذا المسكين، وأصدرى أمرك للخدم ليأخذوه من هنا ولترحمى حاله، فليس من المناسب تجاهله، ترفقى به ليناللك عنه الثواب، إننى أقول لك هذا والأمر لك فى النهاية».

ابتسمت الحسناء وقالت: «أيا كان هذا الإنسان فلتذهب به إلى دار الشفاء، وبعد الشفاء نستعلم عن أخباره».

قال الخادم: «لو تفضلت ونضحت وجهه بماء الورد وتحدثت إليه بود وعطف، فسيسترد الأمل مرة أخرى ويتشبث بالحياة، فاليأس أمر مستبشع، فالدنيا قائمة على الأمل والرجاء».
ولم تحرك الحسناء ساكناً، وكنت أشعر بالسقم والملل فقلت دون خوف، لا رغبة لى فى الحياة على هذا النحو، فقد صرت قدمي والقبر ولكل أجل كتاب وسأموت يومًا ما وعلاجى بيديك أيتها الأميرة فاقبلى أو ارفضى».

وفى هذه المرة ألان مؤلف القلوب قلبها، فقالت شفقة بى: «احضروا أطباء الملوك على الفور»، فاجتمع الأطباء من كل صوب وحدب، وبعد أن نظروا فى القارورة فكروا كثيراً فى نوع مرضى، وفى النهاية شخصوا هذا المرض على أن هذا الرجل عاشق، ولا علاج له قط إلا وصال معشوقته، فعندما يلتقى بها سيسترد عافيته». فلما شخص الأطباء مرضى أمرت الحسناء الخدم أن يأخذونى إلى الحمام قائلة: دعوه يستحم وألبسوه حلة فاخرة واحضروه، فأخذونى على الفور إلى الحمام وألبسونى لباسًا فاخراً ثم عادوا بى إليها، فتحدثت إلى برقة وحفاوة بالغة قائلة: «لقد أذللتنى كثيراً وأسأت إلى سمعتى وشهرت بى والآن ماذا تريد؟ قل بوضوح كل ما يدور فى خلدك».

إيها الإخوان، فى تلك اللحظة ضاق بى ثوبى من فرط الفرح والسرور. وتبدلت صورتى، وحمدت الله كثيراً وقلت لها: «فى هذه اللحظة، انتهى كل الطب إليك، فقد أحييتنى من الموت بكلمة واحدة وانظرى كيف تبدلت أحوالى منذئذ إلى الآن؟ وبعد ذلك طفت حولها ثلاث مرات ثم وقفت بين يديها قائلا: «أرجو من سموك والأمر لك أن تتفضلى وتتعطفى وتقبلينى إلى جوارك فهذا عندى أفضل من ملك الأقاليم السبعة، وشرفينى بأن أقبل قدميك».

فتريثت برهة ثم نظرت لى بحدة قائلة: «اجلس إن كل ما قدمت لى من خدمة ووفاء هو جميل فى عنقى، وكل ما تقوله له عندى القبول».

وعندئذ جاءت الساعة المباركة وعقد القاضى القران، وبعد هذا الجهد الجهيد والمشقة البالغة فى السعى إلى وصلها، أرانى الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم وحقق بغيتى، وعلى قدر ما كنت أرغب فى أن أسكن إليها وأبيت معها ليلتى، كنت أريد أن أعرف من هى تلك الحسناء؟ ومن هو الرجل الحبشى الأسود الذى كتبت له الورقة فحصلت بها على المال

الكثير؟ وكيف أعدت الحفل الملكى فى لحظة واحدة؟ ولماذا قتل هذان البريئان فى هذا الحفل؟ ولماذا غضبت على بالرغم مما قدمت لها من خدمات جليلة؟ ولماذا رفعت شأنى هكذا فجأة؟ وبسبب تلك الأسئلة التى تدور فى خلدى، مكثت ثمانية أيام بعد عقد القران لا أرغب حتى فى الاقتراب منها، وكنت أبيت إلى جوارها بالليل لكننى لا ألمسها.

وفى أحد الأيام أمرت الخادم أن يقوم بتسخين الماء لكى أغتسل به، فقالت مبتسمة: «لماذا تغتسل؟» فسكت لكن تلك الحسناء تحيرت من تصرفاتى وأمرى، وظهرت على وجهها ملامح الغضب والسخط، حتى قالت لى ذات مرة: «إنك لشخص غريب الأطوار، فليست لديك صفات الرجولة الحقة، لماذا تزوجتنى إن لم تكن لك القدرة على الزواج؟».

وهنا قلت بلا خوف: «يا حبيبتى فلتكونى عادلة فالعدل شرط، وينبغى للإنسان ألا يجانبه العدل والإنصاف قالت: «وهل من سبيل إلى الإنصاف؟ فما ينبغى أن يكون قد كان قلت: «فى الواقع كان لى أمل كبير فيك، فنلتك لكن فى قلبى رغبة فى أن أعرف توضيحاً لكل ما مر بى من أحداث وأسمع تبريراً لتلك الأشياء منك بعد الزواج، فهذه الأمور لا يتقبلها عقلى، وسيطمئن قلبى بعد أن أسمع تفسيرا منك فقطبت جبينها قائلة: ما شاء الله هل نسيت ما كنا قد اتفقنا عليه من قبل؟ وان عليك ألا تتدخل فى شئونى قط، ولا تعترض أبدا؟ فما الداعى لأن تخالف هذا الشرط وتخرج عن حدود الأدب؟ فضحكت وقلت: مثلما غفرت لى كثيراً من سوء أدبى، فلتغفرى لى هذه المرة أيضا فتبدلت ملامح وجهها وقالت غاضبة: الآن أنت تريد أن تركب على رأسى فاذهب واهتم بشئونك فما فائدة هذا الحديث بالنسبة لى؟ فقلت لها: إن أكثر ما يصيب الإنسان بالخجل والحياء فى الدنيا هو بدنه وقد أظهرته أنت لى، فلم لا تريدين أن تكشفى لى تلك الأمور أيضا، لأنه ينبغى أن يعرف كل منا ما يخص الآخر. وأدركت ما أرمز إليه وفكرت قليلا ثم قالت: «هذا قول صحيح، لكننى أخشى إن بحت لك بسرى، أن تنفر منى وتغضب، ثم تهجرنى».

فقلت لها: «ماذا تقولين؟» لا تخشى منى قط، ولا يتطرق إليك شك من ناحيتى، ولتقصى على باطمئنان كل ما مر بك فلن يخرج هذا الكلام من صدرى إلى لسانى فكيف يسمعه أحد؟ وعندئذ أدركت الحسناء أنها لابد وأن تحكى قصتها لهذا الرجل العزيز، فقالت مضطرة: «عندما أحكى حكايتى ستجد فيها مفاسد كثيرة، فلماذا تلح على فى ذلك؟ لكن خاطرك عزيز عندى ولهذا سوف أحكيها لك ولتكتم سرى ولا تبح به لأحد فهذا شرط ضرورى».

ومجمل القول أنها قالت بعد شدة تأكيد وتحذير: «أنا التعسة ابنة سلطان دمشق، وهو أعظم الملوك شأناً وقدراً ولم يكن لديه من الأبناء سواى، ومنذ ولادتى أحاطنى والداىّ بالحب والرعاية والنعمة والتدليل، وعندما بلغت سن الشباب، تصادقت مع رفيقاتى من الحسناوات وكانت دائما فى رفقتى بنات الملوك والعظماء، وكانت الحوريات يقمن على خدمتى ورعايتى، وكنا نستمتع بمختلف ألوان الرقص والغناء دائما، ولم يكن لنا شأن بكل ما يحدث فى الدنيا، وكنت لا أفتح فمى إلا لشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنا فيه من نعمة.

وحدث أن تبدلت طبيعتى تدريجيا، فأصبحت لا أصادق أحداً، ولا أستمتع باللهو فى أى مجلس، وتبدلت أحوالى وأصبحت حزينة حيرى، لا يسترعى انتباهى أى شخص ولا أريد أن أتحدث إلى أحد ولا أستمتع بأى شيء.

وتملك الحزن كل من بالقصر بسبب ما اعترانى من تغير وأصيبوا بالحيرة، وكانوا يخرون على قدمى، وكان من بينهم خادم طيب القلب ، هو موضع ثقتى وكاتم أسرارى ولا يخفى عليه شيء من أمرى، وعندما أدرك ما أصابنى قال: «لو أن الأميرة شربت من ماء «درق الخيال» فإنها فى الغالب ستعود إلى حالتها الطبيعية، وسيعود السرور إليها فاشتقت لشرب هذا الدواء بعد قوله هذا وقلت: «احضروا هذا الدواء فورا». وخرج خادم القصر، وأعد كأسا من الشراب المثلج بعناية شديدة، وجاء معه غلام يحمل هذا الشراب فشربته، ووجدت منه الفائدة كما وصفها لى، فأنعمت على هذا الخادم بحلة فاخرة، نظير ما قدمه لى من خدمة عظيمة، وأمرته أن يحضر لى كأسا من الشراب يومياً فى مثل هذا الوقت، ومنذئذ أصبح من المقرر أن يحضر- هذا الخادم معه - هذا التاجر الشاب وكان غلاما آنذاك - حاملا هذا الشراب فأشربه فإذا انتابتنى نشوة السكر، جعلت أتبسط مع هذا الغلام وأمازحه دون تكلف حتى أسرى عن قلبى، وبعد أن تجرأ هذا الغلام وتخلى عن خوفه منى، أصبح يغازلنى بمعسول الكلام ويأتى بأشياء غريبة مضحكة، ويبكى ويتأوه أحياناً، وكان حسن الصورة فحاز منى القبول والإعجاب وكنت أميل إليه بلا إرادة، ومن شوق قلبى إليه وإعجابى بمرحه، كنت أنعم عليه كل يوم بإنعام، لكن هذا التعس كان يأتينى فى ملابسه العادية التى يأتى بها كل يوم، حتى إن هذه الملابس قد أصبحت رثة وبالية.

وسألته ذات يوم قائلة: «لقد نلت منى قدرا كبيرا من المال، ومع ذلك لم يتبدل حالك فما هو السبب؟ وكيف أنفقت هذه الأموال أو أين ادخرتها؟».

وعندما سمع الغلام هذا القول الرقيق وشعر أنني أهتم وأفكر في شئونه، دمعت عيناه وقال: «كل ما قد منحتيه لعبدك وخادمك، أخذه الأستاذ (صاحب العمل) ولم يعطني شيئاً منه فأني لي أن أشترى ثوباً آخر وأحضر به إليك؟ وليس هذا ذنبي فأنا مضطر: فأشفقت عليه وأمرت خادمي بأن يربيه تحت إشرافه، وأن يلبسه ملابس فاخرة ويمنعه من الاختلاط برفقاء السوء وقلت له: «أريد أن تعلمه آداب مرافقة الأمراء، ثم أحضره بين يدي» فامتثل الخادم لما أمرته به وكان يعتني به كثيراً بسبب ميلي إليه، وبعد فترة وجيزة ظهرت عليه أمارات العافية والنضارة بسبب الراحة والطعام الجيد، وأصبح وسيما حسن الطلعة، وكنت دائما أحاول ضبط مشاعري نحوه، لكن صورته كانت دائما ملء قلبي ولا أريد أن أفارقه ولو لحظة، وبسبب الحب كنت أريد أن أدخله في قلبي، وفي النهاية ألحقته بخدمتي وحاشيتي، وأصبح من عادتي أن ألبسه الحلل الفاخرة والجواهر الثمينة وأنظر إليه، وأصبح قربه مني قرة لعيني وسكينة لقلبي، وكنت طوعاً لأمره في كل لحظة، وفي النهاية أصبحت مضطربة، ولا أجد الراحة إذا غاب عني ولو لأمر مهم.

وبعد عدة سنوات وصل إلى سن النضج والكمال، وبدأت تظهر عليه علامات الرجولة، وذاع صيته بين خدم القصر وكان الخدم جميعًا يمنعونه من الدخول عندي، فتوقف عن المجيء ففقدت راحتي بدونه فماذا أفعل يا ربي؟ وأصابني قلق شديد، وبسبب اضطرابي استدعيت ذلك الخادم الذي هو كاتم لأسراري وقلت له: «إنني أبغي الخير لهذا الغلام، ولهذا أريد أن تمنحه ألف دينار، وتقيم له حانوتاً للمجوهرات في الميدان، فيقوم بالإتجار فيه ويعيش حياته، وابن له قصراً جميلاً يكون قريباً من قصري، واستأجر له ما يلزمه من الخدم والغلمان ليستريح راحة تامة». فامتثل الخادم، وبعد فترة وجيزة أصبح هذا الدكان متجراً كبيرا يشترى منه حتى الملوك ما يلزمهم من الحلي والجواهر، ووجد في هذا المتجر ما لا يجده أي إنسان حتى الملك في أي متجر سواه وكسدت تجارة جميع تجار الجواهر بسببه.

وخلاصة القول أنه صار في مرتبة لا يدانيها منزلة أي شخص في هذا البلد، أو أي بلد آخر من بلاد الدنيا، وربحت تجارته آلاف الآلاف من الروبيات، وكان فراقه ينقص من طاقتي يوماً بعد يوم، ولا أجد حيلة لأراه ويطمئن فؤادي. وفي النهاية استدعيت ذلك الخادم للمشورة وقلت: «لا أجد حيلة لأراه ويهدأ بالي وأجد السلوى لقلبي، ولا مفر إلا إذا حفرت سردابا بين قصري وقصره، وبعد عدة أيام ووفقاً لأوامري، أعد هذا السرداب، وكان

الخادم يأتينى بهذا الغلام ليلاً متخفياً، وكنا نقضى طوال الليل فى الشراب والشواء والمتعة والسرور فأجد السكينة فى لقائه، ويفرح هو لقربه منى.

وعندما يبزغ الفجر ويؤذن المؤذن، كان الخادم يوصل هذا الشاب إلى بيته كل يوم من هذا السرداب، ولم يكن يعلم بهذا الأمر سوى هذا الخادم واثنتان من الوصيفات اللتين قامتا بإرضاعى ورعايتى وأنا صغيرة.

ومرت مدة على تلك الحال، وذات يوم وفق المتبع ذهب الخادم ليحضره، فوجده صامتا متفكراً، فسأله: «لعل الداعى خيراً ما الذى شغل تفكيرك اليوم، وكدر حالك؟».

وصمت الشاب ولم ينبس ببنت شفة، فرجع الخادم بمفرده، وقص على ما جرى.

ولما سمعت ما أصابه لم ينسنى الشيطان حبه، ولو كنت أعرف أن العشق والحب لذلك الشاب عديم الوفاء سيسىء لسمعتى لما أحببته، وكنت قد تبت عن ذلك الأمر منذ هذا اليوم، ولم أذكر اسمه قط ولم ألب له رغبة ولم أمنحه قلبى، لكن هذا الأمر كان من قضاء الله وقدره ولابد أن يحدث، من أجل ذلك لم أجعل من هذا الأمر مشكلة، واعتبرت عدم حضوره من دلال العاشقين، وأدركت أنت نهاية هذه القصة، دون أن ترى أين أنت وأين أنا منك، ولقدمضى ما مضى، والآن دعك من هذا الأحمق ولا تفكر فى شأنه.

الخلاصة، إننى أرسلت الخادم ثانية برسالة أخرى وقلت له فيها: «إن لم تأت أنت الآن فسوف أحضر أنا إليك بأية وسيلة، لكن فى حضورى أنا عيب كبير، فلو شاع هذا السر، فسيكون فيه لك الضرر الكبير، لهذا لا تفعل مثل هذا الأمر، فلن تجنى منه سوى العار، والفضيحة، فمن الأفضل أن تأتى بسرعة وإلا فاعرف أننى قادمة لا محالة».

ولما بلغته تلك الرسالة، وأدرك منها مبلغ شوقى العظيم، حضر إلى مبدلاً صورته، وكأن له شأناً كبيراً وعندما جلس إلى جوارى سألته: «ما هى العقبات التى حالت دون حضورك عندى اليوم؟ وما سبب غضبك؟ فأنت لم تأت بهذا السلوك من قبل فقد كنت تأتى دائماً دون تخلف» فأجابنى قائلاً: «إننى المسكين قد وصلت إلى تلك الحال، بفضل مساندتك ورعايتك، وبفضل مالك الذى منحتنى إياه وأحيا حياة رغدة بفضلك وأدعو لك ولمالك، فلتصفحى عن تقصيرى أنا المذنب ايتها الأميرة، وأنا أرجو صفحك وعفوك».

فقبلت قوله المفتعل بروحي وقلبي، ولم أهتم بهذا الأمر كثيراً، وسألته بكل عطف: «ما هي المشاكل التي تعاني منها وتجعلك متحيراً هكذا؟ فلتخبرني بها وسأدبر لك حلاً».

خلاصة القول إنه قال على سبيل التواضع: «لدي مشاكل عديدة لكنها تغدو سهلة يسيرة بمجرد رؤيتك».

وفي النهاية اتضح من حديثه أن حديقة غناء ذاتِ مبان شاهقة ونهيرات وجداول تقع بالقرب من منتصف المدينة معروضة للبيع هذه الأيام، ومع تلك الحديقة تباع أيضا جارية بارعة في علم الموسيقى والطرب، والحديقة والجارية تباعان في صفقة واحدة ولا تباع الحديقة بدون الجارية أو العكس، وكأن القطة في عنق الجمل، فلابد لمن يشترى هذه الحديقة أن يشترى هذه الجارية، ومن عجب أن ثمن تلك الحديقة مائة ألف روبية ، وثمن تلك الجارية خمسمائة ألف روبية، وهذا الغلام لا يستطيع أن يدفع هذا الثمن الباهظ.

وقد أدركت أنه شديد الرغبة في شراء هذه الحديقة وأنه مكتئب لذلك وتنتابه الحيرة والدهشة في وجوده معي وكان حزينا ممتقع الوجه، وفي تلك اللحظة أمرت الخادم أن يدفع قيمة الجارية والحديقة في صباح الغد، ويأخذ صك ملكية الحديقة والجارية ويعطيهما لهذا الشاب، ويأخذ ثمن هذه الأشياء من الخزانة الملكية،فامتثل الخادم لأمري وأضاء وجه الشاب بالفرح والسرور، وقضيت الليلة كلها كسابق العهد بكل الفرح حتى بزغ الفجر وخرج، وقام الخادم بشراء هذه الحديقة وتلك الجارية، كما أمرته، وأخذ الشاب يحضر لي يومياً حسب المألوف.

وذات يوم من أيام الربيع، كان الطقس في غاية الاعتدال والمطر [illegible]ـط رذاذاً خفيفا، والبرق يلمع في السماء والأنسام العليلة تهب بين لحظة وأخرى، ولما وجدت أنواعا مختلفة من الشراب مصفوفة في الأباريق ، أردت أن أحتسي رشفة من الخمر، ولما تناولت ثلاثة كئوس من الخمر تذكرت الحديقة الجديدة واجتاحتني رغبة عارمة في أن أذهب للنزهة في تلك الحديقة في مثل هذا الطقس البديع»، وإذا أتى سوء الحظ وعقر الكلب الإنسان، فإنه يركب الجمل، واصطحبت خادمتي معي وعبرت هذا السرداب السري إلى قصر ذلك الشاب، ومن هناك توجهت إلى حيث تلك الحديقة، فوجدت هوائها كما في الجنة فقطرات الندى

على أوراق الشجر كأنها الدر المنثور والزهور مشربة بالحمرة فى لونها كأنها وقت الشفق، وأمواج الجداول تتراقص وبينها تلك الوريقات الصغيرة ذات اللون الأحمر، والنهيرات كلها ممتلئة وكأنها فراش من المرايا.

وكنت أتجول فى هذه الحديقة حتى انتهى النهار، وحل المساء وعم الظلام، وأثناء ذلك رأيت هذا الشاب، وعندما رآنى أسرع إلى بكل أدب وأخذ بيدى بكل حفاوة وتوجه بى إلى قصر له اثنا عشر بابا ولما بلغته أنسانى شكل القصر كل ما شاهدته فى الحديقة، فالأضواء متلألئة، والثريات تتدلى فى كل مكان والمكان مكتظ بالمصابيح والفوانيس وأماكن الجلوس غاية فى الإتقان والإبداع، والمشهد فى هذا الموضع صورة ناطقة للبهاء والروعة ـ بحيث تبدو ليلة البراءة بكل ما فيها من ضياء أقل ضياء منه ـ وفى ركن من أركان القصر من يلعبون بالألعاب النارية، والمكان مفعم بكل أنواع الزهور المختلفة ألوانها وأشكالها.

وفى تلك الأثناء انقشع السحاب، وبزغ القمر كأنه المعشوق الذى يرتدى غلالة من النور، فانبهرت بهذا المشهد البديع، ولما سطع نور القمر قال لى الشاب: «الآن نذهب إلى شرفة الحديقة ونجلس بها، وقد صرت حمقاء لدرجة أننى أمتثل لأمره دون قيد أو شرط، احتال على وأخذنى إلى الشرفة، وكان مشهد المدينة من الشرفة بديعا فالشرفة عالية إلى حد أن كل مكان بالمدينة من شوارع وأسواق وقصور ومصابيح بدت كأنها تقع كلها تحت الشرفة بالحديقة.

وجلست وطوقت عنقه بيدى، وعندئذ جاءت جارية سوداء دميمة فى يدها كئوس الشراب، ولم يرق لى دخولها فى هذه اللحظة وانقبض قلبى لقبح هيئتها، فسألت الشاب: «من هذه الجارية الدميمة؟ وأين وجدتها؟» فأجاب الشاب بكل وقار وأسى: «هذه الجارية هى التى اشتريتها بنصحك مع الحديقة».

فتملكنى الشك والظن، أنه اشتراها عن طيب خاطر وبمنتهى اللهفة، وأنه ربما يكون قد مال إليها بقلبه، فسكت رغما عنى، لكن قلبى تكدر واعتل مزاجى، وكأن يوم الساعة قد حان، لأن هذا الشاب قد جعل من تلك الجارية ساقية، وهى على تلك الحال من الدمامة والقبح، وفى هذه اللحظة كنت كأننى أشرب دمى، وكان هذا المشهد يبدو لمن يراه (وكأن شخصاً قد حبس الببغاء والغراب فى قفص واحد) فلم تكن لى رغبة فى البقاء ولا مفر لى من الجلوس.

وخلاصة القصة أن هذا الشراب عندما يتناوله إنسان يشتد به السكر، وتتبدل أحواله ويصبح كالحيوان فى سلوكياته فقدمت الجارية للشاب عدة كئوس من الشراب المسكر وشربت أنا نصف كأس على شرفه ولخاطره ولإلحاحه بالرغم من أنه كان لى بمثابة السم الزعاف.

وفى النهاية أصبحت هذه المرأة اللعوب تأتى بأفعال فاضحة وغير لائقة مع هذا الشاب، وفقد الفتى عقله ووعيه أيضا بسبب السكر وأخذ يأتى بأفعال من شأن الصغار والأطفال، أما أنا فتملكتنى الغيرة حتى صرت أرجو أن تنشق الأرض وتبتلعنى، لكننى التزمت الصمت بسبب حبى له وصداقتى وصلتى به، ولفرط سذاجتى كنت أحتمل كل ذلك لأجله، لكنه لم يقدر هذا التسامح منى وشرب كأسين وفقد ما تبقى من وعيه ورفع كل أستار الحياء والخجل أمامى، وأخذ يطارح تلك المرأة الساقطة الغرام من غلبة الشهوة على مرأى ومسمع منى وكانت تلك المرأة الفاحشة الساقطة فى هذا الوضع المشين تتدلل، وأخذا يتبادلان العناق والقبلات وما هو أكثر من ذلك ولم يكن لدى هذا الخائن ناقض العهد أى وفاء ولم يكن فى هذه الغانية أى خجل أو حياء، وعندئذ وفى هذه اللحظة صرت كمن تعمل فى تنظيف القاذورات، وأخذت أصب اللعنات على نفسى فى كل لحظة وألوم نفسى وأقول لماذا جئت إلى هنا؟ فنلت ما أستحق من عقاب، وإلى أى مدى سأحتمل تلك الأفعال؟ فاشتعلت النار بى من رأسى إلى أخمص قدمى، وكنت أتقلب على الجمر، ونهضت من مكانى قائلة: «لم يقفز الثور فمن قفز، ومن ينظر إلى هذا المنظر».

ففكر هذا العربيد الماجن فى قلبه محدثا نفسه: «إن غضبت هذه الأميرة فماذا يحدث؟ وماذا ينزل على رأسى من مصائب ومتاعب؟ فلو أمكننى قتلتها».

وقد ورد على باله هذا الخاطر بتحريض من تلك المرأة الساقطة، فجاء وسقط على قدمى يطلب الصفح والعفو، ولما كان قلبى متعلقا به ويهفو إليه وينساق لرغبته مهما كانت، وكنت كدمية فى يده يحركنى كيفما يرغب ويشاء، فأخذ يستعطف قلبى حتى لنت له ونسيت ما حدث، وجلست إليه مرة أخرى، وشربت مرة ثانية عدة كئوس أعطانيها ذلك الشاب، وكنت فى شدة الغضب، وبعد هذا الشراب فقدت وعيى تماما وبسرعة، ثم استل هذا الخائن قاسى القلب خنجره وطعننى به، وتوهم أنه قتلنى وعندئذ فتحت عينى وقلت بلسان حالى: «على كل حال فقد نلت جزاء ما فعلت، انقذنى يارب من هذا القتل والظلم»

- إن آمســـك بتـــلابيـــبك ظالـم

فاغسل دمى من ذيلك فقد مضى ما مضى

ولا تبح بهـــذا الســـر لأحـــد قط

وأما أنا فقد قدمت لك نفسى وكل شىء، ثم فوضت أمرى إلى الله، وفقدت وعيى وغبت عن الدنيا، وكأن هذا السفاح قد تصور أننى مت، فوضعنى فى صندوق وعلقنى على سور المدينة، فرأيته أنت، وأنا لا أريد سوءا بأحد لكن ما حدث كان قدر لى.

- لا يمحى ما قد كتب فى القضاء والقدر

وكل هذا لاقيـــتـــه بســبب عـــيـــبى

فلولا شوقى لرؤية الفتيان ذوى الوسامة والحسن لما تعلقت بهذا الشاب التعس فالله عز وجل هو من بعث بك إلى هذا المكان، فقد كان ينبغى لى أن أموت ولم يكن لى فى حياتى أى أمل، بسبب تلك الفضائح، ولكن ماذا أفعل فالموت ليس بيدى، أماتنى الله ثم أحيانى، فلدر ماذا يكتب فى القضاء والقدر من المصائب والمهالك؟، وكنت قد شفيت من جراحى بسبب ما أوليتنى من عناية وجهد، فقد بذلت لى النفس والنفيس ولم تضن على بكل ما تملك، وفى هذه الأيام وجدتك مفلسا وفقيراً، فكتبت إلى صاحب الخزانة مرسوماً وقلت له فيه: أنا بخير وعافية فى المكان الفلانى، ابلغ والدتى المحترمة أخبارى، فاعطاك صناديق مملوءة بالمال لتنفقها، وعندما أرسلتك لشراء الحلى والملابس من التاجر (يوسف)، كنت أثق فى أن هذا التاجر يتعرف بالناس بسرعة وسهولة، وأنه غالبًا سيدعوك لضيافته وصداقته نظراً لأنك غريب عن الديار، وحدث ما توقعت وقام بكل ما دار فى خلدى، وحينما جئت إلى ما بعدما اتفقت معه على الذهاب إلى بيته وبينت حقيقة الدعوة، وأنه مصر على هذا سررت فى قلبى، وفكرت فى أنك بعد ما تذهب إليه وتشاركه الطعام والشراب، فسيتحتم عليك أن ترد له الدعوة وتدعوه للنزول فى ضيافتك، وسيستجيب هو على الفور، ولهذا سمحت لك بالذهاب فورا.

وعندما رجعت بعد ثلاثة أيام، واعتذرت نادما على تأخرك فى العودة، قلت لك لأطمئنك، لا حرج عليك، فعندما أذن لك المضيف عدت، وقلت لك: ليس من اللائق أن

تشاركه الطعام، ولا تدعوه لضيافتك فاذهب وادعه إلى الطعام واحضره معك، وعندما ذهبت أنت إلى بيته، وتلفت حولى لم أجد أيا من أسباب الضيافة ولوازمها، فماذا افعل إن حضر هو؟ لكننى وجدت الفرصة سانحة بأنه كان من عادة الملوك من أقدم العهود، أن يتغيبوا حوالى ثمانية أشهر لجمع الأموال ورعاية مصالح الدولة، وكانوا يقضون أربعة أشهر فى الربيع فى قصورهم، وفى تلك الأيام كان والدى جلالة الملك المعظم غادر المملكة لجباية الأموال والضرائب وما يخص الدولة من شئون ومصالح، وقبل أن تعود أنت مع التاجر (يوسف) أخبر الخادم أمى - أنا المذنبة - بأحوالى فمثلت بين يدى أمى الموقرة آسفة نادمة، وقصصت عليها كل ما مر بى، وبالرغم من أنها كانت تعرف كل ما حدث لى وأنا غائبة، لكنها رحمة بى وحكمة منها، كانت صامتة وتخفى بين جوانحها ذنبى وجريرتى، لأنها لا تدرى ماذا فعل الله بى؟ وهى لا تريد أن تعاقبنى وتأخذنى بما فعلت، لكنها كانت لم تزل تبحث عنى، وعندما رأتنى على تلك الحالة وسمعت قصتى، فاضت عيناها بالدمع وقالت: لقد وضعت هامة الملك فى التراب عامدة أيتها التعسة الحمقاء، وا أسفاه وألف أسفاه، لقد أهدرت حياتك يا ليتنى ولدت حجرا بدلا منك فصبرت عليه، والآن استغفرى الله وتوبى إليه، فلقد كان ما كان من شأنك ولتنظرى الآن ماذا تفعلين فى المستقبل هل ستعيشين أم تموتين؟ -

فقلت وأنا فى غاية الخجل: «لقد قدر لى وكتب فى نصيبى أنا المذنبة أن أحيا بسوء السمعة وسوء الحظ، متجنبة الكثير من الآفات والمصائب، فالموت لى أفضل من هذا كله، فبالرغم من الوصمة التى جللت جبينى، إلا أننى لم أفعل أى شىء من شأنه أن يخزى والدى ووالدتى، وأنا أشعر بالألم والأسى طالما لم أقض على هذين الماجنين، وتركتهما ينعمان باللهو والمجون سوياً، ويصيبنى منهم الظلم والأذى، وسيكون من المؤسف ألا اتخذ قرارا حيال هذا، فرجائى إليك أن تأمرى بإعداد لوازم ضيافة هذين الماجنين على أكمل وجه فى بيتى، لأحتال عليهما وأدعوهما، وينالان منى جزاء وفاقًا، وأقتص منهما على ما اقترفت أيديهما فى حقى، وأمزقهما إربا إربا حتى يشفى غليل قلبى، لأننى أشتعل غضبا، وفى النهاية سأحترق بنار هذا الغضب».

وبعد أن سمعت أمى هذا الكلام منى أشفقت على، وغلبتها عاطفه الأمومة وكتمت عيبى، وأمرت بإعداد كل ما يلزم الحفل والضيافة بإشراف هذا الخادم الأمين وكاتم أسرارى،

فحضر جميع الخدم والحشم وقام كل منهم بالمهمة الموكلة إليه، وفى المساء جئت أنت مع ذلك الشاب وكنت أرغب أن تأتى تلك العاهرة أيضا.

فأمرتك أن تذهب إليها وتأتى بها، وعندما حضرت واكتمل المجلس ودار الشراب، وفقد الجميع وعيهم، وفقدت أنت أيضًا وعيك، وصرت جثة هامدة، أمرت السيافة أن تضرب عنقهما بالسيف، وعندئذ استلت السيف وفصلت رأسيهما عن جسديهما، وتركت الجثتين غارقتين فى الدماء. أما سبب غضبى منك فهو أننى أذنت لك أن تذهب لتلبية دعوته فقط، وليس لتمكث هناك يومين، وتعتبره صديقا لك وتشاركه الشراب، وكانت نتيجة تلك الحماقة أنك فقدت وعيك، فلم يبق لدى أى أمل فى رفقتك، وصفحت عنك وعن تلك الحماقة منك بسبب ما قد أسديته لى من خدمات، وبسبب معروفك ودينك فى عنقى.

والآن هل بقى فى صدرك أى تساؤل أو فضول؟ فمثلما امتثلت أنا لأمرك، عليك أنت أيضا بالامتثال، ونصيحتى لك الآن ألا تمكث فى تلك المدينة والخيار لك».

يا عباد الله!! صمتت الأميرة عند ذلك الحد، أما أنا فقد كنت رهنًا لإشارتها بقلبى وروحى، وكنت أسيرا لمحبتها فقلت لها: «كل ما يرضى خاطرك المبارك هو الخير وسأنفذه على العين والرأس بدون عذر».

ولما أدركت الأميرة أننى طوع أمرها وأننى خادمها أمرتنى قائلة: أحضر جوادين نجيبين، يسيران بسرعة البرق من حظائر الملك الخاصة، فأحضرت فرسين قويين مسرجين، ولما انقضى الليل إلا قليلاً تنكرت الأميرة فى ثياب الرجال متسلحة بالأسلحة فى قبضتها وامتطت جوادها وركبت أنا الآخر متسلحًا وسرنا فى اتجاه واحد، وعندما انقضى الليل وكاد الصبح أن ينبلج، بلغنا شاطئ أحد الأنهار، فنزلنا واغتسلنا وتناولنا الإفطار بسرعة، ثم مضينا راكبين، وكانت الأميرة تتحدث أحيانا وتقول: «لقد تخليت من أجلك عن الحياة والملك والمال والأهل، فلعلك لا تسلك معى نفس سلوك الظالم الخائن». وأحيانا أخرى كنت أتحدث أنا لنقطع الوقت والطريق وأجيب الأميرة أيضا قائلا: يا ابنة الملك لا يتساوى جميع البشر فى السلوك فربما يكون فى أصله عيب ولهذا بدر منه ما بدر، أما أنا فديتك بالروح والمال، وأنت أكرمتنى بكل وسيلة والآن أنا عبدك دون مقابل فإن شئت أن تلبسى حذاء من جلدى فلن أتاوه». وهكذا أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، ونمشى فى طريقنا ليل نهار وأحيانا

نتوقف من التعب فنصيد الطيور وحيوانات الغابة، ونأخذ ملحًا من الملاحة وننضجه قليلاً على النار بعد أن نشعلها بالجمر، ونترك الجوادين يرعيان فى الغابة ويأكلان العشب.

وذات يوم ذهبنا إلى ساحة خالية من الناس ولا يوجد بها إنسان قط، ومع ذلك وبفضل رفقة الأميرة كان اليوم عيداً والليل كليلة البراءة، وأخذنا نسير حتى فوجئنا ببحر خضم، يرتعب القلب لرؤيته فوقفنا على شاطئه، ولم نر على مرمى البصر إلا ماء، ولم يكن هناك أى ميناء. يا إلهى !! كيف نجتاز هذا البحر الآن؟ فوقفت برهة متأملاً فلمعت فكرة فى ذهنى وهى أن أترك الأميرة فى هذا المكان وأبحث عن قارب حتى تنال قسطًا من الراحة وأهيئ أسباب عبورنا لهذا البحر، فقلت لها: «أيتها الأميرة لو تأذنين أن نتفقد إتجاهات هذا البحرونستعرضها فقالت: «لقد تعبت جداً وبدأت أشعر بالجوع والعطش ولهذا سأنال قسطاً من الراحة ولتدبر أنت هذا الأمر».

وفى أحد الأنحاء كانت شجرة سامقة وارفة الظلال، لو يجلس تحتها ألف مسافر لا يشعرون بالحرارة أو المطر فأجلستها تحتها، وأخذت أسير وأنظر فى الجهات الأربع لكى أجد أى إنسان فى البر أو فى البحر، وبحثت وحاولت كثيراً، لكننى ما وجدت أحداً، وفى النهاية عدت يائساً إلى ذلك المكان فلم أجد فيه الأميرة، فماذا أقول عن أحوالى فى ذلك الوقت فقد فقدت وعيى تماماً ومسنى الجنون، فمرة أصعد الشجرة وأبحث بين الأوراق والغصون، ومرة أخرى أسقط من الشجرة على الأرض، وحيناً أبحث فى جذر الشجرة وحيناً آخر أبكى وأنوح على قلة حيلتى، وأحياناً كنت أسير من الغرب إلى الشرق، وأحياناً من الشمال إلى الجنوب.

وبحثت عنها كثيراً فلم أجد لها أثراً على الإطلاق، وعندما لم أجدها صرت أبحث عنها فى كل مكان باكياً مهيلاً على رأسى التراب.

وخطر ببالى أنه ربما خطف هذه الحسناء أحد الجان وجرحنى، أو ربما كان أحد من أهل بلدتها يتبعها فوجدها بمفردها فأخذها معه وعاد بها إلى الشام، وخلال تلك الأفكار تجردت من ملابسى، وكنت أطوف بلاد الشام صباحاً ومساءً، فقيراً غريباً عارياً أبحث عنها وأقضى الليل فى أى مكان، وبحثت عنها فى كل مكان، لكننى لم أجد لها أثراً. ولم أسمع عنها من أى شخص خبراً، ولم أعرف أى سبب لغيبتها، وورد بقلبى عندما لم أجد أى أثر

لحبيبتى أن لا فائدة من الحياة الآن، فأبصرت جبلاً فى غابة فصعدت الجبل، وأردت أن ألقى بنفسى من حالق، وحينئذ سأموت وأتخلص من حياتى وأستريح من تلك الفاجعة.

وهممت بأن ألقى بنفسى بل ورفعت قدمى، فأمسك بيدى شخص فى تلك اللحظة، وعندئذ ثبت لرشدى فرأيت فارساً يرتدى ملابس خضراء، ويضع على وجهه نقاباً وقال لى: «لماذا تريد أن تتخلص من حياتك؟ فالقنوت من رحمة الله كفر، ولابد أن يكون الرجاء رفيقك حتى الموت، ففى خلال ثلاثة أيام ستلتقى بثلاثة دراويش مثلك فى بلاد الروم، وهم مثلك فى هذه المحنة، وقد مروا بما عانيت من محن ومصاعب، وهناك ستجد أيضا ملكا يدعى . «آزادبخت» وهو أيضا يواجه مشكلة كبرى، وعندما يلتقى بكم أنتم الأربعة، فسوف يتحقق مراد كل منكم على خير وجه».

فأمسكت باللجام وقبلت الرجل وقلت: «يا ولى الله، اطمأن قلبى المضطرب بقولك هذا، لكن بالله عليك أخبرنى من تكون؟ وما هو اسمك الشريف؟».

فقال لى: «اسمى (المرتضى على)، وعملى هو أنه عندما تعترض شخص مشكلة عويصة أذللها له.

وبعد أن انتهى من حديثه غاب عن بصرى، وبعد أن اطمأننت ببشارة مولاى، توجهت إلى القسطنطينية ولاقيت من المصاعب ما قدر لى فى أثناء الطريق على أمل اللقاءبتلك الأميرة، ووصلت إلى هنا بفضل الله تعالى ومن يمن الطالع أن تشرفت بالمثول بين يديكم، وبعد أن تلاقينا وتحدثنا، يجب علينا أن نتعرف على الملك «آزاد بخت» ثم سيتحدد موعد الوصول إلى هدفنا نحن الخمسة، ادعوا الله وقولوا آمين، يا هادى تلك هى قصة حياتى أنا المحزون، وقد سردتها لهؤلاء الدراويش، والآن نرى متى ستبدل حالنا من الشقاء والبؤس إلى السعادة بلقاء تلك الأميرة».

وكان الملك «آزاد بخت» مختبئاً فى أحد الأركان يستمع إلى حكاية الدرويش الأول، وبعد أن سمعها سر سروراً عظيماً، ثم بدأ يستمع إلى قصة الدرويش الثانى.

قصة الدرويش الثانى

وحينما جاء دور الدرويش الثانى، جثا على ركبتيه وقال: أيها الرفاق إلى قصة هذا الفقير استمعوا سأرويها من البداية إلى النهاية فاستمعوا لايستطيع أى حكيم شفاء لها، فليس لهذا الألم دواء، فاستمعوا يا أصحاب الدلق، هذا الفقير هو ابن ملك فارس، حيث نشأ أهل الكمال فى كل فن، وكانت مدينة أصفهان مدينة ذات شهرة، ولاتدانيها أى ولاية من ولايات الأقاليم السبعة، وجوها طيب، وأهلها ذووا خلق سمح، وهم كذلك أهل فطنة وذوق وقد هيأ لى والدى ملك هذه السلطنة منذ الصبا أستاذاً بارعًا فى كل مجال وفن ليعلمنى أصول وقواعد وقوانين المملكة، لأصبح ماهراً فى شتى أنواع المعرفة، وبفضل الله عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرى كنت قد برعت فى كل العلوم، وتعلمت آداب الحديث وكيف أحسن الجلوس والقيام و«رسوم» الملوك، وكان شغلى الشاغل وما أصبو إليه ليل نهار، هو أن أجلس فى مجلس العلماء، لأستمع إلى سير الملوك وأحوالهم، وسير أولى العزم والمشهورين.

وذات يوم قال شخص حكيم ضليع فى معرفة التاريخ، وبصير بأحوال العالم: «على الرغم من أن حياة الإنسان لايؤمن جانبها، لكن الخصال الحميدة تخلد ذكرى الإنسان على لسان الناس» .

فقلت له: «لو أنك قصصت على شيئاً من تلك الأحوال بالتفصيل، استمعت إليها وعملت بها» .

فبدأ ذلك الرجل فى سرد سيرة «حاتم الطائى».

قصة حاتم الطائى :

كان فى زمن حاتم الطائى ملك عربى يدعى «نوفل» وكان على عداء شديد مع حاتم الطائى لشهرته وذيوع صيته بين الناس، وقد جمع نوفل جيشاً كبيراً وجاء به لمحاربة حاتم الطائى، وكان حاتم رجلا ورعاً صالحاً، وأدرك أنه لو أعد العدة لقتاله فسوف يقتل كثير من عباد الله وسيتحمل وزرهم فى عنقه، فخرج بمفرده وصعد الجبل واختبأ بأحد الكهوف.

وعندما بلغ نبأ اختفاء حاتم، الملك نوفل ذهب إلى بيته، وصادر كل ممتلكاته، وأمر منادياً ينادى فى البلاد، أن من يبحث عن حاتم ويقبض عليه، سينال مكافأة من الملك قدرها خمسة آلاف دينار، وما أن سمع الجميع قدر المكافأة حتى طمعوا فى البحث عن حاتم للحصول عليها.

وفى يوم من الأيام جاء شيخ وامرأته العجوز وثلاثة أطفال لجمع الحطب بالقرب من الكهف الذى اختبأ به حاتم، وبدأوا يجمعون الحطب فقالت العجوز: «ليت يومنا هذا يكون مباركا، فنجد حاتماً ونحصل على المكافأة، وعندئذ نعيش فى رغد ونتخلص من المعاناة والمشقة» . فقال الشيخ: «فيما تثرثرين؟ لقد قدر علينا قطع الحطب وحمله على الرأس وبيعه فى السوق، فنحصل على مايقيم أودنا أو نصيد أى حيوان من الغابة، فاعملى بجد أفضل من هذه الثرثرة، فكيف يقع حاتم فى قبضتنا ويمنحنا الملك الجائزة؟» . فزفرت العجوز زفرة حارة وصمتت.

وسمع حاتم مادار بينهما من حديث ففكر فى نفسه أنه ليس من المروءة والشهامة أن يخفى نفسه عنهما وألا يحقق لهذين أمنيتهما، وفى الحقيقة إن لم يكن فى قلب الإنسان رحمة وشفقة فهو ليس بإنسان، وإن لم يستشعر بقلبه آلام الناس فهو سفاح - خلق الإنسان ليشعر قلبه بآلام الناس وإلا فإن الملائكة وحدها تكفى لطاعة الله.

والخلاصة أن شهامة حاتم الطائى قد أبت عليه أن يقبل الصمت والاختفاء بعد أن سمع هذين المعدمين فخرج على الفور وقال لهذا الشيخ: «ياعزيزى أنا حاتم الطائى، فخذنى إلى نوفل، فحينما يرانى سيمنحك المكافأة التى وعد بها» فأجابه الشيخ: «مما لاشك فيه أن هذه مروءة منك أن تسلك معنا هذا المسلك وتقوم بهذا العمل، لكننى لاأدرى ماذا سيصنع بك الملك، فماذا أفعل إن هو قتلك؟ ولاأستطيع قط أن أقدمك إلى عدوك لطمعى فى المكافأة،

وإلى متى نأكل بهذه المكافأة؟ وإلى متى نعيش؟ وفى النهاية سنموت، ثم ماذا أقول أمام الله سبحانه وتعالى؟».

فأصر حاتم أن يأخذه الشيخ إلى الملك قائلا: «أقول لك هذا القول وأنا راضٍ وأتمنى دائما أن أقدم نفسى ومالى للآخرين ليسعدوا به.

وفى النهاية أبى هذا الشيخ أن يأخذه إلى الملك ويأخذ المكافأة بأى وسيلة».

وأخيراً قال حاتم مضطراً: «إن لم تأخذنى أنت سأذهب أنا للملك بنفسى، وأقول له إن هذا الشيخ، أخفانى فى كهف فى الجبل». فضحك الشيخ وقال: «هل جزاء المعروف أن يقابل بالسوء» ومن تكرار هذا الجدال أقبل أناس كثيرون وتزاحموا وأدركوا أن هذا هو حاتم الطائى، فأخذوه على الفور وذهب هذا الشيخ أيضا معهم وهو فى غاية الأسف، وحينما وصلوا إلى نوفل سألهم من قام بالقبض عليه؟ فقال رجل قاس سيىء الطوية: «من يستطع غيرى أن يقوم بهذا العمل؟ فهذا الفتح باسمى». وقال مدع آخر للعظمة: «لقد بحثت عنه عدة أيام، وأخذته من الغابة، فلتقدر مجهودى وعنائى وتمنحنى المكافأة»، ومن أجل الحصول على الدنانير كان كل شخص يقول أنا من قمت بهذا العمل، وكان الشيخ يقف صامتا فى أحد الأركان ويبكى لأجل «حاتم»، وبعدما تحدث الجميع عن شهامتهم وشجاعتهم وعرضوها أمام الملك قال «حاتم» للملك: «إن شئت الحقيقة فإن هذا الشيخ الواقف بعيدا هو من أحضرنى، وإن أردت التأكد فلتسأل ولتفى بعهدك بتقديم مكافأة لمن يقبض علىّ - ففى جسد الإنسان لسان له أهمية كبيرة - وعلى الرجل أن يفى بما تعهد به، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لسانا للحيوان أيضا، إذن فما الفرق بين الإنسان والحيوان؟».

فدعا «نوفل» هذا الشيخ الحطاب وسأله قائلا: أصدقنى ماهو أساس القصة؟ ومن قبض على حاتم؟ فبدأ الشيخ يقص الحكاية من البداية إلى النهاية، وقال إن حاتما جاء بمحض إرادته لأجل خاطرى، فاندهش الملك نوفل لشجاعة «حاتم» وقال: بخ بخ أبلغ بك الكرم مبلغه حتى تخاطر بحياتك؟ وأمر أن يقذف من ادعى بأنه ألقى القبض على حاتم - بالحذاء خمسمائة قذفة بدلاً من خمسمائة دينار حتى يموت، فشرع الخدم على الفور فى تنفيذ ما أمر به، وضربوهم حتى سقط شعرهم من فوق رءوسهم، فالحقيقة قول الكذب ذنب

لايدانيه ذنب آخر فليحفظ الله عز وجل الجميع من آفة الكذب ولايعودهم عليه، فكثير من الناس يفرطون فى الكذب لكنهم ينالون جزاءهم وقت الامتحان.

وخلاصة القول إن «نوفل» أنعم على الجميع كيفما رأى وفكر فى نفسه أن «حاتم» شخص يستفيد من كرمه كل الناس، ولايضن بنفسه فى سبيل الفقراء والمحتاجين، وهو يرضى بأن يبذل نفسه فى سبيل الله، ومعاداته وقتاله أمر بعيد عن الشهامة والمروءة، فشد الملك نوفل على يدى حاتم الطائى معرباً عن الصداقة والمودة وقال: «طالما أنت على هذه الشاكلة، فلم لاأكون أنا أيضا كذلك؟». وأجلسه على مقربة منه بغاية الذوق والاحترام، وعلى الفور رد عليه كل ماكان قد استولى عليه من أملاكه وأمواله، ونصبه من جديد زعيماً لقبيلة «طى» وأنعم على الشيخ بخمسمائة دينار، فأخذها «الشيخ» ومضى فى طريقه داعياً له.

وحينما استمعت إلى قصة حاتم كاملة أخذتنى الغيرة ودار فى خلدى أن «حاتماً» كان زعيماً لقومه فقط وذاع صيته فى كل الأنحاء لسخائه وجوده، وخلد ذكره حتى اليوم، وأنا ملك لإيران كلها بإذن الله، فإن كنت قد حرمت من نعمة الجود والكرم، فواأسفاه على ذلك، فالحقيقة أنه ليس هناك خصلة فى الدنيا أفضل من الجود والسخاء، لأن الإنسان إذا بذل ماله ومتاعه فى سبيل الله وجد الجزاء فى الآخرة، وإذا بذر حبة واحدة فى الأرض حصد فى النهاية مئات الثمار، وبعدما فكرت فى هذا طلبت أمير التشييد والتعمير وأمرته أن يبنى بسرعة مكاناً عالياً فسيحاً وله أربعون باباً خارج البلاد، وبعد فترة وجيزة شيد هذا البناء وفقاً لمشيئتى، وكنت أوزع الروبيات والدنانير على الفقراء والمساكين من الصباح حتى المساء، ومن يطلب منى شيئاً أمنحه له أضعافاً مضاعفة.

الخلاصة أن المساكين كانوا يدخلون من أربعين باباً ويأخذون مايشاءون. وذات يوم دخل فقير من الباب الأمامى (الرئيسى) وسألنى فأعطيته ديناراً ثم دخل نفس الفقير من الباب الثانى وطلب دينارين وقد عرفته لكننى صرفت النظر عنه وأعطيته وهكذا صار يدخل من كل باب ويطلب دنانير حسب رقم الباب الذى يدخل منه، وكنت أتغاضى عنه فى كل مرة كان يدخل فيها وأعطيه مايسأل، وفى النهاية دخل من الباب الأربعين وطلب منى أربعين ديناراً فأعطيته، ثم عاد ودخل مرة ثانية من الباب الرئيسى وسألنى فاستأت من سلوكه وقلت له أيها الطماع كيف تكون فقيرا ولاتعرف الأحرف الثلاثة التى تتكون منها كلمة «فقر» والتى لابد للفقير أن يعمل بها؟.

فأجابني الفقير: «أيها السخي فلتخبرني أنت» فقلت: «من حرف الفاء الفاقة، ومن حرف القاف «القناعة»، ومن حرف الراء رياضة. فمن لايعمل بهذه الأحرف فهو ليس بفقير فكل وانفق مما حصلت عليه مني ثم عد واطلب مني مرة ثانية فإن الصدقة تمنح لرفع الفاقة لا لجمعها وادخارها أيها الطماع!! أنت أخذت من أربعين باباً وحصلت على الدنانير من واحد إلى أربعين فاحسب هذا وانظر كم العدد؟، ورغم ذلك كررت هذا الفعل مرة ثانية. وماذا ستجني من جمع هذه الأموال؟ على الفقير أن يفكر في قوت يومه، وفي اليوم الثاني الرزاق موجود يعطي رزقاً جديداً، استح واصبر واقنع، أعلمك المرشد أن يكون الفقر هكذا؟».

وما أن سمع الفقير هذا القول مني حتى ثار وأرغى وأزبد وألقى بكل ماأخذه مني على الأرض وقال: «اسمع ياهذا!! لاتغضب هكذا! خذ مالك وأملاكك ولاتدعي الجود والسخاء فنعمة الجود والسخاء شيء صعب المنال وأنت لاتستطيع أن تتحمل عبء السخاء وأنى لك أن تصل إلى تلك المرتبة؟ «فدهلي بعيدة جداً»[٣] فللسخيِّ ثلاثة أحرف أعمل بها أولاً فيقال عنك سخي» فخفت وقلت: «ياهذا!! أفهمني مامعنى قولك هذا؟ فقال لي: «من حرف السين (سماء) في جودها وسخائها، ومن الخاء خوف الله، ومن حرف الياء (ياد) يتذكر الإنسان لحظة ولادته وموته، فطالما لم تبلغ هذه المرتبة فلا تدعي الجود والسخاء، ومرتبة السخي أن يكون صديقاً لله عز وجل ولو كان غير صالح، إن هذا الفقير قد طاف بكثير من البلدان لكنه ماوجد سخياً غير ملكة البصرة، فلقد وقف الله السخاء على تلك الملكة فكل الناس تدعي السخاء لكنهم لايقومون بما تقوم به هي».

وبعد أن سمعت هذا منه استحلفته وألححت عليه في أن يعفو عني وقلت له: «خذ مني ماشئت لكنه أبي ومشى قائلا: «لو أنك أعطيتني كل ماتملك لما التفت إليه ولا أخذته».
واضطرب فؤادي، ولم يقر لي قرار وتمنيت أن أذهب إلى البصرة بأية وسيلة وأراها.

وفي تلك الأثناء توفي الملك وتوليت الملك خلفا له لكن تلك الأمنية لم تزل عالقة بذهني، فتشاورت مع الوزراء والأمراء ومسئولي الدولة في أنني أريد السفر إلى البصرة، وعليكم بالاستعداد الكامل لإدارة شئون الدولة، ولو كتبت لي الحياة فسيكون السفر لفترة وجيزة وسأعود بسرعة، ولكن لم يوافقني أحد قط على رغبتي، فصار قلبي مفعماً بالحزن والأسى، وذات يوم استدعيت الوزير الحكيم، وكلفته بالملك نيابة عني دون ذكر السبب وفوضت إليه جميع الأمور الأساسية للمملكة، وتخفيت في ملابس الفقراء، وذهبت إلى البصرة بمفردي،

وبعد عدة أيام وصلت إلى حدودها، وكنت حينما أبيت بأى مكان أجد أحد خدام هذه الملكة يستقبلنى وينزلنى فى مكان لائق ويقدم لى كافة واجبات الضيافة، ويقوم على خدمتى طوال الليل، وفى اليوم التالى كنت أجد فى أى مكان آخر نظيراً لما وجدته فى الموضع السابق، وقضيت عدة شهور فى مثل هذه الراحة والدعة، وفى النهاية بلغت البصرة، فجاء إلىّ على الفور شاب فاخر الثياب وحسن الطباع دمث الخلق ذو مروءة وشهامة تبدو عليه أمارات الذكاء والفطنة، وبدأ يحدثنى برقة ولباقة قائلا: «أنا خادم الفقراء وأبحث دائماً عن فقير مسافر أو طالب للدنيا جاء إلى هذه البلدة، حتى يشرف بيتى بقدومه فليس هنا أى مكان سوى مكان واحد لينزل به الغرباء، فتفضل وشرفنا بالنزول فى ضيافتنا».

فسألته: «ماإسمك الشريف؟ فقال: «اسم هذا المجهول، «بيدار بخت» وامتثالا لإلحاحه وحسن سلوكه سرت معه وبلغنا بيته، فرأيت قصراً منيفاً به لوازم وأمتعة ملكية وأجلسنى بالاستراحة، وجاء بماء ساخن وغسل قدمى ومد الطاهى أمامى مائدة حافلة بشتى صنوف الطعام مما لذ وطاب، عليها أربع صوان وعليها أطباق مختلفة وكل طبق فيه صنف مختلف من الأرز وكذلك الأرز الحلو وأنواع مختلفة من اللحم والخبز والشواء والكفتة ومختلف أنواع البيض ومختلف صنوف الأطعمة المكمورة ومختلف أنواع الحلوى والمشهيات وألوان من «الماست» لدرجة أننى شعرت بالشبع بمجرد النظر إلى المائدة ولما تناولت لقمة من كل صنف امتلأت معدتى وتوقفت عن الطعام فبدأ الرجل يقول لى: «ماذا أكلت؟ إن كل الطعام موجود أمامك، كل دون حرج أو تكلف. قلت: لماذا أتكلف؟ عمر الله بيتك على الدوام، قد أكلت كل ماتستطيع معدتى أكله فكيف أعبر عن طيب مذاق هذا الطعام، فأنا أشعر بلذته على لسانى للآن، وحينما أتجشأ تأتى رائحة الطعام الطيب فى فمى. وحينما انتهيت من الطعام أحضر ماء ساخنا وصابونا وقماشا أملس وغسل يدى وأحضر لى التمبول(٤).

وعندما حل المساء أضيئت المصابيح بالشمع الكافورى ولم يزل ذلك الرجل جالساً يتحدث إلى، وعندما انقضى جزء من الليل قال: «لقد انقضى الليل فلم الجلوس حتى الآن، هيا ادخل إلى تلك القاعة ونم!».

فقلت «يافلان!! يكفينا نحن الفقراء جلد الظبى لننام عليه، لقد خلق الله هذه الأشياء متاعا لكم، أى أهل الدنيا، وأخذ الرجل يقول هذه الأمتعة للدراويش والفقراء ولا أملك منها أى شيء، فذهبت إلى الحجرة ونمت بها بعد أن ألح علىّ، وكان الفراش وثيراً أملس كأوراق

الزهور، وكانت الزهريات تحيط بالفراش من كلا الجانبين، وكانوا يطلقون البخور حول الفراش، وبأى جهة أوجه وجهى عند النوم أشم الروائح الطيبة، فينتعش مزاجى، فنمت فى هذا الجو، وعندما أشرق الصبح أحضروا لى الفطور: شراب من اللوز والرمان والعنب والتين والبلح وغير ذلك من الفواكه، وانقضت ثلاثة أيام على تلك الحال وفى اليوم الرابع استأذنت فى الرحيل، فعقد ذلك الشخص يده، وشرع فى الكلام وقال: «ربما بدر منى أى إساءة نحوك ياسيدى مما عكر صفوك». فانتابتنى الدهشة وقلت: «بالله عليك ماذا تقول؟ فمن شرط الضيافة أن تستمر ثلاثة أيام فقط، وقد قضيتها وليس من المستحب أن أزيد عليها، وإضافة إلى ذلك، فقد خرجت للتجوال والسياحة، ولو مكثت فى مكان واحد طويلا، فهذا شيء غير مناسب ولهذا أرغب فى الانصراف مع أن قلبى لايريد أن يفارقك، فقال: «لابأس إذا كان هذا يرضيك لكن لتتريث قليلاً حتى أخبر الأميرة، وبعد ذلك إذا رغبت فى الرحيل، فخذ معك كل أسباب العيش من راحة، وطعام ومال وستجدها فى تلك الغرفة ولاتفكر فى شيء فسأدبر لك الأمر كله.

فقلت: «لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم أأنا فقير أم متسول؟ ولو كان هذا الحرص فى قلبى، فلماذا أصبحت فقيراً، وإلا لكنت حرصت وطمعت فى الدنيا فقال هذا الرفيق لو سمعت الأميرة بهذه الأحوال، لأدرى ماذا ستصنع بى؟ ستفصلنى من خدمتها، فإن كانت لارغبة لك فى هذ الأمتعة، فاتركها فى الغرفة وأغلقها بالقفل وستكون أمانة وافعل ماشئت».

فلم أقبل ذلك، ولم يوافق هو أيضاً، وفى النهاية اضطررت أن أوافق مضطرا على أن نترك هذه الأمتعة فى الغرفة، ونقفل عليها بالقفل، وانتظرت الإذن بالرحيل - وفى تلك الأثناء جاء أحد الموظفين فى هيئة موقرة واضعا على رأسه عمامة، وفى وسطه حزاماً، ويحمل فى يده عصا ذهبية، ومعه خدم وحشم وكان هذا الموظف مسئولا كبيرا بالدولة، تبدو عليه أمارات السطوة والنفوذ فاقترب منى وشرع فى الحديث معى بلباقة وذوق وكياسة لاأستطيع وصفها وقال: «ياعزيزى، إن تكرمت وتعطفت على العبد الفقير، وشرفت بيتى بقدومك الميمون، خدمة لعبد فقير، فهذا ليس ببعيد عن المروءة والفضل، فلعل الأميرة تسمع أن مسافرا جاء إلى هنا، ولم يقم أحد على خدمته بما يليق وكما ينبغى، ثم رحل، والله أعلم عندئذ ماذا سيحل بى من مصائب بل إن حياتى أيضا ستكون فى خطر «لكننى لم أقبل دعوته، فأخذ يلح على، وذهب بى إلى مكان أفضل من السابق وقدم لى كل واجبات

الضيافة كما حدث مع الرجل الأول، ومكثت فى ضيافته ثلاثة أيام، فكان يقدم لى الطعام مرتين وبعد الظهر يأتى بالشراب، ويحضر لى مختلف أنواع الفاكهة وأخبرنى بأن كل ماالديه من طنافس ومتاع ورياش وبُسط هو ملك لى فاصنع به ماشئت فانتابتنى الدهشة بعد سماعى لقوله وأردت الرحيل عن ذلك المكان بسرعة، وبعد أن رآنى على تلك الحال قال لى: «ياعبد الله!! إذا كان لك أى مطلب أو رغبة أخبرنى بها حتى أبلغها الأميرة «فقلت له: «أنا فى لباس الفقير، فماذا أطلب منك من متاع الدنيا فأنت تعطنى دون سؤال وأنا أرفضه». فأخذ يقول لى: «ليس هناك من لايوجد أثر للحرص وطمع الدنيا فى قلبه، وقد قال الشاعر:

رأيت راهبا مقطوع الأذن طويل الشعر، وعلى بدنه اللآلئ النفيسة

ورأيت فقيرا آخر يغطى وجهه وهو حليق الرأس

ورأيت مسروراً وفرحاً فى الغابة على الرغم من عدم استوائها

ورأيت الأصم والأعمى والبارع والأحمق

رأيت الغنى، رأيت الفقير من البداية

لكننى مارأيت أحداً قط ليس لديه طمع فى الدنيا

وبعد أن سمعت ذلك الشعر منه أجبته «هذا صحيح» لكننى لاأبغى شيئا، لكن إن سمحت لى، فأنا أكتب رسالة أسجل فيها ماأريد فتوصلها للأميرة من فضلك، فتكون بذلك قد منحتنى مال الدنيا كله. قال: «على الرأس والعين، لابأس فى ذلك، فاستهللت الرسالة بالحمد والثناء ثم كتبت «هذا عبد الله وصل هذه البلاد منذ عدة أيام فأتى أناس من أنحاء مملكتك ليقوموا على خدمتى وكنت قد اشتقت لزيارتك بعد سماعى عن جودك وكرمك وقد وجدت أكثر من ذلك بكثير، والآن يقول لى أركان دولتك اطلب ماتشاء وتبغى! ولهذا فأنا أبين لك ماأتمناه دون حرج، إننى لست فى حاجة إلى مال الدنيا فأنا أيضا ملك بلادى، وقد جئت إلى هنا على هذه الهيئة واحتملت كل ماصادفنى من مشقة فى الطريق لشدة شوقى لرؤيتك، وأرجو من سموك تحقيق أمنيتى القلبية والأمر لك فى النهاية، لكن إذا لم يحظ طلبى بالقبول عندك فأنا أبذل الروح فى عشقك هائما على وجهى وأموت فى أى غابة أو جبل كـ«المجنون» و«فرهاد».

كتبت هذا في رسالتي وسلمتها له، فأوصلها بدوره للأميرة ثم عاد بعد لحظة داعياً إياي وأخذني إلى القصر، فرأيت هناك امرأة عجوزا تتحلى بالحلي جالسة على كرسي مذهب، ويصطف على جانبيها العديد من الخدم واقفين على خدمتها عاقدين أيديهم، فأدركت أن هذه العجوز هي امرأة ذات شرف وجاه، فرفعت يدي لتحيتها، فسلمتّ عليّ بكل عطف وترحاب قائلة: «تفضل شرفتنا بمقدمك، فقد كتبت رسالة شوق لرؤية الملكة؟ فصمت خجلاً وخفضت رأسي وجلست».

وقالت بعد برهة: «أيها الشاب إن الأميرة سلمت عليك وقالت: «لقد طلبتني، ولامانع عندي في الزواج منك لكن ليس من اللائق التفاخر بالملك والحديث عنه في الدنيا لأن كل الناس سواء في الحقيقة، إلا من تشرف بدين الإسلام فهو الأفضل، وأنا أيضا أتمنى الزواج منذ فترة طويلة، وكما أنت غني عن ترف الدنيا أنا أيضا مثلك أعطاني الله عز وجل مالا لايعد ولايحصى، لكن هناك شرطاً واحداً، هو أن تقدم لي المهر أولاً، ومهر الأميرة هو أمر يمكن أن تقوم به».

فقلت: «أنا طوع أمرها ورهن إشارتها ولن أدخر نفساً ولا مالاً في سبيلها، فما هو الأمر؟ قوليه لأعرفه، فقالت: «امكث لدينا اليوم وسأخبرك غداً»، فقبلت بكل رضا واستأذنت وخرجت.

وانقضى اليوم وعندما حل المساء استدعاني أحد موظفي القصر إلى هناك، فرأيت هناك العلماء والأعيان والفضلاء وأصحاب الشرع، فجلست بينهم، ومدت المائدة ووضعت الصنوف المختلفة من الأطعمة الحلوة والعادية، وبدأ الجميع في تناول الطعام وأشركوني أيضا معهم، وبعد الفراغ من الطعام جاءت الخادمة وقالت: «اين بهروز(٥) ادعوه، فأحضره المندوب الملكي على الفور، وكان مهيب الطلعة، ذا رجولة يعلق المفاتيح والروبيات الذهبية بخصره، جاء وسلم علي وجلس إلى جواري، وبدأت تلك الجارية تقول له «يابهروز، قل كل ماشاهدته بالتفصيل».

فبدأ بهروز في سرد تلك القصة مخاطباً إياي قائلاً: «ياعزيزي هناك آلاف الغلمان والخدام في مملكة أميرتي يعملون بالتجارة وأنا أدناهم مرتبة بين خدمها، والأميرة ترسل بضائع وتجارة تساوي آلاف الآلاف من الروبيات لكل أنحاء الدنيا، وعندما يعود التجار

تسألهم الأميرة عن أحوال تلك البلاد، وحدث ذات يوم أن خرجت - أى بهروز - للتجارة ووصلت إلى مدينة «نيم روز» فوجدت أهل هذه المدينة متشحين بالسواد، ينوحون فى كل لحظة ويصعدون الزفرات، ويبدو أن مصيبة كبيرة قد حلت بهم وسألت عن السبب لكن ماأجابنى أحد قط.

ومرت عدة أيام فى تلك الحيرة، وذات يوم عندما أشرق الصبح، وخرج الجميع صغيرهم وكبيرهم حتى الشيوخ منهم وكذا الغنى والفقير، واجتمعوا فى ميدان، وخرج ملك تلك المدينة إلى الميدان أيضاً وسط أمرائه وحاشيته، فاصطف الجميع حينما وصل الملك، وكنت بينهم أشاهد ذلك المشهد، ويبدو أنهم كانوا ينتظرون شخصا ما، وبعد برهة جاء شاب ذو وسامة وملاحة يبلغ من العمر خمس عشرة أو ست عشرة سنة راكباً ثوراً وكان يحدث ضجيجاً ويحمل فى يده شيئاً، ووقف فى مواجهة هؤلاء الخلق وترجل عن ثوره وهو ممسك بإحدى يديه بلجام الثور وبالأخرى سيفاً، وجثا على ركبتيه - وكان برفقته فتى حسن الطلعة فى جمال الحور - فأعطاه ذلك الشاب الشىء الذى كان معه، فأخذه الفتى وجال به على الحضور ليروه، وكان من يرى هذا الشىء يبكى بشدة رغماً عنه وبعد أن عرضه على الناس وأبكاهم عاد مرة ثانية إلى مولاه.

وحينما وصل ذلك الفتى إلى مولاه، نهض الشاب وبتر عنق الفتى بسيفه، ثم ركب وعاد من حيث أتى، وكان كل الناس يرقبون هذا المشهد، وعندما غاب عن الأنظار عاد الجميع إلى المدينة.

وكنت أسأل كل من ألقاه عن تلك الحادثة، بل أرغبه بالمال لكى يخبرنى، وأتوسل إليه ليخبرنى عن حقيقة ذلك الشاب ولماذا فعل مافعل؟ ومن أين جاء؟ وإلى أين ذهب؟ لكن ما أخبرنى أحد قط، وما أدركت أنا أيضاً سر هذا اللغز، وبعدما رأيت هذا المشهد عدت إلى الأميرة وقصصت عليها ماحدث، فاندهشت الأميرة، وأرادت أن تتحقق مما رويت!! وقررت أن من سيأتيها بحقيقة تلك الواقعة، ستكافئه بأن يكون إحضار الحقيقة مهراً لها، وتحبه وتملكه ملكها ونفسها.

ثم قالت الوصيفة لى: «لقد سمعت ما أعلنته الآن، فإن كان بإمكانك أن تأتى بخبر ذلك الشاب فاذهب على الفور لبلاد «نيم روز» وعد بسرعة وإلا فامض، ولترجع من حيث أتيت.

فأجبت – إن شاء الله – سأحضر النبأ اليقين والحقيقة الكاملة وأفوز بالجائزة، وإن لم يكن لى حظ فى بلوغ الحقيقة، فليست لى حيلة، لكن الأميرة لابد أن تؤكد لى أنها لن تخلف وعدها، ففى الحقيقة ينتاب قلبى بعض الخوف من ذلك، فياليت الأميرة تسمح لى بلقائها شفقة بقلبى وتعطفاً منها علىّ باعتبار أننى غريب وعلى سفر وتجلسنى خلف سترها وتسمع منى وتجيبنى بنفسها، فسيكون فى ذلك راحة لبالى واطمئنان لخاطرى، وعندئذ سأتمكن من القيام بتلك المهمة».

فأبلغت هذه العجوز الأميرة بذلك المطلب، فأمرتها قائلة أحضريه تقديراً منها لشخصى، فعادت الوصيفة واصطحبتنى إلى قصر الأميرة، وعندما ذهبت وجدت على الجانبين صديقات الأميرة فوصيفاتها وحشمها وخدمها وقيانها كل حسب منصبه طبقاً للمراسم الملكية، وكان المكان زاخراً بالخدم والحشم فكيف أصف هذا المشهد وأى لفظ يعبر عن كثرة الحضور، فصدرت منى آهة رغماً عنى واختلج قلبى لكننى تماسكت وسرت بين هذا الجمع ناظرا لهذا المشهد، وثقلت قدماى فقد كانت الوصيفات على قدر عظيم من الحسن والجمال لدرجة أننى عندما كنت أمر بواحدة منهن لاأستطيع أن أغادرها إلى الأخرى وكانت الأرائك مصنوعة من خشب الصندل، فأشارت الوصيفة لى بالجلوس، فجلست على إحدى الأرائك وجلست هى على العرش وقالت: «قل الآن مايشاء لك القول حتى ترضى».

فأثنيت أولاً على الملكة وعلى حسن شمائلها وماتتمتع به من عدل وإنصاف، ثم بدأت أقول: «منذ وطئت قدماى حدود هذه البلاد وأنا أرى فى كل مكان داراً لضيافة المسافرين، وشاهدت المبانى العالية فى كل الأنحاء والخدم والغلمان والموظفين لاحصر لهم كل فى وظيفته وحسب منصبه يقومون على راحة المسافرين والمحتاجين وقد قضيت أنا أيضا فى إحدى تلك الدور ثلاثة أيام، وحينما قررت أن أغادرها فى اليوم الرابع لم يدعنى أحد أذهب قط وكان كل منهم يقول لى خذ معك كل مابالبيت من متاع ومال أودعه على سبيل الأمانة فهو ملك لك خذه وقتما تشاء، ففعلت ذلك وتركته على سبيل الأمانة لكننى فى دهشة فعندما تقومون بهذا السلوك معى فطبعاً أنتم تقومون به مع من يأتيكم غيرى أيضاً، وذلك يتطلب أموالا طائلة فمن أين لكم بها؟ ومن أين جاء هذا المال؟ فإن تكن لديكم خزائن قارون، فما كانت لتكفى كل هذه النفقات فلو نظرنا إلى ماتملكه الأميرة فى ملكها ومايدره عليها من

ربح لوجدناه لا يكفى لنفقات الطعام فقط، فضلاً عن المصاريف الأخرى، فإن فسرت الأميرة لى هذا الأمر بنفسها لاسترحت كثيرا، وأقصد مدينة «نيم روز» على الفور، وأبحث عن حقيقة أحوال ذلك الشاب ثم أعود لخدمة الأميرة وأنعم بقربها وأحقق أمنية قلبى».

وما أن سمعت الأميرة قولى حتى قالت بنفسها: «أيها الشاب، إن كنت تبغى أن تعرف السبب، فلتمكث اليوم فسأخبرك بأمر تلك الأموال الثابتة بلا نقصان مساء اليوم، ولما اطمأننت لحديثها توجهت إلى مكان إقامتى منتظراً حلول المساء حتى تتحقق أمنيتى، وفى أثناء ذلك جاء رئيس الخدم والحشم وبرفقته الغلمان يحملون الصحاف وبها مختلف صنوف الطعام الذى يُقدم على مأدبة الأمراء، وقال لى: هذا الطعام من طعام الأمراء فكله.

وحينما كشف الغطاء عن الطعام، انبعثت الروائح الزكية التى سال لها لعابى، وتناولت من الطعام ماطاب لى، وتركت مابقى وأرسلت شكرى وامتنانى للأميرة، وحينما دخلت الشمس بيتها بعد عناء سفر يوم طويل، وخرج القمر فى ديوانه مع أصحابه، جاءت الوصيفة وقالت: «هيا، إن الأميرة تطلبك» فمضيت برفقتها، وأخذتنى إلى مكان خاص، وكان المكان مضيئاً لدرجة عالية جداً، وكانت الرياش الملكية هنا وهناك والأرائك منسوجة بخيوط الذهب والفضة، والوسائد يتدلى منها الدر، و«ذوائب» الستائر من الدر واللؤلؤ والستائر نفسها معلقة بأعمدة من الذهب الخالص، وأمام مسند الأميرة كانت هناك أشجار من الذهب وزهورها من الجواهر واللآلئ الثمينة، وتبدو هذه الأشجار وكأنها أشجار طبيعية، وكان البساط من الذهب الخالص يصطف حوله الخدم والحشم على كلا جانبيه لاتبدر منهم أى حركة احتراماً وتوقيراً، والقيان والمطربات يعزفن وينشدن الأغانى، وبعد أن رأيت ذلك المشهد خلب لبى، فسألت الخادمة قائلا: «للنهار زينة ولليل زينة كأن النهار عيد والليلة كليلة البراءة» بل إن هذه الراحة والدعة مما لايتاح لملك من الملوك حتى وإن كان ملكاً للأقاليم السبعة». فبدأت الخادمة تقول: «إن كل مارأيت هو من مصانع الأميرة وكلها تنتج متاعاً على هذا المستوى ولايعتريها أى نقص بل إنها تزيد وتزدهر، فلتجلس هنا فإن الأميرة فى مكان آخر وسأخبرها بمقدمك».

ثم ذهبت الوصيفة وعادت من فورها وقالت: «تفضل وأمثل بين يدى الأميرة، وبمجرد أن دخلت ذلك المكان عقدت الدهشة لسانى حيث إننى لم أستطع أن أميز أين الباب وأين الحائط فقد كانت القاعة ممتلئة بالمرايا المطعمة باللآلئ والجواهر، فمن ينظر فى المرآة يجد

الدر والجواهر التى فى المرآة المقابلة وهكذا، وفى أحد الأركان «ساتر» تجلس الأميرة خلفه، وجلست الوصيفة فى الناحية الأخرى للساتر وقالت لى: اجلس، وبدأت تتحدث بما تقوله لها الأميرة فقالت: «اسمع أيها الشاب الفطن سلطان هذه المنطقة كان أبى ملكاً عظيماً وله سبع بنات، وذات يوم أقام الملك احتفالات وجلس وأحاطت به بناته وقد تجلين فى أبهى زينة متحليات بأنفس الجواهر واللآلئ على أثوابهن ورءوسهن، فدار بخلد الملك أمر، فنظر إلى بناته وقال: «لو لم يكن أبو كن ملكاً، ولو كنتن قد ولدتن فى بيت فقير، فمن كان سيلقبكن بالأميرات أو الملكات؟، احمدن الله سبحانه وتعالى بأنكن أميرات، فكل ماتنعمن به هو بفضلى» فأجابت ستٍ منهن دفعة واحدة: «كل مايقول جلالتكم هو الحق، فخيرنا فى سلامتك. وأما السابعة وهى الأميرة التى تحدثك الآن وهى أصغرهن سنا لكنها تبدو أرجحهن عقلاً، ظلت صامتة ولم تشاركهن الحديث لأن هذه الكلمة هى كلمة الكفر، فنظر الملك إليها غاضباً وقال: «لماذا لم تقولى شيئا أنت أيضا يافتاتى؟، فعقدت الأميرة يديها وقالت: «إن أعطيتنى الأمان ووهبتنى العفو والصفح فسأفصح عما يجول بخاطرى، فأجابها قائلاً: «قولى ماتريدين» قلت: «ياقبلة العالم لقد علمت أن الحق مر وأقول هذا وقد غسلت يدى من الحياة (أعرف أن حياتى فى خطر) وماكتبه الله لى فسيكون:

ـ إن كنت تمشى كثيراً أو تكثر السجود

ـ سيحدث لك ماسطر على جبينك

فالملك المطلق الذى جعلك ملكاً، هو الذى جعل الناس يدعوننى الأميرة، فلا خيار لأحد أمام قدرته وإن كان جلالتك ولى نعمتى وقبلتى وكعبتى ومن الجائز أن أكتحل بتراب قدميك المبارك، إلا أن النصيب مقدر لكل إنسان» . فطاش صواب الملك لسماعه ذلك القول وقد شق على قلبه ذلك الجواب فقال مضطرا: «الفم صغير والقول كبير، فعقاب هذه أن تجرد من كل حُليها وزينتها وتنفى فى غابة خالية من أى إنسان، لنرى ماذا سيكون مقدراً لها ومن نصيبها» .

وطبقا لأوامر الملك ساق الخادم الملكة فى جنح الليل وهى التى لم تغادر قصر والدها من قبل ولم تشاهد أى مكان آخر، وتركها الخادم فى مكان لايستطيع الطير أن يطير فيه فضلا عن الإنسان، وانتابتها حالة من العجب والدهشة فكيف كان حالها وكيف أصبح الآن؟

فحمدت ربها وأثنت عليه وقالت: «إنك أنت الصمد وقدرت وماشئت فعلت وستفعل ماتشاء، ولن أيأس من رحمتك قط إلى أن يحين أجلى، وراحت فى سُبات عميق، وما أن بزغ الفجر حتى فتحت عينيها وقالت: آئتنى بماء للوضوء. وعندما تذكرت كل مامر بها بالليل وأين هى وماذا تقول، قامت وتيممت وصلت ركعتين للشكر. فيا أيتها الملكة إن قلبى ينفطر بسماع ذلك. (٦) وفى أثناء ذلك الحال كنت أتضرع إلى الله عز وجل وأنشد هذه الأبيات:

- عندما لم يكن لدى أسنان كنت تمنحنى اللبن.

- وعندما منحتنى الأسنان كيف لاتمنحنى الغذاء.

- فالله الذى رزق الطير والحيوان يرزقك أيضاً .

- فلا داعى للخوف لهذا القلب فلا حاجة به لذلك.

- فالرازق لكل ذى روح وغير ذى روح قادر على أن يرزقك.

الحقيقة أن الإنسان إذا مر بضائقة فإنه يلوذ بالله ويذكره، وإذا ماخرج من الضائقة فإنه يعتبر نفسه لقمان الحكيم أو ابن سينا، فلتر الآن وتسمع قدرة الله، فقد مضت ثلاثة أيام ولم يدخل فى جوف الملكة ولاحتى حبة خردل، فجف عودها وذبلت الزهرة وصارت شوكاً وامتقع وجهها النضر ويبست شفتاها وتحجرت عيناها وكادت تموت لكن أنفاسها كانت تتردد فى صدرها وكان لها رجاء فى الله ألا يحضرها الموت، وفى صباح اليوم الرابع جاء أحد الدراويش فى هيئة الخضر مضىء القلب والوجه، فقال لها بعدما رأى من حالها: «يابنيتى على الرغم من أن أباك ملك، إلا أن هذا الحال قد قدر عليك، الآن اعتبرى هذا الفقير خادماً لك واذكرى الله عز وجل وتضرعى إليه ليل نهار يفعل الله لك خيراً.

ووضع الفقير أمامها كل ماكان فى جعبته من طعام وذهب باحثاً عن الماء، فأبصر بئراً لكنه لم يجد دلواً ولا حبلاً، فكيف يرفع الماء، فقطع أوراقاً من الشجر وصنع منها وعاء وأخذ من صدره حبلاً وربطه وأنزله فى البئر وأخرج الماء وأحضره لها وسقاها إياه. فاستعادت وعيها وطمأنها ذلك الرجل الصالح بالنسبة لوحدتها وغربتها فى ذلك المكان الموحش وأخذت فى البكاء، فلما رأته طمأنها وواساها، استقر قلبها واعتدل مزاجها، ومنذ ذلك اليوم صار من عادة الشيخ أن يخرج فى الصباح ويغيب طوال اليوم مستجدياً الطعام ويحضره لها

فى المساء، فمضت عدة أيام على هذا المنوال، وذات يوم أرادت أن تمشط شعرها، وتدهنه بالزيوت والعطور، وحينما حلت ضفيرتها سقط من رأسها در ثمين فمنحته للدرويش وقالت له اذهب إلى السوق وبعه فذهب الفقير وباعه ثم عاد وأعطاها الثمن، فقالت له: «ابن فى ذلك المكان بيتاً مناسباً للإقامة «فقال الفقير: «يابنيتى، احفرى الأرض واستخرجى منها التراب وفى يوم سأحضر مواد البناء وأضع الأساس» وطوعاً لأمره بدأت تحفر الأرض، وحينما حفرت متراً تحت الأرض ظهر باب تحت الأرض، فنظفت ذلك الباب، فرأت بيتاً كبيراً ممتلئاً بالجواهر والدنانير، فأخذت بضع حفنات من الدنانير ثم أغلقت الباب، ومهدت الأرض مرة أخرى، وأثناء ذلك عاد هذا الشيخ، فقالت له: «احضر العمال والفعلة والمهندسين ليبنوا فى هذا المكان قصراً ملكياً يضاهى قصر كسرى ويفوق قصر النعمان، وأعدوا بسرعة حصناً وقلعة وحديقة ومؤلاً للمسافرين ليس لها نظير، لكن ليحضروا أولاً تصميماً على الورق لأوافق عليه».

وطوعاً لأمرها أحضر الفقير العمال والفعلة وبدأوا يبنون القصر، وأحضر الموظفين والخدم والحشم المنتخبين من أفضل العناصر والمتخصصين فى كل شئون الخدمة، وأخذ صيت هذا القصر يذيع يوماً بعد يوم حتى بلغت أنباؤه مسامع أبى الملك، فتعجب كثيراً وسأل كل من يقابله، من هذا الذى بدأ يبنى مثل هذه القصور؟ لكن لم يكن أحد يعرف شكلى ليخبره فأجاب الجميع بعدم معرفتهم بصاحب ذلك القصر فأرسل الملك أميراً ورسالة، إننى أريد أن أرى هذا القصر ولنعرف من أنت ومن أين جئت؟ ولأى أسرة تنتمين؟» وحينما سمعت هذا الخبر فرحت وأرسلت رسالة «سلمك الله يا ملاذ العالم، فلقد سررت كثيراً بأنك ستشرفنا بزيارتك فهذا شرف لى وعزة، ومن يمن طالع ذلك المكان أنك ستشرفه بقدمك المباركة، والقاطنون إلى جوارك وفى ظل ملكك لهم عزة ورفعة، وهذه الخادمة تأمل أن غداً «يوم الخميس» يوم مبارك وأفضل عندى من «النوروز» وسموك تشرفنى كالشمس المشرقة وتشرفنى بنورك، فارفع من شأنى بتشريفك بالحضور، وبمقدمك ستكون المواساة للفقير والغريب» وودعت هذا الأمير بعد أن قمت بتحيته وإكرامه.

وبعد أن قرأ الملك رسالتها كتب إليها قائلا: «إننى قبلت دعوتك ولاشك أننى سأحضر». وأمرت الخدام والموظفين بأن يعدوا لوازم الضيافة حتى تحظى بإعجاب الملك وسروره، وأعدوا طعاماً لذيذاً بحيث لايبق أى طعام فى صحاف الملك، وطبقا لأوامرها أعدت أنواع

من الطعام والحلوى لو أكلتها بنت «برهمن»[٧] لقالت «لاإله إلا الله»، وعندما حل المساء وصل الملك فى موكبه إلى بيتها فاستقبلته بين صديقاتها وخواصها. وحينما رأينا عرش الملك تلونا التحية الملكية فتحير الملك، ثم أجلسنا الملك على عرش مرصع وأعددنا منصة باهظة التكاليف فكانت تكاليفها مائة وخمسة وعشرين ألفا من الروبيات وأعددنا له الهدايا والنذور من الجواهر والنقود والحرير والديباج والفيلة والخيول. ثم عقدت يداها ووقفت أمامه.

فقال الملك بكل عطف ومحبة: «أميرة أى إقليم أنت؟ وكيف قدمت إلى هنا؟» فقدمت الملكة الاحترامات والتحيات فى حضرة الملك الوالد واستأذنت وقالت: تلك الخادمة المذنبة التى أثارت غضب الوالد الملك فأرسلها إلى الغابة، وكل ماتراه الآن هو بفضل الله سبحانه وتعالى». فسرت دماء الحب فى عروقه فنهض وعانقها بكل الحب والمودة. وتناول يدها وأخذها وأجلسها على العرش إلى جواره، وكان والدها متحيراً ومتعجباً وأمر باستدعاء الملكة مع بقية بناتها وحينما وصلت، عرفتها أمها وأخواتها وبكوا جميعاً وحمدوا الله عز وجل، ونثرت الملكة الأموال والجواهر على أقدام أمها وأخواتها بما يفوق كثيراً مافى خزائن الدنيا، ثم تناول الملك مع الجميع الطعام الملكى.

وكان الملك طوال حياته يزورها أحيانا مع أمها، وحينما مات الملك، ورثت الملكة كل ماتركه أبوها من ملك وثروة، لأن غيرها لم يكن جديراً بذلك.

هذه أيها الصديق قصة هذا المال الموهوب من الله عز وجل ولهذا هو دائم لايزول، لكن لابد أن يخلص الإنسان نيته وضميره لله سبحانه وتعالى، وكلما أنفق الإنسان من ذلك المال فى سبيل الخير زاد بركة ونماء، فلا يجوز فى أى دين أو عقيدة أن يتعجب الإنسان من قدرة الله عز وجل».

وبعد أن أتمت الوصيفة ذلك الحديث قالت: «إن شئت السفر إلى ذلك المكان «نيم روز» لتأتى بالخبر اليقين، فامض على الفور «فقلت: سأذهب الآن فوراً، وإن شاء الله أعود مسرعاً، ثم غادرت وتوجهت إلى تلك البلدة، أملا فى رحمة الله تعالى، ووصلت إلى بلدة «نيم روز» خلال عام واحد بشق الأنفس، وكنت كلما قابلت شخصاً صغيراً كان أو كبيراً وجدته متشحاً بالسواد فرأيت بعينى كل ماسمعت، وبعد عدة أيام هلّ الهلال وكان اليوم الأول من الشهر، فاجتمع جميع أهل البلدة أمراؤهم وعظماؤهم وكبارهم وصغارهم ورجالهم ونساؤهم ووقفت

بين هذا الحشد الغفير متحيرا غريباً عن وطنى ومالى فى هيئة الفقير منتظراً لأرى ماسيحدث فى الغيب، وفى تلك الأثناء خرج شاب من الغابة راكبا الثور واضعاً يده فى فمه صائحا، وأنا الذى تجشم العناء والمشقة لأكتشف حقيقة ذلك الأمر وقفت واجما ناظراً إليه، وسلك ذلك الشاب نفس السلوك الذى بدر منه قبل ذلك وعاد من حيث أتى، وانصرف كل القوم إلى شئونهم، وحينما عدت إلى رشدى، تأسفت على مافعلت وقلت: ماذا فعلت أنا؟ فلابد لى أن أنتظر شهرا آخر، وفى النهاية عدت مع الجميع إلى البلدة، وقضيت هذا الشهر أعد أيامه يوما يوماً وكأنه شهر رمضان ثم هل هلال الشهر الجديد، وكأن هذا اليوم عيد لى، وفى اليوم الأول اجتمع كل الناس فى نفس المكان، وكان العزم على ضرورة معرفتى لهذا السر الغريب هذه المرة مسيطراً على نفسى مالكاً لحواسى، وعندئذ وصل الشاب وفقاً لعادته راكبا على الثور ونزل وكان فى إحدى يديه سيف وفى الأخرى لجام الثور، وأعطى الغلام قدراً من الفخار، فعرض هذا الغلام القدر على جميع الناس فبكى الجميع بمجرد النظر إليه، وكسر الشاب هذا القدر، وضرب رأس الغلام بالسيف، فانفصل رأسه عن جسده، ثم ركب وعاد من حيث أتى، فبدأت أسير خلفه فجذبنى الناس من يدى وقالوا ماذا تفعل؟ لماذا تتعمد أن تجازف بحياتك، لو كنت غير راض عن الحياة فهناك طرق كثيرة للموت فمت بوسيلة أخرى فألححت كثيراً وحاولت أن أفر منهم، لكننى ماستطعت فقد أحاط بى أربعة أشخاص وحالوا دون تعقبى لذلك الشاب، وأخذونى إلى البلدة، فتأسفت كثيراً ومر على تلك الحال شهر كامل.

وعندما اكتمل الشهر، وحلت ليلة رؤية الهلال اجتمع الناس فى ذلك المكان كسابق عهدهم، وكنت قد استيقظت مبكراً وقت الصلاة، ثم توجهت إلى الغابة التى تشرف على الطريق الذى يأتى منه ذلك الشاب، واختبأت بها حتى لايعترض طريقى أحد، وجاء ذلك الشاب كالمعتاد وقام بنفس الأمور التى كان يقوم بها فى كل مرة وبدأت أتتبع خطاه حتى لحقت به، فالتفت الشاب فجأة عندما شعر بأن هناك من يتبعه وصاح صيحة عظيمة واستل سيفه راغباً فى قتلى، فانحنيت تحية له وعقدت يدى وأنا فى طريقى إليه، فبدأ الشاب، يتكلم وقال: «أيها الفقير، كادت حياتك أن تضيع هباء، لكن عمرك طويل ولهذا كتبت لك النجاة، عد من حيث أتيت».

وأخرج من وسطه خنجرا مرصعاً بالدر والجوهر وأعطانى إياه وقال لى:

«خذ هذا فهو كل ماأملك الآن».

وقال: «اذهب به للملك فيعطيك ماتشاء».

فتملكنى الرعب والفزع لهيئته المهيبة ولم أقو على المسير وعقد الخوف لسانى وتسمرت قدماى.

قال لى هذا القول ومشى صائحاً، فقلت فى نفسى: «ليكن مايكون فليس من المناسب أن أتراجع الآن، فلن تسنح لى هذه الفرصة مرة أخرى وحملت روحى على كفى وسرت خلفه».

فالتفت إلى مرة ثانية وصاح فى وجهى غاضباً ماذا تفعل ياهذا؟ وهم بقتلى، فانحنيت أمامه وقلت: «ياأيها الشاب» «رستم» اضرب عنقى بالسيف حتى تفصل رأسى عن جسدى كى أستريح مما أعانيه من حيرة واضطراب وضياع وقد أبحت لك دمى»، فقال: «أيها الشيطان لماذا تحملنى حرمة دمك فى عنقى؟ وتجعلنى مذنباً؟ فسر فى طريقك فهل يئست من حياتك؟».

فما استجبت لأمره وشرعت فى المسير خلفه فتجاهلنى عامداً وسرت خلفه زهاء فرسخين حتى تجاوزنا الغابة ورأينا سوراً ووصل الشاب إلى بابه وصاح صيحة حتى انفتح الباب، فدخل وجلس وكنت أقف بالخارج وقلت متحيراً: «يارب ماذا أفعل»؟ وبعد لحظة جاء الغلام وقال لى: «إن الشاب يدعوك لمقابلته، فكأن ملك الموت قد وصل، فأى سوء حظ قد قابلك» فقلت له: « هذا من حسن حظى» ودخلت معه فى الحديقة دون خوف.

وفى النهاية أوصلنى إلى حيث يجلس الشاب فألقيت عليه السلام بعدما رأيته، فأشار إلى بالجلوس، فجثوت على ركبتى، فوجدت ذلك الشاب يجلس على الأريكة منفرداً وأمامه أسلحة ثمينة وأشجار من الزمرد وحينما جاء وقت قيامه اختفى جميع الغلمان من أمامه فى الغرف، ودخلت أنا أيضاً فى إحدى الغرف خوفاً، فقام الشاب وأغلق جميع الأماكن وخرج إلى أحد الأنحاء فى الحديقة وبدأ يضرب ثوره الذى كان يمتطيه، فوصلنى صياح الثور، فارتعد قلبى خوفا، لكننى تحملت جميع المصائب لمعرفة هذا السر ففتحت الباب خائفاً واختبأت وراء شجرة ناظراً إليه، فترك الشاب السوط الذى يجلد به الثور، وفتح قفل إحدى الغرف ودخل مسرعاً ومسح على ظهر الثور وقبله ووضع أمامه العلف ثم عاد إلى الغرف

فأسرعت واختبأت بالغرفة ففتح الشاب جميع الغرف وخرج جميع الخدم وأحضروا وعاءً وأبريقاً للوضوء، فتوضأ الشاب وقام للصلاة وبعد أداء الصلاة قال منادياً: «أين الفقير «الدرويش» فهرولت إليه ووقفت بين يديه بعد أن سمعت اسمى، فقال لى: «اجلس».

فسلمت عليه وجلست، فجاء الطعام فتناول هو وأعطانى أيضاً فأكلت، وبعد الانتهاء من الطعام والاغتسال، قال الشاب للخدم: «اذهبوا للنوم والراحة» وعندما لم يبق أحد منهم وأصبحنا بمفردنا شرع فى الحديث معى فسألنى: «ياعزيزى ماذا حل بك فأنت تبحث وتجد وراء حتفك، فقصصت عليه قصتى من البداية إلى النهاية بكل تفاصيلها، وقلت له: «أرجو من حضرتك أن تبلغنى أملى» وعندما سمع هذا زفر زفرة حارة، وخر مغشياً عليه وبدأ يقول: «ياإلهى، من يعرف أكثر منك ألم العشق؟ فمن لم يكابد آلام العشق لايعرفها، فالذى يشعر بالألم هو الذى يقدر آلام الغير.

ـ يسـأل العـاشـقين عن آلام العـشق.

ـ أنى للفاسق أن يعرف؟ فليسأل الصادق.

وبعد لحظة استرد وعيه وزفر زفرة حارة وتردد صدى صوته فى كافة الأرجاء، فتيقنت أنه أيضا أسير للعشق ومريض بهذه الآفة، فقلت له: «لقد قصصت عليك قصتى، فلتحك لى حكايتك أيضا لو تكرمت، فسأبذل جهدى لأسرى عنك حسب طاقتى وأحقق لك أمنيتك».

فالخلاصة أن ذلك العاشق الصادق بدأ يقص قصته بعد أن جعلنى كاتم أسراره ورفيقه المقرب وقال: «اسمع ياعزيزى إننى محترق القلب ابن ملك هذا الإقليم «نيم روز» فالملك أبى دعا بعد ولادتى الرمالين والمنجمين وقارئى الكف وقال لهم اقرأوا طالع هذا الصبى وانظروا فى يوم سعده وأخبرونى عما سيمر به طوال حياته يوماً بيوم وساعة بساعة وشهراً بشهر وعاماً بعام»، فقام المنجمون طبقاً لأوامر الملك بعد النجوم وقراءة طالع الصبى، وبدأوا يخبرونه بما قرأوه فى طالعه وقالوا: «من فضل الله، ولد هذا الصبى فى وقت يمكن له أن يصبح ملكا مثل «الإسكندر» وعادلا مثل «أنوشيروان» ويتفوق فى كل علم وفن، ويجد كل مايهفو قلبه إليه وينال شهرة فى السخاء والشجاعة حتى ينسى الناس «حاتماً» و«رستم» ولكن بعد النظر إلى الشمس والقمر لأربع عشرة سنة يبدو خطر عظيم بل من المؤكد أنه سيصبح

مجنوناً ومختلاً عقلياً وسيقتل الكثير من الناس، ويخاف من القرية ويخرج للغابة ويتهلل لرؤية الحيوان والطير، ويلتزم بأنه لايرى الشمس ولاالقمر ليل نهار، بل لايرفع نظره إلى السماء وبعد انقضاء هذه المدة سيصبح ملكا ويحيا حياة عظيمة مطمئنة».

وبعد أن سمع الملك ذلك القول، أنشأ هذه الحديقة، كما أنشأ العديد من المبانى ذات الطرز المتعددة، وأمر أن أربى فى قبو القصر ويكون فوقه برج ويوضع فوق هذا البرج قطعة من القماش الثقيل تحجب أشعة الشمس وضوء القمر، وأمر أن ترضعنى مرضعة، وكنت أترعرع تحت رعاية الخدم والمربيات، وقد عين أبى لى أستاذا ذا حكمة وبصيرة وحنكة ايعلمنى كل العلوم والفنون ويدربنى على فنون الخط السبعة(٨) وكان الملك دائم التتبع لأخبارى، وتأتيه التقارير عنى كل يوم، وكان هذا المكان الذى تربيت فيه هو كل عالمى ودنياى ألعب فيه باللعب وكانت جميع أنواع الطعام موجودة بهذا المكان أتناول ماأشاء وقتما أشاء، برعت فى جميع الفنون والصناعات وكان عمرى عشر سنين.

وذات يوم رأيت زهراً غريبا تحت نافذة القبة، وكان ينمو كلما نظرت إليه فرغبت أن أشمه فكلما اقتربت يدى منه بعد عنها وكلما رفعتها إليه طال أكثر منها، وكنت أنظر إليه متعجباً فاذا بى أسمع صوت قهقهة، فرفعت رأسى لأرى صاحب الصوت، فرأيت وجها بارع الحسن كالقمر وكانت تتطلع إلىّ بوجهها كالقمر فى السماء، ومان رأيت ذلك الوجه حتى فقدت رشدى ووعيى، فتمالكت نفسى، فرأيت هودجا يحمله أبناء الحور وفى هذا الهودج فتاة على رأسها تاج من الدر والجوهر ترتدى ثوباً براقاً وفى يدها كأس ياقوتية وكانت تجلس وكأنها احتست شراباً.

هبط الهودج تدريجياً فى القبة، فدعتنى تلك الحسناء وأجلستنى إلى جوارها وبدأت تتكلم معى حديث العشق واقتربت بفمها من فمى وأشربتنى ماء الورد، وقالت: «إن ابن آدم «الإنسى» لعديم الوفاء، لكن قلبى يميل إليك»، وتحدثت إلىّ بأساليب كثيرة فى دلال ورقة فخرج أمر قلبى من يدى، وسررت وكأننى وجدت لذة ومتعة الحياة، وأدركت أننى جئت هذا اليوم فقط إلى العالم».

الخلاصة إننى أعتقد أنه لست أنا فقط من لم يشاهد هذا المنظر، بل أنه ليس هناك من رآه قط ولاسمعه، وبينما كنا نجلس معاً فى تلك الحال من النشوة فاذا بكارثة تحل بى حيث أدرك حاملوا الهودج من أبناء الحور ماصار بينى وبين تلك الحسناء فجاءوا وهمسوا لها فتغير

وجهها بعد أن سمعت منهم وقالت لى: «ياحبيبى إن قلبى كان يهفو إلى البقاء إلى جوارك بعض الوقت لأسعد وأود أن آتى دائماً إليك أو آخذك معى لكن السماء لاتمنح شخصين فى مكان واحد الراحة والسعادة وإنى لذاهبة، فليحفظك الله».

بعد أن سمعت هذا فقدت وعيى - وكأن الببغاء طارت من يدى - وقلت لها: «متى نتقابل ولماذا تغضبين بهذا الخبر السيىء؟ فإما أن تعودى بسرعة وتجدينى على قيد الحياة أو تأسفى علىّ وإما فلتخبرينى بعنوانك حتى أحاول أن أجدك وأصل إليك»، فقالت: «لاقدر الله، أبعد الله عنك هذا الشر وليطيل الله عمرك مائة وعشرين سنة، إن بقينا على قيد الحياة فسنلتقى إن شاء الله، أنا بنت ملك الجن وأقطن فى جبل «قاف»، ثم صعد الهودج تدريجياً كما هبط وطوال وجودها لم تغب عن ناظرى، وكانت أعيننا شاخصة إلى بعضنا البعض وحينما غابت عن نظرى، صرت كمن مسه الجنون وغلبنى الحزن الشديد وغاب عنى العقل والوعى، وأظلمت الدنيا فى عينى، وبكيت مضطرباً وحيراناً وانساب دمعى مدراراً، وكنت أهيل التراب على رأسى وأمزق ثوبى، ولاأبالى بالطعام ولاأميز بين الصالح والطالح:

ـ كم من مـــآس يســـبـــبـــهـــا العـــشق

ـ فـــالقلب امـــتـــلأ بالأحـــزان والحـــيـــرة

وعلمت مربيتى ومعلمى بما حل بى من اضطراب، فأسرعا للملك خائفين وأخبراه أن الأمير أصبح غائبا عن العالم ولايعرف سبب ماحل به والذى أدى إلى تركه للراحة وزهده فى الطعام والشراب».

فاستدعى الملك كل الأمراء والوزراء والحكماء البارعين والمنجمين الصادقين والصالحين والدراويش والمجاذيب وأحضرهم إلى الحديقة.

فدهشوا أيضاً بعد أن رأونى على تلك الحال من الاضطراب والنواح والبكاء وغلبهم البكاء وعانقونى، وأمرهم الملك بأن يتدبروا حلا فكتب الحكماء ورقة بها دواء يقوى الدماغ والقلب وأعطانى المشايخ والدراويش التعاويذ والتمائم لأعلقها وأشربها وبدأوا ينفخون على بعد قراءة الدعاء والرقية، وقال المنجمون إن دوران النجوم يتسبب فى هذا فتصدق».

فالخلاصة أن قال كل منهم وجهة نظره طبقاً لعلمه، أما ما كان بى فأنا وحدى الذى أعرفه، ولم تجد معى مساعدة أو علاج، وازداد جنونى يوما بعد يوم، وهزل جسمى بسبب البقاء دون طعام أو شراب، ولم أكن أقوى على شيء سوى الصياح ليلا وضرب الجدران برأسى وقد مضت ثلاث سنوات وأنا على تلك الحال، وفى العام الرابع وصل تاجر للسياحة وأحضر معه الكثير من التحف العجيبة والغريبة من كل البلدان وقام بمصاحبتى واهتم الملك به كثيراً، وبعد أن قام بأداء واجب ضيافته سأله: «لقد طفت بكثير من البلدان فهل وجدت حكيما ذا كمال ومهارة أو سمعت عنه؟»، فأجاب قائلاً: «ياقبلة العالم لقد طفت ببلدان كثيرة، لكن فى الهند وفى وسط البحر يوجد جبل وبه عابد زاهد «هندوسى» وقد أسس هناك معبداً للإله «مهاديو» و«سنكت» وحديقة غناء يقطن بها، ومن عادته أن يخرج من بيته فى اليوم الأخير من العام ويسبح فى البحر ويمرح وبعد انتهائه من السباحة يعود لبيته، وفى أثناء ذلك يجتمع المرضى من الأقطار المختلفة والبعيدة «ويحتشدون بالباب.

إن ذلك العابد من الممكن أن يقال عنه أنه «أفلاطون» ذلك العصر، يقيس النبض وينظر فى القارورة، ويصف الدواء لكل شخص يذهب إلى بيته لقد قدر الله على يديه الشفاء لدرجة أن المريض يشفى بمجرد أن يرتشف رشفة من الدواء ويزول المرض نهائياً، وقد رأيت ذلك بعينى رأسى، وأدركت قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق مثل هؤلاء البشر، فلو تأمر أن آخذ ابنك وأذهب به إلى هذا الناسك فلدى أمل قوى أن يشفى شفاءً تاماً وبسرعة وفى الظاهر أن هذا التدبير حسن كذلك، لأن السياحة بين البلدان والأقطار وتناول مختلف الأطعمة والأشربة يكون من نتيجته اعتدال المزاج».

فاستحسن الملك هذا الرأى أيضاً وقال مسروراً: «هذا أفضل وربما يفيده علاجه ويزيل من قلب ابنى الوحشة»، فعين لى أميراً يعتمد عليه خبيراً مجرباً وهذا التاجر، وأعطانا الأشياء اللازمة للسفر كالأنواع المختلفة من السفن، وأركبنا البحر وودعنا. وقطعنا المسافة شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى المكان المقصود، فاعتدل مزاجى بسبب الطعام الجديد والماء والهواء العليل، لكن صحتى كانت على حالها، وكنت أبكى فى كل وقت، ولاأنسى تلك الحسناء فى أى لحظة، وإن أنسى فأنشد هذا البيت:

مـــا عــرفت حـــســـناء شـــغـــلت قلبـــى
من قـــبل وكـــان سليـــمـــاً ولم يصـيبـــه شىء

وعندما مر حوالى شهرين أو ثلاثة اجتمع حوالى أربعة آلاف من المرضى، وكان الكل يقول إن شاء الله سيخرج العابد من سردابه وسنشفى جميعاً بقوله شفاءً كاملاً.

وتكملة القصة حينما جاء ذلك اليوم، خرج العابد من سردابه كالشمس واغتسل فى البحر وسبح وعبر البحر ثم رجع ومسح على بدنه بنوع من الرماد، بهبهوت بهسم،(٩) وأخفى جسمه الأبيض كالشعلة فى الرماد ووشم جبينه بعلامة «ملاكير»(١٠) ولف الثوب حول وسطه ووضع المنشفة على كاهله وارتدى عباءته، وفتل شاربه وانتعل وبدا على وجهه أنه لايعبأ بشىء فى هذا العالم، وكان يحمل دواة وقرطاساً وكان ينظر إلى كل من يقف أمام ويصف له الدواء إلى أن وقف أمامى وحينما التقى نظره بنظرى، استغرق فى التفكير لحظة ثم قال لى تعالى معى، فصحبته، وحينما انتهى من الجميع أخذنى إلى الحديقة، وقال لى امكث هنا فى تلك الخلوة ذات النقوش والطلاسم، وذهب إلى سردابه، وبعد مرور أربعين يوماً جاء إلى ووجدنى أحسن من ذى قبل فابتسم وقال: «سر فى هذ الحديقة وإن أردت أن تأكل من ثمرها فكل» وأعطانى كوباً صينياً مملوءاً بالمعجون وقال لى: «كل من هذا المعجون كل يوم ستة مثاقيل صباحاً قبل الأكل» وذهب، وبدأت العمل بأوامره وبدأت استشعر القوة فى بدنى والفرح والسرور لكنه ماأثر على عشقى، وكانت صورة تلك الحسناء تتمثل دائماً أمامى.

وذات يوم رأيت كتاباً فى طاق الحجرة فأنزلته ورأيت أن جميع العلوم الدينية والدنيوية موجودة بهذا الكتاب، وكأن البحر أدخل فى قربة، فكنت أطالعه فى كل وقت، فمكننى هذا الكتاب من علم الحكمة وتسخير الجن بدرجة كبيرة، وفى ذلك الوقت كان قد مر عام، ثم جاء ذلك اليوم البهيج فى نهاية العام، فخرج العابد من سردابه فسلمت عليه فأعطانى دواة وقرطاساً وقال: «تعال معى» فصحبته وحينما خرجنا من الباب، دعا لنا الناس، وخر الأمير والتاجر على قدمى الناسك بعد أن رأيانى معه على تلك الحال وشكرا العابد قائلين: «لقد أصبح على تلك الحال بفضلك»، وذهب الناسك حسب عادته إلى البحر وسبح إلى الشاطئ الآخر ثم عاد وعبد كما كان يفعل فى كل سنة، وكان من عادته بعد السباحة أن يكشف على المرضى ويصف لهم الدواء، وحينما كان يقوم بذلك فى هذا العام أيضاً، رأى فجأة بين

المرضى، شاباً وسيماً لايقوى على النهوض بسبب هزال بدنه ووهنه، فقال لى خذ هذا الشاب، وعندما انتهى من الجميع، جاء إلى سردابه وقطع خصلة من شعر ذلك الشاب، وأراد أن ينظف هذا التراب من رأسه بالمبرد، فورد بخاطرى وقلت له: إنك لو وضعت هذا المبرد على النار ثم مررت به على ظهره لكان هذا أفضل فى إزالة تلك الأوساخ، لأنه إن استخدمت المبرد على رأسه فمن الممكن أن تصيب المخ وتقضى على حياته فلما سمع الناسك ذلك نظر إلى ونهض دون أن ينبس بكلمة وتوجه إلى ركن بالحديقة وكانت به شجرة وبها حبل فلفه على عنقه ثم شده، فذهبت إليه فرأيته ميتاً فتأسفت كثيراً ثم دار فى خلدى أن أدفنه، وعندما بدأت أفصله عن الشجرة سقط منه مفتاحان فأخذتهما ودفنت هذا الناسك وبدأت أفتح كل الأقفال انفتح بابان بهذين المفتاحين، وعندئذ رأيتهما مملوءتين بالجواهر الثمينة من الأرض إلى السقف، وفى ناحية صندوق مغطى بالمخمل وموشى بالذهب، ولما فتحته وجدت فيه كتاباً مكتوباً فيه اسم الله الأعظم، وطريقة تحضير الجن والحوريات واستدعاء الأرواح وتسخير الشمس، فسررت سروراً عظيماً بنيل هذا الكنز العظيم، وبدأت أعمل بما هو مكتوب به. وقلت لذلك الأمير ومن برفقته: «افتح باب الحديقة وأحضر السفن وحملها بكل هذا المتاع والمال والجواهر والكتب، وركبت قارباً وسرت فى البحر حتى بلغت مشارف بلادى، وبلغ الملك نبأ وصولى فركب واستقبلنى وعانقنى بشوق، فقلت له بعد أن قبلت قدمه: «مر بأن أسكن فى الحديقة القديمة»، فقال لى: «يابنى ذلك المكان أصبح منحوساً عندى، لهذا أوقفت ترميمه وإعداده، وذلك المكان الآن غير صالح لأن يقيم به إنسان، فانزل بأى قصر شئت فالقصور كثيرة فتخير أحسنها وكن تحت ناظرى، وجهز هذه الحديقة كيفما يتراءى لك وتمتع بها كما يحلو لك». لكننى قمت بإعداد تلك الحديقة القديمة من جديد بعد إصرار وإلحاح منى، وزينتها كالجنة ودخلتها، ثم جلست خالى البال أربعين يوماً لأسخر الجن، وتجنبت أكل اللحوم وانشغلت بالتأمل، وحينما اكتمل الأربعون يوماً، هبت عاصفة هوجاء فى منتصف الليل، وسقطت المبانى الكبيرة واقتلعت الأشجار وانجرفت، وظهرت كوكبة من الحوريات وهبط عرش من السماء، وكان يجلس عليه شخص مرتدياً حلة فاخرة من اللآلئ فسلمت عليه لما رأيته بكل احترام، فرد علىَّ السلام وقال: «ياعزيزى، ماشأنك بنا وماذا تريد منا؟» فقلت له: «إننى عاشق لابنتك منذ فترة طويلة ولأجلها احتملت

كثيراً من المصاعب والمتاعب، والآن أنا يئست من الحياة وألقيت بنفسى فى المهالك،وألتمس منك أن تشرفنى وتشملنى بعطفك وعنايتك، وتريحنى برؤيتها فتنال الثواب عند الله،، وبعد أن سمع إلتماسى قال: «إن الإنسان خلق من طين ونحن خلقنا من نار، ومن الصعب أن يتواءما، «فأقسمت بالله وقلت إننى أشتاق لرؤيتها ولاأمل لى سوى ذلك، فأجابنى قائلا: «إن الإنسان لايتمسك بقوله، ويعد عند الحاجة ثم لايفى بوعده، فأنا أقول هذا لصالحك، فإن كنت تقصد أنت شيئاً آخر فهذا فيه ضرر لك ولها، بل أنا أخشى على حياتكما، فقلت: «أنا لن أفعل شيئاً يضرنى أو يضرها فأنا أريد رؤيتها فقط، وفى أثناء ذلك وصلت تلك الحسناء التى نتحدث عنها فجأة وكانت فى أبهى زينتها، واختفى عرش الملك من أمامنا، فعانقتها وكأنها روحى رغما عنى، وأنشدت هذا الشعر:

- لماذا لايمر السحاب على بيتى

- وقد قضيت أربعين يوماً لأجله

وبدأنا نعيش معاً فى تلك الحديقة فى جو من الفرح والسرور وكنت لاأقربها خوفاً عليها وعلىّ بل أتمتع بوجودها بجوارى، وكانت تلك الحسناء مندهشة لأننى أفى بما وعدت، وتقول لى أحيانا: «ياحبيبى إنك صادق فى قولك، لكننى أنصحك لأجل الصداقة احذر من كتابك، لأن الجنى إن غفلت عنه سيسرقه فى أى يوم». فقلت لها: «أنا أحفظه كنفسى».

وفجأة ذات ليلة أغوانى الشيطان ووسوس لى، وراودتنى الشهوة، وقلت لنفسى إلى متى سأصبر فليحدث مايحدث، فاحتضنتها وأردت الجماع، فإذا بصوت يقول: «أعطنى هذا الكتاب، فإن به اسم الله الأعظم ولاتكن وقحاً وأعطيته دون أن أدرى وأنا فى غمرة تلك الحالة من النشوة واللذة، فقالت تلك الحسناء بعد أن رأت هذا: «أيها الظالم، أخيراً أنت أخطأت ونسيت النصيحة، ثم أغمى عليها. ورأيت عند رأسها جنياً حاملاً الكتاب، فأردت أن أضربه واسترد الكتاب، وفى أثناء ذلك أخذ جنى آخر الكتاب وهرب، فأخذت فى قراءة الأدعية التى كنت قد رأيتها بالكتاب، فمسخ الجنى الموجود ثوراً لكن مع الأسف أن الحسناء لم تسترد وعيها، وبقيت على حالها، فاضطربت وأصبح عيشى مراً.

ومنذ ذلك اليوم كنت ابغض الإنسان وأعيش فى ناحية من الحديقة، ولأريح قلبى كنت أصنع وعاء من الزمرد واللؤلؤ وأركب هذا الثور وأذهب كل شهر إلى ذلك الميدان وأكسر

الوعاء وأقتل غلاماً؛ رجاء أن يعرف الناس أحوالى ويأسفوا لها، فربما أجد شخصاً يدعو لى حتى أحقق أمنيتى.

ياصديقى: «هذه هى حقيقة جنونى وقد شرحتها لك جملة وتفصيلاً».

وبعد أن سمعت هذا اغرورقت عيناى بالدمع، وقلت له: «أيها الأمير فى الحقيقة إنك احتملت كثيراً من المصاعب فى سبيل عشقك لكننى أقسم بالله أن أتنازل عن تحقيق أمنيتى فى سبيل تحقيق أمنيتك، والآن سأسيح معك ومن أجلك فى الغابات والجبال وأقوم بكل ماأستطيع، وودعت الشاب وكنت أسير فى القفار خمس سنوات لكننى ماحققت شيئاً، وفى النهاية صعدت الجبل بعد أن يئست وأردت أن ألقى نفسى لأموت، وإذا بذلك الراكب الذى ألقى على وجهى النقاب وقال: «لاتلق بنفسك بعد مدة قصيرة ستحقق بغيتك»، فقلت ياعباد الله: «لقد تشرفت برؤيتكم وآمل بفضل الله أن أجد أمنيتى قريباً وأجد سعادتى وفرحى، والجميع يحققون أمانيهم».

وحينما أنهى الدرويش الثانى قصته، كاد الليل أن ينتهى وأشرف الفجر على البزوغ، فعاد الملك «آزاد بخت» إلى بيته صامتاً، بعد وصوله إلى البيت أدى صلاة الفجر ثم ذهب - إلى الحمام - واغتسل ولبس لباساً فاخراً، وجلس على عرشه فى الديوان العام، وأمر حاجبه قائلاً: «هناك أربعة من الدراويش فى مكان بالتحديد احضرهم معززين مكرمين».

فذهب الحاجب إلى هناك امتثالاً لأمر الملك، فوجدهم يستعدون للخروج بعد الفراغ من غسل الوجه واليد، فقال الحاجب: «إن الملك يدعوكم جميعاً، فتفضلوا معى» فبدأ كل منهم ينظر إلى الآخر ثم قالوا له: «إننا ملوك قلوبنا فما شأننا بملوك الدنيا؟» فقال لهم الحاجب: لابأس لكن ذهابكم إلى الملك خير كبير» وفى أثناء ذلك تذكر الأربعة أن ماقاله المولى «مرتضى» يتحقق الآن، فسروا وساروا مع الحاجب، وحينما وصلوا إلى القلعة وجلسوا أمام الملك، ودعا الدراويش الأربعة له بالخير، ثم جلس الملك فى الديوان الخاص واستدعى العديد من الأمراء والمقربين، وقال لهم: «ادعوا الدراويش الأربعة، فحضروا بين يديه فأمرهم بالجلوس وسألهم قائلا: من أين جئتم؟وأين تقطنون؟ وإلى أين تذهبون؟».

فأجابوا: «يزيد الله سموكم عمراً ومالاً، نحن دراويش نضرب فى الأرض هكذا منذ أمد طويل تاركين البيت والأهل «إن مسكن الفقير هو المكان الذى يحل عليه كل مساء فأنى لنا

من قدرة لنبين كل ما رأيناه فى هذا العالم الزائل» فواساهم الملك وخفف عنهم وأمر بالطعام وقدمه إليهم وبعد أن تناولوا طعام الإفطار قال لهم الملك: «احكوا لى حكاياتكم كاملة، ولن أدخر وسعاً فى خدمتكم» .

أجاب الدراويش: «لانستطيع أن نذكر كل ما مر بنا، إذ لن يُسر الملك بالسمع؛ فسامحنا» فتبسم الملك وقال: «لقد سمعت كل ما حكيتم فيما بينكم ليلة أمس، فلقد كنت حاضرا هناك، وسمعت قصة درويشين منكم، والآن أريد سماع قصة الاثنين الآخرين،فلتبقوا عندى عدة أيام، فاخذوا يرتعدون بعد سماع هذا القول مطأطئ الرءوس لا يستطيعون الكلام.

وحينما رأى الملك أنهم فقدوا رشدهم ذعرا، قال: لايوجد فى هذا العالم شخص قط لم تمر به الأحوال المختلفة خلال حياته، فبالرغم من إننى ملك إلا أننى قد مررت بمثل هذه الأحوال أيضا، وسأبدأ بقصتى أولا فألقوا السمع» .

قال الدراويش الأربعة: « تفضل هذا كرم دائم من جلالتكم» .

فبدا بقص القصة قائلا:

أيها الدراويش هذه قصة الملك فاستمعوا

فلتستمعوا إلى كل ما رأيته وسمعته

سأقصها للدراويش حرفا حرفا

ولتنصتوا جيدا إلى تلك الأحوال

حينما مات والدى الملك، وتوليت أنا الحكم،كنت شابا وتخضع بلاد الروم لسلطتى، وفجأة جاء تاجر من «بدخشان»محملا بالبضائع، وأخبرنى الحجاب أن تاجرا كبيرا جاء إلى البلاد بما لم يأت أحد بمثله من قبل، فاستدعيته.

فجاءنى وقدم لى التحف والنفائس التى تليق بى وكانت تلك التحف من شتى الأنواع، وفى أحد العلب كانت ياقوتة تتلألأ ذات لون بديع ووزنها خمس أوقيات، ورغم إننى ملك إلاأننى لم أر ولم أسمع بمثل هذه الياقوتة من قبل فأعجبت بها كثيرا، ومنحت التاجر كثيرا من الصلات وأعطيته وثيقة تجيز له التجوال فى البلاد، دون أن يتعرض له من يطالبه بالضرائب، وأينما ذهب وجد حسن المعاملة، من يعوضون له خسارته فى التجارة، وكان

التاجر على دراية بآداب مجالسة الملوك، صاحب بلاغة وفصاحة، يحضر بين يدى وقت انعقاد الديوان، أما أنا فكنت أطلب تلك الياقوتة كل يوم لأراها .

وذات يوم كنت جالسا فى الديوان العام، وعندى أركان الدولة وعظماؤها، وجميع سفراء ملوك البلدان المختلفة، الذين حضروا للتهنئة، وفى ذلك الوقت طلبت تلك الياقوتة كعادتى فجاءبها أمين خزانة الجواهر، فأخذت أمدحها، ثم أريتها لمندوب الإفرنج. فابتسم بعد رؤيتها وأخذ يتطلع إليها كل واحد من الحضور ،وقالوا بلسان فرد واحد، من حسن طالع الملك أن تيسرت له هذه الياقوتة، فلم يحز مثلها ملك حتى الآن، فى ذلك الحين كان وزيرى الكيس الفطن، الذى يتولى خدمتى، حاضراً، فسلم علينا وقال: إذا سمحت لى يامولاى، أريد أن أقول كلمة.

فامرته أن يتكلم فقال: «يا قبلة العالم ، إنك ملك ومن الجدير بالملك ألا يمدح حجرا حتى وإن لم يكن له نظير فى اللون والنوع إلاأنه حجر، وكل السفراءوالمندوبين ماثلون هنا الآن، وعندما يعودون إلى بلادهم ، سيقولون إن الملك وجد حجرا، وجعله تحفة نفيسة يعرضها على الناس كل يوم ويثنى عليها بنفسه، وحينما يسمع الملوك هذا الخبر سيضحكون، وبالله إن فى «نيسابور» تاجرا علق اثنتى عشرة ياقوتة فى رقبة كلب ووزن كل ياقوتة سبعة مثاقيل».

وحينما سمعت قوله تملكنى الغضب، وقلت بحدة: «اضربوا عنق هذا الوزير، فأسرع الجلادون والسيافون على الفور وسحبوه من يده وأرادوا أن ياخذوه خارج الديوان.

وعندئذ وقف أمامى سفير ملك الفرنجة عاقدا يديه، فسألته ماذا بك؟فقال لى: أرجو من سموك أن تتحقق من تقصير الوزير «فقلت له» وهل هناك ذنب أكبر من الكذب ؟ خاصة أمام الملوك؟«فقال لى: لم يثبت كذبه، ربما كان كل ماذكره حقيقيا ومن غير المناسب الآن قتل البرىء»«فاجبته قائلا:»إنه لا يدخل فى عقل أن من يتاجر ليتكسب قوته ويعانى فى جمع القليل من المال ويجوب البلدان والأقطار بتجارته من أجل الدوانق، يعلق اثنتى عشرة حبة من الياقوت ووزن كل منها سبعة مثاقيل فى عنق كلب «فقال السفير: لاعجب فى قدرة الله، إن معظم التجار والفقراء، يحصلون على هذه التحف والأشياء لأنهم يجوبون معظم البلدان والأقطار، ومن رأيى ياجلالة الملك، أنه إذا كان الوزير مخطئاً فليسجن، لأن الوزراء

يكونون بمثابة العقل للملوك، وليس من اللائق بالملوك، أن يأمروا بالقتل عقاباً لهذا الخطأ، فضلاً عن أنهم لم يتحققوا من صحته، وينسون كل ماقدموا وبذلوا من مهام بإخلاص ووفاء.

أيها الملك!! إن الملوك فى البلدان الأخرى شيدوا السجون ليسجن بها من يغضب عليه الملك، وتمر أيام الغضب ويظهر الحق، ويعفى الملك من إراقة الدماء دون سبب وبهذا لايتحمل الوزر يوم القيامة».

وطالما جادلته كى يقتنع، لكنه كان يتكلم كلاماً معقولاً لدرجة إننى لم أستطع أن أرد عليه فقلت: «حسناً وهو كذلك، فقد عدلت عن قتله، وليلق فى السجن فإن ثبتت صحة قوله بوضع الياقوت فى رقبة الكلب خلال عام صفحت عنه، وإلا سأنزل به عقابى وغضبى، ثم قلت: اذهبوا به إلى السجن»، وحينما سمع المندوب هذا قبل الأرض بين يدى وسلم على.

ولما بلغ الخبر بيت الوزير تبدل حال أهل البيت وصار مأتماً، وكان للوزير بنت جميلة ذكية عمرها بين أربعة عشر وخمسة عشر عاماً، وكانت محبوبة لدى الوزير وقد بنى لها قصراً خلف ديوانه، وألحق بخدمتها بنات الموظفين والموظفات لتمرح وتلعب معهن.

ويوم أن أرسل الوزير إلى السجن كانت البنت تلعب وتلهو مع صويحباتها وتزوج الدمى وكانت هناك طبول ودفوف وكانت تعد لليلة زفاف الدمى، وبينما كانت هى وأترابها يطبخن الحلوى للصدقات، إذ جاءت أمها وهى باكية ممزقة الثياب، حافية القدم حاسرة الرأس، وضربت على رأس البنت قائلة: «لو أن الله رزقنى ابناً أعمى بدلاً منك لقرت عينى وصار معاوناً لأبيه ومرافقاً له «فسألت ابنة الوزير: «بماذا يفيدك الابن الأعمى؟ فما يستطيع أن يقوم به، أستطيعه أنا أيضاً «فأجابتها الأم: «تبا لك، إن أباك قد ذكر شيئاً أمام الملك، كان من جرائه أن زج به فى السجن «فسألت بنت الوزير: «وماهو هذا الكلام؟ أريد أن أسمعه» فقالت زوجة الوزير: «قال أبوك، إنه يوجد فى «نيسابور» تاجر قد علق اثنتى عشرة حبة من ياقوت وزن كل منها سبعة مثاقيل فى عنق كلب، لكن الملك لم يصدقه وظنه كاذباً فسجنه، فلو كان لى اليوم ابن، لكان قد حاول أن يتحقق من هذا القول، ويأتى بدليل يثبت به براءة أبيه، ويلتمس العفو من الملك حتى يفرج عنه».

قالت ابنة الوزير: «ياأمى العزيزة!! إن القدر لايُحارب، عندما يبتلى الإنسان عليه بالصبر وبالأمل والرجاء فى الفضل الإلهى، فإنه كريم، لايدخل الإنسان فى مأزق إلا وعنده منه المخرج، فلا يجب البكاء، ربما وشى به أحد من الأعداء، وبسبب هذا حل به غضب الملك، بل ادعى الله، نحن من عباده وهو معبود لنا، إنه غاضب علينا وهو أيضاً رحيم بنا».

وأخذت البنت تهدئ من روع أمها حتى هدأت واستكانت، ثم ذهبت إلى قصرها وصمتت، وعندما حل المساء وأظلم الليل، دعت كبير الموظفين وخرت على قدميه باكية راجية له وقالت: «أريد ألا تبقى لعنة أمى علىّ، ويفرج عن أبى، فإن رافقتنى سأسافر معك إلى «نيسابور»، وأعود معى بالتاجر الذى علق اليواقيت فى عنق كلبه، بأية وسيلة وبأى ثمن، وأخلص أبى من السجن.

رفض الموظف أولاً، ثم عاد ووافق بعد ذلك نتيجة لإلحاحها ورجائها، فقالت له بنت الوزير: «فلتعد أسباب السفر والتجارة الجديرة بالملوك، ولتتكتم الأمر، واجمع الغلمان والخدم والموظفين كلهم». فوافق الخادم وشرع فى إعداد ماأمرت به، وعندما تم الاستعداد وحملت أسباب السفر على ظهور البعير والحمير خرجوا وسافروا، وقد تخفت ابنة الوزير فى زى الرجال وسافرت معهم دون أن يعرف أحد قط. وحينما أشرق الصبح شاع الخبر فى بيت الوزير أن ابنة الوزير غائبة ولايعرف أين هى.

ومع هذا فقد أخفت الأم أيضاً غياب ابنتها خشية الفضيحة وسوء السمعة، وجعلت بنت الوزير من نفسها ابناً لتاجر، ووصلت إلى «نيسابور» بعد قطع مسافات طويلة، ونزلت فى قصر المسافرين وهى فرحة، وأنزلت أسباب التجارة وقضت الليلة، وفى الصباح لبست لباساً فاخراً كزى أهل بلاد الروم، ثم خرجت تتجول فى البلاد، حتى وصلت إلى مفترق طرق، ووقفت ورأت فى أحد المواضع دكاناً للحُلى والجواهر وبالدكان الكثير من المجوهرات ويقف به الغلمان لابسين لباساً فاخراً عاقدين أيديهم وكبيرهم عمره خمسون عاماً حسن المظهر يرتدى ملابس كالوزراء، يلتف حوله العظماء من ذوى الجاه والسلطان، على الأرائك يتحدثون فيما بينهم.

وحينما رأت ابنة الوزير - التى عرفت نفسها بأنها ابن تاجر - هذا الرجل تعجبت وحدثتها نفسها قائلة: «ليت الله لايجعلنى كاذبة»، هذا هو الرجل التاجر الذى علق اليواقيت فى عنق الكلب ففى الغالب أنه هو، ياإلهى أظهر لى أحواله».

فجأة رأى ابن التاجر - أى بنت الوزير- حانوتاً فى الجانب فيه قفصان معلقان وفيهما رجلان محبوسان، تبدو عليهما سمات الجنون، لم يبق منهما إلا الجلد والعظم، وقد طالت أظافرهما وشعرهما ويجلسان منكسى الرأس، ويقوم على حراستهما حبشيان قبيحا الهيئة، فاندهش ابن التاجر وقال: «لاحول ولا قوة إلا بالله والتفت إلى ناحية أخرى فرأى حانوتاً مفروشًا بالبُسط وبه أريكة مصنوعة من سن الفيل مكسوة بقماش لين ، وعلى هذه الأريكة كلب فى عنقه قلادة من الجواهر ومقيد بسلسلة من الذهب، وغلامان من الفتيان الحسان يقومان على خدمته، وكان أحدهما يمسك بمروحة يهُوى بها عليه، والثانى يمسك منديلاً مطرزاً ومزركشاً يمسح به على وجهه وأرجله، فأمعن ابن التاجر النظر فرأى أن فى قلادته اثنتى عشرة حبة من الياقوت موجودة فعلاً كما سمع، فشكر الله، وبدأ يفكر كيف يذهب بهذه اليواقيت إلى الملك ويطلق سراح أبيه؟ كان ابن التاجر على تلك الحال، أما الآخرون فكانوا فى حيرة من شدة حسنه وجماله ويتحدثون فيما بينهم، أنهم ماراُوا قط فى جمال هذا الشخص ورآه أيضاً السيد صاحب الكلب، فأرسل غلامًا إليه قائلاً آت به إلىّ وقل له تفضل وشرف بالحضور.

وذهب إليه غلام وأبلغه رسالة سيده وقال له: «لتتكرم وتقبل دعوة السيد فهو يتوق للقائك، وكان ابن التاجر يريد هذا فقال: «لابأس، حسناً ومالن رأى السيد ابن التاجر حتى أصابه سهم العشق بطعنة فى قلبه، فخف لتحيته فأدرك ابن التاجر أن السيد أصبح فى قبضته، فتعانقا وقبل السيد جبين ابن التاجر، وأجلسه إلى جواره، وبعد تبادل المجاملات قال السيد لابن التاجر: «من أنت؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين تمضى؟ فقال: «موطن هذا الفقير هو بلاد الروم (التى كانت تعرف قديماً باستنبول زاد) وسيدى تاجر، وبسبب كبر سنه لايستطيع السفر وقد أرسلنى لأتعلم التجارة، ولم أخرج من قبل من البيت، وهذا هو أول سفر لى، ولم أسلك طريق البحر بل أخذت طريق البر وسمعت فى ملك العجم عن سمو أخلاقك ومحاسنك، فما جئت إلى هنا إلا للقائك، وها أنا ذا أشرف باللقاء وقد وجدت فيك مما سمعت، وتحققت أمنيتى حفظك الله، والآن أريد أن أغادر إلى بلادى» . ولما سمع السيد هذا القول منه طاش صوابه وقال: «ياولدى لاتقل هذا، ولتشرفنا يوماً فى بيتنا المتواضع وأخبرنى أين أمتعتك وخدمك وموظفوك؟» فقال ابن التاجر: «سكن المسافر فى منازل المسافرين وقد

تركت الجميع هناك وجئت إليك» فقال السيد: «ليس من اللائق أن تنزلوا فى منازل الغرباء والمسافرين، ولى مكانة واعتبار وشهرة فى هذا البلد، فاذهب وادعهم على وجه السرعة، فقد خصصت لك بيتاً ولغلمانك وموظفيك، ولتعرض علىّ كل مامعك من تجارة، حتى أهيئ لك كسباً وفيراً يسرك وأخفف عنك مشقة الترحال لبيعه، وتفضل علىّ بنزولك فى ضيافتى.

فاعتذر ابن التاجر ظاهرياً عن النزول في ضيافته، لكن السيد ألح فى دعوته، وأمر الخدم أن يرسلوا الدواب بسرعة لتحمل أمتعة التاجر وتجارته وتضعها فى مكان عينه لهم، فأرسل ابن التاجر غلاماً زنجياً كان معه ليحمل الأمتعة وجلس هو مع السيد حتى جاء وقت المساء، فأراد السيد أن يذهب إلى بيته، فاصطحب أحد الغلامين الكلب وحمل الثانى الكرسى ووضعا هذا الكلب والكرسى على الرجلين المحبوسين فى القفص وساروا، وأمسك السيد بيد ابن التاجر وذهبا إلى القصر وهما يتحدثان، ووجد ابن التاجر قصراً منيفاً يليق بالملوك والأمراء، وقد فرش على حافة نهره فرش فضى، وقد صفت أمام الأرائك أسباب المتعة والرفاهية ووضعت هناك أريكة للكلب أيضاً، وأكرم السيد وفادة ابن التاجر وشربا معاً دون تكلف، ولما دار بالخمر رأسهما، طلب السيد الطعام، فمدت المائدة ووضع عليها مالذ وطاب من الطعام، ومن نعم الدنيا، ثم أحضروا للكلب صينية الطعام مغطاة، ومدوا مائدة موشاة بالذهب أمام الكلب، ونزل الكلب من مكانه وأكل ماشاء، وشرب من إناء ذهبى، ثم ذهب وجلس على السرير، فجاء الغلمان ومسحوا على فمه ويديه، ثم حملوا تلك الأطباق والدورق إلى قفص السجينين وضربوهما بالسياط، ثم أطعموهما بقايا طعام الكلب وسقوهما من نفس الدورق، ثم أغلقوا القفص وردوا المفتاح إلى السيد.

وبعد هذا كله بدأ السيد يأكل، وأما ابن التاجر فلم يعجبه ماحدث، وامتنع عن الطعام، على الرغم من أن السيد ألح عليه كثيراً إلا أنه أبى فسأله السيد عن السبب قائلاً: «لماذا لاترغب فى الطعام؟» .

فقال ابن التاجر: «إننى كرهت فعلك هذا؛ لأن الإنسان أشرف المخلوقات، والكلب نجس العين، ففى أى مذهب يجوز إطعام العبدين بقايا طعام الكلب؟ ألا يكفى أنهما فى حبسك؟ وإن لم يكونا فى حبسك فهما وأنت سواء، والآن أنا أشك إن كنت مسلما أم لا ولاأدرى من أنت؟ أتعبد الكلب؟ وليس من المستحب أن آكل طعامك إلى أن يزول هذا الشك من قلبى.

فقال السيد: «يابني!! أنا أدرك أنك على حق فيما تقول، ولهذا فقد صرت سيىء السمعة في البلد، وقد سماني الناس «بعابد الكلب» واشتهرت بهذا، لكن لعنة الله على الكفار والمشركين، ثم نطق بالشهادتين وطمأن ابن التاجر، فسأله ابن التاجر: «لو كنت مسلماً، فلماذا تفعل هذا حتى تسيىء لسمعتك؟» فقال السيد: «يابني!! لقد اقترن اسمي بسوء السمعة كما أنني أؤدي للدولة الضرائب أضعافاً مضاعفة، حتى لايفشو هذا السر بين الناس، فهذه حكاية غريبة كل من يسمعها لايملك إلا الغضب والحزن، فاصفح عني أنت أيضًا، حيث إنني لن أستطيع أن أحكيها لك . ففكر ابن التاجر في نفسه قائلا: «مالي أنا ولهذا لقد جئت إلى هنا لغرض خاص، وقال للسيد: «حسناً إن كنت لاتستطيع أن تبوح بهذا السر فلا جناح عليك» ثم بدأ ابن التاجر في تناول الطعام، وقضى مع السيد شهرين بذكاء وفطنة حتى لايتضح لأحد أنه فتاة، وتأكد الجميع أنه رجل، وقد ازداد حب السيد له يوماً بعد يوم، حتى أصبح لايطيق أن يغيب عن ناظريه.

وذات يوم أثناء احتساء الخمر بدأ ابن التاجر يبكي، فأخذ السيد يواسيه ويكفكف دمعه، وسأله عن سبب البكاء، فقال ابن التاجر: «ياسيدي ماذا أقول؟ ليتك لم تخدمني هكذا ولم تعطف عليّ، الآن تعترضني مشكلتان فأنا لاأريد أن أفارقك كما لايمكنني أن أمكث معك على الدوام، والآن عليّ بالذهاب، لكن لايبدو لي أي أمل في الحياة بعد فراقك».

وماأن سمع السيد هذا القول منه حتى انخرط في البكاء وأخذ ينتحب وقال: «يانور عيني كيف شبعت بسرعة من رفقة هذا الشيخ، لدرجة أنك تريد السفر محزناً قلبي؟ فلتصرف النظر عن سفرك هذا، فلن تفترق عني لحظة قط، طالما أنا على قيد الحياة، وإلا مت قبل الأجل، فجو بلاد فارس طيب ومناسب لك، ومن الأفضل أن ترسل رجلاً يعتمد عليه لأبويك ليدعوهما مع أمتعتهما، وكل مايلزم للنقل سأوفره، وعندما يصل ذووك تستقر هنا وتعمل بالتجارة، فقد تحملت أنا أيضًا كثيراً من المشاق والصعاب وتجولت كثيراً بمعظم البلدان، والآن صرت شيخاً، ولم أرزق بابن وأعتبرك أفضل ابن لي، وستخلفني من بعدي، وأنت عاقل وخبير في عملي، وطالما أنا حي فيكفيني أن تعطني لقمة خبز، أما إن مت فادفني وخذ أموالي»، فرد ابن التاجر قائلاً: «في الحقيقة إنك تواسيني وتطمأنني أكثر من والدي حتى نسيتهما، لكن والد هذا الإنسان سمح له بالسفر لعام واحد فقط، ولو تأخرت فإنه

يموت فى شيخوخته، ورضاء الأبوين من رضاء الله، فلو أنهما غضبا علىّ أخشى أن يدعوا علىّ فأكون محرومًا فى الدنيا والآخرة، فإن تعطفت وتكرمت فمرنى بأى شىء أستطيع القيام به لأؤدى حق والدىّ علىّ، وأما عناية جنابك بى فلن أنساها ماحييت وهى دين فى عنقى، ولو عدت إلى بلادى سأتذكرها على الدوام، والله مسبب الأسباب، ربما يكون هناك سبب كى أقبل قدميك مرة أخرى».

والخلاصة أن ابن التاجر أخذ يماطل السيد ويراوغه حتى اضطر السيد إلى أن يعض على شفتيه أسفاً، فقد كان شغوفاً به مفتوناً، وأخذ يقول: «حسنًا إن لم ترض أن تمكث هنا فسأذهب معك، فأنت لى بمثابة الابن والنفس والروح فلو خرجت الروح فما فائدة البدن؟ فإن كان رضاؤك فى هذا فلتذهب وأنا معك»، وبعد ذلك أخذ السيد يعد العدة للسفر برفقة ابن التاجر، وأصدر أوامره لمن حوله ليعدوا للسفر لوازمه على وجه السرعة.

وحينما ذاع نبأ سفر السيد تهيأ التجار أيضًا للسفر بعد علمهم بذلك، وأخذ السيد عابد الكلب معه الكثير من المجوهرات والتحف والخدم والغلمان والبضائع والمتاع الذى يليق بالملوك، وخرج من المدينة مسافراً وأقام الخيام ونزل فيها وأخذ التجار من البضائع على قدر استطاعتهم حتى أصبحوا كالجيش الجرار.

وذات يوم تحينوا الساعة المباركة وبدأوا رحلتهم، وقد حملت حقائب المتاع والبضائع على ظهور آلاف الجمال كما حملت صناديق الأموال والجواهر على ظهور البغال، وركب خمسمائة من غلمان صحراء «قبجاق» ومسلحون من الزنج والروم وسيافون على الخيول التركية والعراقية والعربية، وخلفهم جميعاً السيد وابن التاجر فى ملابس فاخرة، راكبين على محفتين وهودج بغدادى مربوط بظهر الجمل ينام عليه الكلب، وقفص السجينين معلق فى جانب واحد، وعندما ينزلون فى أى موضع يأتى الجميع إلى السيد يلتفون حوله ويتناولون الطعام معه على مائدة واحدة ويحتسون الخمر والشراب، وكان السيد يحمد الله ويشكره لأنه برفقة ابن التاجر ويقطعان الطريق سوياً.

ووصلا إلى حدود القسطنطينية بخير وعافية ونزلوا خارج المدينة، فقال ابن التاجر: «ياسيدى لو تأذن لى فى أن أذهب لوالدي كى أخصص قصراً لجنابك، وعندما ترغب فى دخول المدينة فلتدخل».

فقال السيد: «من أجلك جئت إلى هنا!، حسناً فلتذهب لوالديك ولكن عدْ بسرعة بعد لقائهما، واجعل لى قصراً بالقرب منك».

فودعه ابن التاجر، وحينما دخل الفتى البيت دهش الجميع من هذا الرجل الذى دخل البيت؟ وتوجه ابن التاجر- أى بنت الوزير- إلى أمها، وخرت على قدميها وهى تبكى وتقول «أنا ابنتك» وحينما سمعت زوجة الوزير هذا أخذت تسبها قائلة: «أيتها البنت سيئة السمعة الساقطة، لقد بعت كرامتك وعزتك وسودت وجهك وألحقت المعر ة بأسرتك» لقد بكيناك ثم تذرعنا بالصبر، فلتغربى عن وجهى» فخلعت بنت الوزير العمامة عن رأسها قائلة: «ياأمى ماذهبت إلى مكان سيىء وماارتكبت أى جُرم وكل ماقمت به كان لكى أطلق سراح أبى من السجن، حسب أوامرك، والحمد لله وبفضله وببركة دعائك قمت بكل مااستطيع وأحضرت معى التاجر مع الكلب الذى علق فى عنقه اليواقيت وماخنت الأمانة، فقد تنكرت فى زى الرجال وسافرت، وبقى عمل اليوم فقط، وبعد قيامى به سوف أطلق سراح أبى وأعود إلى بيتى، فلو أذنت فأعود وأبقى يوماً خارج البيت.

وحينما تأكدت أمها أنها فعلت مثل الرجال وحفظت شرفها وكرامتها، سجدت لله شكراً وضمت ابنتها إلى صدرها وقبلتها ودعت لها وودعتها قائلة: «افعلى ماترينه مناسباً فأنا مطمئنة».

وتنكرت بنت الوزير فى هيئة ابن التاجر مرة أخرى وذهبت إلى السيد المولع بالكلب، وكان السيد هناك يعانى من غيابه عنه فخرج مضطراً، فتقابلا فجأة فى الطريق فقال السيد حين رآه: «ياعزيزى!! أين ذهبت تاركا إياى؟». فقال ابن التاجر: «ذهبت بعد أن استأذنتك إلى البيت، لكن الشوق إلى قربك منعنى من البقاء، وشاهدوا حديقة وارفة غناء على شاطئ نهر فنزلوا فيها بخيامهم، وكان السيد وابن التاجر يشربان ويأكلان الشواء سوياً، وحينما حل وقت العصر، خرجا من الخيمة ليروحا عن نفسيهما ويتنزها وجلسا على الأرائك.

وفجأة مر بهما صياد الملك، واندهش بعدما رأى قيامهما وجلوسهما والقافلة التى معهما وقال فى نفسه، لعلهم رُسل أى ملك، ووقف يتطلع إلى ماحوله، وفى أثناء ذلك رآه تابع السيد، فدعاه وسأله: «من أنت»؟ فقال: «أنا صياد الملك» فأخبر التابع السيد بأحواله فقال السيد لغلام حبشى: «قل لهذا السوقى إننا مسافرون، إن أردت فتفضل واجلس، والقهوة حاضرة فى الإبريق، وحينما سمع الصياد اسم التاجر تعجب، ودخل إلى مجلس السيد، ورأى

هناك الغلمان والحراس ومظاهر البهجة، فحيا السيد وابن التاجر، وشاهد ما للكلب من منزلة رفيعة، فعقدت الدهشة لسانه، واستضافه السيد لشرب القهوة، وسأل الصياد الملكى السيد عن اسمه وغير ذلك ثم استأذنه فى الانصراف، فأذن له بعد أن منحه الأثواب الفاخرة والتحف الثمينة.

وحينما حضر الصياد (الجاسوس) إلى قصر الملك، أخذ يقص على حاشيته أحوال السيد التاجر، فوصلنى الخبر تدريجيا فاستدعيت الصياد الملكى وسألته عن أخبار التاجر، فأخبرنى بكل ما رآه، وحينما سمعت عن كيفية تدليل الكلب وعن السجينين غضبت وأمرت بوجوب قتل ذلك التاجر، فأمرت الجلادين أن اذهبوا بسرعة واقطعوا رأس هذا المارق، ومن قضاء الله وقدره أن نفس السفير الإفرنجى كان حاضراً بالقصر فابتسم، فازدا د غضبى فقلت: «ياوقح!! ياسيىء الأدب!! الضحك فى حضرة الملوك دون سبب خروج عن الأدب، فالبكاء أحسن من الضحك دون سبب». فاعتذر السفير والتمس العفو وقال: «يامولاى كثير من الأمور قد دارت فى ذهنى لهذا ابتسمت، أولاً: أن الوزير صادق فيفرج عنه ثانيا: أن الملك قد برئ من إرقة دم الوزير دون وجه حق، ثالثًا: سيادتك أمرت بقتل التاجر دون سبب أو جرم، فلهذه الأسباب تعجبت من أنك تأمر بقتل أى شخص دون تحقيق آخذاً يقول أى أحمق، والله أعلم ماهى أحوال السيد فى الحقيقة، فلتطلبه وتسأل عن حاله، فإن كان مخطئًا ومقصراً فلجلالتكم الخيار لتفعل معه ما تشاء».

وحينما وضح السفير مسلكه بهذا الإسلوب، تذكرت قول الوزير وأمرت أن يحضر التاجر وابنه والكلب على الفور.

فذهب الضابط فأحضرهم جميعاً: أولاً جاء السيد وابنه فى لباس فاخر، فتعجب الجميع وخلب لبهم من جمال وحسن ابن التاجر، وكان فى يده صينية مملوءة بالجواهر، وكل جوهرة تضىء المكان ، وقدم الجواهر، أمام العرش وحيانى التحية اللائقة ثم ظل واقفاً!!

وقبل السيد الأرض بين يدى، وبدأ يدعو لى بلسان عذب كالبلبل، واستحسنت فعله هذا، لكننى قلت له على سبيل العتاب: «أيها الشيطان فى صورة إنسان، أى شباك نصبتها وأية بئر حفرت فى طريقك، مادينك وما سنتك؟ ومن أمة أى نبى؟ فإن كنت كافراً فلماذا تلك التصرفات التى تبدر منك؟ وما اسمك وماذا تفعل هنا؟. فقال: يامولاى زادك الله عزة وسلطاناً وعمراً، دين هذا العبد أن الله واحد لا شريك له، وأشهد بأن محمداً صلى الله عليه

وسلم نبى الله، وبعده اعتبر الإثنى عشر إماما هم قدوتى وأصلى كل يوم خمس مرات، وأصوم، وحججت بيت الله، وأؤدى زكاة الخمس(١١) وأدعى مسلمًا لكن هذه العيوب الظاهرة التى تبدو على والتى تثير غضب جلالتك علىّ، وجعلتنى سيىء السمعة بين الناس جميعاً لا أستطيع أن أبوح بسرها، ورغم إننى قد اشتهرت بـ (عابد الكلب) وأدفع الضريبة أضعافاً مضاعفة، إلا أننى لم أبح بسرى لشخص قط.

فازداد غضبى لمكره وسعة حيلته وقلت: إنك تسترضينى بالقول، ولن أقبل هذا قط حتى تسوق لى حجة مقنعة لما أنت فيه من ضلالة، فإن أتيتنى بالحجة والبرهان، سأصفح عنك وتكون قد حفظت حياتك، وإلا فجزاء ذلك أن أشق بطنك حتى تكون عبرة لمن لا يعتبر وحتى لا يخرج أى شخص عن شرائع الدين الإسلامى».

فقال السيد : «أيها الملك، احقن دمائى فعندى مال كثير لا يعد ولا يحصى فخذه كله واتركنى وابنى فداء لعرشك واصفح عنى».

فابتسمت قائلاً: أيها الأحمق!! اتغرينى بالمال؟ لا مفر ولا سبيل إلا بالصدق.

وما أن سمع السيد قولى هذا حتى انسابت دموعه رغماً عنه وتأوه بعد نظره لابنه قائلاً: إننى سأقتل لأننى صرت مذنباً فى نظر الملك، الآن ماذا أفعل؟ ولمن أفوض أمرك؟ فنهرته قائلاً: «أيها الخبيث لقد أسرفت فى الاعتذار فلتتكلم فورا».

فتقدم ذلك الرجل وخر وقبل الأرض بين يدى وقال بعد المدح والثناء: أيها الملك!! لو لم يكن حكمك بقتلى مسلطاً على، لاحتملت جميع المصائب ولم أبح بهذا السر، لكن الحياة أعز من كل شيء، ولا يلقى أحد بنفسه فى البئر، فالحفاظ على الحياة واجب، وترك الواجب مخالف لحكم الله، فلو رضيت جلالتك بهذا، فاستمع إلى ما مر بى أنا الضعيف، لكن أولا فلتأمر بإحضار هذين القفصين لهذين المسجونين وعندئذ سأحكى لك، فإن أخطأت أو كذبت فى أى موضع فاسألهما ثم اعدل وانصف. فاستحسنت رأيه هذا فطلبت القفصين وأخرجت الحبيسين وأوقفتهما أمام السيد.

قال السيد: «أيها الملك!! هذا الرجل الذى فى يمينى هو الأخ الأكبر لهذا الغلام، وأما الذى فى يسارى فهو الأخ الأوسط لى، وأنا أصغرهما، وكان أبى تاجرا فى بلاد فارس، وحينما بلغت الرابعة عشرة من عمرى توفى أبى، وبعد الانتهاء من مراسم الدفن جاءنى أخواى هذان ذات يوم وقالا: الآن نقوم بتقسيم تركة أبينا، وليفعل كل منا ما يريد بنصيبه.

فقلت: يا أخوى ماذا تقولان؟ أنا غلامكما، ولا أدعى بأننى أخ لكما، مات أبونا وأنتما فى منزلة أبى، أريد خبزاً يابساً ليقيم أودى، وسأقوم على خدمتكما، ولا شأن لى بالتقسيم والتوزيع، أنا أسد جوعى ببقايا طعامكما وأكون برفقتكما، فأنا صغير قليل الخبرة، لا أستطيع أن أفعل شيئا بدونكما. والآن عليكما أن تربياني». فقالا هل تريد أن تجعلنا محتاجين وفقيرين مثلك؟ فانصرفت إلى البيت باكياً، ثم طمأنت قلبى قائلاً لنفسى، أخواى أكبر منى وهما يزجرانى لأتعلم، ثم أخذنى النوم وأنا أفكر فى هذا وما أن أشرق الصبح حتى جاء مندوب القاضى وأخذنى إلى المحكمة، فرأيت أخوى هناك، فقال القاضى: لماذا لا تقسمون ميراث أبيكم؟ فقلت له مثلما قلت لهما فى البيت من قبل»:

فقال أخواى: «إن كنت تقول هذا من قلبك فاكتب لنا وثيقة تثبت أنك ليس لك حق فى ميراث أبينا»، فأدركت من قولهما أيضا، أنهما أخواى الكبيران وأنهما يريدان النصح لى حتى لاأسرف فى انفاق مال أبى، فكتبت لهما وثيقة وختمتها بخاتم القاضى، فرضيا بذلك . ورجعت إلى البيت، وفى اليوم التالى جاءا إلى وقالا: «يا أخى!! إن هذا البيت الذى تقطن فيه نحن نحتاج إليه فلتنتقل إلى مكان آخر لتعيش به»، فأدركت أنهما لا يرضيان بأن أقطن بقصر أبى، فاضطررت أن أنتقل من هذا المكان، فيا ملاذ الدنيا (الملك) حينما كان أبى على قيد الحياة كان يأتى بتحف ونفائس من جميع البلدان التى يسافر إليها، ويعطينى إياها لأننى صغيرهم والكل يحب الصغار، وكنت أبيع هذه الأشياء وأدخر ثمنها وأشترى به ما أريد، وفى إحدى المرات أعطانى أبى جارية من تركستان وفى مرة أخرى جاء بمجموعة من الخيل من بينها حصان قوى تبدو عليه أمارات الذكاء، فأعطانيه وكنت أحضر له الكلأ بنفسى.

وفى النهاية بعدما وجدت منهما الخسة اشتريت قصراً وتوجهت إليه وكان معى هذا الكلب، وأثثت البيت بكل ما يلزمه من أمتعة وأساس ورياش واشتريت غلامين للخدمة، وفتحت دكاناً بما تبقى لدى من أموال وتوكلت على الله راضياً بحظى ونصيبى، فإذا كنت وجدت سوء معاملة من أشقائى، فإننى وجدت الله بى رحيما، فأصبح الدكان خلال ثلاث سنوات مشهوراً ومعروفاً بين الناس، وأصبح العظماء والأكابر يأخذون من دكانى كل ما يحتاجون إليه من التحف النادرة، وربحت أموالاً وبدأت أعيش فى غاية الرغد والثراء وكنت أحمد الله سبحانه وتعالى فى كل لحظة وأعيش مستريحاً.

وكنت بالبيت فى أحد أيام الجمعة. وذهب غلامى إلى السوق ليشترى بعض الأشياء، وإذا به يعود باكيًا فسألته عن السبب قائلاً: ماذا بك؟ فقال غاضبًا: ماذا يهمك؟ فلتفرح، ولكن بماذا ستجيب يوم القيامة ؟ فقلت: أيها الحبشى، أى مصيبة قد حلت بك؟ فقال: سبب هذا الغضب أن يهودياً قد ربط أخويك فى الميدان وأخذ يضربهما بالعصا ضاحكا قائلاً لهما: «إن لم تعطيانى النقود سأضربكما حتى الموت وسأنال الثواب» هذه هى حال أخويك وأنت غافل عنهما فهل هذا صواب؟ وماذا سيقول الناس».

وحينما سمعت هذا من الغلام فارت الدماء فى عروقى وجريت إلى السوق حافيًا، وقلت لغلامين لى: «أسرعا بالنقود». وحينما وصلت هناك تأكدت من صدق رواية الغلام. واليهودى يضربهما، فقلت لعسكر الحاكم لو سمحتم سأذهب إلى هذا اليهودى وأسأله لأى ذنب تفعل هذا بهما؟».

وبعد هذا ذهبت إلى هذا اليهودى وقلت: «اليوم هو يوم الجمعة، فلم تضرب هذين بالسلسلة؟».

فأجابنى: إن أردت أن تكون أحمق فلتكن غاية فى الحمق، أعطنى أموالاً فدية لهم، وإلا فعد من حيث أتيت:

فقلت: لماذا تطلب مالا؟ أعطنى وثيقة أعطيك مالاً.

فقال: «أعطيت صك الدين للحاكم» وأثناء ذلك جاء الغلامان بالمال، فأعطيته لليهودى وأفرجت عن أخوى وكانت أحوالهما غاية فى السوء، فقد كانا جائعين، عطشانين بالية ثيابهما فأخذتهما معى وجعلتهما يغتسلان وألبستهما لباساً جديداً وأطعمتهما، لكننى لم أقل لهما ماذا فعلتما بأموال أبيكما؟ حتى لا يخجلا، أيها الملك: هاهما حاضران بين يدى جلالتكم فسلهما هل أنا صادق أم لا؟ وعندما نجيا من الضرب وتحسنت أحوالهما قلت لهما ذات يوم: أخواى!! لقد أصبحتما فى هذا البلد بلا اعتبار ولا احترام. ومن الأفضل أن تسافرا بعض الوقت، فسكتا فعرفت من سكوتهما أنهما راضيان، فبدأت أعد العدة للسفر، فجهزت الحافلات والأنعام، واشتريت بضائع التجارة بعشرين ألف روبية، وأرسلتهما مع قافلة للتجار قاصدة مدينة (بخارى).

وبعد عام رجعت القافلة، لكننى ما وجدت أى خبر عنهما وأخيراً سألت من أعرفه، واستحلفته أن يخبرنى بخبرهما.

فأجابني: «حينما ذهبنا إلى بخارى بدأ أحدهما يقامر، فخسر جميع أمواله وعمل خادماً ينظف مكان المقامرة ويخدم المقامرين فيعطونه بعض المال، على سبيل الصدقة وقد ظل هناك خادماً، أما الثانى فقد ارتبط بعشق ابنة لبائع خمور وأنفق عليها جميع مايملك والآن يجول حول الحانة ويخدم فيها، وأهل القافلة لا يخبرونك حتى لا تخجل».

وبعد أن سمعت هذا جفانى النوم وتبدلت أحوالى فتزودت وذهبت إلى بُخارى، وبعد وصولى هناك وجدتهما وأخذتهما معى وجعلتهما يغتسلان وألبستهما ملابس جديدة وأطعمتهما، لكنى ما قلت لهما شيئاً حتى لا يخجلا، ثم أعددت لهما أسباب التجارة، وأردت أن أذهب إلى البيت، وحينما وصلت مشارف «نيسابور» تركتهما فى قرية مع الأُموال والأمتعة والتجارة لكى لا يعرف أى شخص بقدومى.

وبعد يومين أعلنت أن أخواى قد وصلا من السفر، وسأخرج غداً لاستقبالهما، وحينما أردت صباحاً أن أخرج إليهما جاء إلى مزارع من نفس القرية منادياً، وحينما سمعته خرجت له سائلاً إياه: لماذا تصيح وتبكى؟ قال: لقد سلبت أموالى بسبب أخويك ليتك ما تركتهما هناك».

فسألته: «ماذا حل بك»؟ قال: «جاء قطاع الطرق ليلاً وسلبوا أموالهما وأموالى أيضاً. فأسفت وسألته أين هما الآن: قال: جالسان خارج المدينة فى حالة سيئة عاريان جائعان فأخذت على الفور ملابس وألبستهما وأخذتهما إلى البيت وكان الناس يأتون لرؤيتهما، لكنهما ما كانا يخرجان لشعورهما بالخزى».

وبعد مرور ثلاثة أشهر على تلك الحال، فكرت فى نفسى أنه إلى متى يجلسان فى البيت ويختبئان؟ لو أمكننى فسآخذهما معى فى سفر، وقلت لأخويّ لو أذنتما فسأذهب برفقتكما، فسكتا، فأعددت كل أصناف التجارة وكل ما يلزم السفر وذهبت معهما.

وحينما أدينا ذكاة المال وحملنا البضائع على السفينة ورفعت المراساة وأبحرت السفينة، كان الكلب ينام على حافة السفينة، ولما رأى السفينة تهتز من تلاطم الأمواج أخذ ينبح من الخوف والدهشة، وقفز فى البحر وأخذ يسبح فأرسلت خلفه قارباً صغيراً فأخذ القارب الكلب وأعاده إلى السفينة.

ومر شهر على خير فى ركوب البحر، ثم وقع أخى الأوسط فى عشق خادمة وذات يوم قال لأخى الأكبر: «نحن فى خجل بسبب إحسان إخينا الأصغر، فكيف نتدارك هذا الأمر؟

فأجاب الأكبر: «لى رأى فى هذا الشأن، نعمل به إن استطعنا» وأخيراً اتفق الاثنان بعد التشاور على قتلى والاستيلاء على كل أموالى والتصرف فيها.

وذات يوم كنت أنام فى غرفة من غرف السفينة، والخادمة تدلك قدمى، فجاء أخى الأوسط وأيقظنى فتنبهت واستيقظت وخرجت وجرى الكلب خلفى، فرأيت أخى الأكبر متكئاً على سور السفينة ليشاهد البحر وكان ينادينى فذهبت وقلت له: «خيراً» فقال: «ماأبدع المنظر، فأناسى البحر أخذوا قواقع اللؤلؤ والشجر وأخذوا يرقصون». ولو قال لى شيئاً آخر خلاف القياس لما صدقته، وقد صدقت أخى الأكبر وأحنيت رأسى لأرى ذلك المشهد، فأمعنت النظر لكننى لم أر شيئاً، وكان أخى يقول لى سترى الآن، لكن كيف أرى إذا لم يكن هناك أى شىء؟ فرأى أخى الأوسط أننى غافل فدفعنى إلى الماء، فسقطت رغماً عنى، وبدأ أخواى يبكيان ويصيحان: «هيا، هيا لقد سقط أخى، لقد سقط أخى. وسارت السفينة وحملنى موج البحر من موضع إلى آخر، وكانت موجة تغرقنى وموجة ترفعنى وكنت أصرخ وسط الأمواج وأخيراً تعبت، وأخذت أذكر الله وأستغيث به ولاأستطيع أن أفعل شيئاً وإذا بى أتعلق بشىء فجأة، وفتحت عينى وإذا بى أرى الكلب لعله وثب فى البحر حين دفعنى أخى، وكان يسبح معى، فأمسكت بذيله وجعله الله سبباً فى حياتى، وقد مرت بى سبعة أيام وسبع ليال على تلك الحال، وفى اليوم الثامن وصلنا إلى شاطئ البحر وقد خارت قواى تماماً، فأخذت أتدحرج على جنبى حتى وصلت إلى البر وطوال يوم كامل فقدت الوعى تماماً، وفى اليوم الثانى بلغ سمعى صوت الكلب، فعدت إلى صوابى، وحمدت الله وكنت أنظر هنا وهناك فرأيت ظل المدينة من بعيد، لكن لاطاقة لى فكيف أبلغ تلك المدينة؟ لكننى كنت مضطراً، فبدأت أخطو خطوتين، ثم أقف، ثم أسير، وهكذا سرت قرابة كيلو مترين حتى المساء وأنا على تلك الحال، وأبصرت فى الطريق جبلاً، فقضيت ليلتى به ودخلت المدينة صباحاً، ولما دخلت السوق رأيت دكاكين الحلوى والخبز، وكان لعابى يسيل للطعام لكننى لم أكن أملك نقوداً، ولم أكن أتسول من أحد وكنت أطمئن قلبى بأننى سآخذ من الدكان وأمشى وفى النهاية مابقى لدى أى طاقة وبطنى تصرخ جوعاً، وكادت الروح تفارق البدن، حين رأيت شابين لابسين لباس العجم يمسكان بيد بعضهما البعض، ففرحت لرؤيتهما، لأننى فكرت أنهما من وطنى وربما كنت أعرفهما وأشكو لهما حالى، فلما اقتربا رأيت أنهما شقيقاى، ففرحت كثيراً وحمدت الله أنه حفظنى من أن أتسول أمام الغير، فاقتربت وسلمت وقبلت يدا

شقيقى الأكبر، فنظرا إلىّ وبدءا يصرخان، ولطمنى شقيقى الأوسط حتى سقطت على الأرض وأمسكت بذيل ثوب شقيقى الأكبر لعله يحمينى فركلنى برجله.

الخلاصة أنهما إنهالا علىّ ضرباً وفعلا بى كما فعل أخوة يوسف عليه السلام، فتضرعت إليهما واستحلفتهما بالله أن يتركانى لكنهما لم تأخذهما بى رحمة ولاشفقة، واجتمع الخلق وسألوهما ماذنبه؟ فقال الشقيقان: «هذا الخسيس كان خادماً لشقيقنا فألقاه فى البحر وأخذ جميع أمواله، وكنا نبحث عنه منذ فترة طويلة فوجدناه اليوم». وكانا يسألانى: أيها الظالم بماذا وسوست لك نفسك حتى تقتل شقيقنا؟ هل قصر فى شأنك؟ وهل أخطأ حينما جعلك مختاراً لديه؟ ثم مزقا ثوبهما، وأخذا يتباكيان ويضربانى بالأيدى والأقدام.

وفى أثناء ذلك جاء عسكر الحاكم، وغضبوا عليهما قائلين: «لماذا تضربياه؟» وأخذوا بيدى إلى رئيس الشرطة، وذهب شقيقاى أيضاً وقصا على الحاكم نفس الحكاية، وأعطياه رشوة وطلبا منه الإنصاف وادعيا على أنى قتلت نفساً بغير حق، فسألنى الحاكم، وكانت حالتى بسبب الجوع والضرب غاية فى السوء بحيث لم أستطع أن أنبس ببنت شفة، وسكت، محنى الرأس، فتأكد الحاكم من أننى مجرم وقاتل، وأمر بإعدامى فى الميدان.

أيها الملك: «أنا دفعت المال لليهودى وأفرجت عنهما وهما دفعا للحاكم لقتلى، وهما حاضران فاسألهما أنا أكذب أو أغير القصة؟ على أية حال، ساقونى للموت وحينما رأيت مكان الإعدام نفضت يدى من الحياة، ولم يكن معى سوى هذا الكلب يبكى علىّ، وأخذ الكلب ينبح ويتمسح بأقدام الناس، وكان بعضهم يضربه بالعصى وبعضهم بالحجارة، لكنه لم يتزحزح عن مكانه وكنت متوجهاً نحو القبلة داعياً الله عز وجل ومتضرعاً إليه: يا الله ليس لى من يحمينى سواك فاحم هذا البرىء وساعده، فإن كتبت لى النجاة سأنجو». وبعد هذا نطقت بالشهادتين وهويت على الأرض.

ومن حكمة الله أن ملك تلك البلد أصابه مرض عضال فاجتمع الأمراء والحكماء والأطباء يعالجونه دون جدوى، فقال شيخ: «أحسن دواء أن تتصدقوا على المحتاجين، وتفرجوا عن السجناء، ففى الدعاء أكثر مما فى الدواء». وحينما سمع خدم الحاكم قوله جروا إلى دور السجناء.

وفجأة جاء واحد منهم إلى هذا الميدان، وحينما نظر إلى الزحام عرف أن ثمة رجلا سيعدم، وبعد أن عرف هذا ترجل عن الجواد بالقرب من الدار، وقطع حبل المشنقة بالسيف،

وزجر عساكر الحاكم ونبه عليهم قائلاً: «إنكم تقتلون عبد الله، بينما حالة الملك في غاية الحرج والسوء، وأطلق سراحي».

فذهب الشقيقان مرة ثانية لرئيس الشرطة وطلبا منه قتلي، وكان الحاكم قد أكل الرشوة وقبلها، ولهذا نزل على طلبهما. وقال لهما: «اطمئنا سأحبسه حتى يموت جوعًا وعطشًا ولايعرف بخبره أي شخص قط».

فأخذوني إلى أحد الأماكن خارج المدينة على بعد عدة أميال، حيث يوجد جبل، كان جن سليمان قد حفروا به بئرا ضيقاً ومظلماً، وكان البئر يعرف «بسجن سليمان»، وكان الملك عندما يغضب على أحد غضباً شديداً، يسجنه في هذا البئر، حتى يقضي نحبه بنفسه. الخلاصة، عندما أظلم الليل أخذني أخواي وحاشية رئيس الشرطة إلى هذا الجبل وألقوني في الجب السحيق، واطمأنوا ورجعوا، أيها الملك كان هذا الكلب معي، وحينما ألقوني في الجب، جلس هذا الكلب على حافته، وفقدت وعيي في هذا البئر، وحينما استرددت وعيي قليلًا حسبت نفسي ميتاً، واعتبرت المكان قبراً، وسمعت صوت شخصين يتكلمان، فحسبتهما منكراً ونكيراً (من ملائكة القبر) وأنهما جاءا لسؤالي، وسمعت صوت احتكاك الحبل بجدار البئر، كأن شخصاً ألقاه، وكنت في حيرة أنبش الأرض فأجد عظاماً.

وبعد ساعة بلغ مسامعي صوت كأنه صوت شخص يأكل، فقلت: «ياعبا د الله من أنتم بالله أخبروني، فضحكوا وقالوا: «هذا سجن خادم سليمان، ونحن سجناء، فسألتهم: «هل أنا حي؟» فضحكوا عالياً وقالوا: «إلى الآن حي ولكنك سوف تموت». فقلت لهم: ماذا تأكلون؟ أعطوني شيئاً منه حتى آكله، فنهروني ولم يعطوني أي شيء، وناموا بعد الأكل والشرب، وأما أنا فبسبب ضعفي ووهني صرت فاقدا لوعيي وكنت أبكي وأذكر الله، ياقبلة العالم!! سبعة أيام في البحر ثم عدة أيام في البئر، بسبب بهتان أخويّ وظلمهما لم أجد أي حبة من طعام وبدلا من الطعام أكلت الضرب وحبست حتى لايجول في خاطري، أي طريق للخلاص.

وفي النهاية جاء وقت الاحتضار، وأخذت الروح تدخل وتخرج، لكن كان هناك شخص يأتي بعد منتصف الليل ويلقي بالخبز في المنديل وينزل قربة من الماء، وينادي وكان الشخصان المحبوسان معي يأخذان لنفسيهما الطعام والشراب ويأكلان ويشربان وكان الكلب يرى كل هذا، وفكر أن هذا الشخص كما ينزل الخبز والماء أنا أيضاً أفعل هذا وأنقذ مالكي، ثم

ذهب إلى المدينة وكان فى دكان الخباز منضدة عليها الخبز، فوثب الكلب وأخذ خبزاً وفر هارباً فجرى الناس خلفه يضربونه بالحجارة، لكنه ماترك الخبز فعاد الناس متعبين، ثم جرى وراءه كلاب المدينة، فتشاجروا ثم انصرفوا عنه حتى وصل إلى البئر حاملًا للخبز، فألقى به فى البئر وكان الصبح قد أشرق فرأيت الخبز أمامى وسمعت صوت الكلب فأخذته، ورجع الكلب للبحث عن الماء.

وكان فى ناحية القرية كوخ لامرأة عجوز وبجوار الكوخ عربة يد وعليها إبريق مملوء بالماء، وكانت العجوز تغزل، فاقترب الكلب من الإبريق وأراد أن يأخذه فزجرته العجوز، فسقط الإبريق من فمه على القدر فكسره، وسكبت باقى القدور، فتناولت العجوز عصًا لتضربه فاختبأ الكلب فى ذيل ثوبها، وأخذ يلعق ساقها بفمه ويحرك ذيله ومشى نحو الجبل ثم رجع، وأحيانا يمسك الحبل وأحياناً يمسك الإبريق، وحينا آخر يمسح قدميها بفمه ويأخذ ذيل ردائها ويجذبه صوب الجبل، فألقى الله عز وجل فى قلبها رحمة فأخذت الدلو والحبل ومشت معه وكان الكلب أمامها آخذا بطرف ثوبها.

وفى النهاية بلغا الجبل، فأدركت العجوز من حركة الكلب أن مالك هذا الكلب حبيس فى هذا البئر، وأن الكلب يريد الماء من أجله، الخلاصة، أن الكلب جاء بها إلى حافة البئر، فأنزلت الإبريق بالحبل فأخذت الإبريق وأكلت الخبز وشربت شيئاً من الماء (وأرضيت كلب البطن)، وحمدت الله وجلست فى ناحية منتظراً رحمة الله، وماذا سيحدث الآن؟ وكان هذا الحيوان الأعجم يأتينى بالخبز كل يوم ويشربنى عن طريق العجوز وحينما رأى الخبازون أن هذا الكلب يأتى كل يوم ليأخذ خبزاً، ترفقوا به وقرروا أن يعطوه الخبز كل يوم بأن يلقوه أمامه، وكانت العجوز تأتى وتسقينى الماء رغم أنفها لأنها إن لم تأت به سيكسر الكلب قربتها وقدورها، فكان هذا الرفيق يمدنى بالخبز والماء ويمكث على حافة البئر، وقضينا ستة أشهر على هذا الوضع، لكن كيف يكون حال من يعيش فى الحبس بعيداً عن الدنيا؟ فلم يبق منى إلا الجلد والعظم فقط، وأصبحت الحياة عذاباً، وكان يدور فى ذهنى: «ياربى إن أمت فسيكون ذلك الأفضل لى».

وذات يوم ليلاًحينما كان المسجونان نائمين أردت أن أتضرع إلى الله، فأخذت أبكى بين يدى الله رغمًا عنى، فرأيت وقت الغروب أن حبلاً ينزل فى الجب بقدرة الله وسمعت صوتاً خفيًا يقول: «أيها التعس، خذ بطرف الحبل بشدة واخرج من هنا». ففكرت فى نفسى، أن

أخوى جاء أخيراً مشفقين علىّ لصلة الدم، ليخرجانى من هنا، فربطت الحبل فى وسطى فرحاً مسروراً وجذبنى أحد لأعلى، وكان الليل مظلماً حتى إننى لم أتعرف على من جذبنى، وحينما خرجت قال لى ذلك الشخص: «تعال بسرعة، ليس هذا مكان وقوف»، ورغم أننى لم أكن أملك أى قوة إلا أننى سرت خوفاً، وكنت أسقط ثم أنهض وأسير مرة أخرى، حتى نزلت من الجبل، فرأيت فرسين مسرجين قائمين، فأركبنى ذلك الشخص على فرس وركب هو على الآخر وسرنا وكنت أسير خلفه حتى وصلنا إلى شاطئ البحر.

وطلع الصبح وكنا قد تجاوزنا هذه المدينة بأكثر من عشرين ميلاً فوجدت ذلك الشاب جندياً مسلحاً لابساً زى الجندى ودرعه، وأيضاً الفرس كان مدرعاً، وكان الجندى ينظر لى نظرة غاضبة ويعض أصبعه، واستل السيف وضربنى لكننى سقطت من فوق الجواد قبل أن يصيبنى وبدأت أقول: «أنا برىء أنا برىء لم أرتكب أى إثم فلماذا تقتلنى؟ أيها الشهم لقد أنقذتنى من السجن، فلماذا تقوم معى بهذا السلوك الآن؟ فقال: «قل الصدق من أنت؟» فقلت: «أنا مسافر قد سجنت دون وجه حق، وخرجت بفضلك حياً من السجن، ثم مدحته».

فألقى الله فى قلبه الرحمة، فأعاد سيفه إلى غمده وقال: «يفعل الله مايشاء، لقد صفحت عنك، اركب بسرعة، ليس هذا مكان الوقوف، وركبنا الجوادين ومشينا، وكان يتأسف نادماً على مافعله خلال الطريق، ووصلنا إلى جزيرة وقت الظهر، فنزل عن فرسه وأنزلنى أيضاً. وحل السرج وأطلق الفرسين للرعى، وخلع درعه وجلس ثم قال: «أيها التعس!! احكى لى حتى أعرف من أنت؟ فذكرت له اسمى، وماحدث لى ومامر بى من البداية إلى النهاية.

وبعد أن سمع الشاب حكايتى أخذ يبكى، وخاطبنى قائلاً: «أيها الشاب اسمع حكايتى، أنا بنت ملك مملكة «زيرباد» والسجين فى سجن سليمان واسمه «بهره مند» هو ابن وزير أبى، وذات يوم أمر الملك أن يخرج جميع الأمراء والعظماء إلى الميدان ويمارسوا الرماية ويتبارزوا حتى تظهر مهارتهم وتفوقهم، وكنت أجلس إلى جوار الملكة الأم فى الشرفة وكانت الوصيفات والجاريات حاضرات ينظرن إلى المشهد، وكان هذا المسجون أجمل من الجميع وكان يظهر البراعة والتفوق فوق صهوة الجواد وهو يدور به، فأعجبنى وشغفنى حباً، وظلت قصة حبى خافية مدة طويلة.

وأخيراً حينما اضطررت بحت بسرى لوصيفتى وأعطيتها كثيراً من الهبات والإنعام فجاءت بذلك الشاب بالحيلة والوسيلة إلى بيتى فبدأ هذا الشاب أيضاً يهيم بى حباً.

وذات يوم رآه الحراس فى منتصف الليل داخلاً القصر وهو مسلح، فقبضوا عليه وساقوه إلى الملك، فأمر الملك بإعدامه فالتمس الجميع من الملك العفو عنه، حتى صفح عنه وأمر بسجنه فى سجن سليمان، والسجين الآخر الذى برفقته هو أخوه، وكان معه فى ذلك اليوم فألقوهما فى الجب، وهما محبوسان فى البئر منذ ثلاث سنوات لكن ماسأل أى أحد لماذا دخل هذا الشاب إلى القصر؟ فلقد سترنى الله عز وجل، فقررت منذ ذلك اليوم أن أتصدق فى كل يوم بالطعام والشراب حمداً وشكراً لله، ومنذ ذلك الحين وأنا آتى كل أسبوع وأحضر لهما طعام الأسبوع.

ورأيت البارحة فى المنام أن أحداً يقول: «يافتاة، انهضى وخذى معك الفرس والثياب والنقود واذهبى إلى تلك البئر وأخرجيه منها»، ونهضت فزعة بعد أن سمعت هذا القول، وتنكرت فى زى الرجال فرحة مسرورة، وملأت صندوقًا بالجواهر والدنانير وامتطيت هذا الجواد آخذة معى بعض الملابس، وذهبت حيث توجد تلك البئر لأخرجه بالحبل، فكان من نصيبك أنت أن تخرج من هذا السجن ولا غضاضة فى فعلى هذا، فربما أرسلنى المعبود لأفرج عنك، فلعله خير فقد صار ماكان فى نصيبى قالت هذا وفتحت المخلاة وأخرجت طعامًا من البقول والخضر والخبز وأخرجت سكراً وأذابته فى الماء وأضافت إليه المسك وأعطتنى إياه فتناولته وشربته، وأكلت قليلاً من طعام الفطور، وبعد برهة قالت لى: البس المنشفة وتعال إلى البحر وقصت شعرى بالمقص وقلمت أظافرى وألبستنى بعد الغسل لباساً نظيفاً وجعلتنى إنساناً من جديد، واستقبلت القبلة وصليت ركعتين للشكر، وكانت تلك الحسناء ترقب أفعالى.

وحينما فرغت من الصلاة، أخذت تقول لى: «ماذا كنت تفعل» فقلت: « الخالق الذى خلق جميع الخلق، وجعلك تسدين الخدمات لى وتترفقى بى، والذى خلق جميع الخلق، والذى فك قيدى، وأفرج عنى، واحد لاشريك له، فعبدته، وشكرت له وحمدته»، فقالت لى: «أأنت مسلم؟» فقلت: «الحمد لله»: قالت: «فرح قلبى لقولك هذا» علمنى أن أنطق بالشهادة، فقلت فى قلبى: «الحمد لله لقد دخلت فى دينى».

نهاية القول، قلت: «لاإله إلا الله، محمد رسول الله، وجعلتها تنطق بها وركبنا الفرس ومشينا من ذلك المكان، وحينما هبط الليل، كنا نتحدث عن الدين والإسلام، فأبين وأشرح، وتسمع وتفرح ومضى بنا شهران على هذا المنوال نسير نهاراً ونتحدث ليلاً، وفى النهاية

وصلنا إلى ولاية، كان فى منتصف حدودها ملك «زيرباد وسرانديب»، ورأينا مدينة كانت أكبر عدداً من سكان «استانبول» وكان نسيمها عليلاً وماؤها زلالاً، ونظراً إلى أن ملك تلك المملكة كان أعدل من كسرى ومحباً للرعية، مال إليه فؤادى، فاشتريت قصراً وقررت الاستقرار هنا، وبعد مرور عدة أيام، وحينما استرحنا من وعثاء السفر أعددتُ العدة وتزوجت تلك الحسناء على سنة الله ورسوله، وبدأت أعيش معها، وفى خلال ثلاث سنوات قابلت الصغار والكبار هناك حتى صرت ذا مكانة مرموقة بينهم، واتسعت تجارتى حتى تفوقت على جميع التجار.

وذات يوم ذهبت إلى كبير الوزراء لأسلم عليه، ورأيت كثيراً من الناس مجتمعين فى الميدان، فسأل شخص «لم هذا الزحام؟» فعرفنا أن شخصين سرقا وزنيا ولعلهما قتلا أيضاً، فجاء بهما الناس ليرجموهما، فتذكرت أحوالى وأننى ذات يوم قبض على وسيق بى لأُرجم فأنقذنى الله سبحانه وتعالى، فمن ياترى هذان اللذان قد وقعا فى تلك المصيبة، والمحنة؟ لا أدرى هل اقترفا تلك الجرائم أم أنهما قد اتهما بها ظلمًا مثلى؟ فأفسحت الطريق واخترقت الزحام لأرى من هما؟ فوجدتهما أخوى، وكانا صدرهما عارياً حفاة الأقدام، وعندما وجدتهما على تلك الحال جرى دم الأُخوة فى عروقى، واحترق صدرى، فأعطيت الحراس حفنة من الدنانير وقلت لهم: انتظروا قليلاً وأسرعت إلى الحاكم وقدمت له ياقوتة لاتقدر بثمن وشفعت لهما لدى الحاكم، فقال: «هناك شخص قد ادعى عليهما مافعلاه، وقد ثبتت إدانتهما، وأمر الملك برجمهما فأنا عاجز لاحيلة لى أمام هذا، وبعد كثير من التوسل والإلحاح على الحاكم، استدعى الحاكم المدعى على أخوى واسترضاه بخمسة آلاف روبية ليعفو عنهما، فأحصيت الروبيات وقدمتها إليه، فكتب تنازلا عن الدعوى ضدهما، وأفرجت عنهما من تلك المصيبة.

ياملجأ العالم، اسألهما هل أنا صادق أم كاذب؟ وكان شقيقاى واقفين خافضين رأسيهما نادمين، فأفرجت عنهما واصطحبتهما للبيت وجعلتهما يغتسلان، وألبستهما ملابس فاخرة وأعطيتهما مكاناً فى الديوان، وفى هذه المرة أخفيتهما عن الناس، وكنت أقوم على خدمتهما دائما وآكل معهما، وفى وقت النوم أذهب إلى بيتى وظللت فى خدمتهما ثلاث سنوات ولم يبدر منهما أى فعل شائن وحينما كنت أذهب إلى مكان آخر، كان يمكثان بالبيت.

وحدث ذات يوم أن ذهبت زوجتى الصالحة إلى الحمام ولما خرجت للديوان ولم تجد أحداً، خلعت نقابها، وكان أخى الأوسط مستلقياً على الفراش ولكنه يقظ، وحينما رآها وقع فى

عشقها وأخبر أخي الأكبر فاتفقا على قتلي، ولم أعرف شيئاً عن فعلهما بل كنت أفكر وأحمد الله أنه لم يبدر منهما أي سوء هذه المرة وانصلح حالهما وكأنني أثرت فيهما.

وذات يوم بعد أن فرغنا من الطعام، اغرورقت عين أخي الأكبر بالدمع وأخذ يمدح الوطن ويذكر محاسن إيران، وتأثر أخي الأوسط هو الآخر لقوله فقلت: «لو أردتما الذهاب إلى الوطن فأنا أبغي رضاكما وأتمنى هذا أنا أيضـًا، وإن شاء الله سأكون برفقتكما، وحدثت زوجتي عن حزن أخوي وبرغبتي أنا أيضاً، فقالت تلك العاقلة: «تلك إرادتك، لكنهما يريدان أن يخدعاك، فهما عدواك، لقد ربيت الأفعى في كمك، وتركن إلى صداقتهما، فافعل ماتشاء لكن احذر من إيذائهما». وبعد فترة وجيزة أعددت العدة للسفر وجهزت الخيام، فاجتمعت قافلة كبيرة واتفقوا على أن أقودهم، فخرجت في ساعة مباركة، وكنت أطيعهما في كل شيء لكني كنت على حذر منهما.

وذات يوم قال لي أخي الأوسط في أحد الأماكن: «على بعد ثلاثة أميال عين ماء كالسلسبيل، حولها ميدان يمتد لميلين وقد نبتت به الزهور والورود كالنرجس وشقائق النعمان وغيرها. وفي الحقيقة إنه مكان بديع للسباحة والرياضة، ولو كان الأمر بيدي لذهبت حيث هذا المكان لأروح عن نفسي وأزيل عنها عناء الطريق ووعثاء السفر «فقلت له:» «أنت مخير والأمر بيدك، لو تأمر نذهب إلى هناك غداً فقال: «لاشيء أفضل من هذا».

فأمرت أن تتحرك القافلة من غد، وقلت لخادمي الخاص: «أعد العدة وجهز كل مانحتاج إليه من طعام وأدوات» وعندما طلع الصبح، استيقظ أخواي وارتديا ملابسهما وذكراني بضرورة الرحيل مبكراً قبل أن ترتفع الشمس ويشتد القيظ، فطلبت المركبة فقالا: «لو ذهبنا سيراً على الأقدام لازدادت متعتنا وكان هذا أفضل، وهذا شيء معروف فأمرت الخدم أن يحضروا الخيل في إثرنا.

وحمل الغلامان وعاء القهوة ومشيا وأخذا يرميان بالسهام، وحينما أصبحنا بعيداً عن القافلة أرسل أخواي أحد الغلامين ليقوم بمهمة وبقي واحد وبعد قليل أرسلاه هو الآخر ليؤدي عملاً، وكنت أنا التعس الذي ينصاع لرغبتهما دائماً، كأن ختماً قد ختم فمي حتى لاأنبس ببنت شفة، وكانا يحدثاني ليصرفا ذهني عما يدبران، وكان برفقتي هذا الكلب.

وبعدنا كثيراً، ولم نجد عين الماء ولاالحديقة، لكن رأينا أرضاً غير ذات زرع ليس بها إلا الشوك، وكنت أقضي حاجتي، فأبصرت بريقاً كأنه بريق السيف من خلفي، ماكدت التفت

خلفى حتى رأيت أخى الأوسط يشج رأسى بالسيف وأردت أن أقول له ياظالم لماذا تضربنى، فعاجلنى أخى الأكبر بضربة أخرى على كتفى، وكان الجرحان عميقين، فهويت على الأرض فأخذ القاسيان يضربانى ليتأكدا من موتى، جرحانى وطعنانى وكان هذا الكلب يرى مايحدث لى فنبحهما، فطعناه أيضاً ثم جرحا نفسيهما، وجريا إلى حيث القافلة عاريين، وقالا: «إن اللصوص قد قتلوا أخانا وتشاجرنا معهم فجرحنا، فأسرعوا وإلا سيسطون على القافلة ويسرقونها كلها، وحينما سمع رجال القافلة أن اللصوص البدو قد سطوا على القافلة، فزعوا وفروا على الفور خوفاً ورعباً وكانت زوجتى سمعت بسلوكهما وخداعهما لى من قبل، وحينما سمعت بقصة موتى طعنت نفسها وفاضت روحها.

أيها الدراويش!! حينما حكى المولع بالكلب مامر به ومانزل به من المصائب، جعلت أبكى رغماً عنى، وقال التاجر: «ياقبلة العالم!! لولا خشية سوء الأدب لبرهنت لجلالتك على صدقى وخلعت ثوبى لترى جروحى، وقد تلابيبه وأطلعنى على جراحه، وفى الحقيقة حينما نظرت إلى جسده لم أجد شبراً واحداً يخلو من جرح، وخلع السيد عمامته فوجدت برأسه جرحاً عميقاً يمكن أن يدخل فيه ثمر الرمان كله، وحينما نظر الحضور من أركان الدولة إلى رأسه أغمضوا عيونهم ولم يقووا على إطالة النظر.

ثم قال السيد: «ياجلالة الملك!! حينما ذهب هذان الأخوان بعد أن قتلانى بزعمهما، كنت ملقى على الأرض والكلب إلى جوارى، وقد سال الدم من جسدى حتى خارت قواى وأغشى على، لاأدرى أين كانت الروح معلقة حتى بقيت حياً؟ وكان المكان الذى كنت ملقى فيه على حدود سرانديب، وبالقرب من ذلك المكان مدينة عامرة، وبها معبد كبير للأوثان، وكانت ابنة ملك المدينة بارعة الحسن والجمال.

ومعظم الملوك وأبناء الملوك أضاعوا حياتهم فى عشقها، ولم يكن ارتداء الحجاب عادة فى تلك المدينة، لذلك كانت تخرج للصيد مع أترابها وللسياحة أيضاً وكان بالقرب من موضعى حديقة ملكية، وفى ذلك اليوم خرجت بنت الملك بعد إذن والدها إلى تلك الحديقة عابرة من ذلك المكان وكانت تركب معها بعض الخادمات والوصيفات، فسمعت تلك الوصيفات تأوهى وأنينى فأتين إلىّ، وبعد أن رأيننى على تلك الحال ذهبن بسرعة إلى ابنة الملك قائلات: «هناك رجل وكلب غارقان فى دمائهما» . فلما سمعت ذلك جاءت إلىّ وتأسفت قائلة: «انظرن هل مازال على قيد الحياة؟» فنزلت اثنتان وقالتا: «نعم هو على قيد الحياة حتى الآن» . فأمرت بأن تحملانى على محفة وتنقلانى إلى الحديقة.

وبعد نقلي إلى هناك استدعت الأميرة جراح الملك وأكدت عليه ضرورة علاجي أنا والكلب، وأغرته بالمكافأة والجائزة، فمسح الجراح علىَ جسدي، وغسل جرحي بالخمر وخاط الجرح ومسح عليه بالمرهم وألقى في فمي عرق المسك بدل الماء، وكانت ابنة الملك تجلس عند رأسي وتأمر بخدمتي، وتسقيني بيدها عدة مرات في الليل والنهار.

وحينما استرددت الوعي، وجدت ابنة الملك تتأسف قائلة: «من هو الظالم القاتل الذي ظلمك ولم يخش المعبود الكبير، وبعد عشرة أيام حينما فتحت عيني بقوة الشراب والطعام والمقويات رأيت أن الجميع قد التفوا حولي، وعلى رأسهم ابنة الملك، تأوهت وأردت أن أتحرك لكنني لم أستطع، فقالت الأميرة مشفقة عليّ: «أيها العجمي!! اطمئن ولاتكتئب، وإن كان ظالم جعل حالك بمثل هذا السوء فإن المعبود الكبير قد جعلني رحيمة بك، فستسترد عافيتك «أقسم بالله الذي لاشريك له، أنني قد فقدت وعيي بعد رؤيتها أيضاً، فسقتني ماء الورد بيدها، وفي خلال عشرين يوما إندمل الجرح وشفيت، ودائما كانت الأميرة تأتيني ليلاً حين ينام الجميع وتطعمني وتسقيني.

مجمل القول إنني شفيت بعد أربعين يوماً، فسرت الأميرة غاية السرور ومنحت الجراح مكافأة عظيمة، وألبستني الملابس، وبفضل الله تعالى ورعاية الملكة وعنايتها أصبحت في تمام الصحة والعافية، وصرت ممتلئ البدن، وأصبح الكلب أيضاً سميناً، وفي كل يوم كانت تسقيني الشراب وتستمع إلى حديثي وتسريه وتفرح، وكنت أنا أيضاً أقص عليها غرائب القصص حتى تسعد وينشرح صدرها.

وسألتني ذات يوم قائلة: «قص لي أحوالك ومن أنت ولماذا مرت بك هذه الأحداث؟» فقصصت عليها أحوالي كلها من أولها إلى آخرها، وماأن سمعت قصتي حتى أخذت في البكاء قائلة: «من الآن سأعاملك معاملة تجعلك تنسى مصيبتك».

فقلت: «فليحفظك الله، لقد أنقذت حياتي من جديد، لقد وهبتك حياتي، إنني رهن إشارتك، بالله عليك اعتني بي دائماً على هذا النحو. المهم أنها كانت تصاحبني وتجلس إليّ طوال الليل بمفردها وأحياناً تكون برفقتها الوصيفة، وتحكي كل شيء وتسمع كل شيء وحينما تمضي الأميرة أبقى وحيداً، فأتوضأ وأصلي مختبأ في ركن من أركان البيت.

وذات مرة حدث أن ذهبت الأميرة إلى أبيها، فتوضأت باطمئنان وشرعت فى الصلاة، فإذا بالأميرة تحضر فجأة مع خادمتها قائلة: «لننظر ماذا يفعل العجمى فى هذا الوقت، أنائم أم مستيقظ؟ لقد تعجبت الأميرة عندما لم تجدنى فى مكانى وتساءلت أين هو؟ هل تعلق بأى شخص؟ وأخذت تجوب أرجاء البيت باحثة عنى، وأخيراً وصلت إلى المكان الذى كنت أصلى فيه، وكيف لهذه الفتاة أن تعرف الصلاة؟ فجمدت فى مكانها ناظرة إلىّ، وحينما فرغت من الصلاة ورفعت يدى بالدعاء ثم سجدت داعياً، ضحكت مقهقهة وقالت: «ماذا يفعل هذا وماتلك الحركات الغريبة التى يقوم بها؟». وحينما سمعت صوت ضحكها خفت فى قلبى، وجاءت أمامى وسألتنى: «أيها العجمى ماذا تفعل؟» فلم أستطع الرد عليها، فقالت الوصيفة: ياصاحبة السمو إننى أشعر أنه مسلم وعدو «للات ومناة» يعبد الله الذى لايُرى.

وبعد أن سمعت الملكة هذا، ضربت كفاً بكف، وقالت: لم أكن أعلم أنه مسلم ومنكر لآلهتنا، لهذا كان صنمنا غاضباً عليه، آويته فى بيتى دون فائدة، قالت هذا وهى تمشى وبعد أن سمعت هذا منها طاش صوابى منتظراً ماذا ستفعل معى؟ وجفانى النوم خوفاً وبكيت كثيراً حتى الصباح، وغسلت وجهى بالدموع، ومرت ثلاث ليالى وثلاثة أيام وأنا بين الخوف والرجاء، لم يغمض لى جفن وفى الليلة الثالثة جاءت الملكة وخادمتها وهى ثملة إلى مكانى، وجلست فى مقدمة الحديقة خارج البيت وفى يدها سهم وقوس وكانت فى ثورة الغضب، وطلبت قدح الشراب من الخادمة وشربت ثم قالت: «أيتها الخادمة، هل العجمى الذى كان مغضوباً عليه من آلهتنا مازال على قيد الحياة؟» فقالت الوصيفة: «إنه حى ياصاحبة السمو» قالت: «لقد سقط من نظرنا لكن استدعيه كى يخرج «فاستدعتنى الوصيفة» فأسرعت إليها، فرأيت وجه الأميرة ممتقعاً من الغضب، ثم تضرج وجهها بالحمرة، فخرجت روحى من جسدى خوفاً، وسلمت ووقفت عاقداً يدى فرمقتنى غاضبة وقالت للوصيفة: «إن رميت عدو ديننا هذا بسهم هل تعفو عنى آلهتنا العظيمة أم لا؟ لقد ارتكبت جرماً عظيماً بأن آويت ورعيت هذا الكافر».

فقالت الوصيفة: أى ذنب جنته الأميرة؟ فأنت آويته ورعيته دون أن تعرفى أنه عدو، لقد أشفقت عليه، فأنت جديرة بالمثوبة لأنك قصدت خيراً، أما هو فسيجنى ثمرة فعله من آلهتنا العظام، وبعد أن سمعت هذا قالت لوصيفتها: «دعيه يجلس وأشارت إلىّ أن أجلس فجلست، وقالت للوصيفة: «اعط هذا الوضيع كأساً واحدة من الشراب ليقتل بسهولة «فناولتنى الوصيفة

كأساً فشربت دون اعتراض، وسلمت لكنها لم تنظر لى، ثم أخذت تختلس النظر لى شذراً، وحينما شربت الخمر انتابتنى النشوة، ودارت الخمر برأسى فأخذت أنشد هذا الشعر:

ـ أنا فى قبضتك فما الفائدة فى أن أظل حياً؟

ـ فماذا يجنى أى أحد إن وضع عنقه تحت حد الحسام؟

وبعد أن سمعت هذا ابتسمت ونظرت إلى وصيفتها قائلة: «هل انتابك النعاس؟» فقالت بعد أن رأت رضاها: «نعم غلب على النوم» فصرفتها الأميرة، وبعد لحظة طلبت منى الأميرة الكأس فأعطيتها إياها بسرعة، فتناولتها منى برقة، وشربتها فخررت على قدميها فربتت الأميرة على قائلة: «أيها الجاهل!! ماذا وجدت من عيب فى آلهتنا العظام حتى تعبد المعبود الغائب؟».

فقلت: «الإنصاف شرط، لو تكرمت فلتفكرى فى أن الخالق الذى خلق الحبيب مثلك من قطرة ماء ووهبك هذا الحسن والجمال لتخلبى لب آلاف البشر فى آن واحد، هل هو جدير بالعبادة؟ وماالصنم حتى تعبدينه؟ إنه حجر نحته النحاتون وجعلوا له صورة وخدعوا به الحمقى من الناس، حرضهم الشيطان، وهم يعتقدون أن المصنوع هو الصانع، فالذى يصنعونه بأيديهم يحنون رءوسهم أمامه، ونحن المسلمين نعرف الذى خلقنا ونعترف به، وقد جعل لهم جهنم وجعل لنا الجنة، ولو تشرفت الأميرة بشرف الإسلام، فستدرك حلاوة الإيمان، وتفرق بين الحق والباطل وتدرك خطأها».

وحينما استمعت إلى تلك النصائح، بدأ قلبها الحجرى يلين وأخذت تبكى بفضل الله سبحانه وتعالى، وقالت: علمنى دينك فلقنتها الشهادة، فنطقت بها بقلب صادق، وتابت إلى الله واستغفرت وشرفت بالإسلام، فركعت على قدميها وأخذت تتلو الشهادة، وتستغفر وتتوب حتى الصباح، ثم بدأت تقول: «إننى قبلت دينك لكن أبى وأمى كافران فماذا نفعل بشأنهما؟» فقلت لها: «ماشأنك أنت، أى شخص كما يدين يدان». قالت: «لقد خطبونى إلى ابن عمى وهو وثنى يعبد الصنم فلولا قدر الله زوجونى من هذا الرجل غدا وهو كافر وحملت منه فما أقبح هذا وأبشعه!، فلابد أن تفكر فى هذا الأمر حتى أتخلص من هذا البلاء». فقلت لها: «قولك معقول فافعلى ماتشائين»، قالت: «لن أمكث هنا وسأرحل».

فسألتها كيف تستطيعين الهرب؟ وإلى أين تهربين؟ فأجابتنى: «أولا إذهب أنت والحق بالمسلمين، فحينما يعلم الناس بخروجك بمفردك فلن يظنوا أننا هربنا سوياً، وأبحث عن

السفن الذاهبة إلى بلاد العجم وأخبرني وسأرسل دائماً الخادمة إليك لهذا الغرض، وحينما تخبرني سأخرج ونركب السفينة ونذهب، ونتخلص من هؤلاء النساء الكفرة.

فقلت لها: «إنني فداء لحياتك ودينك، ماذا ستفعلين مع وصيفتك؟». قالت: هذا أمر سهل، نسقيها كأساً من سهم الهلاهل وهذا أصلح، وحينما أشرق الصبح، ذهبت إلى مكان القوافل واستأجرت حجرة لأسكن فيها، وكنت أعيش في هذا الفراق أملاً في الوصل واللقاء، وبعد شهرين اجتمع تجار الروم والشام وأصفهان فأردت أن أسافر برفقتهم، وبدأت أحمل أمتعتي على السفينة، وبسبب الإقامة في مكان واحد عرفني كثير من الناس، وقال الذين يعرفونني: «أيها السيد تعال معنا، فإلى متى تمكث في بلاد الكفرة ؟» فأجبتهم: «ليس هناك مايدعوني للعودة إلى وطني، لست أملك إلا خادمة والكلب والصندوق، فياليتكم تمنحونني مكاناً على السفينة لأسافر على أن أدفع أجرة السفر فأطمئن وأركب.

وأعطاني التجار حجرة، ونقدتهم الأجر، وذهبت إلى الجارية بحيلة بعد أن تمالكت نفسي وقلت لها: «سأغادر هذه البلاد وأعود لوطني فجئت لأسلم عليك، إن تفضلتي وجعلتني ألقي نظرة واحدة على الأميرة كان ذلك فضلاً عظيماً منك». فوافقت الخادمة، فقلت لها سوف أحضر ليلا في المكان الفلاني «قالت: «حسناً»، ثم رجعت إلى القافلة، ونقلت الصندوق والمتاع إلى السفينة، وأعطيتها إلى ربان السفينة قائلاً: «سوف أحضر مع الخادمة صباحاً». فقال الربان: «لاتتأخر، سنرفع المرساة في الصباح الباكر». فقلت: «حسنا جداً»، وحينما أرخى الليل سدوله، ذهبت إلى المكان الذي عينته للخادمة ووقفت هناك، وحينما انقضى هزيع من الليل انفتح باب القصر وخرجت الأميرة متخفية في ثوب قذر حاملة صندوقاً للجواهر، فأعطتني هذا الصندوق وصاحبتني، فبلغنا شاطئ البحر مع شروق الشمس، فركبنا أولا قارباً طويلاً أقلنا إلى السفينة، وكان هذا الكلب الوفي معنا، وحينما أشرقت الشمس بوضوح رفعت المرساة وأبحرت السفينة، وكنا نسافر مطمئنين فإذا بنا نسمع صوت قذف المدافع، فتحيرنا وبدأنا نفكر ماذا حدث؟ فأوقف الربان السفينة وبدأنا نتحدث فيما بيننا، فربما يكون القائد الأعلى للميدان يخدعنا، وإلا فما السبب في قذف المدافع؟.

وكان مع كل تاجر بعضُ الجواري الحسان وخوفاً من أن يستولي عليهن رئيس الميناء أخذوا يخبئونهن ففعلت ذلك أنا أيضاً، وأخفيت الأميرة في صندوق وأقفلته، وأثناء ذلك ظهر

رئيس الميناء فى قارب مع حراسه ومعاونيه، وسار حتى وصل السفينة وصعد إليها، لعل سبب مجيئه أن نبأ موت الجارية بلغ الملك كذلك اختفاء الأميرة ولكنه لم يذكر إسمها بسبب الحياء وخشية الفضيحة، لكنه - أى الملك - أمر رئيس الميناء قائلاً: «إننى سمعت أن التجار العجم يملكون جوارى فاتنات وأنا أريد أن آخذهن لخدمة ابنتى الأميرة فأحضرهن جميعاً أمامى لأنتقى منهن أفضلهن لخدمتها وأدفع ثمنها، وإلا فليرجعن» وبموجب أمر الملك حضر رئيس الميناء إلى السفينة الآن، وكان إلى جوارى تاجر يملك أيضاً جارية حسناء أخفاها فى صندوق وجلس رئيس الميناء على ذلك الصندوق، وبدأ يخرج الجوارى، وحمدت الله على أنه ليس هناك ذكر لبنت الملك.

الخلاصة، حمل أتباع رئيس الميناء الجوارى على القارب وسأل الرئيس ذلك التاجر الذى كان جالساً على صندوق يملكه: «هل معك جارية؟ فقال ذلك الأحمق: «أيها الرئيس لست وحدى من فعل هذا، بل جميع التجار يخبئون جواريهم فى الصناديق خوفاً منك». فأخذ رئيس الميناء يبحث فى كل الصناديق، وفتح صندوقى أيضاً، وأخذ الأميرة مع الجميع، وتملكنى يأس شديد، وقلت لنفسى: «ماذا حدث الآن ذهبت حياتى هباءً، ترى ماذا سيصنع الملك بالأميرة؟».

وكنت أفكر فيها لدرجة أننى غفلت عما يهدد حياتى بالخطر، وكنت أتضرع إلى الله بالدعاء طوال الليل، وعندما انبلج الصبح أعادوا كل الجوارى اللاتى أخذوهن إلى السفينة مرة أخرى وسعد التجار بعودتهن، واسترد الجميع جواريهم وجئن كلهن ماعدا الأميرة، فسألت: «ألم تعد جاريتى ولما لم تعد؟». فأجابونى: «نحن لانعرف، ربما يكون الملك قد استحسنها، وأخذ الجميع يهدئون من روعى ويطمئنونى قائلين: «ماحدث قد حدث، فلا تبتأس وسوف ندفع لك جميعاً ثمنها فطاش صوابى وقلت: «لن أسافر إلى بلاد العجم» وقلت لبعض الرفاق: «أيها الرفاق خذونى معكم وأنزلونى على الشاطئ» فقبلوا، وركبت قارباً بعدما نزلت من السفينة وكان الكلب معى.

وعندما وصلت إلى الميناء حملت صندوق الجواهر الذى أحضرته الأميرة معها فقط، أما باقى الأمتعة فأعطيتها لخدم رئيس التجار، وتجسست فى كل مكان علنى أسمع أى نبأ عن الأميرة وذهبت ذات ليلة متخفياً إلى قصر الملك لكننى لم أعثر لها على أى أثر ولم أجد أى خبر، وبحثت عنها حوالى شهر فى كل صوب وحدب، وقد أشرفت على الهلاك بسبب هذا

الحزن، وكنت أطوف فى هيئة التجار، وأخيراً دار فى خلدى أنه لابد وأن تكون الأميرة فى بيت رئيس الميناء ولن تكون إلا هناك وكنت أطوف حول قصر رئيس الميناء لأجد أى وسيلة للدخول.

فرأيت منفذاً ضيقاً يسمح بمرور شخص واحد، لكنه كان فى أوله سلك حديدى، فأردت أن أدخل من هذا الطريق، فخلعت ثيابى ونزلت فى طين نجس وتجشمت كثيراً من العناء حتى كسرت هذا الحديد، ودخلت عن طريق دورة المياه، وتمثلت فى هيئة امرأة وأخذت أنظر هنا وهناك وبلغ سمعى صوت من أحد الأركان، وأرهفت السمع، وكأن شخصاً يبتهل ويتضرع، فتقدمت فرأيت الأميرة تبكى فى حالة يُرثى لها وهى تفرط فى الابتهال والتضرع وتدعو الله قائلة: « يا إلهى تقبل دعائى بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله الأشراف الأطهار أنقذنى من بلاد الكفر هذه، واجعلنى ألقى من دلنى على طريق الإسلام على خير، وحينما رأيتها ذهبت إليها وسقطت على قدميها وعانقتنى وغبنا عن الوعى كلانا، وعندما أفقنا سألت الأميرة عن حالها فقالت: «حينما أخذ رئيس الميناء جميع الجوارى إلى الشاطئ سألت الله ألا يفشو سرى وألا يعرفنى أحد، ولاتنزل أى مصيبة بك، والله عز وجل ستار العيوب فلهذا لم يسأل شخص قط هل هذه الأميرة؟ وكان رئيس الميناء ينظر إلى جميع الجوارى كأنه يشتريهن، وحينما جاء دورى استحسننى وأرسلنى إلى بيته سراً وعرض الأخريات على الملك.

وحينما لم يجدنى أبى بينهن سمح لهن بالانصراف، وكان قد فعل كل ذلك من أجل استردادى، وبعدها أذاع أن الأميرة مريضة جداً فإن لم أظهر فسيعلن نبأ موتى، حتى لايلحق الخزى والعار بسمعة الملك، لكننى فى عذاب وشقاء لأن أمير الميناء يريد منى شيئاً آخر، إنه يطلب منى مطارحتــه الغرام، ولم أرض بذلك لكنه يلح كثيراً، ثم يلزم الصمت انتظاراً لموافقتى ولهذا فإنى مضطربة، فإلى متى تستمر هذه الحال؟ ولقد قررت الانتحار إن صمم على أن ينال غرضــه منى، لكننى طالما وجدتك فإننى لدى حيلة تساعدنى على التخلص من أمير الميناء إن شاء الله، وليس لنا حيلة غيرها، فقلت لها تفضلى ما الحيلة؟ وبدأت تقول: «إن بذلت الجهد فمن الممكن أن تجد تلك الحيلة، فقلت لها: «أنا طوع أمرك، فإن تأمرى؛ ألقى بنفسى فى النار، وأن أجد سلماً صعدت به إلى السماء من أجلك، مرينى فأنا ملك يمينك».

قالت الأميرة: «اذهب إلى معبد الصنم الأكبر وهناك ستجد موضعا فيه سجادة سوداء، يخلع الناس عليها نعالهم، وعادة هذه البلاد أن من يكون فقيرا محتاجاً يجلس فى هذا المكان، ويضع تلك السجادة على رأسه، وكل من يدخل المكان للزيارة يمنحه الإحسان والصدقة، كل حسب مقدرته، وبعد مرور عدة أيام عندما يجمع الكثير من المال، يخلع عليه البرهمن الخلع والعطايا من المعبد، ويأذن له فى الانصراف فيعود وقد أصاب ثروة كبيرة وغنم مالاً وفيراً، ولايعلم أى شخص من هو، فاذهب أنت أيضاً إلى ذلك المكان وأفعل هذا وأخف وجهك جيداً ولاتتكلم مع أى شخص وعندما تأخذ المال وحينما يعطيك البرهمن الخلعة، بعد مرور ثلاثة أيام ويأذن لك فى الانصراف لاتنصرف، وعندما يلحون عليك فى الانصراف قل لهم: «لاأحتاج إلى المال، لست طامعاً فى مال، بل أنا مظلوم وجئت للشكوى، إلى أم البرهمن، فإن لم تنصفنى، فسينصفنى الصنم الأكبر، ويقتص لى من الظالم، وإن لم تأت لك أم البرهمن فلا ترض عن ذلك بديلاً، ففى النهاية ستضطر للحضور إليك، فهى عجوز لها من العمر مائتان وأربعون سنة، ولها ثلاثون ولداً وكلهم رؤساء المعبد، ولها منزلة رفيعة عند الصنم الأكبر، ولهذا فأمرها نافذ، يشعر الصغير والكبير بالسعادة البالغة حينما تقول له شيئاً ويمتثل الجميع لأمرها طائعين صاغرين، فخذ ذيل ثوبها وقل لها: «ياأمى!! لو لم تنصفى هذا المسافر المظلوم، فسأذهب إلى الصنم الكبير وأتشبث به حتى ينصفنى، ففى النهاية سيشفع لى عندك.

وحينما تسألك أم البرهمن عن أحوالك فقل لها: «أنا من بلاد العجم جئت لزيارة الصنم الأكبر، وسمعت بعدلك فجئت إليك من مكان بعيد، وعشت هنا عدة أيام براحة وسكون، وكانت معى زوجتى وهى شابة جميلة فاتنة الملامح، ولاأدرى كيف رآها أمير الميناء، فأخذها منى ليغتصبها قهراً وذهب بها إلى بيته، وفى شريعة المسلمين أن الذى ينظر إلى غير محرم أو يغتصبها يجب على المسلمين أن يقتلوه بأى وسيلة ويستردوها، وإلا فإنهم يضربون عن الطعام والشراب احتجاجاً على ذلك، وتصبح حراماً على زوجها طالما بقى المغتصب على قيد الحياة، وجئت إلى هنا مضطراً لأرى كيف ستنصفيننى ياأم البرهمن؟ وحينما علمتنى الأميرة هذه الأشياء كلها خرجت من الماسورة، وعبرت الشبكة الحديدية ثانية.

ولما طلع الصبح ذهبت إلى المعبد، وتدثرت بتلك السجادة السوداء، وتجمع لدى مال كثير فى ثلاثة أيام أصبح كومة كبيرة وفى اليوم الرابع جاء البرهمن إلى تالين الأوراد والأدعية

حاملين خلعة وبدأوا يودعونني فلم أقبل الانصراف، وقلت: «بحق الصنم الأكبر، إنني لست سائلاً بل جئت إلى أم البرهمن والصنم الكبير، طالباً الإنصاف وطالما لم يتحقق مطلبي، فلن أنصرف من هنا، وبعد أن سمعوا هذا توجهوا إلى تلك العجوز، وذكروا لها أحوالي، فجاء أحدهم لي وقال: الأم تطلبك لتتفضل، فذهبت إلى المعبد ملتحفاً بتلك السجادة السوداء، فرأيت عرشاً كبيراً مرصعاً بالياقوت واللآلىء والماس وعليه الصنم الأكبر، وهناك كرسي ذهبي عليه فرش كبير، وتجلس عليه عجوز متشحة بالسواد، متكئة على أريكة، وغلامان على يمينها وشمالها في وقار وحشمة، ودعتني أن أتقدم للأمام، فتقدمت بأدب واحترام وقبلت أعتاب العرش، وأخذت طرف ثوبها، فسألتني عن أحوالي، فشرحت لها حالي كما علمتني الأميرة فقالت: «هل يجعل المسلم امرأته في حجاب حتى لايراها أحد؟» فقلت: «فليحفظ الله أولادك، نعم هذا هو شرعنا القديم»، فقالت: «مذهبكم جيد» الآن أنا آمر بأن يحضر أمير الميناء مع زوجتك، وألقنه درساً حتى لايقترف هذا الإثم ثانية، ذلك النجس، ويأخذ الجميع عبرة»، وبدأت تسأل من حولها، من هو أمير الميناء؟ كيف يجرؤ ويغتصب امرأة غيره؟ فقال الناس هو فلان، فقالت للغلامين الجالسين عندها: «خذاه بسرعة إلى الملك وقولا له: تقول أم البرهمن: «هذا حكم الصنم الأكبر أن أمير الميناء يظلم الناس، فقد اغتصب امرأة هذا الأجنبي، وهو مذنب في هذا، فسارع إلى أخذ التعويض من مال هذا الضال، وأعطه لهذا المفضل لدي، وإلا ستهلك ليلاً، وسيحل بك غضبي».

فقام الغلامان من مكانهما وركبا وأحاط بهم جميع البراهمة، يتلون الأدعية والأناشيد ويعزفون.

فالخلاصة كان الصغير والكبير يتبرك بالتراب الذي تطؤه قدما هذين الغلامين، ويكتحلون به، حتى وصلوا إلى قصر الملك فوصل الخبر إلى الملك فخرج لاستقبالهما حافي القدمين، وأجلسهما على العرش بكل تكريم واحترام بالقرب منه وسألهما: «لماذا تفضلتما وشرفتماني بقدومكما اليوم؟» فحكى الغلامان ماسمعا من الأم وحذراه من غضب الصنم الكبير، فأمر الملك فور سماعه ذلك قائلاً: «حسناً، فليذهب المحصلون إلى الميناء، ويحضروا أمير الميناء مع تلك المرأة، وسأعاقبه على قدر ذنبه».

فخفت في قلبي من هذا الأمر لأن الأميرة إذا حضرت مع أمير الميناء، فسينكشف الأمر وماذا ستكون العاقبة؟ فاضطربت كثيراً وتوجهت إلى الله بالدعاء، وتغير لون وجهي وبدأ

جسمى يرتعد خوفاً، وحينما رأى الغلامان شحوب وجهى أدركا أن هذا الحكم لايرضينى فقاما غاضبين قائلين للملك: «أيها الرجل هل أنت مجنون حتى تخرج من طاعة الصنم الكبير؟ وماصدقت قولنا واعتبرته كذباً وتريد التحقيق؟ احذر، فأنت فى غضب الصنم الكبير، قد أبلغناك الأمر والآن أمرك موكول إلى الصنم الكبير».

وبعد هذا تغير حال الملك، فوقف عاقداً يديه واهتز من رأسه إلى أخمص قدميه وطلب العفو منهما لكنهما لم يجلسا، وبقيا واقفين، وفى تلك الأثناء بدأ الأمراء جميعاً يقولون: «إن أمير الميناء رجل سيىء الخلق آثم بطبعه ويأتى بأفعال شنيعة، فماذا نقول وماذا نحكى للملك؟ كل ماقالته أم البرهمن حق، إذ كيف يكون حكم الصنم الكبير كاذباً؟»، وحينما سمع الملك من الجميع نفس الكلام ندم على قوله، فأعطانى خلعة فاخرة على الفور ومنحنى وثيقة مختومة بخاتمة وكتب خطاباً آخر إلى أم البرهمن وقدم للغلامين الجواهر والدنانير وودعهما، فرجعت إلى المعبد فى فرح وسرور وذهبت إلى تلك العجوز، وكان مكتوباً على خطاب الملك بعد الألقاب والتحية: «تقرر أن يكون أمير الميناء خادماً لهذا المسلم، ويعطى هذا المسلم خلعة والآن هو مخير فى قتله، وجميع أمواله وأملاكه لهذا العجمى يفعل بها مايشاء وأرجو العفو عن تقصيرى وذنبى».

فقالت أم البرهمن مسرورة: «فليعزف العازفون نشيد المعبد، وليقذف خمسمائة من رماة الجيش بالألعاب النارية، وأرسلت معى جنوداً مسلحين وأمرتهم: «اذهبوا إلى الميناء وقيدوا الأمير وسلموه إلى هذا المسلم كى يعذبه كما يشاء، واحذروا أن يدخل القصر أحد سواه، واعطوه أمواله وأملاكه، فإن ردها له برضاه فأحضروا لى منه وثيقة بذلك»، وأعطتنى صنماً من المعبد وأركبتنى وودعتنى، وحينما وصلت إلى الميناء كان قد تقدم أحدهم وأخبر أمير الميناء، فجلس متحيراً حتى وصلت، وكنت ممتلئاً بالغضب، فما أن رأيته حتى ضربت عنقه بسيفى ففصلته عن جسده، وأمرت بالقبض على أمين الصندوق والحاكم والضباط واستوليت على الدفاتر، ودخلت القصر فقابلت الأميرة وعانقتها وبكينا وحمدنا الله وكفكفت دموعها ودموعى ثم جلسنا على العرش وأنعمنا بالعطايا على كل من يستحقها وعيناهم فى الوظائف ورفعنا من شأن الخدم والعبيد، ومنحنا الجوائز والهدايا لمن جاء معى من عند أم البرهمن، وودعنا الرسل ومنحناهم الهبات، وأخذنا الأموال والجواهر الثمينة والأثواب الحريرية القيمة ذات الألوان الجميلة الموشاة بالذهب والتحف والنفائس التى أحضرت من كل الممالك

لنقدمها للملك والأمراء والأكابر كل وفق منزلته، ولزوجات الكهنة، وذهبنا بكل هذا بعد أسبوع إلى المعبد وقدمناها للأم قرباناً وأضحية فأعطتنى خلعة للرفعة ومنحتنى لقباً، ثم ذهبنا بتلك الأشياء إلى الملك وقدمتها إليه وطلبت منه أن يوقف الظلم الذى قام به أمير الميناء لهذا رضى عنى الملك والأمراء والتجار ومنحونى خلعة وفرساً كما أقطعونى إقطاعاً وأعلوا من شأنى.

وحينما خرجت من عند الملك، منحت الهبات لحاشيته حتى بدأوا يلهجون بالثناء علىّ.

خلاصة القول أننى بدأت أعيش فى بحبوحة ورغد من العيش بعد زواجى من الأميرة، وكنت أعبد الله وبسبب عدلى وإنصافى كانت الرعية تعيش فى أمان واستقرار ورضاء بى وكنت أذهب مرة واحدة فى الشهر إلى المعبد وإلى الملك، وكان الملك يجزل لى العطاء مرة بعد مرة.

أخيراً اتخذنى خليلاً وكان لايقوم بأى أمر إلا بعد مشورتى، وبدأت أقضى الأيام دون فكر وهم، والحقيقة يعلمها الله أننى دائماً كنت أفكر فى أخوى، أين هما؟ وكيف حالهما؟ وبعد عامين جاءت إلى الميناء قافلة تجار من بلاد «زيرباد» كانوا مسافرين إلى بلاد العجم، وأرادوا أن يعودوا إلى بلادهم عن طريق البحر، وكانت تقاليد تلك البلاد أنه إذا أتت قافلة، أن يقدم قائدها التحف والنفائس إلىّ، وأذهب أنا إليه فى اليوم التالى وأحصل منه الضرائب والهدايا وفى اليوم التالى ذهبت إلى خيمتهم فرأيت شخصين يأتيان حاملين صرر الملابس وكانا يعرضان علىّ مايحملانه، ثم يعودان به مرة ثانية وهكذا.... وكانا يتجشمان كثيراً من العناء والمشقة فى هذا.

وحينما أمعنت النظر، وجدت أنهما أخواى، فأبت على غيرتى وحميتى أن أراهما يخدمان هكذا، وحينما ذهبت إلى منزلى قلت لهؤلاء الناس: أحضروا هذين الرجلين، وعندما أحضروهما ألبستهما لباساً فاخرا، واستضفتهما عندى وذات ليلة دبر هذان الخائنان قتلى وعندما انتصف الليل، وأدركا غفلة الناس زحفا كالنمل إلى حيث أكون، وكنت قد عينت الحراس على بابى خوفاً على حياتى من غدرهما، وهذا الكلب الوفى كان ينام عند سريرى وما أن استلا سيفهما، حتى أخذ الكلب ينبح نباحاً شديداً، استيقظ الجميع على صوت نباحه،

وتنبهت أنا أيضاً من نومى، وعندئذ قبض الحراس عليهما، وعرف الجميع أنهما أخواى، فبدأوا يلعنونهما قائلين: أيفعلان هذا بعد إكرامهما!!

يا جلالة الملك، لقد خفت على حياتى وعلى حد قول المثل المشهور: خطأ واثنان وصفح أما الثالث فلا عفو فقررت أن أقبض عليهما، لكننى إن حبستهما فى السجن فمن يرعاهما؟ فسيموتان جوعاً وعطشاً و ربما يأتيان بحيلة أخرى.

لهذا وضعتهما فى قفص ليكونا دائماً تحت رعايتى، واطمئن من جانبهما، واحتاط من أن يكيدا إلى مرة أخرى إن غابا عن ناظرى، وأكرمت الكلب لأنه وفى مخلص سبحان الله الإنسان هو الخائن السيىء، والحيوان هو الوفى هذه هى قصتى، قصصتها عليك، والآن الأمر لك، تقتلنى أو تحفظ علّى حياتى.

ففرحت وسررت بهذا الشاب المؤمن وقلت له: لا شك أنك لست مقصراً فى المروءة وهما ليسا مقصرين فى الخسة والدناءة وفى الحقيقة: إن ذيل الكلب لو يدفن فى الأرض اثنتى عشرة سنة لا يستقيم ثم سألته عن حقيقة اليواقيت الاثنتى عشرة المعلقة فى رقبة الكلب؟ فقال السيد: أطال الله عمر مولانا الملك مائة وعشرين سنة، فى ذلك الميناء الذى كنت أحكم فيه، صعدت ذات يوم لأعلى القصر لأتمتع بمشاهد البحر والصحراء كنت أطيل النظر هنا وهناك، إذ بى أرى شبحين كأنهما شخصان يسيران فى الغابة ولم يكن بها طريق للمرور، فشاهدت عن طريق المنظار المكبر شخصين فى هيئة غريبة، فأرسلت الخدم ليدعوهما وحينما أقبلا علىّ، وجدت أن أحدهما امرأة والآخر رجل، فبعثت بالمرأة إلى داخل القصر عند الأميرة، وأحضرت الرجل أمامى فوجدته شاباً فى العشرين أو الثانية والعشرين من عمره ويبدو أن شاربه قد نبت حديثاً بعض الشيء، وبسبب حرارة الشمس صار لون وجهه أسود كالمرجل وطال شعره وأظافره أيضاً كأنه يعيش فى الغابة وعلى كاهله طفل فى الرابعة أو الخامسة من عمره وكان هذا الرجل يعلق فى عنقه جرابين مملوءين، وكان شكله وهيئته فى غاية العجب، فسألته وأنا فى شدة الحيرة: أيها العزيز، من أنت وما بلادك وما تلك الهيئة التى تبدو عليها؟ فبدأ الشاب يبكى رغماً عنه وفتح كيس النقود ووضعه أمامه وقال: إنه الجوع، أعطنى شيئاً لوجه الله، فأنا آكل الكلأ منذ مدة طويلة وكذلك أوراق الشجر، حتى خارت قواى فأحضرت له على الفور الشواء والخبز والشراب، فبدأ يأكل، وأثناءذلك أحضر مسئول القصر العديد من أكياس النقود والذهب التى أحضرها ذلك الشاب معه، ففتحت

الأكياس كلها فرأيت الجواهر من كل الأنواع وكل حبة منها تساوى خراج السلطنة، وكل واحدة أفضل من الأخرى، وتعطر المكان بعد فتحها ، ولما أكل وشرب وتنفس الصعداء واسترد قواه سألته: من أين أحضرت تلك الجواهر؟ قال: أنا من ولاية آذربيجان وكنت قد تجشمت كثيراً من المتاعب والمشاكل فى الطفولة بعد تركى أهلى ووطنى وعشت مدفوناً حياً لمدة طويلة، ونجوت بأعجوبة من براثن ملك الموت أكثر من مرة.

فقلت: أيها الرجل فصل القول لأعرف، فبدأ يحكى قصته: كان أبى تاجرا، وكان يسافر إلى الهند والروم والصين والخطا والإفرنج وحينما بلغت العاشرة من عمرى، أراد أبى أن يسافر إلى بلاد الهند وأن يأخذنى معه، فأصرت أمى وخالتى وعمتى وزوجة خالى على أننى صغير ولا أستطيع تحمل وعثاء السفر، لكن أبى رفض قائلاً: إننى أصبحت كهلاً، ولو لم يترعرع ولدى أمامى، فستصحبنى الحسرة فى قبرى، الآن هو طفل، وإن لم يتعلم الآن فمتى يتعلم؟.

وبعد هذا أخذنى وغادر البلاد وقطعنا الطريق بخير وعافية وعندما وصلنا إلى الهند، بعنا شيئا من السلع واشترينا الهدايا والتحف ثم سافر إلى بلاد «زيرباد» وأنهينا هذا السفر على خير ما يرام واشترينا وبعنا هناك أيضا، وركبنا السفينة نعود إلى وطننا، وبعد شهر بدأت العواصف تهب وثار الطوفان وهطل المطر مدراراً، وأصبحت الأرض والسماء كلها كالدخان، وانكسر شراع السفينة، وبدأ الربان يضرب رأسه فزعاً واستمرت الحال هكذا عشرة أيام، وكان الموج يقذف بالسفينة هنا وهناك، وفى اليوم الحادى عشر اصطدمت السفينة بجبل وتحطمت، ولم أدر أين ذهب أبى ولا الخدم والا الغلمان؟.

وجدت نفسى ممداً فوق لوح خشبى، وكنت أسبح متعلقاً باللوح الخشبى طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال واللوح يتحرك تلقائياً، وفى اليوم الرابع وصل اللوح إلى الشاطئ ولم يبق فى إلا الروح، فنزلت عن ذلك اللوح وحبوت حتى وصلت إلى الأرض بصعوبة، ورأيت الزراعة على بعد وقد اجتمع كثير من الناس هناك، وكانوا جميعا ذوى بشرة سوداء، عراة الأبدان كما ولدتهم أمهاتهم، وتحدثوا معى ولكننى عجزت عن فهم لغتهم، وكانت الزراعة هناك هى الحمص، وكانوا يجمعونه قبل الحصاد، ويشوونه ويأكلونه، ورأيت العديد من المنازل وكان أهلها يأكلون هذا الطعام ويعيشون عليه، فدعونى للطعام فاقتلعت الحمص من الأرض وشويته وأكلته وشربت قليلاًمن الماء وانتحيت جانباً ونمت.

عد وقت استيقظت فجاءنى أحدهم ودلنى على الطريق كى أنصرف، فاقتلعت الحمص ومشيت وكان الميدان من الطول بحيث يبدو وكأنه صحراء القيامة وكنت أسير وأكل هذا الحمص الذى اقتلعته من الأرض، وبعد عدة أيام رأيت قلعة فاقتربت منها فوجدتها عالية مبنية بالحجر وكانت تمتد من جميع النواحى إلى أربعة كيلو مترات بابها منحوت من حجر واحد وعليه قفل كبير، لكننى ما وجدت بها أثراً لإنسان، فتجاوزتها فرأيت تلا وكان لون ترابه كلون الكحل فتجاوزته أيضا، فرأيت مدينة كبيرة محاطة بسور وفيها أبراج متجاورة وبجوار المدينة بحر خضم، فتقدمت إلى البوابة وسميت باسم الله ودخلت، فوجدت داخل البوابة شخصا لابساً زياً أفرنجيا جالساً على مقعد، وحينما رآنى وسمعنى أقول باسم الله دعانى قائلاً: أقبل فحييته فرد تحيتى بأحسن منها، وأحضر لى على الفور رغيفاً افرنجيا وقدم لى الشراب والشواء من لحم الدجاج وقال لى: تفضل وكل حتى تشبع هنيئاً مريئاً، فتناولت شيئاً من الشواء والشراب ونمت ملء جفونى، وحينما أرخى الليل سدوله استيقظت فاغتسلت بالماء ثم اطعمنى وقال لى: يا بنى احك لى ما مر بك من أحداث فقصصت عليه كل ما لاقيته من مصائب وعناء فقال لى: لماذا جئت إلى هنا؟ فأجبته رغماً عنى: لعلك مجنون، لقد بلغت تلك المدينة بعد كثير من المشاق والمصائب، وأوصلنى الله عز وجل إلى هنا، وأنت تسألنى هذا السؤال؟ فقال لى: استرح الآن، أما فى الغد فسأقول لك ما أريد!.

وحينما أصبح الصبح قال لى: احضر غربالاً وفأساً وكيساً جلدياً فقلت فى نفسى: الله أعلم إن هذا الرجل قد أطعمنى ويريد منى أن أعمل لديه نظير ذلك، فأحضرت كل ما طلبه منى رغم أنفى، فقال لى: اذهب إلى هذا التل واحفر حفرة عمقها حوالى متر، وكل ما يخرج منها تغربله، وما يخرج منه ضعه فى الكيس وأحضره لى، فذهبت إلى هناك وقمت بما أمرنى وما تبقى من الغربلة كان جواهر ولآلىء ثمينة ومتنوعة خطفت بصرى وبهرتنى، وأحضرت إليه الكيس مملوءاً حتى حافته فرآه ثم قال: خذ ما فيه وانصرف من هنا، فليس من الخير بقاؤك فى هذه المدينة فأجبته: يا سيدى لعلك أكرمتنى بهذا، ماذا أصنع بتلك الآلىء والجواهر، إذ جعت هل آكلها؟ وإن أعطيتنى أكثر من ذلك فماذا يجدينى؟ فابتسم قائلاً: إننى أرثى لحالك فأنت أعجمى، ولا أستطيع أن أدخلك المدينة، فإن أردت الدخول فأنت وشأنك، ولكن خذ خاتمى معك وحينما تبلغ منتصف المدينة ستجد شخصاً ذا لحية

بيضاء جالساً وشكله يشبه شكلي فهو أخي الأكبر، فأعطه هذا الخاتم وسيرعاك وعليك بالامتثال لنصحة، وإلا ستقتل هباء، فسلطتي تنتهي عند هذا الحد وليس لي دخل بالمدينة.

فأخذت منه ذلك الخاتم وسلمت عليه وانصرفت إلى المدينة وكانت غاية في الجمال والنظافة وكان الرجال والنساء يختلطون ببعضهم في الأسواق دون حجاب، والجميع في لباس جيد، كنت أمشي وأشاهد ما حولي، وعندما بلغت ميدانا وسط المدينة وجدت ازدحاما شديداً لدرجة أنني لو قذفت طبقاً لنزل على الرءوس ولم يبلغ الأرض، وكان من الصعوبة السير في هذا المكان، ولما خف الزحام تقدمت إلى هذا الموضع مفسحاً لنفسي الطريق بجسدي فرأيت ذلك الشخص جالساً على أريكة، فقدمت إليه التحية وذلك الخاتم فرمقني بغضب قائلا: لماذا جئت إلى هنا وألقيت بنفسك في التهلكة؟ ألم يمنعك أخي الأحمق؟.

فقلت له: لقد منعني فعلا لكنني لم أستجب، وحكيت له قصتي من البداية إلى النهاية، فقام وأخذني إلى بيته، وكان بيته مثل بيوت الملوك وله كثير من الخدم، وحينما جلس في الخلوة قال لي معاتباً: يا بني لم أقدمت على هذه الحماقة حتى صرت على حافة القبر؟ فكل من يأتي هنا يكون تعساً قليل الحظ فقلت: لقد أخبرتك بأحوالي من قبل وجاء بي حظي إلى هنا، لكن إن تكرمت خبرني بأعراف تلك البلاد لأعرف سبب منعكما لي من الدخول؟.

فقال الرجل: إن ملك هذه المدينة ورئيسها كلهم مكروهون ومذهبهم ومعاملتهم غريبة وفي هذه المدينة يوجد معبد فيه صنم يتكلم من بطنه شيطان، وينبئ عن اسم ونسب وأصل ودين كل من يأتي إلى هنا، وحينما يأتي مسافر غريب و أجنبي يبلغ نبأ وصوله إلى الملك، فيأخذه إلى المعبد ويسجده أمام الصنم، فإن سجد فحسناً وإلا أمر بإلقائه، في البحر، وإن أراد أن ينجو من ذلك البحر فهناك أشخاص يجرونه على الأرض، فهذا عرف هذه المدينة، وأنا أشفق على شبابك، لكنني سأدبر لك حيلة لتعيش وتنجو من العذاب.

فسألته وما الحيلة قال: سأزوجك بنت الوزير فقلت له: كيف يعطي الوزير ابنته لهذا المفلس، إلا إذا كنت سأقبل دينه؟ وهذا ما لا أستطيع أن أفعله. قال: من عادة هذ المدينة أنه إذا سجد أي شخص للصنم وهو فقير ويطلب بنت الملك، فيعطيه الملك ابنته ليشمله الفرح والسرور، ولي أيضاً مكانة عند الملك وهو يرفع شأني ولهذا فإن جميع الوزراء وكبار الدولة يقدرونني ويوقرونني ونحن نذهب مرتين كل أسبوع إلى المعبد ونعبد الصنم، وغداً سيجتمع الجميع وسآخذك معي.

وبعد ذلك أطعمنى وسقانى ثم استسلمت للنوم، وحينما طلع النهار، أخذنى إلى المعبد، فرأيت الناس يأتون ويؤدون طقوس العبادة، بينما يجلس الملك والأمير فى حضرة البرهمن عاريى الرأس بأدب واحترام وكان الغلمان والفتيان والبنات العذراوات فى جمال الحور يلتفون حوله، فخاطبنى الرجل قائلا: قم بما آمرك به، فقلت: سمعاً وطاعاً قال: أولاً قبل قدمى الملك ثم خذ بطرف ثوب الأمير ففعلت هذا فسأل الملك: من هذا، وماذا يقول؟ فأجاب الرجل: هذا الشاب من أقاربى جاء من بعيد يقبل قدمى الملك، راجياً أن يجعله الوزير فى خدمته ويرفع من شأنه، لو أذن الصنم الكبير وشاء الملك، فقال الملك: لو يقبل مذهبى ودينى وعرفى، فمبارك عليه، وبعد فترة وجيزة بدأ العزف والإنشاد فى المعبد وألبسونى خلعة فاخرة، ووضعوا حول عنقى قيوداً سوداء وجردونى أمام الصنم، وجعلونى ـ أسجد أمامه، وانبعث صوت من الصنم يقول: يا ابن السيد، حسناً أنت جئت فى سبيل عبادى، والآن تطمع فى رحمتى ورضائى ثم سجد الجميع وأخذوا يتمرغون على الأرض وقالوا: هنيئاً لك، ستكون صاحب عزة وجاه.

وتمت مراسم الزواج، وقدما لى بنت الوزير، ومعها الكثير من الأشياء الثمينة على سبيل الهدايا، وقال لى: طبقاً لأوامر الصنم الكبير، زوجناك هذه العروس. واسكنونا فى مكان واحد، وحينما رأيت هذه العروس، وجدتها فى جمال بنات الحور، مليحة الوجه صحيحة البدن ممشوقة القوام، وكل ما نسمع عن جمال بنات الحور حسنهن كان موجوداً لديها بوفرة، فتمتعت بها، واغتسلت صباحا ثم ذهبت إلى الملك، فخلع على الملك خلعة الصهر، وأمرنى بالحضور كل يوم، وأخيراً بعد عدة أيام صرت من المقربين إلى الملك وأصفيائه.

وكان الملك سعيداً بوجودى ويغدق على بالنعم والعطايا رغم زهدى فى متاع الدنيا، لأن قبيلتى لديها من الأموال ما لا يدخل تحت حصر وعد، وقضينا عامين فى رغد وهناء. وحدث أن حملت ابنة الوزير، ومرت الشهور حتى جاءها المخاض وحضرت القابلة واستقبلت المولود وبعدها مرضت ابنة الوزير وماتت، فأصبت بالجنون حزناً عليها، فأى مصيبة قد حلت بنا، وكنت أبكى عند رأسها وارتفع صوت نحيبى وبكائى فى جنبات القصر، وأقبلت النسوة من كل مكان، وكل من تأتى تخبط على رأسى وتقف أمامى وتبكى وتنوح، وكادت روحى تخرج من بدنى.

وأثناء ذلك جذبنى شخص من الخلف فالتفت فوجدته ذلك العجمى الذى زوجنى وقال لى: أيها الأحمق لماذا تبكى؟ فقلت: وأيها الظالم!! كيف تقول لى هذا الكلام؟ ضاع ملكى وفقدت راحة بيتى، ثم تقول لى لماذا أنت حزين؟ فقال ذلك العزيز مبتسماً إنك تبكى لأجل موتك، لقد قلت لك سابقاً، لعل أجلك قد أتى بك إلى هذه المدينة، وقد حدث، وليس لك سبيل إلا الموت، واخيرا أخذنى الناس إلى المعبد، فوجدت الملك والأمراء وستة وثلاثين من الرعية مجتمعين هناك، وقد جمعوا كل أموال وأملاك ابنة الوزير وكل من يريد شيئا يأخذه ويدفع ثمنه.

الخلاصة أن ثمن كل المتاع أصبح نقدا، واشتريت جواهر بتلك الأموال، وأغلق عليها الصندوق، ووضع فى صندوق آخر الخبز والحلوى والشواء ولحم وفاكهة طازجة وجافة ومأكولات أخرى، ووضع جثمان السيد فى صندوق وحمل الصندوق على سنم الجمل، وأركبونى ووضعوا صندوق الجواهر تحت إبطى، وشرع سدنة المعبد فى تلاوة الأذكار ونفخ النفير وسار خلفنا خلق كثيرون يرددون: «مبارك مبارك» وخرجنا على هذا النحو من بوابة المدينة التى دخلت منها من قبل وما أن رآنى حارس البوابة، حتى أخذ يبكى ويقول: أيها التعس الذى أخذه الموت إنك لم تستمع إلى نصحى من البداية وأهلكت نفسك هباء، وأنا لم أقصر فى منعك، قال الرجل هذا وأنا فى غاية الحيرة والدهشة، وسمح لى الحارس أن أجيبه، فأجبته قائلا: لكننى كنت أريد أن أعرف كيف ستكون نهايتى؟

وأخيرا أوصلونى إلى تلك القلعة التى رأيت بابها مغلقا قبل ذلك، وفتح قفلها حشد كبير من الناس، وأخذوا الصندوق والتابوت وأدخلوهما، واقترب منى البرهمن ووعظنى قائلا: الإنسان يولد يوما، ويموت يوما، وهذا هو دستور الحياة، وهذا هو عيب الدنيا، وهذه هى زوجتك، وهذا هو المال والطعام يكفى لأربعين يوماً، خذها وامكث هنا حتى يشفق عليك الصنم الأكبر فتملكنى الغضب وأردت أن ألعن ذلك الصنم الأكبر، وسكان تلك المدينة وعرفها وأن اضرب ذلك البرهمن، ولكن ذلك العجمى حال دون ذلك بلسانه قائلا: إياك وأن تقول شيئاً، فإن تقل شيئا سيحرقونك الآن، على كل حال كل شىء بقضاء وقدر، ولا تقنط من رحمة الله لعل الله يخرجك من هنا حيا.

أخيراً ذهب الجميع وتركونى وحيداً وأغلقوا الباب مرة ثانية، وعندئذ بكيت رغما عنى بسبب قلة حيلتى ووحدتى، وانهلت على جثة زوجتى ضربا بالأقدام قائلا: أيتها الميتة، لماذا

تزوجتنى فقد كان عليك أن تعيشى طالما تزوجتنى، ولماذا ولدت؟ وبعد ما ضربتها جلست صامتا، وأثناء ذلك ارتفعت الشمس فى كبد السماء واشتد قيظها، وكادت روحى تخرج من رائحة العفن، حيث كنت أرى عظام رفاة الموتى فى كل الأنحاء وكذلك صناديق المجوهرات فوضعت فوق صندوقها صندوقا وتحته صندوقاً لأحميه من الشمس نهارا ومن الندى ليلاً، وبحثت عن ماء فرأيت فى أحد الأركان صنبورا من الحجر منحوتاً فى جدار القلعة، وقضيت عدة أيام بفضل هذا الماء والشراب.

وفى النهاية نفد الماء فخفت وتضرعت إلى الله وهو كريم، فأجابنى إلى دعائى، وفتح الباب وجاءوا بميت وكان معه رجل كهل وتركوه أيضا فجال فى خاطرى أن أقتله وأخذ صندوق طعامه، فأخذت عصا من الصندوق ووجدته جالساً واضعاً رأسه بين ركبتيه حائرا فضربته على رأسه من الخلف حتى خرج لسانه من فمه ومات على الفور، وأخذت صندوق طعامه وأكلته، وظللت مدة طويلة أقتل من يأتى وآكل طعامه براحة.

وبعد مدة طويلة جاءت فتاة مع تابوت، وكانت حسناء فأردت أن أقتلها أيضاً فرأتنى، وفقدت وعيها خوفاً، فأخذت صندوق طعامها أيضا، لكننى لم أكن أتناوله بمفردى بل كنت عندما أشعر بالجوع أذهب إليها ونأكل معاً، وحينما رأت الفتاة أننى لا أوذيها بدأ خوفها منى يزول يوماً بعد يوم وأخذت تتقرب لى وتأتينى حيث أكون وذات يوم سألتها عن أحوالها قائلا: من أنت؟ أجابت: أنا بنت وكيل الملك كنت مخطوبة لابن عمى، وليلة عرسى أصابه المرض وأخذ يتلوى من الألم وفى النهاية فاضت روحه، فجاءوا بى معه وتركونى هنا.

ثم سألتنى عن أحوالى فقصصت عليها كل ما قد مر بى، ثم قلت: أرسلك الله لى فسكتت مبتسمة.

وهكذا توطدت علاقتنا وازداد حبنا فى خلال عدة أيام، فعلمتها أركان الإسلام ولقنتها الشهادة، ثم عاشرتها فحملت وأنجبت ولداً، ومضت ثلاث سنوات على تلك الحال، وعندما فطم الطفل عن الرضاع قلت لزوجتى: إلى متى نظل هنا؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟ قالت: لو شاء الله فسنخرج وإلا سنموت هنا هكذا؟ فأصابنى الغم من قولها ومكوثنا فى هذا المكان، وبكيت ثم نمت، ورأيت فى المنام أن شخصاً يقول لى: إن كنت تريد أن تخرج من هنا، فلتخرج مع مجرى الماء. فنهضت فرحاً من هذه المفاجأة وقلت لزوجتى: اجمعى كل

ما تجدينه فى الصناديق من أسياخ وحديد، وبدأت أوسع مجرى الماء بأن أضرب بالحديد على فتحته بالمطرقة، وظللت أعمل وأتعب فأستريح وأعمل ثانية وهكذا حتى مر عام كامل، فأصبحت فتحة المجرى تسمح بمرور شخص منها.

وبعد ذلك حملنا ما نستطيع من الجواهر الثمينة وخرجنا من ذلك الطريق فشكرت الله عز وجل، وحملت طفلى على كتفى، وبعد شهر تركنا الطريق العام خوفا، وسلكنا طريق الجبال والغابات، وكنا عندما نشعر بالجوع، نأكل العشب والكلأ، ولم يكن لى طاقة على الكلام هذه هى قصتى وقد سمعتها.

سلمك الله أيها الملك، فأشفقت عليه وبعثت به ليغتسل وأنعمت عليه بلباس فاخر، وجعلته فى خدمتى.

وأنجبت الأميرة لى عدة أطفال لكنهم ماتوا فى الصغر إذ مات أكبرهم فى الخامسة من عمره، وماتت الأميرة حزناً عليه، وقد حزنت عليها كثيراً، وبدأت الوحدة تنهشنى بدونها، فأردت السفر إلى بلاد العجم، فالتمست من الملك أن يكون هذا الشاب خادما له، ومات الملك أيضا فى تلك الفترة فأخذت ذلك الكلب الوفى والمال كله والجواهر إلى «نيسابور» لكى لا يعرف أحد أحوال أخوى، واشتهرت وعرفت بالسيد عابد الكلب»، وبسبب سوء السمعة هذا أدفع محصولاً مضاعفا لحكومة إيران.

وحدث أن ذهب ابن التاجر إلى هناك، فشرفت بلقاء الملك بسببه، فسألته: أليس هذا ولدك ؟ فأجاب السيد: يا ملاذ العالم ليس هذا ابنى فهو من رعيتك لكن تستطيع أن تقول الآن أنه مالكى ووارثى، وبعد ذلك سألت ابن التاجر: ابن أى تاجر أنت؟ وأين يسكن أبوك وأمك؟ فقبل الولد الأرض وطلب الأمان على حياته وقال: إن ابن التاجر ليس إلا بنت وزير سموك، وقد سجن والدى ظلماً بسبب هذا السيد، وقد صدر الأمر الملكى بأنه لو لم يثبت صدق قوله عن هذا السيد فليقتل، وبعد أن سمعت هذا الحكم بدلت هيئتى وذهبت إلى «نيسابور» وبفضل الله أحضرت السيد مع كلبه واليواقيت فى خدمة سموك، والآن لقد سمعت جلالتك بكل ما حدث، فألتمس من سموك أن تطلق سراح أبى المسن.

وما أن سمع السيد قول بنت الوزير حتى تأوه وخر مغشياً عليه، فنثروا عليه ماء الورد حتى استرد وعيه وقال: وا أسفاه جئت متحملا كل تلك المشاق والمصاعب أملاً فى أن اتبنى

ابن التاجر واكتب له وثيقة ليرث كل متاعي وأموالي ليبقى اسمي، ويدعوه الناس بابن التاجر، لكن خاب أملي والأمر أصبح معكوساً، والمرأة خدعت رجلا مسناً، وأنا وقعت في قفص مكرها وخداعها، وصرت جديرا بهذا القول: لم يعد يذهب إلى بيت أو إلى معبد وذاع صيته وساءت سمعته(١٢).

خلاصة القول أنني أشفقت عليه لاضطرابه ونحيبه وعويله، فاستدعيته بالقرب مني، وبشرته في أذنه وقلت: لا تحزن، سأزوجك إياها، ولو شاء الله سيكون لك أولاد منها، وتكون هي مليكتك فاطمأن وهدأ بعد أن سمع هذه البشرى، ثم قلت: خذوا بنت الوزير إلى القصر، وأخرجوا الوزير من المعبد وألبسوه لباس الإعزاز وأحضروه أمامي بسرعة وحينما جاء الوزير استقبلته استقبالاً حاراً وعانقته باعتباره أكبر مني، ووليته الوزارة من جديد ومنحت السيد أيضا منصباً رفيعا وزوجته بنت الوزير في ساعة مباركة.

وخلال عدة سنوات ولد للسيد ولدان وبنت، وأصبح الابن الأكبر شاهبندر التجار والأصغر وكيلاً لأملاكي.

أيها الدراويش: لقد نقلت أمامكم قصتي لأنني سمعت في الليلة الماضية قصة الدرويشين وبقيت قصتكما، فاعتبروني خادمكم وهذا البيت بيتكم، وامكثوا عندي، وقصا على قصتكما.

ولما رأى الدراويش من الملك عطفا ووداً بدأوا يقولون: نحن نقص عليك قصتنا لأنك أحببتنا.

جلس الدرويش الثالث القرفصاء وبدأ يحكي قصته:

- اسمعوا أيها الأصدقاء ما حدث لهذا الفقير

أعني اسمعوا قصة ما جرى لي وما مر بي

- وكيف كان مسلك ملك العشق نحوي؟

فسوف أبينه بالتفصيل؛ فأسمعوه

هذا الحقير ابن ملك من بلاد العجم، فقد كان أبي ملكاً هناك، ولم يكن له ولد غيري، وكنت في شبابي ألعب مع أترابي الألعاب المختلفة كالورق والشطرنج والنرد، أو نركب الخيل ونخرج للصيد والنزهة.

وذات يوم أعددت الركائب وأخذت جميع الأصدقاء وخرجت إلى الميدان، وأطلقت الصقور والنسور خلف الطيور، وتتبعتهم إلى بعد، وشاهدت هناك مكاناً وطقساً بديعاً وكأنه الربيع، وكل مكان كنت أنظر إليه وكنت أرى على مرمى البصر المروج الخضراء والأزهار اليانعة، وما أن رأيت هذا المنظر حتى ترجلت عن جوادى، ورحت أسير راجلا، وإذ بى أرى غزالا عليه سرج مرصع بالدر والجوهر، وفى عنقه قلادة ذات أجراس مصنوعة من الذهب الخالص وكان يرعى ويمرح فى طمأنينة فى تلك الساحة التى لا يقدر على دخولها إنسان أو أن يحلق فوقها طير، وحينما سمع وقع حوافر جوادى انتبه وشخص ببصره، وبدأ يمشى على مهل، وحينما رأيته اشتقت أن أقول لأصدقائى امكثوا هنا، وأنا اصطاده حياً، واحذروا ولاتتقدموا خطوة واحدة من هنا وتتبعونى، وكان جوادى الذى أركبه متمرساً فى صيد الظباء والغزلان، فحثثته على اللحاق به لأناله وحينما أبصر جوادى الغزال أسرع الخطى وكأنه يسابق الريح لكنه لم يصل إلى غبار أقدام الغزال وتصبب الفرس عرقاً، وتحجر لسانى فى حلقى لشدة العطش، لكن لم نتمكن منه، وحل المساء دون أن أشعر من أين جئت وإلى أين وصلت؟ وحينما يئست منه تركته حتى غفل عنى ثم تناولت سهماً من الكنانة ورميته بالقوس قائلا: الله أكبر فأصاب السهم رجله، فمشى مترنحا إلى الجبل، فترجلت عن الفرس وسرت خلفه راجلا، فوجدته متوجها ناحية تل، وكنت أقتفى أثره، وبعد الهبوط والصعود عدة مرات رأيت قبة وحينما اقتربت منها رأيت حديقة وعين ماء وكان الغزال قد غاب عن ناظرى، وكان التعب قد نال منى، فبدأت أغسل قدمى ويدى.

وفجأة سمعت صوت بكاء ينبعث من داخل القبة، وسمعت صوت شخص يقول: يا بنى!! فليصب سهم آلامى من رماك بالسهم، ولا يهنأ بشبابه، وليجعله الله يائساً مثلى. وبعدما سمعت ذلك ذهبت إليه فرأيت شيخاً ذا شعر أبيض فى لباس حسن جالساً على مسند، والظبى ممدد أمامه وهو يخرج السهم من رجله ويدعو على من رماه به.

فسلمت عليه وعقدت يدى قائلا: حفظك الله، هذا الخطأ الذى أصاب هذا الغلام قد قدر منى دون قصد، فاعف عنى لوجه الله، فقال الشيخ: إنك جرحت أعجمياً، فإن صدر هذا منك دون قصد، فقد عفا الله عنك فجلست إلى جواره وشاركته فى إخراج السهم، وأخرجت السهم بصعوبة بالغة، وعالجت الجرح بالمرهم، ثم غسل الشيخ يده وأحضر لى ما كان موجودا لديه واطعمنى إياه فأكلته ونمت.

نمت كثيراً لأنني كنت متعباً، وسمعت أثناء نومى صوت نواح ونحيب، فأستيقظت وفركت عينى فلم أجد أحداً فى ذلك المكان، لا الشيخ ولا الظبى، كنت بمفردى على الفراش، والمكان خال، فنظرت فى كل الأرجاء مندهشاً، ورأيت ساتراً فى أحد الأركان، فذهبت ورفعته، فوجدت سريراً، تتكئ عليه حورية ذات أربعة عشر عاماً، ينساب شعرها على كتفيها لابسة ثوباً (إفرنجياً) تجلس مبتسمة وتنظر بدلال شديد والشيخ يبكى واضعاً رأسه على ركبتيه كأنه غائب عن الوعى، وحينما رأيت أحوال هذا الشيخ وحسن هذه الحورية وفتنتها فقدت حيويتى وسقطت مغشياً على، ولما رآنى الشيخ على تلك الحال أحضر لى زجاجة ماء ورد وبدأ ينثرها على، ولما أفقت قمت وألقيت السلام على تلك الفاتنة، فلم تمد يدها ولم تنبس ببنت شفة فقلت لها: أيتها الحسناء فى أى دين أو مذهب يجوز هذا الغرور والكبرياء وعدم التحية؟

- لاشك أن قلة الكلام نوع من الدلال لكن ليس

- إلى درجة أن يموت العاشق والحبيبة لم تتفوه

بالله الذى خلقك وصورك قولى شيئاً، لقد جئت أنا أيضا إلى هنا فجأة، ولابد من إكرام الضيف تحدثت إليها كثيراً دون جدوى، ولم تزل صامتة كالصنم، فتقدمت وضربت بيدى على رجلها، فوجدت ساقيها كالحجر، وأخيراً عرفت أن هذا الآذرى قد نحتها من الحجر وشكلها(١٣) فسألت هذا الشيخ عابد الصنم قائلا: لقد رميت رجل ظبيك بسهم، وأنت جرحت قلبى بسكين العاشق، لقد استجاب الله لدعائك، والآن لتشرح بالتفصيل لماذا صنعت هذا التمثال؟ ولماذا تركت القرية وتعيش فى الغابة والجبل؟ قص على ما مر بك.

ولما ألححت عليه أجابنى قائلا: إن هذا الأمر قد أضر بى فهل تريد أن تسمعه حتى تهلك أنت أيضا؟.

قلت: دعك من المراوغة وقل الحقيقة وإلا سأقتلك، وحينما وجدنى مصرا قال: أيها الشاب حفظ الله كل إنسان من لفحة العشق، انظر ما جاء العشق به من مصائب وآفات، فبسبب العشق تفنى المرأة عمرها وتقضى على حياتها، كما هو معلوم للجميع من قصة «فرهاد والمجنون»، فماذا سيجديك من سماع ذلك؟ فستترك البيت والمال دون فائدة.

فأجبته: انتهى إذن، أطو بساط الصداقة، واعتبرنى عدوا لك، لو كانت حياتك عزيزة لديك فقل بكل وضوح. فاضطرب ودمعت عيناه وقال: حقيقة هذا الشريد أن اسمى «نعمان سياح» كنت تاجرا كبيراً، وبسبب التجارة زرت الأقاليم السبعة، وتشرفت بالمثول أمام جميع الملوك.

وذات مرة جال بخاطرى أننى زرت جميع البلاد، لكننى ما ذهبت إلى «جزيرة الإفرنج» وما كنت قد رأيت ملكها ورعيتها وما عرفت عاداتها وتقاليدها، فرأيت أنه من الأفضل أن أذهب إليها عزمت على السفر بعد مشاورة الزملاء والأصدقاء، وأخذت معى التحف، والهدايا التى تليق بتلك الجزيرة، وجمعت قافلة التجار وركبنا السفينة، وكان الريح مواتيا فوصلنا الى تلك البلاد فى عدة شهور، ووجدت أن الشوارع فى الأسواق والحوارى ممهدة ومرصوفة ومعطرة، وكانت نظيفة بدرجة لامثيل لها، ولا توجد بها شائبة واحدة، وكانت المبانى ذات طرز مختلفة وألوان متعددة، والمصابيح مضاءة فى كل موضع، وكانت الحدائق خارج المدينة تشتمل على زهور نادرة وفواكه عجيبة لعلها لاتوجد إلافى الجنة، الغرض أن كل مدح أو ثناء فيها هو فى محله.

وأخيرا انتشر خبر وصول التجار، فجاء إلى السيد المقرب من الملك برفقة الخدم والحشم وسأل التجار: «من هو كبيركم» ؟

فأشار الجميع إلى، فدخل السيد إلى حيث كنت، فعظمته وتبادلنا السلام وأجلسته على البساط، وقدمت إليه الوسادة باحترام ثم سألته: «عن سبب تشريفه» فقال: «سمعت الأميرة أن قافلة من التجارة قد وصلت حاملة أشياء كبيرة، فأمرتنى أن أدعوكم لمقابلتها، فأحضر معك جميع السلع اللائقة بمهام الأميرة، وتشرف بالمثول بين يديها فأجبته:«اليوم أنا عاجز عن الذهاب لشدة التعب والنصب، وسأحضر غدا إن شاءالله بالنفس والمال، وكل ما أملك سأقدمه فى خدمة الأميرة لتنتقى ماتشاء،وبعد أن وعدته، وأهديته العطر والتمبول هو ومرافقيه وودعته، ثم استدعيت التجار الذين كانوا معى وجمعت كل التحف والنفائس التى كانت فى حوزتهم، وأخذت ما كان فى حوزتى أيضا، وفى الصباح توجهت الى قصر الأميرة.

فأبلغ الحراس والحجاب الأميرة بقدومى، فأمرتهم أن يحضرونى فخرج لى نفس السيد وأخذ يدى وسار بى الى حيث توجد الأميرة متحدثاً إلى بكل ود وترحاب، وسلك بى طريقاً

خاصا لايمريه كبار الزوار، ووصلنا الى قصر عال شامخ، ويا عزيزى لن تصدقنى إن قلت لك أننى رأيت وكأن الحوريات به قد قطعت قيود أجنحتها وأطلقت، وحينما أنظر إليهن تتسمر عيناى عليهن، وكانت قدماى لاتقويان على السير، فتمالكت نفسى بصعوبة، وحينما وقع بصرى على الأميرة فقدت وعيى وغشى على وارتعدت يداى ورجلاى، وعلى كل حال قرأت السلام، وكانت الحسناوات قمريات الوجه يصطففن على كلا الجانبين عاقدات أيديهن لايحركن ساكنا، ثم قدمت كل ما كان معى من تحف وجواهر وأمتعة، وحينما وضعت أمامها أوانى الجواهر والبضائع، أعجبتها كل الصنوف ومختلف الأنواع وسرت بها وقدمتها الى خازن القصر قائلة: ادفع ثمن كل هذه الأشياء غدا .

فقدمت إليها التحية وسر خاطرى لقيمتها وأننى ساتى فى الغد أيضا، وحينما خرجت نطقت بكلام بينما كنت أريد أن أقول شيئا آخر وعدت وأنا على تلك الحال إلى القافلة فاقد الصواب، فبدأ الرفاق يسألوننى: ما بك؟،فأجبتهم قائلا: «لقد زاد لهيبى بسبب الذهاب والإياب.

خلاصة القول أننى قضيت تلك اللية مضطرباً، ثم ذهبت إليها فى الصباح وأخذنى نفس السيد الى القصر، ورأيت نفس العالم الذى رأيته قبل ذلك، ورأتنى الأميرة فأرسلت كل من عندها إلى أعمالهم وشئونهم، وحينما خرج الجميع، ذهبت إلى مكان خال وطلبتنى، وحينما ذهبت إليها أمرتنى بالجلوس، فجلست بعد أن قبلت الأرض بين يديها، فقالت : «لقد أحضرت البضائع، فكم تريد ثمنا لها؟قلت: ، كانت رؤية قدميك أمنية لى، فوفقنى الله لهذا، ونلت كل ما أردته كما أننى قد فزت بمقابلتك بسعادة الدنيا والآخرة، والثمن المدون فى القائمة ساخذ نصفه، أما النصف الآخر فهدية لك؟ فقالت: «لا بل نقدم لك الثمن الذى كتبته، علاوة على النعم والجوائز شريطة أن تؤدى لنا خدمة، أرجو أن يكون فى مقدورك القيام بها .

قلت: لو كان فى بذل روحى ومالى من أجلك يفيدك فلن أتوانى لحظة واحدة على العين والرأس.

وبعد هذا طلبت دواة وقرطاسا وكتبت رسالة ووضعتها فى كيس اللآلىء ، ثم لفتها بمنديل شفاف، وأعطتنى إياه، وأعطتنى خاتمها وقالت: فى تلك الناحية بستان كبير اسمه «دل كشا» ستجد هناك رجلاً شرطياً اسمه «كيخسرو» أعطه هذا الخاتم فى يده وبلغه دعائى،

واطلب منه الرد على هذه الرسالة وعد مسرعا. فلو تأكل هناك تشرب هنا. ثم سأمنحك جائزة كبيرة. فأستأذنت وانصرفت، وقطعت الطريق سائلا عن المكان، ولما قطعت ما يقرب من ميلين لاح لى البستان من بعيد، وحينما اقتربت منه أخذنى جندى مسلح، فرأيت شابا معتداً بنفسه كالأسد جالساً على كرسى ذهبى لابسا درعا داودية رابطاً فيها أربع مرايا، واضعاً خوذة فولاذية على رأسه، جالساً فى هيئة مهيبة، وحوله خمسمائة شاب فى أيديهم السيوف والأقواس والسهام على أهبة الاستعداد.

فقرأت عليه السلام، فدعانى بالقرب منه، فقدمت إليه ذلك الخاتم وبعد الترحيب قدمت إليه المنديل الذى أعطتنيه ليراه، وبعد أن أسمعته الحكاية، عض على أنامله بالنواجذ أسفا ودق على رأسه قائلا: لقد ساقك حتفك إلى هنا، على كل حال اذهب إلى البستان، ستجد هناك قفصاً حديداً معلقاً بشجر السرو، فيه شاب مكبل بالأغلال، إعطه هذا الخطاب واطلب منه رداً، وعد مسرعاً، فدخلت البستان مباشرة وكان البستان جنة على الأرض، حدائقه غناء تزخر بشتى أنواع الزهور والرياحين وأندرها، وفيه فوارة تفور بالمياه وتصدح به مختلف أنواع البلابل والطيور، فسرت فى طريق مستقيم، فرأيت شاباً وسيماً، فأنحنيت وسلمت عليه باحترام وقدمت إليه الرسالة من خلال القضبان، وبدأ الشاب يقرأ الخطاب ويسألنى عن أحوال الملكة مشتاقاً.

وبينما كنا نتحدث إذا بقوات الزنج تظهر وتطبق على من كل ناحية، وأخذت ترمينى بالسهام، وماذا يستطيع أن يفعل رجل أعزل فى هذا الموقف؟

وفى لحظة واحدة أصابونى بجرح عظيم غبت على أثره عن الوعى. لما أفقت وجدت نفسى على محفة يحملها اثنان ويمشيان ويتحدثان فيما بينهما فقال أحدهما: هل نرمى جثة هذا الميت حتى تأكله الغربان والكلاب؟ وقال الآخر: لو بحث الملك وعرف بأمره سيدفننا أحياء؟ ويسفك دماء أبنائنا، فهل ضاقت بنا حياتنا؟.

وحينما سمعت حديثهما قلت لهذين اليأجوج والمأجوج: ترفقا بى، إننى على قيد الحياة. وحينما أموت افعلا بى ما تشاءان (فالميت يكون كالحى الثمل)، لكن أخبرانى ماذا حدث لى؟ ولماذا ضربونى ومن أنتما؟ هيا خبرانى؟.

فقالا مشفقين: ذلك الشاب المكبل بالأغلال فى القفص، ابن أخ ذلك الملك، وكان أبوه ملكا قبل ذلك وأوصى أخاه عند وفاته قائلا: إن إبنى الذى سيرثنى صغير السن قليل

الإدراك، فلتتول أنت زمام الأمور وتفعل ما تراه مناسباً، وحينما يبلغ ابنى سن الرشد، زوجة ابنتك وأمنحه الحكم والخزانة، ثم توفى الملك بعد أن قال ذلك وتولى أخوه الصغير شئون المملكة، ولم يعمل بوصية أخيه، بل أذاع أن ابن أخيه مجنون، وحبسه فى القفص وعين الحراس حول الحديقة لدرجة أنه لا يمكن لطير أن يطير خارج البستان، وقدم إليه السم الزعاف عدة مرات، لكن لبنيته القوية فلم يؤثر فيه السم.

والآن فإن الأمير والأميرة عاشقان، وهو مضطرب فى قفصه وهى مضطربة فى بيتها، وقد أرسلت الأميرة معك رسالة الشوق إليه، فأبلغ الرسل الخبر إلى أبيها، فأرسل جنداً فى إثرك فضربوك، ثم سأل الملك الوزير عن حيلة لقتل هذا الشاب ، فاقنع هذا الوزير الخسيس الأميرة لتقتل الأمير بيدها.

قلت: إذن فلنر ماذا ستصنع الأميرة بالأمير؟ وأنا على تلك الحال، وأخيرا اتفقنا أن نقف صامتين فى ناحية، فرأينا الملك جالساً على العرش والسيف المسلول فى يد الأميرة، ثم أخرجوا الأمير من القفص وتقدمت الأميرة كالسياف، لتقتل عاشقها وحينما اقتربت رمت السيف واحتضنته، فقال العاشق: أنا راض بمثل هذا الموت، فأنت، أمنيتى هنا وأمنيتى هناك (الدنيا والآخرة) قالت الأميرة: جئت لأراك بهذه الحيلة وحينما رأى الملك هذا المشهد، اشتد غضبه ونهر الوزير قائلا: هل جئت بى لأرى هذا المنظر؟ فأخذ الحاجب الأميرة إلى داخل القصر، ورفع الوزير السيف غاضباً، وتقدم مسرعاً إلى الشاب ليقتله بضربة واحدة، ولما هم بضربه، جاءه سهم الغيب فأصابه فى جبينه فسقط حينما رأى الملك هذا المنظر، دخل قصره، وسجنوا الأمير فى القفص مرة ثانية، ثم خرجت أنا من مكمنى ودعانى رجل إلى الأميرة وحينما وجدتنى جريحاً، طلبت الجراح وأكدت عليه أن يعالجنى معالجة جيدة حتى أشفى، فامتثل الجراح لأمر الأميرة وبذل كل ما فى وسعه حتى شفيت فى أربعين يوماً، واغتسلت غسل الشفاء وأرسلنى إلى الأميرة حيث سألتنى: هل بقى بك شىء من الجرح والألم؟، فقلت: الحمد لله أنا بصحة جيدة بفضل عناية سموك فأعطتنى الأميرة الخلع والأموال الكثيرة نظراً لما قدمته إليها وودعتنى.

فرحلت مع الرفاق والخدم من هناك وحينما وصلت قلت للجميع اذهبوا لأوطانكم، وقررت أن أبنى بيتاً على هذا الجبل وأسكن فيه، وأطلقت سراح الغلمان والخدم بعد أن كافأتهم كل على حسب منزلته وقلت لهم: عليكم أن تهتموا بإعداد طعامى فى أوقاته المناسبة

مدى حياتى، وبعد ذلك أنتم طلقاء، ولهذا وبسبب جميلى معهم، فقد فقد اعتنوا بتغذيتى، أما أنا فقد أخذت أعبد هذا الصنم بكل حواسى وأصبح هذا هو شغلى طوال الحياة هذه هى قصتى التى سمعتها.

يا أيها الدراويش، بمجرد أن سمعت هذه القصة وضعت الكفن فى عنقى ولبست لباس الفقير، وخرجت مشتاقاً لأرى ملك الإفرنج. وبسبب الأسفار وطول الترحال فى الغابات والقفار أصبح شكلى كـ «المجنون» و «فرهاد» (١٤).

وأخيراً ساقنى الشوق إلى هذا البلد وكنت أجوب الأزقة كالمجنون، وأقضى معظم الوقت بالقرب من قصر الأميرة، لكننى لم أجد أى حيلة لأصل إليها، كنت مضطرياً لأننى جئت لأحقق هذا الهدف ولم أحققه وذات يوم كنت فى السوق وإذا بى أرى الناس يفرون هنا وهناك ويغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم فقد كان السوق عامرا وصار خراباً، وفجأة خرج من ناحية شاب ضخم الجسم يزأر كالأسد، وفى يده سيف ويلوح به ويلبس درعاً على صدره، وخوذة على وجهه ورأسه متمنطقاً بحزام، ويتمتم بأشياء غير مفهومة وخلفه غلامان لابسان رداء النساء، وكان على رأسيهما تابوت من القطيفة، وحينما رأيت هذا المنظر أردت أن أسير فى الموكب معهم وكان كل من يرانى يمنعنى، ولكن لماذا أسمع كلامهم؟، وتدريجيا وصل هذا الشاب إلى مكان مرتفع وأنا فى إثره، فالتفت إلى وأراد أن يشطرنى شطرين بسيفه فاستحلفته أن يفعل، وأبحت له دمى، وقلت له: على أية حال إنك ستخلصنى من هذه الحياة، فلقد ضقت ذرعاً بالدنيا، وجئت لك عمداً فلا تبطئ وحينما رأى أننى مصر على الموت، ألقى الله عز وجل فى قلبه الرحمة وزال عنه الغضب، وسألنى بمنتهى الشفقة والعطف من أنت، ولماذا أنت معرض عن الحياة هكذا؟

قلت: اجلس قليلا حتى أحكى لك حكايتى الطويلة، إننى أسير العشق ولا حيلة لى ولما سمح هذا فتح حزامه وجلس وغسل وجهه ويديه وتناول الإفطار، وأشركنى معه وبعد أن فرغ من تناوله طعامه قال: قص على ما مر بك، فقصصت عليه كل شيء وحكاية الأمير والأميرة، وذهابى هناك، فما لبث أن بكى وقال: تبا لذلك التعس فكم من بيوت دمرها؟ علاجك فى يدى، وفى الغالب أنك ستجد بغيتك بسبب ذلك العاصى، فلا تبتأس وقر عيناً، ثم استدعى (الحجام) وقال له: قص شعره ودعه يغتسل وبعد ذلك ألبسنى الغلام رداء نظيفاً،

ثم بدأ يقول لى: إن التابوت الذى رأيته هو تابوت الأمير المرحوم الذى كان حبيساً فى القفص، قتله الوزير الثانى، لا شك أنه قد تخلص من هذا المظلوم، لكننى - وأنا عمه - أطحت برأس الوزير بالسيف، وأردت أن أقتل الملك أيضاً، فقد استعطفنى وأقسم أنه برىء فتركته، ومن ذلك الحين، أنا أحمل هذا التابوت فى الخميس الأول من كل شهر، وأطوف به أنحاء البلد وأقيم له مأتماً.

وبعد أن سمعت هذا اطمأننت على أنه لو شاء وأحسن الله عز وجل إلى لتحقق أملى فى أن يجعل هذا المجنون مشفقاً على، فالحقيقة لو أراد الله الرحمة، فإن الكل يكون رحيماً.

وحينما أمسى الليل وغربت الشمس، أخرج الفارس ذلك التابوت ووضعه على رأسى بدلاً من الغلام وأخذنى معه وقال: سأذهب للأميرة حتى أشفع عندها لك حسب المستطاع ولا تتحرك أنت وأجلس صامتاً واسمع كل شيء.

قلت له: أمرك! افعل ما تشاء حفظك الله إنك تشفق على، ثم قصد إلى البستان الملكى ولما دخل البستان رأى مصطبة من المرمر لها ثمانية أضلاع، وكان عليها رداء حريرى يتدلى من أطرافه الدر والجوهر، وكان عليها وسائد للنوم والجلوس، فوقف الفارس عليها وقال: ضعا التابوت هنا، وقال لنا: اذهبا واجلسا عند تلك الشجرة.

وبعد ساعة ظهر نور المشعل وجاءت الأميرة مع خادمتها وكان الحزن بادياً على ملامحها، وجلست على الأريكة وكان هذا العم واقفاً عاقداً يديه، ثم ابتعد عن الفرش وجلس بأدب وقرأ الفاتحة، وبدأ يتحدث قليلاً، وكنت أستمع إليه، قال الفارس: أيتها الأميرة .. حفظك الله، إن ابن ملك العجم سمع عن جمال معشرك وحسنه، وترك البلاد وأصبح فقيراً ووصل هنا بعد مشقة طويلة ومن أجلك ترك مدينة «بلخ» وهو يتجول منذ فترة طويلة فى المدينة وسار فى أثرى راغباً فى الموت وهددته بالسيف فوضع رقبته أمامى، والآن أريدك ألا تتمنعى فقد اختبرته ووجدته ثابتاً فى عشقك، وهو جيد من كل ناحية، ولهذا أزكيه عندك، فلتترفقى به فهو مسافر، فهذا أوجب لتقوى الله وحسن عبادته.

وحينما سمعت الأميرة هذا قالت: أين هو؟ لو كان ابن ملك فلا حرج فليأت أمامى، فجاء ذلك العم وأخذنى إليها، ففرحت جداً لرؤية الأميرة، لكن عقلى طار لرؤية حسنها الفتان وغبت عن الدنيا، ولم أستطع أن أقول شيئاً، وبعد برهة انصرفت الأميرة وعاد العم

إلى بيته أيضا وأنا معه، وبعد وصوله إلى البيت، قال: لقد حكيت للأميرة قصتك من البداية إلى النهاية، وتشفعت لك، ولتذهب إليها كل ليلة بانتظام وأنعم بحياتك كما تشاء. فانحنيت أقبل قدميه، فإذا به يعانقنى، وظللت طوال اليوم أعد الساعات ليأتى المساء، ولما أقبل الليل ودعت العم وذهبت إلى ذلك البستان وجلست على الأريكة.

وبعد ساعة خرجت الأميرة بمفردها مع خادمة واحدة فقط وجلست على الأريكة، وكان هذا اليوم بمثابة العيد بالنسبة لى وقبلت قدميها فرفعت رأسى بين يديها وعانقتنى وقالت: انتهز هذه الفرصة وأخرجنى من هنا معك إلى أى بلد فقلت: تفضلى ثم خرجنا من البستان، وقد ارتعدت قدماى من الدهشة والفرحة حتى أننى ضللت الطريق، وبدأنا نهيم فى البلاد دون مأوى، فقالت الأميرة غاضبة: لقد تعبت، أين بيتك؟ عليك أن تسرع ماذا تنتظر لقد تورمت قدماى، وإلا فسأجلس فى الطريق. قلت: بيت غلامى قريب، سنصل إن شاء الله، استمرى فى السير ولا تتوقفى كذبت لكننى كنت متحيراً إلى أين أذهب؟ ورأينا على الطريق بابا مقفلا، فكسرته بسرعة ودخلنا، ووجدنا بيتا جميلا مفروشاً بالسجاد، وفى الطاقة كانت زجاجات الخمر ممتلئة عن آخرها والكباب والخبز معدان فى المطبخ، وكان التعب قد بلغ منا كل مبلغ، فاستمتعنا طوال الليل بتناول الطعام والشراب، وحينما طلع الصبح انتشر خبر اختفاء الأميرة فى المدينة كلها، وخرج المنادى يطوف الأحياء والأزقة مناديا معلناً اختفاءها، وخرجت قوات الحرس للبحث عنها وإعادتها، وجلس الغلمان على أبواب الدور لعلهم يرونها، وصدرت الأوامر لحرس الحدود بألا يسمحوا بخروج أحد من المدينة حتى وإن كانت نملة بدون تصريح من الملك، وأعلن أن من سيأتى بالأميرة سينال جائزة كبيرة قدرها ألف أشرفى وخلعة ملكية فاخرة، وكانت هناك حارسات أيضاً من النساء أخذن يبحثن عن الأميرة فى كل بيت، وكان من سوء الحظ أننى لم أغلق باب البيت، فجاءت العجوز خالة الشيطان سود الله وجهها، وكانت بيدها مسبحة، وتستتر بنقاب، ووجدت الباب مفتوحا فدخلت، ووقفت أمام الأميرة رافعة يدها داعية الله عز وجل قائلة: اللهم احفظ هذين الزوجين، اللهم أبقهما طويلا، إننى فقيرة لى بنت حامل تتضور جوعاً وليس فى مقدورى أن أشعل موقداً فمن أين آتى بالطعام؟ وإن ماتت ابنتى كيف أكفنها، وإن وضعت فمن أين أدفع للقابلة، وأقدم لها ما يلزم فى ذلك الحين، فابنتى جائعة وعطشى منذ يومين، أيتها الأميرة لو تكرمت وتفضلت، فأعطنى شيئاً تتقوت به ابنتى.

فدعت الأميرة العجوز مشفقة عليها وأعطتها أرغفة ولحماً وكباباً، وانتزعت خاتماً من أصبعها ومنحته لها، وقالت: قومي ببيع هذا الخاتم وبثمنه احترفي صناعة الحلي لتعيشي، ولتأت في أي وقت فالبيت بيتك ونالت العجوز ما جاءت من أجله، فخرجت مسرورة، وألقت بالكباب والخبز في مدخل البيت لكنها أخذت الخاتم ليكون دليلا على عثورها على الأميرة، ثم أراد الله أن يحفظنا من هذه المصيبة، فحضر صاحب البيت راكباً فرسه معلقاً ظبياً اصطاده في سرج الفرس، ولما رأى أن قفل الباب مكسور والباب مفتوح والعجوز خارجة منه، تملكه الغضب وجذبها من شعرها وشد رجليها بالحبل وعلقها على الشجرة ، فماتت في التو واللحظة، وحينما رأينا هذا الرجل كدنا أن نفقد وعينا، وارتعدت فرائصنا، ولما رآنا صاحب البيت خائفين متحيرين، طمأننا وهدأ من روعنا وقال: هذا جهل كبير منكما، إنكما فعلتما هذا وتركتما الباب مفتوحاً.

فقالت الأميرة مبتسمة: لقد قال لي الأمير إن هذا بيت غلامي فادخلي فيه . فقال صاحب البيت: لقد قال صدقاً، فجميع خلق الله غلمان وجواري الملوك، فكلهم يعيشون ببركتهم وبفيضهم، وهذا الغلام غلامكم المشترى بدون مال، لكن إخفاء السر من مقتضى العقل، أيها الأمير إن بقاءك وبقاء الأميرة في هذا البيت شرف لي وسعادة في الدنيا والآخرة، لقد شرفتماني بقدومكما وأنا مستعد لبذل الروح من أجلكما ولن أدخر وسعاً في بذل الروح والمال وستعيشان في آمان واطمئنان في هذا البيت، فلو رجعت هذه العجوز حية إلى المدينة لجاءت بالمصائب والآن ابقيا ما شئتما واطلبا مني كل ما تريدانه، وأنى للملك أن يعرف مكانكما فحتى الملائكة لا تعرفه قال هذا الرجل كل ما يطمئن قلوبنا، فقلت: أحسنت وحقاً أنت رجل والرجال قليل، وسأكافئك جزاء هذا العون والإحسان، ما اسمك؟ قال: اسم هذا الغلام «بهزاد خان» الخلاصة أنه خدمنا ستة أشهر بكل تفان وإخلاص، وقضينا تلك المدة في راحة ودعة، وذات يوم تذكرت وطني ووالدي فكنت أجلس حزيناً، ولما رآني بهزاد خان حزيناً وقف أمامي عاقداً يديه وقال: لو صدر من هذا الغلام حامل حذاء الملوك أي خطأ فأخبرني قلت: ماذا تقول؟ لقد عاملتني بهذه المعاملة حتى عشنا في هذا البلد كما يعيش الجنين في بطن أمه، وإلا كان قد صدر منا فعل لا تحمد عقباه أغضب جميع الناس، جزاك الله خير الجزاء. ثم قال: لو أنك سئمت من هذا المكان فأنا أوصلك إلى حيث تشاء. قلت: لو أصل إلى وطني لأرى والدي، وهذا حالي ولا أدري كيف حالهما؟ لقد تركت بلادي

ووجدت ما تركتها من أجله، والآن يجب على أن أذهب كى أقبل أقدامهما، فهما لا يدريان إن كنت حياً أم ميتاً، أى قلق يعيشان فيه؟

فقال الشاب: مبارك، فلتتفضلا وبعد هذا أحضر فرساً تركيا يستطيع أن يمشى مائتى ميل ومهرة فتية للأميرة، وأركبنا عليها، ثم لبس درعاً وخوذة وركب فرساً وقال: سيتقدمكما الغلام ولتتبعانى وحينما وصل عند باب المدينة رفع صوته وكبر وكسر القفل، ونهر الحراس وأفزعهم وقال: اذهبوا وقولوا لملككم: إن «بهزاد خان» يأخذ معه الأميرة «مهركار» والأمير «كام كار» الذى هو زوج ابنته، فإن كنت رجلاً فاخرج واسترد الأميرة ولا تقل أنه أخذها سراً، وإلا فلتلزم القلعة مستسلماً للراحة!!.

ووصل هذا الخبر إلى الملك، فأمر الوزير والقائد أن يحضرا هؤلاء مقيدين أو يأتيا برءوسهم. وبعد لحظة ظهرت بعض القوات، وأغبرت السماء والأرض من سنابك الخيل، وأنزلنى «بهزاد خان» أنا والأميرة على جسر مثل جسر «جنيور» وشد سرج فرسه وعاد إلى القوات وزأر كالأسد واخترق صفوفهم كالسهم المارق، حتى وصل إلى قائدى الجيش فقتلهما، ولما قتل القائدين تفرقت القوات (عندما تكون ثمرة البيل على الشجرة فهى ثابتة، أما إذا سقطت تناثرت وصارت مثل حبة الخردل)[١٥] ثم خرج الملك بنفسه مع الجيش، فهزمه ذلك الشاب هو وجيشه.

انهزم الملك، والحقيقة أن النصر والفتح من عند الله، وأبدى «بهزاد خان» شجاعة وجسارة لم يبدها رستم، وحينما رأى «بهزاد خان» أن الجو صاف وليس هناك أحد يتعقبه، جاء إلى حيث كنا وأخذنا معه وعمر السفر يكون قصيراً فوصلنا بعد عدة أيام إلى حدود بلادنا.

فكتبت خطاباً إلى الملك الذى هو والدى بأننى وصلت بصحة وسلامة، فسر الملك بقراءة الرسالة وصلى ركعتين لله شكرا، وكأن الماء قد وصل إلى الأرز الجاف فأحضر الأمراء معه وجاء لاستقبالى عند شاطئ البحر، وأمر أمير البحر ليحضر سفينة ليقابلنى، وعندما رأيت موكب الملك عند الشاطئ ألقيت الفرس فى البحر، وأخذت أدفعه فى الماء حتى وصلت إلى خدمة الملك وتشرفت بالمثول بين يديه، وعانقنى أبى عناق الشوق، وعندئذ حدثت مفاجأة وهى أن الفرس الذى كنت أركبه لأنه ابن المهرة أو لأنه من جنسها فقد قفزت خلفه فى الماء

وأخذت تسبح وصاحت الأميرة مضطربة وكانت المهرة غير متمرسة وعندما شدت الأميرة لجامها انقلبت المهرة وغرقت هى والأميرة ولم يظهر لهما أى أثر، وحينما رأى «بهزاد خان» هذا المشهد قفز بفرسه أيضا وحدث له ما حدث للأميرة، وحاولنا كثيراً إنقاذهما، لكننا لم نفلح قط وأمر الملك أن تطرح الشباك في البحر لالتقاطهما وأمر الملاحين والسباحين ليخرجوهما، فبحثوا فى البحر كله وجاءوا بالطين من داخل البحر لكنهم لم يجدوا لهما أى أثر، أيها الدراويش بسبب هذه الحادثة أصبحت مجنونا وفقيراً تلك هى حالة العاشق، فانظر إلى كلتا الحالتين لو غابت الأميرة أو ماتت لاطمأننت أو خرجت للبحث عنها وصبرت، لكننى حينما رأيتها تغرق فى البحر ولم أستطع أن أفعل شيئاً أردت أن ألقى بنفسى فى البحر لعلى أجدها بعد موتى.

وذات ليلة هممت أن أغرق نفسى فى ذلك البحر ولما وصل الماء إلى عنقى وأردت أن أتقدم وأغوص إذ وصل نفس الفارس الملثم الذى بشركم، وأخذ بيدى وقال: اطمئن إن الأميرة «وبهزاد خان» على قيد الحياة، فلماذا تودى بحياتك بغير حق، مثل هذا يحدث فى العالم (فلا تيأس ولا تقنط من روح الله)، فإذا كنت حياً ستقابلهما ذات يوم، والآن اذهب إلى بلاد الروم، والحق بالدرويشين اللذين ذهبا إليها وحينما تقابلهما ستجد بغيتك، أيها الفقراء: «امتثالاً لهذا الحكم حضرت إلى خدمتكم، وأرجو أن يصل كل إنسان إلى مبتغاه».

هذه هى قصتى التى قصصتها عليكم من البداية إلى النهاية.

قصة الدرويش الرابع

بدأ الدرويش الرابع يحكى حكايته وهو يبكى:

اسمعوا قصتى التى ليس لها بداية ولا نهاية..

فانتبهوا واستمعوا لكل أحوالى..

وكيف وصلت إلى ما أنا فيه من الضياع..

سأوضح كل شىء بالتفصيل فاستمعوا إلى السبب..

أيها المرشدون !! التفتوا قليلاً، هذا الفقير أسير هذه الحالة هو ابن ملك الصين، وقد تربى فى دلال ونعمة، وتلقى تربية حسنة، ولم يكن يدرى ما يجرى فى زمانه من سيىء أو حسن، وهو يظن أنه سيحيا هكذا دائماً، وفجأة توفى قبلة العالم والد ذلك اليتيم وأثناء احتضاره وهو فى سكرات الموت طلب أخاه الصغير الذى هو عمى وقال: «إننى مشرف على الرحيل، تاركاً هذا المُلك وهذه الأموال لكننى أوصيك بأمر عليك تنفيذه، وهو أن تتولى الملك نيابة عن ابنى حتى يبلغ سن الرشد، ثم توليه الملك ، واحرص على شئون الملك والرعية، وحينما يبلغ ابنى مبلغ الرجال، فهمه الأحوال ثم ولّه الملك وزوجه ابنتك «روشن اختر» وهكذا سيبقى الحكم فى أسرتنا، ولن يحدث فيه أى خلل، وبعد ذلك انتقل والدى إلى رحمة الله وتولى عمى الملك، وبدأ يدير شئونه وأمرنى أن أقيم حيث تقيم الحريم، ولا أبارحه طالما أننى لست شاباً وقد عشت حتى سن الرابعة عشرة مع الحريم ولعبت معهم، وكنت سعيداً

بأننى سأتزوج بابنة عمى، وكنت أحيا مستريحاً بلا هموم على هذا الأمل وأقول فى نفسى: «سيأتينى الحكم فى يوم ما، إن الدنيا قائمة على الأمل». وكان حبشياً اسمه «مبارك» قد تربى على يد أبى وكان له مكانة كبيرة، وكان ذا حس مرهف ووفياً، وكنت أجلس معه فى أغلب الأوقات وكان يكن لى حباً كبيراً ويسعد بأننى أنمو يوماً بعد يوم، ويقول: «الحمد لله أيها الأمير أن شببت عن الطوق إن شاء الله سيعمل عمك بوصية أبيك، ويسلمك ملك أبيك ويزوجك ابنته».

وحدث ذات يوم أن لطمتنى على وجهى إحدى صديقات الأميرة بدون ذنب حتى ظهر أثر أصابعها الخمسة على وجهى، فذهبت إلى «مبارك» باكياً فعانقنى وكفكف دموعى بكمه، وقال: «اليوم أصحبك إلى الملك لعله يشفق عليك ويعطيك حقك» فرافقته إلى عمى فى نفس اليوم، وقابلنى عمى بشفقة ومودة وسألنى: «لماذا أنت حزين؟ ولماذا جئت إلى هنا؟».

قال مبارك: «جئنا لنعرض أمراً، وبعد أن سمع هذا بدأ يقول: «الآن نزوجه» قال مبارك: هنيئاً إن شاء الله. وفى نفس اللحظة طلب الملك المنجمين والرمالين وسألهم متظاهرا بالموافقة عن الساعة المباركة لإتمام الزواج والشهر واليوم، فأدركوا نية الملك، وأرادوا رضاه فقالوا: إن هذا العام كله نحس، ولا يوجد فى أى شهر منه أى يوم مبارك، ولو مر هذا العام بخير وعافية فالقادم هو الخير».

نظر الملك إلى مبارك ثم قال له: «خذ الأمير إلى القصر، وبعد مرور هذا العام سأرد إليه أمانته، عليه أن يطمئن ويتعلم». فألقى مبارك السلام وصحبنى إلى القصر، وبعد عدة أيام ذهبت إلى «مبارك» وحينما رآنى بدأ يبكى فدهشت وسألته: خيراً يا جدى لماذا تبكى؟ فقال المخلص الذى يحبنى بالقلب والروح: «ذلك اليوم الذى صحبتك فيه إلى ذلك الظالم الذى هو عمك، ما ذهبت بك إليه». قلت مندهشاً: «وأى سوء فى ذهابى إليه؟ أخبرنى» قال: لقد سر جميع الوزراء والأمراء وكبار الدولة وصغارها ويشكروا الله أن ابن ملكهم ذلك الغنى قد كبر وأصبح لائقا للملك فيعطى كل ذى حق حقه، ويكرم الصغير والكبير. ووصل هذا الخبر إلى ذلك الظالم، فكأن الثعبان قد مر بصدره، فدعانى فى الخلوة وقال: «يا مبارك أقتل الأمير بأية حيلة، وابعد خطره عن قلبى حتى أعيش مطمئناً ومن ذلك الحين وأنا أعيش بلا وعى لأن عمك أصبح عدواً لحياتك، وحينما سمعت هذا الخبر السعيد من «مبارك» مت بغير أجل، وسقطت على قدميه خوفاً على الحياة، لقد ضاعت السلطنة فبالله عليك أنقذ روحى!! فرفع

الخادم الوفى رأسى وضمنى إلى صدره وقال لا خطر، فقد وجدت حيلة، فإن حل المساء فلا خوف ، فإن بقيت الحياة فكل شيء موجود، وفى الغالب أنك ستنجو من هذه المؤامرة وتحقق أمنيتك». وبعد هذا أخذنى إلى ذلك المكان الذى كان أبى يجلس فيه وينام، وطمأننى ، وكان هناك كرسى فى أحد الأركان، فنقل الكرسى من مكانه ورفع السجادة من تحته وبدأ يحفر الأرض وفجأة ظهر شباك فيه قفل وسلسلة، ثم دعانى فأدركت أنه سيذبحنى ويدفننى فى هذه الحفرة، ورأيت الموت بعينى فتقربت إليه ونطقت بالشهادة، وحينما اقتربت رأيت أن تحت الشباك بناء وأربع غرف، وفى كل ردهة عشرة صناديق مربوطة بسلاسل ذهبية وفى هذه الأماكن كان هناك تسعة وثلاثون قدراً وعلى فم كل قدر حجر ذهبى وقرد مصنوع من الزمرد، ورأيت صندوقاً مملوءاً بالأموال لا يوجد عليه قرد ولا حجر، وحوضا مملوءا إلى حافته بالجواهر، فسألت مبارك: يا جدى؟! ما هذا الشيء العجيب؟ الشيء وما شأنها؟ قال: «قصة هذه الأشياء التى تراها، أن أباك قد تصادق منذ شبابه مع الملك «صادق» ملك الجن وكانا يتزاوران، فكان يذهب إليه مرة فى كل عام، ويهدى إليه التحف والعطور والهدايا وكان يقيم هناك حوالى شهر وعندما يغادر يعطيه الملك «صادق» قرداً من الزمرد، وكان الملك يأتى بهذا القرد ويضعه فى هذا السرداب ولا يعرف هذا الأمر إلا أنا، وذات يوم سألته أنا الغلام: «أيها الملك إنك تذهب إليه بالهدايا الثمينة، وتأتى من هناك بحجر أصم، فما الفائدة؟». فرد على سؤالى مبتسما وقال: حذارى أن تخبر أى أحد، إن كل ميمون تراه بلا روح، يتبعه آلاف الشياطين (المردة) لكن شرط استخدامه أن يبلغ عدد التماثيل أربعين، وإلا فلا طائل منه، فتوفى الملك قبل أن يكتملوا هكذا لم يأت جهده كله بأى ثمرة، أيها الأمير: حينما رأيت عجزك تذكرت وقررت أن أوصلك إلى الملك «صادق» وأخبره ظلم عمك، وغالباً فإنه سيتذكر صداقة أبيك ويعطيك ميموناً ليكتمل العدد المطلوب ويرجع ملكك إليك، ،تكون مطمئناً، وبهذه الحيلة تنقذ حياتك فى الحقيقة، وإن لم نجن من هذه الحيلة أى شيء، فلا مناص ولا مفر لنا للإبقاء على حياتك» فقلت له بعد ما سمعت كل هذا: «يا جد!! الآن أنت مفوض فى أمرى، فافعل كل ما هو صالح لى». ثم ذهب «مبارك» إلى السوق ليشترى العطور والبخور المناسب ليذهب به إلى الملك.

وفى اليوم التالى ذهب الخادم إلى العم الكافر الذى كان بمثابة «أبى جهل» وقال: «يا ملجأ العالم!! قررت حيلة لقتل الأمير، لو أذنت سأقوم بعرضها عليك» ففرح اللعين وقال: «ما هى

الحيلة؟» قال مبارك: «لو قتلته هنا بأية وسيلة فهذا يسيء لسمعة سموك، لكن لو أخذته إلى الغابة وقتلته ودفنته، فلن يدرى أى شخص ماذا حدث؟» وحينما سمع هذا قال: «حسن جداً، إننى أريد ألا يبقى على قيد الحياة وألا يهددنى أى خطر من جهته ، فإن أنت خلصتنى منه فسأقدم لك جائزة عظيمة فافعل ما تشاء حتى تأتينى ببشرى أنك قتلته» .

وبعدما اطمأن «مبارك» من جانب الملك اصطحبنى وذهبنا إلى الملك «صادق»، وسرنا لمدة شهر، وذات ليلة كنا نمشى فقال «مبارك»: «اشكر الله على إننا قد بلغنا المنزل المنشود، قلت: ماذا قلت يا جدى؟ قال: أيها الأمير ألا ترى جنود الجن؟. قلت: إننى لا أرى غيرك فتناول «مبارك» الكحل السليمانى وكحل عينى مرتين، فإذا بى أرى جند الجن، فوجدتهم فى شكل جميل وهيئة جميلة، وأخذوا يعانقون «مباركاً» وكأنهم يعرفونه منذ أمد بعيد، وأخذوا يمازحونه .

وأخيراً وصلنا إلى خيمة الملك ومثلنا فى حضرته، ورأينا المصابيح والمقاعد مصطفة على كلا الجانبين، يجلس عليها العلماء والفضلاء والأمراء والوزراء والفقراء وغيرهم، وجباة الضرائب قائمون عاقدون أيديهم وفى المنتصف عرش مرصع يجلس عليه الملك «صادق» لابساً تاجاً وعمامة يتدلى منها اللؤلؤ متكئاً على المسند فى هيبة وعظمة، فاقتربت وقدمت التحيات والتعظيمات بين يديه، فأمرنى بالجلوس بشفقة، ثم أحضروا الطعام، وبعد الفراغ منه إلتفت الملك إلى «مبارك» وسأله عن أحواله فقال «مبارك»: إن عم هذا الأمير قد تولى الحكم بعد أبيه وأصبح عدوا لحياته، لهذا جئت به إليك هارباً منه، وهو يتيم والملك حق له، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً دون مرب، وبفضل رعاية جلالتكم سيجد هذا الأمير من يرعاه تذكر خدمة أبيه وانصره وساعده، وأعطه القرد الأخير ليكتمل عدد القردة أربعين قرداً، وسيدعو لك حينما يسترد حقه، فهو ليس له ملجأ سواك» .

وبعد ذلك تأمل الملك «صادق» برهة، ثم قال: «إن حقوق خدمة وصداقة المرحوم على كثيرة، وهذا المسكين جاء إلى تاركا هذا المال الموروث حفاظاً على حياته ولجأ إلى، وإننى لن أدخر أى مسعى لكن لى خدمة إن قام بها خير قيام ولم يخن وأتمها ونجح فى الامتحان فأتعهد بأننى سأعامله معاملة أحسن من الملوك وأبلغه ما ينشده . فعقدت يدى ملتمساً وقلت: «إننى سأقوم بخدمة سموكم قدر المستطاع، وسأؤديها على العين والرأس بأمانة وفطنة، فهذا شرف لى فى الدنيا والآخرة» .

قال الملك: إنك صغير الآن، لهذا أؤكد مرارا وتكرارا أنه لا قدر الله إن تقصر أو تخفق في هذا الأمر ستلقى بنفسك فى التهلكة. قلت: يسهل الله عز وجل من أجلك وسأحاول حسب القدرة واحضر الأمانة إلى جنابك فدعانى الملك «صادق» قريبا منه، وأخرج ورقة من الحافظة وعرضها على قائلاً: انظر لهذه الصورة وعليك أن تحضر من يماثلها فى الشكل تماماً وتحضره من أجلى، فحيث تعلم أنه موجود ابحث عنه، وحين تذهب إليه أبلغه عظيم شوقى، وإن أسديت لى هذه الخدمة فستنال منى أكثر مما تتوقع وتنتظر وإلا فإن الجزاء من جنس العمل».

ولما نظرت إلى الورقة رأيت فيها صورة كدت أفقد وعيى على أثر رؤيتها فتمالكت نفسى خوفاً وقلت: حسناً سأغادر الآن، إن أراد الله سبحانه وتعالى لى خيرا سأقوم بهذه الخدمة كما تشاء، ثم خرجت من الغابة مع مبارك وبدأت أطوف قرية قرية وبلداً بلداً أسأل كل من أقابله عن صاحب هذه الصورة ولم يقل لى أحد إننى أعرفه أو سمعت عنه، وقضيت سبع سنوات على تلك الحال، ثم وصلت إلى مكان به مبان عالية وعامرة، وكل شخص فى هذا المكان يذكر الاسم الأعظم ويعبد الله. ورأيت هنديا فقيراً أعمى يتسول لكن لا أحد يعطيه أى مال ولا كسرة خبز، فدهشت وأشفقت عليه فتناولت أشرفى من جيبى وأعطيته إياه فأخذه وقال: أيها المعطى أحسن الله إليك لعلك مسافر، ولست من أهل البلاد».

قلت: فى الحقيقة إننى أدمر حياتى منذ سبع سنوات ، ولم أجد أى خبر لما خرجت من أجله، واليوم وصلت إلى هذه المدينة.

فانصرف العجوز عنى داعياً فسرت خلفه، ورأيت مكانا عاليا خارج المدينة، دخل العجوز فيه وتبعته أنا أيضا ورأيت هناك بعض المبانى المهدمة، ولا يقوم أى أحد بترميمها، فقلت فى نفسى إن هذا المبنى يليق بالملوك، لقد كان شامخا عند تأسيسه، والآن ألم به الخراب ولا أدرى لماذا لا يسكن هنا أى شخص؟ ولماذا يعيش هذا الأعمى هنا؟ الأعمى هنا؟ وكان الأعمى يسير متكئاً على عصاه إذ سمعت صوتاً كأنه يقول: أيها الأب، خيراً لماذا عدت اليوم مبكراً؟ قال العجوز: يا بنيتى إن الله عز وجل جعل شابا مسافرا رحيماً بى لقد أعطانى دينارا، وإننى ما أكلت منذ فترة طويلة طعاما لذيذا، فاشتريت لحماً وتوابل وزيتا ودقيقا وملحاً وثوباً لك قصيه وخيطيه، وألبسية وعندما تطهين الطعام ونأكله، ادعى لهذا الشاب، إننا لا ندرى ما هو مقصوده! لكن الله عز وجل سميع بصير، إنه يقبل دعاء الفقراء.

وعندما سمعت أحوال فقره جال بخاطرى أن أعطيه عشرين أشرفيا لكننى حينما سمعت نظرت فرأيت امرأة تشبه الصورة التى أحملها فتناولت الصورة وقارنت بينهما فما وجدت أى فرق، فخرج من قلبى صوت وفقدت وعيى، وجلس مبارك بجوارى واحتضننى وأخذ يحرك مروحة على وجهى، فأفقت قليلا وأخذت أنظر إليها، فسألنى مبارك: ماذا أصابك؟ وقبل أن أجيب قالت الحسناء: أيها الشاب اتق الله ولا تنظر إلى غير محرم، فالخجل والحياء من حسن الأدب لكل شخص.

تكلمت بأسلوب أعجبنى، وبهرت بحسنها وخلقها، وكان مبارك يرعانى لكنه لا يعرف حالة قلبى، وأخيراً ناديت: يا عباد الله !! ويا سكان هذا المبنى إننى غريب على سفر، إن دعوتمونى وأعطيتمونى مكاناً لأقيم فيه، فتلك مروءة منكم فدعانى الأعمى بالقرب منه وعرف صوتى فعانقنى وأخذنى إلى حيث تجلس الحسناء وكانت قد اختفت فى أحد الأركان، فقال لى الشيخ الأعمى: إحك لى ما جرى لك؟ لماذا تركت أهلك وتعيش وحدك وعمن تبحث؟ فلم أذكر أمامه الملك «صادق» وما يتعلق به، وقلت: إن هذا الأمير من الصين وما أدراك ما الصين، وهذا لأن أبى هو ملكها الآن، اشتريت هذه الصورة بمئات الآلاف من الروبيات، وحينما نظرت إليها فقدت كل حواسى وراحتى، وألم بى الفقر وهممت أبحث عنها فى جميع أنحاء الدنيا، والآن وجدت ما أبحث عنه فلك الخيار.

وعندما سمع الأعمى هذا صاح صيحة وقال: إن أبنتى تعانى مصيبة عظيمة ولا يستطيع أى أحد أن يتزوجها ويجنى ثمار الزواج قلت: أرجو أن تفصل الكلام فبدأ الأعمى يحكى قصته قائلا : أسمع يا ابن الملك : أننى رئيس هذا البلد سيىء الحظ وكان أبائى وأجدادى ذوى أنساب عالية رزقنى الله تعالى بهذه البنت وعندما بلغت سن الرشد ذاع صيت حسنها وجمالها وعرف الجميع أن جمال بنت فلان لا يضارعه أى حسن أو بهاء حتى الحور تستحى منها وبلغ هذا الثناء ابن الملك فعشقها دون أن يراها وزهد فى الطعام والشراب ولازم الفراش .

ووصل هذا الخبر إلى الملك فدعانى فى الليل منفردا وتحدث عن هذا الموضوع وحاول أن يقنعنى ، وأخيرا نجح فى محاولته، وفكرت فى نفسى أن لى بنتا وعلى أن أزوجها من أى شخص إذن فمن الأفضل أن أزوجها ابن الملك حتى يكون الملك ممتناً لى أيضاً فقبلت وغادرت ومن ذلك الحين بدأ الطرفان يعدان العدة لحفل الزفاف، وذات يوم مبارك وفى

ساعة مباركة اجتمع القاضى والمفتى والعلماء والأكابر وتم الزواج، وذهبت العروس إلى بيت العريس فى بهجة وسرور.

وبعد الفراغ من مراسم حفل الزفاف، اختلى العريس بالعروس وأراد أن يغشاها إذ سمع الجميع ضجة واندهشوا وأرادوا أن يدخلوا غرفة العريس لكن الباب كان موصدا، وسمعوا صوت بكاء فكسروا الباب ووجدوا العريس مقطوع الرأس والعروس متمرغة وملطخة بدماء العريس.

فقد الجميع وعيهم برؤية هذه المصيبة التى حلت بهم فى وقت الفرح والسرور، ثم بلغ الخبر الملك، فجاء حزيناً ضارباً رأسه، واجتمع جميع أركان المملكة لكن لم يستطع أحد منهم قط أن يعرف ماذا حدث، وماذا يفعلون، أخبرا أمر الملك بقتل العروس التعسة، وما أن أمر الملك بذلك حتى سمعوا ضجة كبيرة، ففر الملك حفاظاً على حياته وأمر بإخراجها من القصر، فأوصل الخدم ابنتى إلى بيتى وذاع هذا الخبر فى الدنيا كلها، وذهل من سمع هذا الخبر، وبسبب قتل ابن الملك أصبح الملك وجميع سكان هذه المدينة أعداء لحياتى.

وبعد الفراغ من الحداد والنواح وانقضاء الأربعين شاور الملك أركان الدولة فى هذا الشأن وسألهم: «ماذا نفعل الآن؟» قال الجميع: «لا نستطيع أن نفعل شيئا، سوى أن تأمر جلالتكم بقتل تلك الفتاة وأبيها، والاستيلاء على أملاكهما وذلك للتسرية عن قلوبنا ولو ظاهرياً!! وعندما قرروا عقوبتى هذه جاء رئيس الشرطة مع معاونيه وحاصروا ابنتى، ونفخوا فى النفير، وأرادوا أن يدخلوا بيتى تنفيذاً لحكم الملك وبدأت الأحجار والأجر تمطر عليهم من الغيب فلم يستطيعوا تحملها وفروا، وسمع الملك فى قصره صوتا مهيبا يقول: «أيها الملك لا تتبع خطوات الشيطان، وإن أردت خيراً لك فلا تتعرض بالسوء لهذه الفتاة، وإلا سترى بسبب عداوتك لها ما رآه ابنك بالزواج منها، ولو آذيتهما بعد ذلك سيتنال العقوبة».

خاف الملك وأمر أتباعه على الفور «بألا تتعرضوا لهذين ولا تظلموهما واتركوهما فى حالهما فى البيت»، ومنذ ذلك اليوم بدأ النساك يقرأون الدعاء والرقية والأوردة، وبدأ سكان المدينة يذكرون الله ويقرأون القرآن الكريم، وحتى الآن لم يستطع أحد أن يطلع على شىء من هذه الأسرار، لم أعلم منها شيئا، ولكننى سألت ابنتى ذات مرة: ما الذى رأيته تلك الليلة؟» قالت: «إننى لا أدرى شيئا إلا أن زوجى حاول أن يغشانى، فرأيت أن السقف ينشق،

ويخرج منه عرش مرصع ويجلس عليه شاب وسيم يرتدى لباس الملوك ودخل معه أناس كثيرون وتصدوا لقتل ابن الملك، واقترب الشاب منى وقال: «يا حبيبتى والآن أين تفرين منى؟». وكانت أشكالهم مثل الآدميين لكن أرجلهم كانت مثل أرجل الأغنام فبدأ قلبى يخفق خوفا وفقدت وعيى ثم لا أدرى ما حدث فى النهاية؟».

ومنذ ذلك الحين ونحن نعيش فى هذا البيت العتيق وانصرف عنى جميع أصدقائى خوفاً من غضب الملك وعندما أخرج لأتسول لا يعطينى أحد شيئاً حتى «المليم» بل لا يسمحون لى بأن أقف أمام متاجرهم، وليس عند ابنتى أى ثوب يستر بدنها ولا طعام تسد به جوعها». وأرجو من الله أن يتوفانا أو تنشق الأرض لتبتلع هذه التعسة، فإن الموت أفضل من هذه الحياة، لعل الله أرسلك لأجلنا، إنك أعطيتنا دينارا فاشترينا الطعام والكساء لابنتى وحمدت الله عز وجل ودعوته، ولو لم تصب ابنتى بمس من الجن والشيطان لزوجتك إياها وكان هذا هو منتهى السعادة والأمل، هذه أحوالى فلا تلح وانصرف عن قصدك.

وبعد كل ما سمعت ألححت وأصررت وقلت: «لابد وأن تقبلنى كابن لك، وليحدث ما قدر الله، فما قدر لى من سوء حظى سيحدث». ولم يقبل الشيخ وحينما أمسى الليل غادرته وذهبت إلى مبارك فقال لى: أيها الأمير مبروك مبروك لقد هيأ الله لك الأسباب، وما ضاع هذا الجهد قلت: لطالما ألححت وتوسلت اليوم لكن ذلك الأعمى القاسى القلب لم يقبلنى والله أعلم إن كان سيقبل أم لا؟ ومر الليل على قلبى وأنا على تلك الحال بصعوبة بالغة، وكنت أتحرق شوقا لطلوع الصبح لأذهب إليه وأحيانا يرد فى ذهنى أنه لو قبل الرجل فسيأخذها «مبارك» إلى الملك «صادق» ثم قلت فى نفسى: نأخذها أولا، ثم نبحث عن حيلة ونرضى مبارك ثم نعيش سويا، وأحيانا يأتى فى خاطرى أنه لو قبل «مبارك» فسيصنع بى الجن ما صنعوه بزوجها السابق، وكيف يقبل ملك هذه المدينة أن يقتل ابنه ويسعد آخر.

وطار النوم منى طوال الليل وقضيته فى إعداد هذه اللحظة وحينما طلع الصبح خرجت واشتريت من السوق أثواب القماش الجميلة وما يزينها والفواكه الجافة والطازجة وذهبت بها إلى الشيخ الأعمى ففرح جدا وقال: «إن الحياة أغلى من كل شيء، لكن لو تنفعك حياتى فلن أدخر وسعاً فى بذلها من أجلك، وأزوجك ابنتى الآن، لكننى أخاف أن يؤدى هذا إلى هلاكك، ويكون هذا وصمة ذنب فى جبينى إلى يوم الدين».

فقلت: «إننى بدون مأوى فى هذه القرية وأنت والدى فى الدين والدنيا لقد تجشمت كثيرا من العناء فى تحقيق أمنيتى هذه حتى وصلت إلى هنا، ووجدت مطلبى أيضا، وجعلك الله رحيما بى حتى قبلت لكنك تتردد كن منصفاً فى تفكيرك وأخبرنى أى مذهب يسمح للإنسان أن ينقذ رقبته من سيف العشق وينجو بحياته؟ إننى ضيعت حياتى، وأعتبر حياتى فى وصال المعشوق، ولا أبالى بالموت أو الحياة ولو خاب أملى فسأموت قبل أجلى وأتشبث بذيلك حتى يوم القيامة».

خلاصة القول أنه قد مضى قرابه شهر كامل فى القول والرد والإلحاح والإصرار، كل يوم أذهب إلى هذا الشيخ وأتوسل إليه، وحدث أن مرض الشيخ وكنت أقوم على خدمته وأذهب إلى الطبيب وآخذ وصفة العلاج وأشتريها وأطعمه وأشترى غذاء أقدمه إليه، وذات يوم أشفق على وقال: «أيها الشاب!! أنت عنيد، لقد حاولت كثيراً أن أمنعك عن هذا وبينت لك جميع المخاطر، ولكنك تريد أن تلقى بنفسك فى البئر، وعلى كل حال اليوم أذكرك عند ابنتى فأرى ماذا تقول؟».

يا فقراء الله!! عندما سمعت هذا الخبر السعيد لم تسعنى ثيابى فسلمت عليه وشكرته وقلت: «الآن أنت فكرت فى حياتى» وغادرته وذهبت إلى مبارك وكنا نتحدث فى هذا طوال الليل فأنى للنوم أن يداعب عيوننا وأنى للجوع أن ينتابنا؟ وحينما طلع الصبح ذهبت إلى الشيخ وسلمت عليه فقال: خذ ابنتى، بارك الله لك فيها وأستودعكما الله الذى لا تضيع ودائعه، وكونوا أمام عينى طول حياتى، وعندما أموت فأنتم مخيرون».

وبعد أيام أسلم الشيخ الروح، فبكينا وحزنا عليه ودفناه وبعد الفاتحة الثالثة ذهب «مبارك» إلى تلك الحسناء وجاء بها فى هودج، وقال لى: «هذه أمانة للملك «صادق» واحذر أن تخونه فيها، وتضيع جهدك ومشقتك: قلت؟ يا عم!! أين الملك «صادق» هنا، قلبى لا يستطيع صبرا؟ فليحدث ما يحدث، أموت أو أحيا الآن أعيش، وبعد أن اضطرب مبارك نهرنى قائلا: لا تسلك سلوك الأطفال ربما يحدث فى لحظة واحدة أى شىء هل تعتقد الملك «صادق» بعيد؟ فلا تطيع أمره؟ إنه نبهنا على كل شىء وقت مغادرتنا، إن عملت بنصيحتى وأوصلتها له بالسلامة بدون أى تقصير، فإنه كملك ربما يعطيك إياها تقديرا لجهدك فلزمت الصمت بعد أن أخافنى وحيرنى، فاشترى مركبتين، وركبنا وتوجهنا إلى الملك «صادق» وكنا نمشى وإذا بنا نسمع ضجيجا قال مبارك: الشكر لله أن جهدنا لم يضع هباء، فقد وصل

إلينا جماعة الجن، قابلهم مبارك وسألهم: إلى أين؟ فقالوا قد كلفنا الملك باستقبالكم ونحن فى خدمتكم، وأن تأمرونا نوصلكم فى لحظة قال «مبارك»: انظروا كيف أعزنا الله ورفع قدرنا عند الملك بعدما تحملناه من جهد؟ فعلينا أن نسرع، فلولا قدر الله وحدث أى تقصير سيضيع جهدنا أدراج الرياح ويحل بنا غضب الملك. قال الجميع: «إنكم مخيرون امضوا كيف تشاءون» ورغم أن سبل الراحة كانت متاحة لنا، إلا أننا كنا نمشى ليل نهار ولا مفر لنا من ذلك.

وحينما اقتربنا ووجدت «مبارك» نائما وضعت رأسى على قدمى تلك الحسناء وبسبب اضطراب القلب وقلة حيلتى أمام مبارك بدأت أقول لها: إننى منذ وقع بصرى على صورتك حرمت على النوم والأكل والراحة، وعندما أتاح الله هذه الفرصة، أصبحت غريباً عنك.

فقالت: «إن قلبى مائل إليك أيضا لأنك عانيت كثيراً من المتاعب بسببى أنا وجئت بى إلى هنا، أذكر الله ولا تنسنى، وانتظر ما يحدث من الغيب. وبعد هذا صاحت صيحة شديدة وبكت بكاء مريراً وانتحبت وهذه كانت حالى، وهذا كان حالها، وأثناء ذلك استيقظ «مبارك» فبدأ يبكى لبكائنا نحن المشتاقين، وقال: اطمئنوا عندى زيت أمسح به على جسد الفتاة، فينفر من رائحته الملك «صادق» وغالباً ما يعطيك إياها».

ولما سمعت من «مبارك» هذه الحيلة اطمأن قلبى وعانقته وأظهرت حبى له وقلت: يا جدى!! أنت الآن فى منزلة أبى لقد أنقذت حياتى، والآن تعمل أيضا ما يضمن حياتى، وإلا سأموت بهذا الحزن فطمأننى كثيراً.

وحينما طلع الصبح سمعنا صوت الجن، ورأيت خدام الملك «صادق» قادمون، وقد خرجوا عن آخرهم لاستقبالنا ومعهم هودج من اللآلئ، فمسح «مبارك» على جسد الأميرة بالزيت وألبسها لباساً وذهب بها إلى الملك، وحينما رآها الملك أكرمنى وأجلسنى بإعزاز وقال: سأعاملك معاملة لم يعاملك بها أحد من قبل قط، إن ملك أبيك هو لك وعلاوة على ذلك أنك ستكون بمثابة الابن لى، وكان يتحدث عن هذا إذ جاءت الأميرة أمامه وحينما اشتم رائحتها تبدل حاله ولم يستطع الصبر عليها فخرج مسرعا ودعانا وتوجه إلى «مبارك» وقال: «لماذا ياعزيزى لقد وفيت أنا بالعهد وكنت قد حذرتكما أنكما إن خنتما الأمانة ، سيحل غضبى بكما، ما هذه الرائحة؟ والآن سترى ماذا أفعل بك، وحينما اشتد غضب الملك خافه «مبارك»

وفتح إزاره وقال للملك: «انظر عندما حذرتنا من الخيانة قطعت «عضوى» ووضعته فى ظرف وختمته بالختم ووضعته فى الخزانة، واستخدمت المرهم ثم ذهبت فى مهمتى وعندما سمع الملك من «مبارك» هذا القول نظر إلى شذراً وقال: «هل أنت فعلت هذا؟ وغضب غضباً شديداً وبدأ يتفوه بكلام بذىء.، وفهمت من أسلوبه أنه يريد القضاء على، فأخرجت الخنجر من طيات ملابس «مبارك» وطعنته دون أن أبالى بحياتى، وحينما أصابه الخنجر انحنى ثم ترنح فظننت أنه مات، لكننى فكرت أن الضربة لم تكن بهذه القوة فماذا حدث؟ ورأيته يتدحرج ويتقلب حتى أصبح كالكرة ثم طار فى السماء حتى غاب عن ناظرى وبعد برهة نزل محدثاً صوتاً كالصاعقة متفوهاً بما ينم عن غضبه، وضربنى برجليه، فسقطت مستلقياً على ظهرى، والله اعلم كم من الوقت قد مر على فى هذا الوضع حتى استرددت وعيى؟ ولما فتحت عينى وجدت نفسى فى الغابة وليس هناك سوى الأشجار والأحجار، ولم يرد فى ذهنى ماذا أفعل وأين أذهب؟ وأخيراً انتابنى يأس عظيم وصرخت صرخة مدوية ومشيت، وكلما قابلت شخصا سألته عن الملك «صادق» فيجيبنى كأننى مجنون ويقول ما سمعت اسمه قط.

وذات يوم صعدت الجبل وأردت أن القى بنفسى من فوقه، وعندما هممت بإلقاء نفسى، إذ جاء نفس الفارس صاحب ذى الفقار ملثما وقال: لماذا تنهى حياتك؟ إن الإنسان يمر بالحزن والألم، والآن انتهت أيامك السيئة وجاءت أيامك السعيدة، اذهب بسرعة إلى بلاد الروم، سبقك ثلاثة أشخاص مثلك، قابلهم وقابل السلطان هناك، وأنتم الخمسة ستجدون بغيتكم فى مكان واحد».

هذه هى قصة هذا الفقير التى حكيتها، وبسبب هذه البشارة حضرت إلى مرشدى المولى الذى يفرج الكروب، ومثلت فى خدمة الملك ظل الله، والآن ينبغى أن يطمئن قلب الجميع.

وبينما كان هذا الحوار يدور بين الدراويش الأربعة والملك «آزاد بخت» إذ جاء الخادم من قصر الملك مهرولاً وقدم التحيات وقال: «مبارك يا مولاى لقد ولد لسموك أمير وسيم يستحى من حسنه الشمس والقمر». تعجب الملك وسأل: «ما كان هذا فى الظاهر» هذه الشمس سطعت من أى برج؟ «قال الخادم: إن ذات الوجه القمرى من الخواص التى حل بها غضب الملك منذ فترة طويلة، والتى تعيش فى ناحية من أنحاء القصر كالمسكينة ولا يسأل عن حالها أحد خوفا من بطش الملك، قد أكرمها الله عز وجل بأن أنجبت ولداً كالقمر».

ففرح الملك كثيراً، ودعا له الدراويش الأربعة بالبركة قائلين: «عمر الله بيت جلالتك وبارك لك فيه، وأطال عمره، وجعله يبلغ سن الشباب والشيخوخة فى ظلك» قال الملك: «هذه بركة قدومكم فقط، وإلا فإنه ما خطر فى بالى، لو تسمحون لى فأذهب لأراه» قال الدراويش: تفضل: «بسم الله» دخل الملك القصر واحتضن الأمير وشكر الله عز وجل وقر قلبه وجاء به إلى الدراويش ضاما إياه إلى صدره، فقرأ الدراويش الرقية والأدعية على رأسه، وأعد الملك العدة للاحتفال وفتح أبواب الخزائن وأعطى الفقراء أموالاً طائلة حتى أصبحوا أصحاب مئات الألوف، وأصدر فرماناً بمضاعفة أملاك ومخصصات أركان الدولة، ومنح قوات الجيش راتب خمس سنوات، ومنح الأوسمة الرفيعة للأكابر والمشايخ وملأ كئوس الفقراء والمساكين بالدنانير والروبيات، وأعفى الرعية من الضرائب ثلاث سنوات وسمح لهم أن يأخذوا الحاصلات الزراعية كلها دون اقتطاع أى جزء منها، وأمر أن يكون الاحتفال بالرقص والغناء من بيت إلى بيت، وصار الصغير والكبير ملك الزمان من الفرح والسرور، وفى أثناء هذا كله ارتفع صوت البكاء والنواح من القصر الملكى، وخرج جميع الخدم والحشم والجوارى ناثرين التراب على رءوسهم وقالوا للملك: «عندما حضنت الوصيفة الأمير بعد الفراغ من غسله، نزلت قطعة من السحاب وأحاطت بالخادمة، ثم رأينا بعد لحظة أن الخادمة فقدت وعيها والأمير غائب، أهذه القيامة؟ ذهل الملك وارتفع العويل فى البلاد كلها وقضى أهل البلاد يومين بدون طعام وشراب.

وخلاصة القول كنا بدون حيلة وظللنا نعيش هكذا، وفى اليوم الثالث نزل نفس السحاب بمهد مرصع باللآلئ ووضعه فى نفس المكان وتركه وغاب، فرأى الناس الأمير الوليد يرضع أصبعه، فأخذته الملكة بسرعة وضمته إلى صدرها ورأته لابسا ثوبا مرصعاً بالدر والجوهر وموشى بالذهب والفضة وفى معصميه وقدميه أساور مرصعة وفى عنقه سلسلة وفى يده جرس ولعبة، وفرح الجميع وبدأوا يدعون له قائلين: «أثلج الله صدر أمك بك، وأطال عمرك حتى تصير كهلاً».

وبنى الملك قصراً جديداً وأثثه وأسكن الدراويش فيه وكان يذهب إليهم فيه حينما يفرغ من شئون الحكم ويجالسهم ويعتنى بهم، وكان السحاب ينزل فى أول خميس من كل شهر ويأخذ الأمير، وبعد يومين يعود به مع الهدايا واللعب من كل نوع ومن كل البلاد تحار العقول من جمالها، وبلغ الأمير سبع سنوات والحال على ما هو عليه، وفى يوم الاحتفال

بمولده قال الملك «آزاد بخت» للدراويش: يا فقراء الله!! نحن لا ندرى من يأخذ الأمير ثم يرجعه، هذا شيء غريب فلننظر فى هذا الأمر ونرى ماذا سيكون مصيره؟ قال الدراويش: «خذ ورقة واكتب رسالة وقل فيها: «أنا مشتاق لرؤيتك بسبب حبك لى وأرجو على سبيل الصداقة أن تطلعنى على أحوالك لأطمئن ويزول العجب». فكتب الملك ما قاله الدراويش ووضع الرسالة فى طيات ملابس الأمير.

غاب الأمير كالمعتاد وحينما أمسى الليل جاء الملك «آزاد بخت» إلى مخدع الدراويش وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث، إذ بورقة ملفوفة تسقط عليهم، وحينما فتحها الملك رأى أنها جواب الرسالة مكتوب فيه: «اعتبرنى مشتاقاً إليك، وسيهبط عرش من السماء فلو تكرمت اركبه وتعال إلى سيكون هذا أفضل، أن نلتقى وكل أسباب العيش والراحة متاحة والمكان خال لك فقط.

ركب الملك «آزاد بخت» مع الدراويش فطار العرش كعرش سليمان وبعد قليل هبط فى مكان به مبان شاهقة وكل شيء على ما يرام لكن لا يبدو به أثر لإنسان، أو أن شخصاً يعيش فيه، وفى أثناء ذلك وضع شخص فى عيونهم كحلاً سليمانياً، فنزل دمعهم فرأوا جماعة من بنى الحور قائمين لاستقبالهم فى أزيائهم المختلفة وفى أيديهم الزهور، وحينما سار الملك «آزاد بخت» رأى أبناء الحور يقفون على كلا الجانبين فى أدب ووقار وفى الوسط رأى عرشاً زمردياً يجلس عليه الملك «شهبال بن شاه «رخ» متكئاً على أريكة بهيبة وعظمة وتجلس أمامه حورية تلعب مع الأمير «بختيار» ويجلس أبناء الحور على المقاعد والمساند المصطفة على الجانبين، وعندما رأى الملك «شهبال» الملك «آزاد بخت» نهض ونزل عن العرش وعانقه وأخذ بيده وأجلسه إلى جواره وبدءا يتحدثان فى جو من الصداقة والمودة، وطوال اليوم عم الفرح والسرور، وقدمت لوازم الضيافة من طعام وشراب وفاكهة وعطور وغناء، ثم اجتمع الملكان فى اليوم التالى فسأل الملك «شهبال» الملك «آزاد بخت». «لماذا جئت بالدراويش معك؟».

فقص الملك قصة هؤلاء الدراويش الأربعة كما سمعها بالتفصيل وقال وهو يشفع لهم: إنهم عانوا مصائب جمة، والآن لو نالوا بغيتهم بسبب عناية جلالتكم فلك عظيم الثواب، وهذا المخلص (الملك) سيكون شاكراً ممتناً لك طوال حياته، وبفضلك سترسو سفينتهم على شاطئ الأمان بعد طول إبحار.

فقال الملك «شهبال»: على الرأس والعين، فهذا هين ويسير عليّ. قال هذا ونظر بشفقة للجن والحور وكتب خطاباً إلى جميع زعماء الجن أنه: عليكم بالحضور مباشرة عقب قراءة الفرمان، وإن تأخر أو تردد أى منكم سينال عقابه ويأتى محبوسا، وعليكم بإحضار أى رجل أو امرأة من بنى الإنسان يكون موجودا لديكم وإن حدث وأخفيتم أحدهم وظهر بعد ذلك، فإن من يفعل ذلك ستقتل نساؤه وأطفاله ولن يبقى له اسم أو أثر.

وأرسل الرسالة مع عفريت إلى كل الجهات، وأخذ الملكان يتحدثان سوياً بود وحب، وأثناء ذلك خاطب الملك «شهبال» «الملك آزاد بخت» قائلاً: «كان لى أمنية كبيرة وهى أن أرزق بولد، وعاهدت نفسى أنه إن رزقت بولد أو ببنت سأزوجها بولد يولد ببيت ملك ملوك بنى الإنس، وبعد هذا علمت بحمل زوجتى الملكة، وبدأنا نعد الشهور والأيام حتى حان الوقت وأنجبت بنتاً، وحسب العهد أمرت أولاد الجن أن ابحثوا فى العالم كله عن ولد يولد فى بيت ملك وأحضروه بحرص وبسرعة، فانتشر الجن فى العالم كله وأحضروا هذا الأمير بعد لحظة.

شكرت الله واحتضنته ودخل فى قلبى حبه أكثر من ابنتى ولا تقبل نفسى أن أتركه ولو للحظة واحدة، لكننى أرسله لأن والديه لو لم يرياه فماذا سيحدث لهم؟ لهذا أطلبه كل شهر مرة واحدة وأبقيه عدة أيام عندى ثم أرسله والآن قابلتك فإن شاء الله تعالى نزوجه، فكل نفس ذائقة الموت، فنرى زواجهما فى حياتنا.

سر الملك «آزاد بخت» من قول الملك «شهبال» وبرؤيته وقال: «كنت أخاف من قبل على ابنى لماذا يغيب ويعود؟ لكننى حينما تحدثت معك اطمأننت، والآن هو ابنك وأنت مخير فافعل ما تشاء. وهكذا صارت الصداقة بين الملكين كالسكر واللبن، وبدءا يتمتعان بكل متع الحياة، واجتمع خلال فترة من خمسة إلى عشرة أيام الملوك الكبار لـ «ككستان آرم»، و«كوهستان» و(الجزر) الذين عين الملك الخدام، لإحضارهم، ومثلوا بين يدى الملك، فقال أولا للملك صادق: أحضر من عندك من بنى آدم، فاحضر بعد الغم والحزن «كلعذار»، وطلب من ملك ولاية «عمان» الأميرة التى أصبح ابن ملك «نيم روز» راكب الثور مجنونا بسببها، فاحضرها بعد الأسف والاعتذار، وعندما طلب الملك بنت ملك الإفرنج و «بهزاد خان» انكر الجميع وأقسموا بسليمان، وأخيرا سأل ملك بحر «القلزم» فخفض رأسه وسكت،

فاستحلفه الملك «شهبال» ووعده بإعطائه الجوائز وحذره من مغبة العصيان فبدأ يقول وهو عاقداً يديه: «حفظ الله الملك، فى الحقيقة عندما جاء الملك لاستقبال ابنه وألقى الأمير فرسه فى البحر ليصل إليه بسرعة، كنت قد خرجت فى نفس ذلك اليوم للصيد، فمررت بنفس المكان وكنت واقفاً أشاهد هذا المنظر ورأيت الأميرة أيضاً تلقى بفرسها فى البحر، ولما رأيتها خرج قلبى من حوزتى وأمرت أبناء الحور بأن يحضروا الأميرة مع فرسها وعندما ألقى «بهزاد خان» فرسه فى البحر وبدأت تبتلعه الأمواج أعجبتهم شجاعته ورجولته، فأخذوه أيضاً، وأحضروهما، والآن هما عندى بصحة وعافية».

وبعد قوله عن هذه الأحداث دعاهما أمامهم ثم طلب الملك بنت سلطان الشام وبحث عنها كثيراً وسأل الجميع بشدة عنها، لكنه لم يجد لها أى خبر، ثم قال الملك «شهبال» هل غاب أى أمير أو ملك أم حضروا جميعا؟ قال الجنى: «يا ملاذ العالم!! حضروا جميعاً ما عدا «مسلسل جادو» الذى أسس قلعة فى جبل «قاف» بسحره ولم يحضر مستكبرا، ولا نستطيع أن نحضره بالقوة لأنه قوى وشجاع وشيطان كبير».

وعندما سمع الملك غضب وعين قوات الجن والعفاريت وأبناء الحور وقال لهم: قولوا «المسلسل جادو أن يحضر مع الأميرة فإن قبل فيها وإلا قدمروا كل ما يملكه وأحضروه مكبلاً واحرثوا أرضه وأملاكه وفى لحظة واحدة ذهبت القوات وأحضروه بسرعة فسأله الملك «شهبال» مهددا ومتوعدا، ولكن ذلك المغرور أبى وتكبر فغضب الملك وقال: اقطعوا كل عضو لهذا المرتد وانزعوا جلده واحشوه بالتبن، وأمر بنى الحور بأن يذهبوا إلى جبل قاف ويبحثوا عن الأميرة فذهبوا وأحضروها، فشكر الدراويش الأربعة والأسرى الملك «شهبال» نظرا لعدله وإنصافه ودعوا له وفرحوا وفرح الملك «آزاد بخت» أيضا ثم أمر الملك «شهبال» الخدم بأن يدخلوا الرجال فى ديوان خاص وأن يدخلوا النساء إلى قصره وأمر بأن يعدوا العدة للزواج بسرعة، وبمجرد أن أمر كأنهم كانوا فى انتظار أمره.

وذات يوم فى ساعة طيبة ومباركة عقد الملك قران الأمير «بختيار» على ابنته الأميرة «روشن اختر» وزوج سيد اليمن من أميرة دمشق، وابن ملك فارس من أميرة البصرة، وابن ملك العجم على ملكة الإفرنج، وبنت ملك «نيم روز» من «بهزاد خان»، وزوج أمير «نيم روز» من أميرة الجن، وأمير الصين من بنت ذلك الأعجمى العجوز التى كانت فى قبضة

الملك صادق وبلغ الجميع مقصودهم بسبب الملك «شهبال» ودام الاحتفال أربعين يوماً وقضوا الأيام والليالى فى الفرح والسرور.

وأخيراً ودع الملك «شهبال» كل أمير مع التحف والهدايا والأموال إلى أوطانهم فعادوا جميعا بالفرح والسرور ووصلوا أوطانهم بخير وعافية، وبدأوا يحكمون لكن «بهزاد خان» وسيد اليمن فضلا أن يبقيا مع الملك «آزاد بخت» وأخيراً جعل الملك «آزاد بخت» ابن سيد اليمن أمير «خانسمان» وجعل «بهزاد خان» قائدا للجيوش ، وأخذ الجميع يقضون حياتهم فى رغد وسعادة.

يا الله كما نال الدراويش الأربعة والملك «آزاد بخت» هدفهم، بلغ كل من لا يجد بغيته بفضلك ما يصبوا إليه، بحق محمد ﷺ وفاطمة وعلى كرم الله وجهه والإمام الحسن والإمام الحسين وبحق الإثنى عشر إماما والأربعة عشر معصوماً عليهم الصلاة والسلام.

خاتمة الكتاب

وحينما اختتم هذا الكتاب بفضل الله عز وجل أردت أن أسميه باسم يبدو منه التاريخ الذى أنجز فيه وعندما حسبت فإنى بدأت بكتابته هذا فى نهاية ١٢١٥ هـ، وبسبب ضيق الوقت انتهيت منه فى سنة ١٢١٧ هـ وحينما كنت أفكر
«باغ وبهار» لأن هذا اسم جيد ويبدو منه التاريخ فسميته
حديقة بل إن الحديقة قد تعانى من الخريف، لكن هذا الكتا
يانعاً.

عندما تم ترتيب «باغ وبهار»

كان العام هو ألف ومائتين وسبعة عشر

تنزهوا فيه ليلاً ونهاراً

لأن اسمه وتاريخه[1] «باغ وبهار»

لا يلحق به أثر لخريف

فإنه يكونُ ربيعاً متجددا فى دوام

لقد ارتوى من دماء قلبى

وجميع أوراقه فلذات كبدى

---

(١) اسم الكتاب بحساب الجمل يساوى (ب= ٢، أ=١، غ= ١٠٠٠، و= ٦، ب= ٢، هـ=٥، ١=١، ر= ٢٠٠)= ١٢١٧.

سينساني الناس بعد الموت

لكن هذا الكلام يبقى كذكرى

فعلى الذى يقرأه أن يتذكرنى

هذا هو مطلبى من القراء

لو وجدوا فيه أى خطأ فعفوا

لأنه تحت الأزهار تختفى الأشواك

إن الإنسان مركب من السهو والخطأ

فإنه يخطئ فى كل لحظة، فانتبهوا

ولا أريد شيئا غير هذا

هذا هو دعائى يا إلهى

أن أبقى فى ذكرك يا إلهى كل لحظة

وهكذا أقضى الليل والنهار

وألا يكون لى الحساب بشدة

ولا أسأل عن الأيام والليالى

يا ربى أبقنى فى العالمين بلطفك

يا إلهى بحق الرسول العظيم

هوامش الفصل

(١) يجرى هذا الشعر مجرى المثل على لسان أهل الهند والغرض منه أن يعتبر الإنسان ويدرك المهالك قبل أن يقع فيها، و (ديا كبيرا) اسم من الأسماء الهندية القديمة.

(٢) «قهردرويش برجان درويش» مثل فى اللغة الأردية.

(٣) كناية عن طول الأمد فيروى أن أحد ملوك الهند عندما أشرف المحتلون على احتلال بلاده كان غارقاً فى ملذاته، وقالوا له الأعداء قادمون فقال إن دهلى بعيدة جداً.

(٤) التمبول: نبات عطرى له رائحة طيبة ويكسب الفم لونا أحمر، وهو مكون من القرنفل والحبهان ومزيج من الأعشاب الهندية.

(٥) لقب خاص للخادم .

(٦) هذه الجملة الاعتراضية إما روتها الوصيفة أو أن الملكة تخاطب نفسها.

(٧) برهمن: إحدى قبائل الهندوس المعروفة بتعصبها للهندوسية.

(٨) فنون الخط السبعة هى: النستعليق. النسخ. الريحان. شكست. خط كلزار. كوفى. خط غبار.

(٩) نوع من الرماد يستخدمه النساك الهندوس بعد الغسل (أنظر: آداب سلطنت ورسوم معاشرت ص٦٣)

(١٠) نوع من الرماد يشبه لونه لون خشب الصندل يضعه الهندوس على جبينه (نفس المرجع ص ٧٤) .

(١١) المقصود بزكاة الخمس : خمس مال الغنائم ويوقف للإنفاق على الفقراء وأبناء السبيل ومن انقطع من أهله . (فيروز اللغات مادة خمس) .

(١٢) أى لم يحدث شيء وفضح أمره دون ثمن ولا مقابل.

(١٣) آذر: هو صانع تماثيل الآلهة فى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(١٤) فرهاد : ويسمى حافر الجبل، وهو صاحب شيرين، وفى القصص أن الملك خسرو برويز أمره بحفر طريق فى جبل بيتسون وضرب له موعداً قريباً لإنجاز مهمته، فأنجز فرهاد حفر الطريق إلا أنه لم يحقق الأمل . وقد نظم القصة نظامى الكنجوى، وتلاتلوه شعراء الفارسية والتركية والأردية. وضمنوا القصة مضامين صوفية. (انظر حسين مجيب المصرى: المعجم الفارسى العربى الجامع، مكتبة الأنجلو ١٩٤٨)م.

(١٥) كناية على تفرق القرات بعد مقتل قائدها .



مطابع
الهيئة المصرية العامه للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥١٥٥ / ٩٩

I. S. B. N 977 - 01 --- 6504 - 2



هذا كتاب من تأليف (ميرآمّن الدهلوى) أشهر أدباء الأردية عبر عصورها المختلفة ، وفيه يحكى قصة ملك وأربعة دراويش لكل درويش حكاية تحكى على غرار حكايات ألف ليلة وليلة؛ حيث يتحدث كل درويش عما لحق به من صروف الأيام ومحن الزمان، مما دفع بهم جميعاً إلى سلوك طريق التصوف بعد أن تخلوا عن مباهج الدنيا وعروشها، ولبسوا أسمال الطريقة وخرقها، وصيغت الحكاية فى أسلوب شيق جذاب وتحمل عبق الشرق. وقيمه وتراثه وفكره. ولقد تأثر الأدب الأردى بالأدبين الفارسى والعربى ومثلت الآداب الثلاثة واجهة للفكر الإسلامى ومنظومة فكرية كبرى ساهمت فى نقل الأدب والفكر الإسلامى إلى أدب اللغات الأخرى.

١٠٢٥ قـــــرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب